دار الكتب والوثائق القومية
مركز تحقيق التراث

كتاب الروضتين

في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تأليف

شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي
المعروف بأبي شامة

تحقيق
الدكتور محمد حلمي محمد أحمد

مراجعة
الدكتور محمد مصطفى زيادة

الجزء الأول — القسم الثاني

الطبعة الثانية



مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٩٨

كتاب الروضتين

في أخبار الدولتين

لأبي شامة

الطبعة الأولى

بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٦م

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب

١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

فاتحة كل خير

وتمام كل نعمة

فاتحة

يبدأ هـذا القسم حيث انتهى القسم الأول ، أى بحـوادث سنة ٥٤٩ هـ ، وينتهى بحوادث سنة ٥٧٣ هـ ، وهى السنـة التى اختتم بهـا أبو شامة الجزء الأول من كتاب الروضتين :

والمرحلة التى يتحـدث عنها أبو شامة فى هذه السنوات مرحلة حاسمة فى تطور حركة اليقظة الشعبية فى الشام ومصر ، تلك الحركة التى أعقبت مجىء القوات الصليبية إلى هـذا الجزء من العالم الإسلامى ، وإقامتهـا فى القلب منه فى شكل حكومات مستقرة ، فى غفلة من خلافة العباسيين ببغداد ، وحكومة الفاطميين بالقاهرة .

وقد تبين من حوادث القسم الأول أن الشعب هو الذى اصطلى بلظى هذا الحـكم الوافد الدخيل ، وأن الأمراء المسلمين المحليين أسهموا ، عندئذ ، بتنازعهم وتنافسهم ، فى تأكيد استقرار هؤلاء المتحكمين .

ووضح كذلك من حوادث القسم الأول أن الرأى العام كان يتطلع إلى قيادة حكيمة تتجه بالوسائل الشعبية والحـكومية إلى تجميع القوى فى عمل متـكامل وجهـد مخلص لاستعادة السيطرة على الأجزاء السليبة من الوطن العربى الأسير .

ومن ثمّ التف الشعب حول بعض القادة ؛ وكان من أبرز هؤلاء عماد الدين زنـكى الذى استطاع أن يخلّص إمارة الرّها من أيدى الصليبيين ، والذى استطاع ، بتأثير الدفع الشعبى الواعى ، أن يوحّد جزءا كبيرا من أرض الجزيرة العراقية والشام ، فى ظل حكومة واحدة ، يتولى زعامتها ، وتدين بالولاء ، الاسمىّ ، لخلافة العباسيّين .

ولقد كان عماد الدين زنكى يضع نصب عينيه ، أوّلاً وقبل كل شيء ، أن تكون الكلمة العليا له ؛ وفى سبيل هذا كان يعقد الاتفاقات التعاونية مع بعض الأمراء المحليين ، ثم لا يلبث أن يغفلها فى سبيل تحقيق هذا الهدف . ولم يكن الرأى العام عندئذ بغافل عن هذا الوضع ، ولكنه كان يرى أن قيادة زنكى قادرة ، رغم هذا ، على السير بنجاح فى سبيل تجميع القوى المتيقظة فى عمل متصل ينتهى إلى تخليص البلاد وتوحيدها .

ثم جاء نور الدين محمود ، المجاهد المخلص ، وافتتح عهده ، من مدينة حلب ، بضربة سريعة قوية استعادت الرّها من الصليبيين الذين كانوا قد اغتالوها مرة أخرى عقب وفاة زنكى ؛ وفى نفس الوقت أعرض نور الدين عن استرداد مدينة بعلبك من أيدى حكام دمشق ، الذين اهتبلوا وفاة زنكى فرصةً ليقتطعوا لأنفسهم بُضعة من تركته الضخمة يضيفونها إلى ممتلكاتهم الخاصة . وكان نور الدين قادرا على معاملة الدّمشقيين بمثل ماعامل به الصليبيين .

فكانت هذه القوة فى مواجهة مغتصبى الرها ، وكان هذا التسامح فى مواجهة مختطفى بعلبك ، من العوامل التى برهنت للرأى العام على رغبة نور الدين المجاهد عن تحقيق مطمع شخصىّ ، وعلى إيثاره التفاهم مع دمشق حتى يتمكن من مواجهة العدو الحقيقى له ولدمشق ، فى جهد متكامل و بقوة متحدة .

وكانت نتيجة هذه السياسة القوية المتسامحة أن فتحت دمشق أبوابها مرحبة بدخول نور الدين إليها ، مُخلِّصا ، سنة ٥٤٩ هـ . فاكتمل بذلك عمله ، وآتى الجهاد الشعبى أُكُله .

* * *

صوّر القسم الأول من كتاب الروضتين هذه التطورات جميعها ، وتتبّع بعد ذلك خطوات نور الدين محمود فى طريق الحفاظ على ثمرات الجهاد الشعبى الطويل ، حتى كانت سنة ٥٥٩ هـ ، وهى السنة التى يبدأ بها القسم الثانى الذى نقدمه اليوم ، فكانت

هذه السنة بداية مرحلة جديدة فى تطور اليقظة الشعبية ، بل كانت بداية الجهود التى بلغت بهذه الحركة ذروتها بتجميع قوى مصر والشام فى جبهة متحدة متساندة لتحقيق هدف واحد ، و بتأييد شعب واحد ، وفى مواجهة عدوّ واحد .

بدأت هذه المحاولات فى سنة ٥٥٩ هـ ، وتحققت ، فى سنة ٥٦٤ هـ ، بوزارة صلاح الدين ، قائد جيش نور الدين ، فى مصر ، ثم تأكد هذا التطور بسقوط خلافة الفاطميين سنة ٥٦٧ .

وكانت وفاة نور الدين بعد ذلك بنحو سنتين خطرا هدد هذه الوحدة ، إذ خلفه طفل صغير ، تنازعته مطامع بعض القادة والأوصياء ، تلك المطامع التى هددت الجبهة المتحدة فى كيانها وأوشكت أن تعزل الشام عن مصر ، وأن تعود بالجزيرة العراقية و بالشام إلى مثل ما كانت عليه ، قبيل عهد زنكى ، من فوضى مزقت كيانها ؛ لولا ... لولا أن صلاح الدين صاحب مصر ، لم يكن ليسمح لسحب الفُرقة والمطامع الشخصية بالعودة إلى التجمع فى سماء هذه الأرض المجاهدة

فبدأت من مصر ، عقب وفاة نور الدين ، جهود صلاح الدين للحفاظ على وحدة الصف ، واعتمدت هذه الجهود على تأييد الشعب فى مصر وفى الشام ، ولقيت ترحيبا من كثير من رجالات الشام الموجودين فى مجال الخطر .

وكان ترحيب دمشق بصلاح الدين ، فى أوائل سنة ٥٧٠ هـ ، شبيها بترحيبها من قبله بنور الدين سنة ٥٤٩ هـ .

ومن ثم واصل صلاح الدين جهوده ، وتابع الشعب من ورائه جهاده . وسجل أبوشامة تلك الجهود ، وصوّر هذا الجهاد ، خطوة خطوة ، حتى وصل بهما فى هذا القسم إلى نهاية حوادث سنة ٥٧٣ هـ حيث أنهى الجزء الأول من كتابه ، ليستأنفه بعد ذلك مع بدء سنة ٥٧٤ هـ ، فى الجزء الثانى منه .

***

ونلاحظ فى هـذا القسم أن اعتماد أبى شامة على الوثائق التى يقتبسها لتأييد الوقائـع التى يتحدث عنها يتزايد بالتدريج ، حتى يصلُ عددها إلى نهاية الجزء الأول ، بقسميه ، أربعينَ وثيقة ، تتحدث عشر منها عن أمور حدثت فى عصر نور الدين ، على حين يتعلق باقيها بجهود صلاح الدين .

وسِرّ ذلك أن شخصية صلاح الدين بدأت تلعب دورها الرئيسى فى تطور الحوادث منذ تولى وزارة مصر ، سنة ٥٦٤ هـ ، وأنه أصبح يعتمد على شخصية سياسية خطيرة حملت عنه عبء المـكاتبات الرسمية ، وحرصت على تسجيل الحوادث ، فى مناسباتها ، فى هـذه المـكاتبات فى شكل رسائل إلى الديوان العزيز ببغداد ، أو إلى أعوان صلاح الدين وأمرائه فى أنحاء البلاد . تلـكم هى شخصية القاضى الفاضل وزير صلاح الدين . ولم يلبث القاضى الفاضل بدوره أن استعان برجل لا يقل خطرا فى جهده السياسى والحـكومى إلى جانب صلاح الدين ، وهو العماد الأصفهانى كاتب الديوان للسلطان .

ومن حسن الحظ أن هاتين الشخصيتين تمتعتا بسلطات غير محدودة فى حـكومة صلاح الدين ، وتميزتا ، فى نفس الوقت ، بحاسة علمية تاريخيـة دفعتهما إلى التأليف فى التاريخ ، وإلى تضمين مؤلفاتهما كثيرا من الوثائق الحـكومية التى اشتركا فى توجيهها بحكم طبيعة عملهما إلى جانب صلاح الدين [1] .

***

وقد تحدثنا فى تقديم القسم الأول عن المصادر التى اعتمد عليها أبو شامة فى كتابه وعن طريقة استخدامه إياها [2] . ونود أن نذكر هنا أن من المصادر التى تظهر فى هذا القسم بشكل يمـكن تتبعه بوضوح كتاب البرق الشامى للعماد الـكاتب . ومن المعلوم أن هـذا الـكتاب يقع فى سبع مجلدات فقدت جميعها باستثناء المجلدتين الثالثة والخامسة . وتبدأ المجلدة

(١) ارجع الى ما كتب عن الوثائق واستخدام أبى شامة لها فى مقدمة القسم الأول : ٤٠ ـ ٤٣ .
(٢) انظر مقدمة القسم الأول : ١٩ ـ ٤٠ .

الثالثة التى تستخدم فى هذا القسم[1] بحوادث سنة ٥٧٣ ، وهى السنة التى ينتهى بها الجزء الأول من كتاب الروضتين ، وتنتهى فى أثناء حوادث سنة ٥٧٥ . والعماد ـ رغم أسلوبه الذى يتميز باستخدام المحسنات البديعية فى مبالغة مرهقة ـ مؤرخ دقيق صادق ، يتحدث عن مشاهداته ، ويسجل ما يثق فيه من مسموعاته ، ويدعم حديثه بالوثائق التى كتبها بنفسه أو نقلها عن القاضى الفاضل زميله فى حكومة صلاح الدين .

وقد برع أبو شامة فى استخلاص الحقائق التاريخية التى يريدها من هذا الأسلوب المنمق المزوق ، وفى عرضها فى أقل عدد من الكلمات ، حتى إنه ليقتبس الصفحات المتتابعة فى سطرين ، أو فيما يزيد على ذلك بقليل .

* * *

وأودّ أن أذكر هنا أن الاعتماد فى إخراج هذا القسم أيضا كان على مخطوطة كوبنهاجن ، التى نسخت سنة ٦٧٦ هـ ، والتى اعتبرت أصلا للنشر ؛ كما أن مخطوطة القاهرة ، وتاريخ نسخها سنة ٧٣٤ هـ ، قامت بدور النسخة المساعدة الأولى . أما مخطوطة ليدن التى تسبق مخطوطة القاهرة بسنة واحدة ، وإن كان ناسخهما واحدا ، فقد قامت بدور النسخة المساعدة الثانية ؛ وسرّ ذلك أننى لم أستطع الحصول على هذه النسخة فى الوقت المناسب عند إخراج القسم الأول بسبب عقبات لا يَدَ لى فيها . ومن ثم احتفظت لنسخة القاهرة بمكانتها ، واستعنت بنسخة ليدن بعد أن أمكننى الحصول عليها . وعلى أىّ فالمخطوطتان أختان ، نقلتا عن أصل واحد ، بقلم ناسخ واحد ، وقد نسخهما فى سنتين متتاليتين ، ولم يغفل فى أى منهما ما نقله فى الأخرى .

على أن مخطوطة كوبنهاجن مصابة بخرم بسيط يستغرق ورقتين ، هما الورقتان ٢١٢ ، ٢١٣ ، وقد استبدل بهما فى الأصل ورقتان كتبتا بخط حديث لتكملة النقص . وقد استعنّا

---

(١) ابتداء من ص ٦٩٥ إلى آخر الكتاب .

على تلافى هذا العيب بمخطوطة ليدن واعتبرناها أصلا للنشر فى هاتين الورقتين فقط ثم عدنا إلى مخطوطة كوبنهاجن لنعتبرها أصلا ابتداء من الورقة ٢١٤ [1] .

* * *

وطبقا لما وعدت به فى تقديم القسم الأول فقد أعددت مصورين لبلاد الشام، ألحقتهما بهذا القسم ، و بينت عليهما معظم المواقع التى تردد ذكرها فى تقرير الحوادث وتطوراتها ، لتساعد على تتبع هذه الحوادث وتفهّم هذه التطورات . وأود أن أشير إلى أن فائدة هاتين الخريطتين ستتعدى هذا الجزء إلى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

* * *

و بعد ؛ فلا يفوتنى أن أقدر للمجلس الأعلى للآداب والفنون ولوزارة الثقافة والإرشاد القومى فضلهما بتقريرهما إخراج هذا الكتاب على نفقة الوزارة . كما أود أن أخص رجال المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر بجميل الشكر لما لقيته منهم من معاونة على إخراج الكتاب بصورته التى يخرج بها اليوم .

وأخيرا أودّ أن أكرر هنا ما قلته فى نهاية تقديمى للقسم الأول من الكتاب من أننى « أرجو أن أكون قد وفقت فى الجهد الذى بذلته لنشر هذا الكتاب فى صورته هذه التى أقدمها اليوم . وسيكون ترحيبى عظيما بما يوجه إليه من نقد يهدف إلى البناء والإصلاح ، و يساعد فى إخراج بقية الكتاب فى صورة قريبة من الكمال بعون الله » .

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

القاهرة : صفر سنة ١٣٨٢
يوليو سنة ١٩٦٢

محمد حلمى محمد أحمد

(١) انظر صفحات : ٦٩٢ ـ ٦٩٩ من هذا القسم .

مراجع التحقيق

تضاف هذه المراجع إلى قائمة المراجع التى استخدمت
في تحقيق القسم الأول

---

١ ـ أحمد بن على المقريزى : (١) المواعظ والاعتبار فى الخطط والآثار ـ القاهرة ١٢٧٠ هـ.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ـ انظر: محمد مصطفى زيادة.

٢ ـ جمال الدين الشيال : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل. نشر وتحقيق :

الجزء الأول : القاهرة ١٩٥٣.

الجز الثانى : القاهرة ١٩٥٧ .

٣ ـ زكى محمد حسن : (بالتعاون مع حسن أحمد محمود) : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامى ، للمستشرق زامباور ؛ ترجمة فى جزءين؛ القاهرة ١٩٥١ـ١٩٥٢.

٤ ـ عبد الحى بن أحمد : (ابن العماد ، أبو الفلاح) : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ؛ القاهرة ، ١٩٣١ .

٥ ـ عبد الرحمن بن أبى بكر : (جلال الدين السيوطى) : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ؛ جزءان ؛ القاهرة ١٣٢٧ هـ.

٦ ـ عبدالرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم : (شهاب الدين أبو شامة المقدسى) : عيون الروضتين؛ مخطوط ؛ المتحف البريطانى بلندن : Or. 1537

٧ ـ عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر : دمشق.

٨ ـ عبد القادر بن محمد النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس : الجزء الثانى ؛ دمشق

٩ ـ على بن هبة الله بن عساكر : انظر عبد القادر بدران .

١٠ ـ على مبارك : الخطط التوفيقيـــة الجديدة ؛ عشرون جزءا ؛ القاهرة : ١٣٠٤ـ١٣٠٦ هـ .

١١ ـ محمد بن سالم : (جمال الدين،ابن واصل) : انظر:جمال الدين الشيال

١٢ ـ محمد بن محمد الأصفهانى : (عماد الدين الـكاتب):البرق الشامى:الجزء الثالث: مخطوط؛مكتبة بودليان بأكسفورد : Bruce, 11

١٣ ـ محمد حلمى محمد أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى : القاهرة،١٩٥٩

١٤ ـ محمد ضياء الدين الريس : الخراج فى الدولة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

١٥ ـ محمد بن على : (ابن طباطبا ـ ابن الطقطقى):الفخرى فى الآداب السلطانية والدل الإسلامية ؛ القاهرة ، ١٣١٩.

١٦ ـ محمد كرد على : خطط الشام : ٦ أجزاء ، دمشق ١٩٢٥ـ١٩٢٨ .

١٧ ـ محمد مصطفى زيادة : السلوك لمعرفة دول الملوك : لتقى الدين المقريزى ، نشر وتحقيق : القسم الثالث من الجزء الثـانى ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

١٨ ـ يوسف بن تغرى بردى : (جمال الدين أبو المحاسن) : النجوم الزاهرة : الجزء السادس ، القاهرة ، ١٩٣٦.

١٩ ـ Lane—Poole, S., Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, London, 1898.

٢٠ ـ Runciman A History of the Crusades, Cambridge University Press, 1951—1954.

كتاب الروضتين

فى أخبار الدولتين

لأبى شامة

الجزء الأول — القسم الثانى

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة (١)

ففيها سار أسد الدين شيركوه بن شاذى إلى مصر المرة الأولى، وهو من أكابر الأمراء الذين فى الخدمة النورية، عازماً على ملك الديار المصرية واستضافتها إلى المملكة النورية.

وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب، وهو الأكبر، ابنا شاذى، من بلد دَوِين (٢) وهى بلدة من آخر بلاد أَذْرَبِيجَان (٣) مما يلى [بلاد] الروم؛ وأصلهما من الأكراد الرواذية، وهذا القبيل من (٤) أشرف الأكراد، وقدما العراق، وخدما مجاهد الدين بهروز الخادم، وهو شِحنة العراق (٥)؛ فرأى من نجم الدين عقلاً ورأياً وحسن سيرة فجعله دزداراً (٦) بتَكْرِيت (٧)، وهى له، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين.

فلما انهزم أتابك زنكى الشهيد، والد نور الدين، بالعراق من قراجه الساق، وهو أتابك داود بن السلطان محمود، وذلك من المسترشد بالله (٨)، سنة ست وعشرين وخمسمائة، وصل إلى تكريت. فخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن، فعبر دجلة (هناك) (٩)

---

(١) يتقابل النص هنا مع حوالى منتصف ص ١٠٠ ب من النسخة الأم، المرموز لها بالحرف ك والاقتباس هنا حرفى من الأتابكة: ٢١٣ — ٢١٦.

(٢) فى آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس. معجم البلدان: ٤ : ١١٢.

(٣) الضبط عن ياقوت، وقد ضبطها بغير ذلك أيضاً. معجم البلدان: ١ : ١٥٩ — ١٦١.

(٤) فى ل ٩٩ ب: هو أشرف الأكراد.

(٥) يوجد فى الأصل بالهامش، وكذلك فى نسخة ق، ونسخة ل العبارة الآتية: « حاشية: قال المؤلف، فى تاريخ ابن الدبيثى بهروز بن عبد الله أبو الحسن الخادم الأبيض الملقب مجاهد الدين مولى السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقى. ولى الإمارة بالعراق نيفا وثلاثين سنة، وبنى رباطا للصوفية على دجلة عند سوق المدرسة النظامية، ورباطا آخر للخدم أعلى البلد، وعمر النهروان وأجرى فيه الماء بعد أن كان قد خرب سنين. وكان حسن السيرة، توفى ببغداد فى رجب سنة أربعين وخمسمائة، ودفن برباط الخدم الذى أنشأه بعد أن صلى عليه بجامع السلطان بظاهر البلد. والله أعلم ». اهـ.

(٦) انظر ما سبق: ١١١ حاشية: ٦.

(٧) بفتح التاء، والعامة يكسرونها. بين بغداد والموصل، وهى إلى بغداد أقرب، وبينهما ثلاثون فرسخا. معجم البلدان: ٢ : ٣٩٩ — ٤٠١.

(٨) الخليفة العباسى، ٥١٢ — ٥٢٩ هـ.

(٩) ساقطة من ل ٩٩ ب؛ وكذلك من ق ١٩٨.

وتبعه أصحابه ، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيّرهم .

ثم إن أسد الدين قتل إنساناً نصرانياً بتكريت لملاحاة جرت بينهما ؛ فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين ، فأخرجهما من تكريت . وقيل إن أيوب كان يحسن الرماية فرمى شخصاً من مماليك بهروز بسهم فقتله ، فخشى على نفسه ، فتوجه نحو الشام وخدم مع زنكى . وقيل لما قتل أسد الدين شيركوه النصرانى ، وكان عزيزاً عند بهروز ، هرب إلى الموصل ، والتحق أيوب به . وسنوضح هذه القضية إن شاء الله تعالى عند ذكر وفاة أيوب فى أخبار سنة ثمان وستين .

ثم إن أيوب وشيركوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن إليهما ، وعرف لهما خدمتهما ، وأقطعهما إقطاعاً حسناً ، وصارا من جملة جنده . فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزداراً فيه . فلما قُتل الشهيد [عند قلعة جعبر][1] حصر عسكر دمشق نجم الدين ، فأرسل إلى سيف الدين غازى ، وقد قام بالملك بعد والده [فى الموصل][1] ، يُنْهى الحال إليه ، فلم يتفرغ لبعلبك وضاق (١٠١ ـ ا) الأمر على من بها ، وخاف نجم الدين أن تؤخذ عنوة وينالَه أذى ؛ فأرسل فى تسليم القلعة وطلب إقطاعاً ذكره ، فأجيب إلى ذلك . وحلف له صاحب دمشق عليه ، وسلم القلعة ، ووفى له بما حلف عليه من الإقطاع والتقدم ، وصار عنده من أكابر الأمراء .

واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية ، بعد قتل الشهيد ، وكان يخدمه فى أيام والده ، فقربه نور الدين وأقطعه ، ورأى منه فى حروبه ومشاهده آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته ، فزاده إقطاعاً وقرباً حتى صارت له حمص والرحبة[2] وغيرها ؛ وجعله مقدم عسكره .

فلما تعلقت الهمة النورية بملك دمشق أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين ،

---

(١) أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح . وكان مقتله سنة ٥٤١ . انظر ما تقدم ص ١٠٧ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٢) هى رحبة مالك بن طوق بين دمشق وحلب، وهى أقرب إلى حلب منها إلى دمشق . معجم البلدان : ٤ : ٢٣٦ ـ ٢٣٨ .

وهو بها ، فى ذلك ، فطلب منه المساعدة على فتحها ، فأجاب إلى ما يراد منه ؛ وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيراً من الإقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها ، فبذل لهما ما طلبا منه ، وحلف لهما عليه ، فوفى لهما لما ملكها ، وصارا عنده فى أعلى المنازل ، لاسيما نجم الدّين ، فإن جميع الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك ، إلاّ نجم الدين ، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك .

فلما كان سنة تسع وخمسين عزم نور الدّين على إرسال العساكر إلى مصر ، ولم ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين ، فسيّره .

وكان سبب ذلك أن شاور بن مجير أبا شجاع السعدى ، وهو الملقب أمير الجيوش الذى يقول فيه عُمارة من قصيدة[1] :

ضجر الحديد من الحديد ، وشاور في نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يازمان فكفّر

وهو وزير الملقب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين بمصر[2] ، كان قد وصل إلى دمشق فى سنة ثمان وخمسين ، سادس ربيع الأول ، إلى نور الدين مستنجداً به على من أخذ منه منصبه قهراً . وكانت عادة المصريين[3] أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه ، وعرفوا عجزه ، وقّعوا للقاهر منهم ورتّبوه ومكّنوه ، فإن قوتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم ، وهو الملقب عندهم بالسلطان ، وما كانوا يرون المكاشفة ، وأغراضهم مستتبة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال .

وكان شاور قد غلب على الوزارة وانتزعها من بنى رزّيك وقتل العادل بن الصالح ابن رزيك الذى وزر بعد أبيه ، [واسمه[4]] رزّيك ، ويلقب بالناصر أيضاً ، وهو الذى

---

(١) انظر النكت العصرية : ٧٢ ـ ٧٣ .
(٢) استخدم أبو شامة هذا اللفظ لأنه لا يعترف بخلافة الفاطميين ، كما سيتضح فيما بعد . وكانت خلافة العاضد بين سنتى ٥٥٥ ، ٥٦٧ هـ .
(٣) يقصد المؤلف بذلك اللفظ الخلفاء الفاطميين .
(٤) ساقطة من ك ، وهى من ل ١٠٠ ب ؛ وهى كذلك فى ق ٩٨ ب .

استحضر القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على [البيسانى][1] من الاسكندرية واستخدمه بحضرته و بين يديه فى ديوان الجيش ، على ما ذكره عمارة اليمنى ، فى كتاب الوزراء المصرية[2] . وقال : غرس منه للدولة ، بل للملة ، شجرة مباركة متزايدة النماء ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء . ثم خرج على شاور نائب الباب ، وهو أمير يقال له ضرغام بن سوار و يلقب (١٠١ ــ ب) بالمنصور ، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قِبل ، فغلبه وأخرجه من القاهرة وولدَه طيًّا ، واستولى على الوزارة . فرحل شاوَر إلى الشام قاصداً خدمة نور الدين مستصرخاً به ومستنصراً ، فأحسن [نور الدين][3] لقاءه وأكرم مثواه ، فطلب منه [شاور][3] إرسال العساكر إلى مصر ليعود إليها ، ويكون له فيها حصة ، ذكرها له ، و يتصرف على أمره ونهيه ، واختياره . ونور الدين يقدم فى ذلك رجلا و يؤخر أخرى ، تارة تحمله رعاية قصد شاور وطلب الزيادة فى الملك والتقوِّى على الفرنج ، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه ، إلا أن يوغلوا فى البر فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج أيضاً .

ثم استخار الله تعالى وأمر أسد الدين بالتجهز للمسير معه قضاء لحق الوافد المستصرخ ، وجسًّا للبلاد ، وتطلعاً على أحوالها . وكان هوى أسد الدين فى ذلك ؛ وكان عنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالى معه بمخافة . فتجهز وسار مع شاور ، فى جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين . هكذا ذكر ابن الأثير[4] والعماد الكاتب . وقال القاضى ابن شدّاد[5] : كان ذلك سنة ثمان وخمسين ؛ والقول فى ذلك قولهما ، فقد بينا أن قدوم شاور إلى الشام كان فى سنة ثمان وخمسين ، و إرسالَ نور الدين العسكر كان فى جمادى سنة تسع وخمسين .

وأمر نورُ الدين أسدَ الدين بإعادة شاور إلى منصبه والانتقام ممن نازعه فى الوزارة .

---

(١) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح ، وهو وزير صلاح الدين فيما بعد ، وكان عندئذ بالاسكندرية كاتبا لقاضيها وناظرها المعروف بابن حديد : أنظر وفيات الأعيان : ٢ : ٥٣٩ ــ ٥٤٠ .

(٢) انظر عمارة اليمنى : النكت العصرية : ص ٥٣ ــ ٥٤ .

(٣) اضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح .

(٤) راجع ابن الأثير : الأتابكة : ٢١٧ ــ ٢١٩ ، وكذلك الكامل : ١١ : ١١١ ــ ١١٣ .

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية : ٢٩ .

وساروا جميعاً ، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الإسلام مما يلى الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدّين . ووصل أسد الدّين سالماً إلى مصر هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور فى الوزارة ، وقتل ، وطيف برأسه ؛ وعاد شاور وزيراً وتمكن من منصبه[١] .

وكان عمارة قد مدح ضرغاماً بقصيدة منها :

وأحق من وزر الخلافة من نشا في حضرة الإكرام[٢] والإجلال

واختص بالخلفاء ، وانكشفت له أسرارها بقرائن الأحوال

وتصرف الوزراء عن أفعاله[٣] كتصرف الأسماء بالأفعال

قال عمارة[٤] : ولما جازوا برأسه على الخليج ، وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة ، قلت ارتجالا :

أرى حنَكَ الوزارة صار سيفاً يَحُدُّ بحدِّه صِيد الرقاب

كأنك رائد البلوى ، وإلا بشير بالمنية والمصاب

ولعمارة اليمنى من قصيدة مدح بها شاور وذكر وزارتيه[٥] :

فنُصرتَ فى الأولى بضرب[٦] زلزل الـ أقدام وهى شديدة الإقدام

ونُصرتَ فى الأخرى بضرب صادق أضحى يطير به غراب الهام[٧]

أدركت ثأراً ، وارتجعت وزارة نزعاً بسيفك من يدى ضرغام

وكان ضرغام أولا من أصحاب شاور وأتباعه . وقد أشار إلى ذلك عمارة فى قوله من قصيدة له[٨] :

كانت وزارتُك القديمة مشرعاً صفواً ، ولكنْ كُدرت غدرانها

غصبتْ رجالٌ تاجَه وسريره من بعد ما سجدت له تيجانُها

---

(١) هذه الفقرة كلها تلخيص لحوادث سيعود أبو شامة إلى تفصيلها فيما يلى .
(٢) فى النكت العصرية : الإعظام .
(٣) فى النكت العصرية : آرائه .
(٤) النكت العصرية : ٧٧ . (٥) نفس المصدر : ٨٨ – ٨٩ .
(٦) فى النكت العصرية : برعب . (٧) الرءوس .
(٨) النكت العصرية : ٨٤ ، اقتباسا من قصيدة وردت فى : ٨٣ – ٨٤ .

وله من قصيدة أخرى فى شاور[1] :

وزير تمنتــه الوزارة أولا   وثانية ، عفواً بغـير طلاب
فخانته فى الأولى بطانة وده   ورب حبيب فى قميص حُباب[2]
وجاءته تبغى الصلح ثانىَ مرة   فلم يرض إلا بعد ضرب رقاب

ولم يُغلب وزير لهم وعاد غير شاور . وكان مدة أخذ الوزارة منه إلى أن عادت إليه تسعة أشهر سواء ، وهى مدة الحمل نص عمارة على ذلك ، وقال[3] : قتل ولده طىّ يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان ، وجاز رأسه على رمح تحت الطيقان ، والنساء يولولن بالصراخ ، وكان فيهن واحدة تحفظ قولى فى الصالح[4] :

أَيُنْسَى وفى العينين صورة وجهه الـ   ـكريم ، وعهد الإنتقال قريب

فما زالت تكرره حتى رأت رأس ضرغام .

قال : وأدرك شاور ثأره فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة ، فيكون بينهما تسعة أشهر .

قال[5] : وقلت فى ذلك :

ونزعتَ ملكك من رجال نازعوا   فيه ، وكنت به أحقّ وأقعـدا
جذبوا رداءك غاصبين ، فلم تزل   حتى كسوتَ القوم أرديةَ الردى
وبردْت قلبك من حرارة حرمة   أمرتْ نسيم الليـل ألاّ يبردا
تاريخُ هـذا[6] قلتُه فى مثـله   يوماً بيوم ، عبرةً لمن اهتدى :
حملت به الأيام تسـعة أشهر   حتى جعان له جمادى مولدا

وله أيضاً فى ذلك[7] :

لله درُّك موتوراً أقضّ به   دستٌ ، وسرجٌ ، وأجفانٌ ، ومضطجَع

(١) نفس المصدر .
(٢) الحباب : الحية ، واسم شيطان . القاموس المحيط .
(٣) فى النكت العصرية : ١٢٩ .
(٤) هو الصالح طلائع بن رزيك .
(٥) فى النكت العصرية : ٨١ .
(٦) فى النكت العصرية : تاريخ دين .
(٧) النكت العصرية : ٨٥ .

ما غِبتَ إلا يسيراً ، ثم لحت لنا والثأر مستدرك ، والمُلك مرتجع
قضية لم ينل منهـا ابن ذى يزنٍ إلا كما نلت ، والآثار تُتّبـع
فافخر على الحيّ من قيسٍ ومن يمنٍ أبا شجاع ، فليس الحق يندفع

قال ابن الأثير[1] : وأقام أسد الدّين بظاهر القاهرة ، وغدر به شاور ، وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ، ولأسد الدين أيضاً . فأرسل إليه يأمره بالعودة إلى الشام ، فأنِف أسد الدين من هذا الحال ، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر ؛ فلم يجبه شاور إليه . فلما رأى ذلك أرسل نوابه فتسلموا مدينة (١٠٢ ـ ب) بلبيس ، وحكم على البلاد الشرقية ، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم و يخوفهم من نور الدين إن ملَك مصر . وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إنْ ملـكها نور الدين ، فهم خائفون . فلما أرسل شـاوَر إليهم يستنجدهم و يطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه ، وسارعوا إلى تلبية دعوته ، والمبادرة إلى نصرته ؛ وطمعوا فى ملك ديار مصر . وكان قد بذل لهم مالا على المسير إليه ، فتجهزوا وساروا .

فلما بلغ نور الدّين خبرُ تجهيزهم للمسير سار بعساكره فى أطراف بلاده مما يلى الإفرنج ليمتنعوا من المسير ، فلم يمتنعوا ، لعلمهم أن الخطر فى مُقامهم إذا ملَك أسد الدين مصر أشد من الخطر فى مسيرهم . فتركوا فى بلادهم من يحفظها ، وسار ملك القدس[2] فى الباقين إلى مصر . وكان قد وصل إلى الساحل جمع كبير من الفرنج فى البحر لزيارة البيت المقدّس ، فاستعان بهم ملك الفرنج ، فأعانوه ؛ وسار بعضهم معه ، وأقام بعض فى البلاد لحفظها .

فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدّين وقصد مدينة بلبيس ، وأقام بها هو وعسكره وجعلها ظهراً يتحصن به . فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية ، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس ، وحصروه بها ثلاثة أشهر ؛ وقد امتنع أسد الدين بها وسُورُها من طين ،

---

(١) فى الأتابكة : ٢١٦ ـ ٢١٩ ، وهو اقتباس حرفى .

(٢) اسم هذا الملك فى الانجليزية *Amalric I* ، ١١٦٢ ـ ١١٧٤ م (٥٥٧ ـ ٥٦٩ هـ) . وتسمية المراجع العربية أمورى أو عمورى ، وسيرد فى الأشعار فيما يلى باسم مرى . وقد تقدم شىء من التعريف به : ص ٢٩٣ حاشية : ١ .

قصير جداً ، وليس له خندق ولا فصيل يحميها ، وهو يُغاديهم القتال ويراوحهم ؛ فلم يبلغوا منه غرضاً ، ولا نالوا منه شيئاً . فبينما هم كذلك أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم[1] ، وملك نور الدين الحصن[2] ، ومَسيرهُ إلى بانياس[3] . فحينئذ سُقط فى أيديهم وأرادوا العود إلى البلاد ليحفظوها ، ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها ، فلم يدركوها إلا وقد ملكها ، على ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وراسلوا أسد الدين فى الصلح ، والعود إلى الشام ، ومفارقة مصر ، وتسليم ما بيده منها إلى المصريين ؛ فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج فى الساحل .

قال ابن الأثير[4] : فحدثنى من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس ، قال : رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه ، وبقى فى آخرهم وبيده لتّ[5] من حديد يحمى ساقتهم ، والمسلمون والفرنج ينظرون . قال : فأتاه فرنجى من الفرنج الغرباء فقال له : أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك ، فلا يبقى لك معهم بقية ! ! فقال شيركوه : ياليتهم فعلوا ! ! كنت ترى مالم تر مثله ، كنت والله أضع سيفى[6] ، فلا أُقتَل حتى أَقتُل رجالا ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفنى أبطالهم ، فيملك بلادهم ، ويفنى من بقى منهم . ووالله لو أطاعنى هؤلاء ، يعنى أصحابه ، (١٠٣ - ا) لخرجت إليكم أولَ يوم ، لكنهم امتنعوا . فصلّب الفرنجى على وجهه وقال : كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم فى صفتك وخوفهم منك ، والآن قد عذرناهم ؛ ثم رجع عنه . وسار شيركوه إلى الشام وعاد سالماً .

وقال العماد الكاتب : وصل شاوَر إلى نور الدين ملتجئاً ، فألفاه على عدوه مقدماً مشكياً ، وسيّر معه أسد الدين على قرار عيّنه ، وأمر بيّنه ، وبُغية يدركها ، وخطة يملكها ،

---

(١) حصن تجاه أنطاكية . معجم البلدان : ٣ : ١٩٩ .

(٢) هو حصن الأكراد على الجبل الذى يقابل حمص ، وهو جبل الجليل ، من قبل الغرب . معجم البلدان : ٣ : ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٣) حصن فى الجنوب الغربى لدمشق : السلوك : ١ : ٦٧ . وكانت بيد الفرنج من سنة ٥٤٣ الى هذه السنة (٥٥٩) : الكامل : ١١ : ١١٤ .

(٤) استمرار للاقتباس السابق ، من نفس الصفحات .

(٥) لفظ فارسى الأصل معناه الفأس الكبيرة أو القدوم ، وكانت من آلات الحرب فى تلك الفترة .

(٦) فى ل ١٠٢ ا : أضع فيهم السيف ، وفى ق ١١٠٠ : أضع السيف .

ومَحجَّة واضحة فى الملك يسلكها ؛ فمضى معه ونصره ، وأصفى له مَشْرَعَه ، واسترد له موضعه ، وأظهره بعلوّه ، وأظفره بعدوه ؛ فلما باد خصمه ، بدا وصمه ، وغدر بعهده ، وأخلف فى وعده .

وكان قد راسل الفرنج وهاداهم فى حرب الإسلام ، فوصلوا ؛ فتحصن شيركوه ومن معه بمدينة بلبيس ، فحاصره شاور بجنود مصر والفرنج ثلاثة أشهر ، من مستهلّ رمضان إلى ذى الحجة . فبذلوا له قطيعة فانصرف عنهم ، وعاد إلى الشام وفى قلبه من شرّ شاور الإحن ، وكيف تمت بغدره تلك المحن .

قلت : وقد أشار إلى ذلك عُمارة فى قوله فى مدح شاور ، وذُكر الإفرنج ، فقال [1] :

وأنقذت من مصر عدوًّا بمثله　　فلله من ظُفر فللتَ وناب
صدمت جموع الكفر والشام صدمة　　أقمت بها للقوم سوق ضِراب
وقد جرّدت أجناد مصر عزائماً　　مضاربها فى الصخر غير نوابى
تولّوا عن الإفرنج فادح ثقلها　　ودارت رحاها منهم بهضاب
أقامت دروع الجند تسعين ليلة　　ثياباً لهم ، ما بُدلت بثياب
وهم بين مطروح هناك وطارح　　وبين مصيب خصمَه ومصاب

وقال القاضى ابن شداد[2] : سار أسد الدين إلى مصر ، واستصحب معه ابن أخيه صلاح الدّين يوسف بن أيوب ، وجعله مقدم عسكره وصاحب رايه[3] وكان لا يفصل أمراً ولا يقرر حالا إلا بمشورته ورأيه ، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة ، والفكرة الصحيحة ، واقتران النصر بحركاته وسكناته . فساروا حتى وصلوا مصر ، وشاور معهم ؛ وكان لوصولهم إلى مصر وقع عظيم ؛ وخافه أهل مصر ، ونصر شاوراً على خصمه ، وأعاده إلى منصبه ومرتبته ، وقرر قواعده ، وشاهد البلاد وعرف أحوالها ، وعلم أنها بلاد بغير رجال ، تمشى الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال .

---

(١) عمارة اليمنى : النكت العصرية

(٢) هذه الفقرة كلها مقتبسة من ابن شداد ، فى النوادر السلطانية : ٢٩ ، والاقتباس حرفى تصرف فيه أبو شامة بتقديم وتأخير .

(٣) جمع راية وهى العلم .

وكان ابتداء رحيله عنها متوجهاً إلى الشام فى السابع من ذى الحجة ، فأقام بالشام مدبراً لأمره ، مفكراً فى كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية ، محدثاً بذلك نفسه ، مقرراً لقواعد ذلك مع نور الدين ، إلى سنة اثنتين وستين .

قلت : ولفعل شاور ما فعل مع أسد الدين وصفه الشعراء بالغدر ، ووقعوا فيه (١٠٣ ــ ب) قبل قتله وبعده ، على ما سنذكره ؛ وبقى متخوفاً من أسد الدين . فقال عرقلة الكلبى(١) من جملة قصيدة له :

وهل همّ يوماً شيركوه(٢) بجِلِّق(٣) ... إلى الصّيد إلا ارتاع فى مصر شاور
هو الملك المنصور ، والأسد الذى ... شذى ذكره فى الشرق والغرب سائر

وفيها فى ذى الحجة احترقت جيرون(٤) بعد رجوع أسد الدين إلى دمشق ، فقال العرقلة يمدحه ويذكر ذلك :

جار صرف الردى على « جَيْرون » ... وسقى أهلها كئوس المنون
أصبحت جنة وأمست جحيما ... تتلظّى بكل قلب حزين
كيف لا تذرف الدموع عليها ... وهْى فى الشام نزهة للعيون
حبذا حصنُها الحصين ، لقد كا ... ن جمالا لكل حصن حصين
أى سيف سطا على دار سيف ... وزبون أتى بحرب زَبون
خِلتُ نيرانَها وكلَّ ظلامٍ ... نارَ ليلى تلوح للمجنون
كم غنيٍّ اليمين أمسى فقيراً ... وفقير أمسى غنيَّ اليمين
كل حين لها حريق جديد ... ليت شعرى ، ما ذا لها بعد حين !

---

(١) حسان بن نمير الكلبى وكنيته أبو الندى ؛ توفى سنة ٥٦٧ ، وكانت له أشعار كثيرة فى صلاح الدين . انظر النجوم الزاهرة : ٦ : ٦٤ ، فوات الوفيات : ١ : ١٤٤ .

(٢) بتحريك الراء فى شيركوه ، حتى يستقيم الوزن .

(٣) اسم لكورة الغوطة كلها ، وقيل هى دمشق ، أو موضع بقرية من قراها . معجم البلدان : ٣ : ١٢٦ ــ ١٢٨ .

(٤) تقدم التعريف بها : ١٩٧ ، حاشية : ٢ . انظر معجم البلدان : ٣ : ١٩١ .

كل هـذا البـلاء عاقبة الفسـ ق ، وشرب الخمور ، والتلحين
واقد ردها بعزم وحزم أسـد الدين غاية المسكين
وحمى الجـامع المقـدس والمشـ هد من جمرها بماء معين
ملك فعله بدنجة[1] والبـا ب فعال الإمام فى صفـين

فصـــل

فى فتح حارم

قال العماد الكاتب : وفى تلك السنة ، يعنى سنة تسع وخمسين ، اغتنم نور الدين خلو الشام من الفرنج وقصَدَهم ، واجتمعوا على حارم ، فضرب معهم المصاف ، فرزقه الله تعالى الانتقام منهم ؛ فأسرهم ، وقتلهم ، ووقع فى الأسار إبرنس أنطاكية[2] ، وقومص طرابلس[3] ، وابن جوسلين[4] ، ودوك الروم ؛ وذلك فى رمضان .

وقال فى الخريدة : كانت نوبة البقيعة نوبة عظيمة على المسلمين ، وأفلت نور الدين فى أقل من عشرة من عسكره ، ثم كسر الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم ، وقُتل فى معركة واحدة منهم عشرون ألفاً ، وأسر من نجا ؛ وأخذ القومص والإبرنس والدوقس وجميع ملوكهم . وكان منحاً عظيما ، وفتحاً مبيناً .

قال ابن الأثير[5] : والسبب فى هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزماً ، على ماسبق ، من غزوة ناحية حصن الأكراد ، أقبل على الجد والاجتهاد ، والاستعداد للجهاد ، والأخذ بثاره ، وغزو العدو فى عقر داره ؛ وليرتق ذلك الفتق ، ويمحو سمة الوهن ، ويعيد رونق

---

(١) من قرى صعيد مصر . معجم البلدان : ٤ : ٦٧
(٢) وهو عندئذ بوهمند الثالث (*Bohemond III*) .
(٣) وهو عندئذ ريموند الثالث (*Raymond III*) .
(٤) واسمه *Thoros II* وكان صاحب أرمينية ، ويذكر *Runciman* أنه لم يقع فى الأسر بل تمكن من الهرب مع أخيه ، انظر *A History of the Crusades, Vol. II, P. 369.*
(٥) فى الأتابكة : ٢١٩ ــ ٢٢٤ . وأبو شامة يتصرف فى هـذا الاقتباس ببعض الحذف لأن ابن الأثير عالج هذا الموضوع بأسلوب أدبى ، لكن أبا شامة يحافظ على الحرفية فى الجزء الذى اقتبسه .

الملك . فراسل أخاه قطب الدين[1] بالموصل ، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن[2] ونجم الدين ألب[3] بماردين ، وغيرهم من أصحاب الأطراف .

أما قطب الدّين أتابك فإنه جمع عساكره وسار (١٠٤ ـ ا) مجداً ، وعلى مقدمة عسكره زين الدين نائبه .

وأمّا فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغنى عنه أنه قال له خواصه : على أى شيء عزمت؟ فقال : على القعود ، فإن نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة ، فهو يلقى نفسه والناس معه فى المهالك ؛ وكلهم وافقه على ذلك . فلما كان الغد أمر بالنداء فى العسكر بالتجهز للغزاة ؛ فقال له أولئك : ماعدا مما بدا ! فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدها ! فقال : إن نور الدّين قد سلك معى طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادى عن طاعتى، وأخرجوا البلاد عن يدى ، فإنه كاتب زُهّادها وعبّادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم مالقى المسلمون من الفرنج ، وما نالهم من القتل والأسر والنهب ، و يستمد منهم الدعاء ، و يطلب منهم أن يحثّوا المسلمين على الغزاة . فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرءون كتب نور الدّين و يبكون ، و يلعنوننى و يدعون علىّ ؛ فلابد من إجابة دعوته . ثم تجهز أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه .

وأما نجم الدين ألب فإنه سيّر عسكراً .

فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فنزل عليها وحصرها ؛ و بلغ الخبر إلى من بقى من الفرنج بالساحل أنه لم يسر إلى مصر ، فحشدوا وجاءوا ، ومقدم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية ، والقمص صاحب طرابلس وأعمالها ، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها ، والدّوك وهو رئيس الروم ومقدمها . وجمعوا من الراجل مالايقع عليه الإحصاء ،

---

(١) واسمه مودود ، امتد سلطانه فى الموصل بين سنتى ٥٤٤ ، ٥٦٥ (١١٤٩ ـ ١١٦٩ م) . انظر الأتابكة ، والكامل لابن الأثير ، وكذلك *Muhammadan Dynasties* .

(٢) حصن كيفاء وهو قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق، ٥٤٣ــ٥٧٠ (١١٤٨ــ١١٧٤م)

(٣) فى الأصل ، وكذلك فى ل وفى ق : الپي . وكذلك فى *Muhammadan Dynasties* وفى مفرج الكروب (١ : ١٤٣) : ألب أرسلان بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق ، حكم بين سنتى ٥٤٧ــ٥٧٢ (١١٥٢ ـ ١١٧٦ م) .

قد ملأوا الأرض وحجبوا بقسطلهم السماء ؛ فحرّض نور الدّين أصحابه ، وفرق نفائس الأموال على شجعان الرجال .

فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرْتاح[1] وهو إلى لقائهم مرتاح ؛ وإنما رحل طمعاً أن يتبعوه ، ويتمكن منهم إذا لقوه . فساروا حتى نزلوا على عِمّ[2] ، وهو على الحقيقة تصحيف مالقوه من الغم ؛ ثم تيقنوا أنه لاطاقة لهم بقتاله ، ولا قدرة لهم على نزاله ؛ فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير ، وتبعهم نور الدّين .

فلما تقاربوا اصطفوا للقتال ؛ وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين ، وبها عسكر حلب وفخر الدين ؛ فبددوا نظامهم[3] ، وزلزلوا أقدامهم ، وولوا الأدبار ، وتبعهم الفرنج . وكانت تلك الفرّة من الميمنة عن اتفاق ورأى دبروه ، ومكر بالعدو مكروه ؛ وهو أن يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقى من المسلمين ، ويضعوا فيهم السيوف ، ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلا يلجئون إليه ، ويعود المنهزمون فى آثارهم ، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم . فكان الأمر على مادبروا ؛ فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين فى عسكر الموصل على راجلهم ، فأفناهم قتلا وأسراً ، وعادت خيّالتهم ولم (١٠٤ — ب) يمعنوا فى الطلب ، خوفاً على راجلهم من العطب ، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفّرين ، وبدمائهم مضرجين ؛ فَسُقِطَ فِى أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ، وخضعت رقابهم وذلوا . فلما رجعوا عطف المنهزمون أعنتهم ، وعادوا ، فبقى العدو فى الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كل جانب . فحينئذ حمى الوطيس ، وباشر الحرب المرءوس والرئيس ، وقاتلوا الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة ، وحاربوا حرب من أيس من الحياة . وانقضت العساكر الإسلامية عليهم انقضاض الصقور على بغاث الطيور[4] ، فمزقوهم بدداً ، وجعلوهم قدداً . فألقى الفرنج

(١) حصن فى منطقة العواصم ، أصبحت من أعمال حلب ، معجم البلدان : ١ : ١٧٦ — ١٧٧ .

(٢) قرية ذات عيون وأشجار ، كان أهلها حينئذ من النصارى ، وتقع فى منتصف الطريق بين حلب وأنطاكية ، معجم البلدان ٦ : ٢٢٥ .

(٣) أى نظام عسكر الميمنة المسلمة .

(٤) البغاث طائر أغبر ، وبغاث الطيور : غير الجارحة ، والطيور التى لا تصيد ، لسان العرب .

بأيديهم إلى الأسار ، وعجزوا عن الهزيمة والفرار ، وأكثر المسلمون فيهم القتل ، وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف . وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة ، ويكفيك دليلاً على كثرتهم أن ملوكهم أسروا ، وهم الذين من قبل ذُكروا[١] .

وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم ، فملكها فى الحادى والعشرين من شهر رمضان . وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها ، لخلوها ممن يحميها ويدفع عنها ، فلم يفعل ، وقال : أما المدينة فأمرها سهل ، وأما القلعة التى لها فهى منيعة لاتؤخذ إلا بعد طول حصار ، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه ؛ ومجاورة بيمند أحب إلىّ من مجاورة ملك الروم[٢] .

وبثّ سراياه فى تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا ، وأوغلوا فى البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسويداء وغير ذلك ، وعادوا سالمين .

ثم إن نور الدّين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه ، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم .

وقال الحافظ أبو القاسم : كسر نورُ الدين الروم والأرمن والفرنج على حارم ، وكان عدتهم ثلاثين ألفاً . قال: ووقع بيمند فى أسره فى نوبة حارم، وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه فى الجهاد.

قلت : وبلغنى أن نور الدّين رحمه الله تعالى لما التقى الجمعان ، أو قُبيله ، انفرد تحت تل حارم وسجد لربه عز وجل، ومرغ وجهه وتضرع ، وقال: يارب! هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ؛ فانصر أولياءك على أعدائك . «إيش فضول محمود فى الوسط؟ » يشير إلى أنك يارب إن نصرت المسلمين فدينَك نصرت ، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر .

---

(١) هـذه العبارة (وهم الذين من قبل ذكروا) عبارة أبى شامة اكتفى بها عن إعادة ذكرهم ، أما ابن الأثير فيذكرهم هنا بأسمائهم .

(٢) يذكر ستيفنسون احتمال وجود سببين لهذا المسلك الذى سلكه نور الدين : أحدهما ما ذكر هنا من خوف نور الدين من الامبراطور البيزنطى ، وثانيهما صغر سن بوهيمند الثالث صاحب أنطاكية ، مما يجعل خطره أقل أهمية . ويزيد حسن حبشى احتمالا آخر هو خوف نور الدين من تطلع أملريك ، ملك بيت المقـدس ، وغريم نور الدين فى حروب مصر ، الى الوصاية على الأمير الشاب . انظر *The Crusaders in the East, p. 190* وكذلك : نور الدين والصليبيون : ٩٠ـ٩١ .

وبلغني أنه قال : اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً . مَن هو محمود الكلب حتى يُنصر ! وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دمياط بعد نزولهم عليها ؛ وهذا فتح عظيم (١٠٥ - ا) ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين ، مع أن جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه كما سبق ؛ وهذا من عجيب ما وقع واتفق .

فصـــل

في ذكر وزير الموصل جمال الدين ، الجواد الممدّح ، ووفاته في هذه السنة رحمه الله .

وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنفاته وأثنى عليه ثناء تنظيما حسناً .

فما ذكره في كتابه الموسوم بنُصرة الفَترة وعُصرة الفِطرة ، في أخبار الوزراء السلجوقية[١] أن قال : ذكرُ جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور . كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي ، وهو صاحب الوزير شمس المُلك بن نظام الملك ، وكان أبوه أبو منصور[٢] فهّاداً في عهد السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان ، وابنه الكامل[٣] أديب لبيب ، وزادت أيامه في السمو [وأيامنه في النمو][٤] حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء ، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء . وقد كان زوّج بنتا له ببعض أولاد أخوال العزيز[٥] ، يعني عم العماد الكاتب ، قال : فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله تعالى على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد ، وخرّجه في الأدب ودرّجه في الرتب ؛ فأول ما رتبه في ديوان العرض السلطاني المحمودي وغلب في تحليته [ذكر][٤] الأبلج ، فنعتَه الأتراك بالأبلج ، واستقام في نجابته على المنهج . واتفق أنه لما تولى زنكي بن آق سنقر الشام تزوج بامرأة الأمير كيدغدي[٦] وولدها خاص بك بن كيدغدي من أمراء الدولة وأبناء المملكة

---

(١) انظر كتاب تاريخ دولة آل سلجوق ، اختصار الفتح البنداري : ١٩٢ - ١٩٣ .

(٢) أي جد الوزير جمال الدين .   (٣) في تاريخ دولة آل سلجوق : وابنه الكامل نجيب . . .

(٤) ما بين الحاصرتين من ل ١٠٤ ب ، وهو مثبت كذلك في نسخة ق ، وساقط من الأصل .

(٥) في تاريخ دولة آل سلجوق : . . . أولاد أخوال العم العزيز .

(٦) ما هنا من ل ١٠٤ ب ، وكذلك من ق ، وفي الأصل : كندغدى .

وهو يسير معها ، فرتبه العزيز لخاص بك وزيراً ، فسار فى الصحبة ، وكان مقبل الوجاهة ، مقبول الفكاهة ، شهى المشاشة ، بهى البشاشة ؛ فتوفرت مُنى زنكى على منادمته ، وقصر صباحه ومساءه على مساهمته ، وعول عليه آخر عمره فى إشراف ديوانه ، وزاد المال وزان الحال بتمكينه ومكانه . فلم يظهر لجمال الدّين فى زمان زنكى جود ، ولا عرف له موجود ، فإنه كان يقتنع بأقواته ، وتزجية أوقاته ، و يرفع جميع مايحصل له إلى خزانة زنكى استبقاء لجاهه ، واستعلاء به على أشباهه . فمكنه زنكى من أصحاب ديوانه ، فمنهم من استضرّ بإساءته ومنهم من انتفع بإحسانه .

ولما قُتل زنكى صار للدولة الأتابكية ملاذًا ، وللبيت الآق سنقرى[1] معاذًا ؛ واستوزره الأمير غازى بن زنكى[2] وآزره على كوجك على وزارته ، وحلف له على مظاهرته ومظافرته .

وجرى بين جمال الدين الوزير ، و بين ز ين الدّين على كوجك ، و بين سيف الدّين غازى التعاقد على التعاضد ، والتعاهد على التساعد . وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولى ، فعاش بنداه الجود ، وعشا إلى ناديه الوفود ، وعادت به الموصل قبلة (١٠٥ ـ ب) الإقبال ، وكعبة الآمال ، فأنارت مطالع سعوده ، وسارت فى الآفاق صنائع جوده . وعمر الحرمين الشريفين وشمل بالبر أهلهما ، وجمع بالأمن شملهما ، وأجرى بحر السماح ، ونادى : حىّ على الفلاح ، فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح ، وأتوا إليه من كل فج عميق ، وقُصد من كل بلد سحيق ؛ فقصده العظماء ، ومدحه الشعراء .

وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد الصنى ، المعروف بحيص بيص[3] . قال : وأنشدنى لنفسه فيه قصيدة أولها :

يا للصوارم والرماح الذبل نُصرا ، ومن أنجدتما لم يُخذل
لو شئتما ، ومشيئه بمشيئة جاد الزمان و بالعلا لم يبخل
فاقنى فخارك يا مُجاشع ، واعلمى أنى لكم من همتى فى جَحفل

---

(١) نسبة إلى آق سنقر والد عماد الدين زنكى ، وصاحب الموصل من قبله .

(٢) الذى تولى إمارة الموصل بعد مقتل أبيه عماد الدين زنكى .

(٣) سعد بن محمد بن سعد التميمى ، من بغداد ، لقبه غلب عليه الأدب والشعر . توفى سنة ٥٧٤ . كان يلبس زى أمراء البادية ، ويتقلد سيفاً . انظر : وفيات الأعيان ، وطبقات الأطباء .

أنا فارس اليومين ، يوم مقالة ووغى ، أصول بصارمى وبمقولى
ظلمت فضائلى المقاول مثل ما ظلمت جمال الدين مأوى العُيَّل[1]
مدحوه كى يحووا مناقب نفسه فَطَمَتْ ، فسالت بالمدائح من عل
فأتيت أبذل ما استطعت ، ومن يرد نقل الخضم إلى المزادة يخجل
شمس من الإحسان ، عم ضياؤها بل آية جاءت بحجة مرسل
يعطى الجزيل لسائلى معروفه ويجود بالنُّعمى إذا لم يُسأل
وتزيده شوس الخطوب طلاقة فيكون أبسم ما يرى فى المُعضل
ثُقلت به الأعناق من منن الفدا فالهام مطرقة لذاك المثقل
فإذا تلاقى الناس كان حديثهم عن كل جفن بالحجالة مسدل
أسراء معروف الوزير ، فكلهم عاف تراه مطلقاً كمكبل
من سمْرَقند[2] إلى تهامة شاهد فضل الجمال على الحيا المتهلل
السحب تمطر ما تظل ، وجوده يسرى ودار مُقامه بالموصل
وتقرّ عين محمد بمحمد محيى دَرِيسَىْ علمه والمنزل
معيار مرقده ، وحافظ دينه ومعين أمته بجود مسبل
جعل المدينة مصر ربعاً آهلا نشوان يمرح بالنعيم المُحْصل[3]
فكأنها بالخِصب من قرباته بلد على شط الفرات السلسل
فلو انه فى عصره نزلت له فى مدحه سُور الكتاب المنزل
عبد أخٌ فى ضيفه ووداده لا يستحيل ، وسيد فى المحفل
خرق نياط قميصه ورداؤه بعباب زخار وهضبة يذبل

قال العماد[4] : وكنت أنا فى ذلك العهد متفقها ببغداد ، واتفق حضورى بالموصل

---

(١) عال يعيل : افتقر فهو عائل والجمع عالة ، وعيل ، وعيلى . القاموس المحيط .

(٢) هى مدينة سمرقند ، وإنما ضبطت فى البيت سمرقند ليستقيم الوزن .

(٣) يقال أحصل البلح إذا خرج من تفاريقه ، وأحصل القوم فهم محصلون إذا حصل نخلهم وذلك إذا استبان البسر . لسان العرب .

(٤) فى تاريخ دولة آل سلجوق : ١٩٣ ـ ١٩٤ .

سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، فحضرت عند جمال الدّين بالجامع فى جمعتين ، وتكلمت عنده مع الفقهاء فى مسألتين . ومما مدحته به قصيدة أولها :

(١٠٦ ـ ١) أظنهم وقد عزموا ارتحالا ثنَوا عنا بجمالا لا جمالا
سروْا والصبح مبيضُّ الحواشى فلما حال عهد الوصل حالا
هم اعتادوا الملال ، فكيف ملّوا وصالهم وماملوا الملالا
أحادى عيسهم ، بالله رفقاً فإن السير أورثها الكلالا
وعُج نحو الأراك بها ، فإنى أراه لاجتماع الشمل فالا(١)
سقى صَوْب الحيا تلَعات(٢) نجد وحيَّا بالحمى تلك التلالا
أخلائى ، وهل فى الناس خل به أخلى من الأحزان بالا
لئن لم أشف صدْرى من حسودى ولم أذق العدا داء عضالا
ولا أدركت من أدبى مرادا ولا صادفت من حسبى منالا
ولا وخدت إليكم بى جمال(٣) ولا واليت مولانا الجمالا
هو المغنى إذا ما المرء أقوى هو المنجى إذا ما الخطب هالا
وقائلة : أفى الدنيا كريم سواه ، فقلت : لا وأبى العلا ، لا
أطلّت على الورى كرما وفخراً كذلك من حوى هذين طالا
وحزت المجد عن كسب وإرث فيا صدر الورى حزتَ الكمالا
خُصِصت بكل منقبة وفضل تعالى من حباك به ، تعالى

قلت : وقد أكثر الشعراء فى مدحه ، منهم العرقلة ، له من قصيدة :

[يهوى تجنّيه والصدود كما يهوى المعالى محمد بن على](٤)
جمال دين الإله خير فتى للرزق أقلامه وللأجل

---

(١) فألا : بتسهيل الهمزة .

(٢) التلعة ما ارتفع من الأرض ، وما هبط منها ، ضد ، والقطعة المرتفعة من الأرض ، والجمع تلعات وتلاع . القاموس المحيط .

(٣) فى ك : جالا . وهو خطأ نحوى ، والتصحيح من ل ١٠٥ ب ، ومن ق ١٠٣ ب ، ومن تاريخ دولة آل سلجوق .

(٤) هذا البيت من ل ١٠٥ ب ، وهو ساقط من ك .

معطى القِرى والقُرى لقاصده من غير منٍّ ، والخيلِ ، والخول
مثل فتوح الفاروق نائله شرقا وغربا ، فى السهل والجبل
من قال لم يَخْوِ ذا ويسكن ذا أصبح مما يقول فى خجل
محمد خاتم الكرام ، كما سميُّه كان خاتم الرسل

وفيه يقول أحمد بن منير(1) من قصيدة :

كسا الحرمين لبسة عبد شمس وهاشم غُرَّتى نسل الخليل
ولِلبلد الأمين أجدَّ أمنا تكنَّف مثله جدث الرسول
عشيتم ياولاة الأمر عمَّا أتيح له من الأثر الجميل
وطار لها وأشفقتم فشدَّ الـ يدين على عُرى المجد الأثيل
بيوت بالحجاز مقدَّسات رماها الدهر بالخطب الجليل
وكان أذالَهُنَّ(2) فصاب صونا لمن آوته من ولد البتول
مآثرُ باقيات يوم يجنى الـ مقال ويُجتنى طيب المقيل
وكم للموصل الحدباء مما تُنيل يداه من ريف ونيل
برُود الصفح ، ملتهب الحواشى مهيب البطش ، فرَّاس الدخول

ولأبى المجد قسيم الحموى(3) فيه من قصيدة :

أغرَّ يبصر منه الناس فى رجل والليث فى بشر ، والبدر فى غصن
سما بهمَّته فى المكرمات إلى علياء تقصر عنها همة الزمن
يلقاك واضحَ ليل الفكر ، راجحَ نيـ ل الكف ، طاهرَ ذيل السر والعلن
ماضى العزيمة ، ميمون النقيبة ، رأ بال الكتيبة ، عينَ القائل اللَّسن

---

(1) الطرابلسى ، مهذب الدين ، ولد سنة ٤٧٣ ، وتوفى ٥٤٧ ، بيوليل سنة ٥٤٨ . وفيات الأعيان : ١ : ٦١ .

(2) أذال الشىء : هان وتواضعت حاله . وأذال الشىء : أهانه ولم يحسن القيام عليه ـ القاموس المحيط .

(3) أبو المجد مسلم بن الخضر المعروف بابن قسيم الحموى ، توفى سنة ٥٤١ .

إذا تـكلم واستمليت غُرَّته   في محفل رُحت حالى العين والأذن

(١٠٦ــب) كأن في الدست منه حين تنظره   شمس النهار وصوب العارض الهتن

قال ابن الأثير : وفى شعبان من هذه السنة ، وهى سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، توفى الوزير جمال الدين محمد بن على بن أبى منصور الأصفهانى . كان قد خدم الشهيد فولاه نصيبين ؛ وظهرت كفايته ، فأضاف إليه الرحبة ، فأبان عن كفاية وعفة . وكان من خواصّه فجعله مشرف مملكته كلها ، وحكّمه تحكيما لا مزيد عليه ، حتى كان وزير الشهيد والحاكم فى بلاده ضياء الدين بن الـكَفَرْتُوثى[1] يحكى عن جمال الدين قال : كان يدخل إلى أتابك قبلى ويخرج بعدى . ولم يزل كذلك إلى أن قتل الشهيد ، ثم وزر لولدى الشهيد سيف الدّين ثم قطب الدّين[2] . وكان بينه وبين زين الدّين على كوجك عهود ومواثيق على المصافاة والاتفاق ؛ وكان أصحاب زين الدين يكرهونه ويقعون فيه عند زين الدّين فنهاهم .

وكانت الموصل فى أيامه ملجأ لكل ملهوف ، ومأمناً لـكل خائف ؛ فسعى به الحساد إلى قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه وقالوا له : إنه يأخذ أموالك فيتصدق بها ؛ فلم يمكنه أن يغيّر عليه شيئاً بسبب اتفاقه مع زين الدين . فوضع على زين الدين من غيّره من مصافاته ومؤاخاته . فقبض عليه قطب الدين وحبسه بقلعة الموصل . ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه لأن خواص قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين ، فلما قُبض تبسّطوا فى الأمر والنهى على خلاف غرض زين الدين . فبقى جمالُ الدين فى الحبس نحواً من سنة ، ثم مرض ؛ ومضى لسبيله عظيم القدر والخطر ، كريم الوِرد والصدَر ، عديم النظير ، فى سعة نفس ، لم يُرْوَ فى كتب الأولين أن أحداً من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته لما اتسعت له نفس جمال الدين ، فلقد كان عظيم الفتوة كامل المروة .

---

(١) نسبة إلى كفرتوثا ، وهى قرية كبيرة من أعمال الجزيرة بين دارا ورأس عين ، وهى من دارا على خمسة فراسخ . معجم البلدان : ٧ : ٢٦٣ .

(٢) حكم سيف الدين غازى ، ابن عماد الدين زنـكى ، بين سنتى ٥٤١ و ٥٤٤ هـ فى الموصل ، ثم خلفه أخوه قطب الدين مودود إلى سنة ٥٦٥ هـ .

قال ابن الأثير[1] : حكى لى جماعة عن الشيخ أبى القاسم الصوفى ؛ وهو رجل من الصالحين كان يتولى خدمة جمال الدين فى محبسه ، قال : لم يزل الجمال مشغولاً بأمر آخرته مدة حبسه ؛ وكان يقول : كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر . قال : فلما مرض قال لى بعضَ الأيام : يا أبا القاسم ، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرِّفنى ، فقلت فى نفسى: قد اختلط الرجل . فلما كان الغد أكثرَ السؤالَ عن ذلك الطائر ، و إذا طائر أبيض لم يُرَ مثله قد سقط ؛ فقلت له : قد جاء الطائر ، فاستبشر، ثم قال : جاء الحق؛ وأقبل على الشهادة وذِكر الله تعالى ، وتُوفى ؛ فلما توفى طار ذلك الطائر . قال : فعلمت أنه رأى شيئاً فى معناه .

ودفن بالموصل نحو سنة ؛ وكان قد قال للشيخ أبى القاسم : إن بينى و بين أسد الدين شيركوه عهداً : من مات منا قبل صاحبه حمله الحى إلى المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فدفنه بها فى التربة التى عملها ؛ فإن أنا متُّ فامض إليه وذكِّره . فلما توفى سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين فى هذا المعنى ؛ فأعطاه مالا صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة ، وأمر أنْ يحج معه جماعة من الصوفية ومن (١٠٧ ــ ا) يقرأ بين يدى تابوته عند النزول والرحيل ، وقدوم مدينة تسكون فى الطريق ، و ينادون فى البلاد : الصلاة على فلان . ففعلوا ذلك ؛ فكان يصلى عليه فى كل مدينة خلق كثير . فلما كان فى الحِلَّة اجتمع الناس للصلاة عليه ، فإذا شاب قد ارتفع على موضع عال ونادى بأعلى صوته :

سَرَى نعشُه فوق الرقاب ، وطالما ... سَرى بِرُّه فوق الركاب ونائله
يمر على الوادى ، فتُثْنى رماله ... عليه ، وفى النادى فيبكى أرامله

فلم يُرَ باكياً أكثر من ذلك اليوم [2] . ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الكعبة

(١) فى الأتابكة : ٢٢٦ ــ ٢٢٨ ، وهو اقتباس حرفى .

(٢) فى مقابل هذا بالهامش ، وكذلك فى هامش ق ١٠٤ ب ، ول ١٠٦ ب : « حاشية : قال المؤلف : وجرى نحو هذا للوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة ، كان أبوه وزيراً للمقتدر ووزر هو لكافور الإخشيدى بمصر ، ومات بها سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة ، وحمل منها الى الحرمين ، فخرجت الأشراف من مكة والمدينة فحجوا به وردوه الى المدينة فى الدار التى كان أعدها لذلك جوار مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان مكرما لأهل العلم وله معروف كبير . ذكرت ما جاء عنه =

وصلوا عليه بالحرم ، وحملوه إلى المدينة فصلوا عليه أيضاً ، ودفنوه بالرباط الذى أنشأه بها ، و بينه و بين قبر النبى صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ذراعاً .

قلت : كذا قال ابن الأثير . ولقد رأيت المكان ولعله أراد الحائط الشرقى من مسجد النبى صلى الله عليه وسلم لا نفسَ القبر الشريف ، زاده الله شرفاً وصلى على ساكنه .

ثم قال[1] : كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء و بذلا للمال ، رحيماً بالناس متعطفاً عليهم عادلا فيهم . فمن أعماله الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى ، وغرم عليه أموالا عظيمة ، و بنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه ، ثم غُير و بُنى غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة . وزخرف الكعبة بالذهب والنُقْرة ، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وستمائة . ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفى لأمر الله[2] هدية جليلة حتى أذن فيه ، وأرسل إلى أمير مكة عيسى بن هاشم خلعاً سنية وهدية كثيرة حتى مكنه منه . وعمر أيضاً المسجد الذى على جبل عرفات ، وعمل الدرج الذى يصعد فيها إليه ، وكان الناس يلقون شدة فى صعودهم . وعمل بعرفات مصانع للماء وأجرى الماء إليها من نَعْمان[3] فى طريق معمولة تحت الجبل مبنية بالكلس ، فغرم على ذلك مالا كثيراً .

= فى ذلك فى ترجمته فى تاريخ دمشق ، رحمه الله . (فجرى للوزير أبى جعفر ما كان قد جرى للوزير جعفر رحمهما الله تعالى) . وبلغنى أن الحيص بيص الشاعر لما رأى نعش الوزير جمال الدين وأنشد البيتان ارتجل هو بيتين :

سرى نعشه فوق الرقاب ، وإنه لأجدر من يسرى عليها ومن يرقى
فما عنق إلا له فيه منة تلازمه كالطوق فى عنق الورقا

اهـ . ولعل صحة العبارة الواقعة بين قوسين فى هذه الحاشية : وجرى للوزير جمال الدين ما كان قد جرى للوزير جعفر .

(١) ابن الأثير فى الأتابكة : ٢٢٨ـ٢٣٣ ؛ وهو اقتباس حرفى .

(٢) الخليفة العباسى بين سنتى ٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ .

(٣) نعمان الأراك : واد ينبته ويصب إلى ودان ، وهو بين مكة والطائف ، بين أدناه ومكة نصف ليلة ، وفيه وردت الأبيات المعروفة :

ألا أيها الركب اليمانون عرجوا علينا فقد أضحى هوانا يمانيا
نسائلكم : هل سال نعمان بعدنا وحب إلينا بطن نعمان واديا
عهدنا به صيداً كثيراً ومشربا به تقصع القلب الذى كان صاديا

معجم البلدان : ٨ : ٣٠٠ .

وكان يعطى أهل نعمان كل سنة مالا كثيراً ليتركوا الماء يجرى إلى المصانع أيام مقام الحجاج بعرفات ، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة .

قال : ومن أعظم الأعمال التى عملها نفعاً أنه بنى سوراً على مدينة النبي عليه السلام[1] فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب ، وكان أهلها فى ضنك وضر معهم . رأيت بالمدينة إنساناً يصلى الجمعة ، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال: يجب على كل من بالمدينة أن يدعو له ، لأننا كنا فى ضر وضيق ونكد عيش مع العرب ، لا يتركون لأحد [منا][2] مايواريه و يشبع جَوْعته ، فبنى علينا سوراً احتمينا به ممن يريدنا بسوء ، فاستغنينا ؛ فكيف لا ندعو له !

قال (١٠٧ ــ ب) : وكان الخطيب بالمدينة يقول فى خطبته : اللهم صُنْ حريم من صان حرم نبيك بالسور ، محمد بن على بن أبى منصور . قال : فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخراً ، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب مشرق الأرض وغربها !

وسمعت[3] عن مُتولى ديوان صدقاته التى يخرجها على باب داره للفقراء ، سوى الإدرارات والتعهدات ، قال : كان [له][2] كل يوم مائة دينار أميرية يتصدق بها على باب داره . قال : ومن أبنيته العجيبة التى لم ير الناس مثلها الجسر الذى بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر[4] بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس ؛ إلا أنه لم يفرغ لأنه قُبض قبل فراغه . و بنى أيضاً جسراً على نهر الأرياد عند الجزيرة أيضاً . و بنى الرُّبط بالموصل ، وسنجار ، ونصيبين ، وغيرها ؛ وقصده الناس من أقطار الأرض . ويكفيه أن

---

(١) فى ل ١٠٦ ب ، وكذلك فى ق ١٠٥ ا : صلى الله عليه وسلم .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٠٧ ا ، وهى ساقطة من ك ؛ موجودة فى ق ١٠٥ ا .

(٣) السامع هو ابن الأثير ، والاقتباس من نفس المصدر والصفحات .

(٤) فوق الموصل ، بينهما ثلاثة أيام بتقدير ياقوت ؛ يحيط بها دجلة من ثلاث جهات كالهلال ، وحفر فى الجهة الرابعة خندق يجرى فيه الماء ونصبت عليه رحى . وهذه الجزيرة موطن بنى الأثير: مجد الدين المبارك ، وضياء الدين نصر الله ، وعز الدين أبى الحسن على صاحب الكامل فى التواريخ . معجم البلدان : ٣ : ١٠٢ ــ ١٠٣ .

صدر الدين الجخندى[1] رئيس أصحاب الشافعى ، رضى الله عنه ، بأصبهان ، وابن الكافى قاضى قضاة همدان ، قصداه ، فأخرج عليهما مالا جزيلا ، وكذلك غيرهما من الصدور والعلماء ومشايخ الصوفية . وصارت الموصل فى أيامه مقصداً وملجأ .

وكان أحب الأشياء إليه إخراج المال فى الصدقات ، وكان يضيِّق على نفسه و بيته ليتصدق . حكى لى والدى[2] قال : كنت يوماً عنده وقد أحضر بين يديه قندز ، ليُعمل على و بر ليلبسه ، بخمسة دنانير ، فقال : هذا الثمن كثير ، اشتروا لى قندزاً بدينارين وتصدقوا بثلاثة دنانير . قال : فراجعناه غير مرة فلم يفعل . قال : وحكى لى من أثق إليه من العدول بالموصل أن الأقوات تعذرت فى بعض السنين بها وغلت الأسعار ، وكان بالموصل رجل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملاّ ، فأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا ، وقال له : تخرج هذا على مستحقيه ؛ وكلما فرغ أرسلْ إلىّ لأنفذ غيره ؛ فلم يمض إلا أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين ، فأنفذ له شيئاً آخر ففنى ؛ ثم أرسل يطلب

---

(١) فى هامش الأصل وكذلك فى هامش ق،ل ١٠٧ــ ا « حاشية: قال المؤلف: لما رجع الجخندى من عنده مدحه بأبيات منها :

جئت الى بابك فرداً ، ولقد رجعت من نعماك فى قافله

اه . ثم جاء فى هامش الأصل فقط بعد هذا حاشية أخرى نصها : « ليس فى أصل الشيخ المؤلف ــ رحمه الله تعالى ــ الذى نقلت منه هذه النسخة الذى هو بخطه غير هذه الحاشية الصغيرة . وهذه الحاشية التى أذكرها إن شاء الله تعالى وجدتها فى نسخة الشيخ مجد الدين يوسف بن محمد ، وهى منقولة من أصل المؤلف الذى بخطه مقروءة عليه ، وأظن المؤلف سها عن إثباتها فى نسخته ، وهى : قال العماد فى كتاب السلجوقية : لما نهد بوزان ومعه الملكان محمد بن محمد ، وملكشاه ابنا محمود بن ملكشاه ، يعنى لأخذ السلطنة من عمهما مسعود بن محمد بن ملكشاه ؟ وقرب من أصفهان تلقاه صدر الدين الجخندى وفتح له أبوابها فدخل دار مملكتها وأجلس الملكين على السرير الألب أرسلانى ، ثم خرج بهما على سمت همدان ، فذكر الحديث فى كسره وقتله ، ثم بعث إلى أصفهان ، يعنى السلطان مسعود ، بالإيقاع بمن خرج على السلطان ، فخرج منها ، يعنى الجخندى ، وزحف العوام فأحرقوها ونهبوا دار كتبها . وتشتت بنو الجخندى ، فقصد صدر الدين محمد وأخوه جمال الدين محمود الموصل ، فأوردهما جمال الدين الوزير من إنعامه وإكرامه المنهل السهل ؟ ومضى جمال الدين إلى الحج ، وأقام صدر الدين وبحر جود الوزير له متلاطم الأمواج ، ثم انصرف عنه بملوء الحقائب محبوا بالمواهب ، فعمل فى جمال الدين الوزير أبياتاً من جملتها :

جئت الى بابك فرداً ، ولقد رجعت من نعماك فى قافله

ووصل إلى أصفهان فتوفر أهلها على خدمته ، وافترضوا إقامة حرمته ، وعاد أخوه من الحج وسار مع قافلة همدان . . .

(٢) والد ابن الأثير . والاقتباس من نفس المصدر والصفحات .

مايخرجه ، فقال جمال الدين للرسول : والله ماعندى شيء ، ولكن خذوا هذه المحافر التى فى دارى فبيعوها وتصدقوا بثمنها إلى أن يأتينى شيء آخر فترسله إلى الشيخ عمر . فبيعت المحافر وتصدقوا بثمنها وعرفوه ذلك ، فلم يكن عنده مايرسله ، فأعطاه ثيابه التى كان يلبسها مع العمامة التى كانت على رأسه ، وأرسل الجميع ، وقال للرسول : قل للشيخ لايمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة . فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى و باعها وتصدق بثمنها .

وقال : وحكى لى بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائى شيخ الشيوخ بالموصل قال : أحضرنى الشيخ فقال لى : انطلق إلى مسجد الوزير ، وهو بظاهر الموصل ، واقعد هناك ، فإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك ؛ ففعلت . و إذا قد أقبل جمع من الجمالين يحملون أحمالا من النّصافى والخام ، و إذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ (١٠٨ ــ ا) ومعهما قماش كثير ، وثمانية عشر ألف دينار ، وعدة كثيرة من الجمال . فقال لى تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة ، فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليهافلان ، فإذا أحضر لك فلاناً العربى فتوصل إليه هذه الرزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه ، فإذا أوصلك إلى فلان العربى فتوصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب ؛ وهكذا إلى المدينة على ساكنها [أفضل الصلاة و][1] السلام ، توصّل إلى وكيلى فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذى عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة ، ثم يأخذ الباقى الذى عليه اسم مكة و يسير إليها فيتصدق به وكيلى بها بموجب الجريدة الأخرى . قال : فسرنا كذلك إلى وادى القُرى فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق ، فلما رأونا ساروا معنا إليها ، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصرى ، والصاع خمسة عشر رطلا بالبغدادى فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة آصُع بدينار . فانقلبت المدينة بالدعاء له . ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا .

قال[2] : وحكى لى والدى قال : رأيت جمال الدين وقد حضر عنده رجل فقيه قبل أن يصير وزيراً فطلب منه شيئاً ، وتردد إليه عدة أيام ، ثم انقطع ، فسأل عنه ، فقيل إنه

---

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٠٧ ب : وهو مثبت كذلك فى ق ١٠٥ ب .
(٢) القائل ابن الأثير ؛ وهو استمرار الاقتباس السابق .

سافر ، فشق ذلك عليه ، ثم قال : هكذا تنصرف الأحرار عن دور الكلاب ، وردد ذلك غير مرة ؛ ثم سأل عنه فقيل إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين .

قال : ولو رُمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت ، وهى ظاهرة لاتحتاج إلى بيان ، فلهذا تركنا أكثرها .

وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ فى كتاب الاعتبار فقال : اجتمعت بجمال الدين الموصلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وأنا متوجِّه إلى الحج ، وكانت بينى وبينه مودة قديمة وعشرة ومؤانسة ؛ فعرض علىّ الدخول إلى دار فى الموصل فامتنعت ، ونزلت بخيمتى على الشط ، فكان مدة مقامى كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينَوَى[1] وأتابك[2] قد ركب إلى الميدان ، وينفذ إلىّ يقول : اركب فأنا واقف أنتظرك ، فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث . فوجدت يوماً منه خلوة من أصحابى ، فقلت له : فى نفسى شىء يتردد من حيث اجتمعنا أشتهى أن أقوله لك وما يتفق لى خلوة ، وقد خلونا الساعة . قال : قل : قلت : أقول ما قاله الشريف الرضى :

ما ناصحتْك خفايا الود من أحد ... ما لم يصبك بمكروه من العذل
مودتى لك تأبى أن تسامحنى ... بأن أراك على شىء من الزلل

وقد بسطتَ يدك فى إنفاق المال فى الصدقات ووجوه البر والمعروف ، والسلاطين ما يحتملون (١٠٨ ــ ب) إخراج المال ، ولا تصبر نفوسهم عليه ، ولو أن الإنسان يخرجه من ميراثه ؛ وهذا الذى أهلك البرامكة ؛ فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه . فأطرق ساعة وقال : جزاك الله خيراً ، لكن الأمر قد عَبَر عما تخافه . ففارقتُه وسرت إلى الحجاز ، وعدت من مكة على طريق الشام ، ونُكب جمال الدين ومات فى الحبس .

قلت : ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشاتانى فى هذا الوزير الجواد لما نكب :

ما حطّ قدرك من أوج العلا القدر ... كلا ، ولا غيرت أفعالك الغير

---

(١) وتسمى أيضاً قرية يونس عليه السلام بالموصل ، وهى غير نينوى من سواد الكوفة والتى منها كربلاء حيث استشهد الحسين ، رضى الله عنه . معجم البلدان : ٨ : ٣٦٨ .

(٢) قطب الدين مودود صاحب الموصل عندئذ .

أنت الذى عَمَّ أهلَ الأرض نائلُه ولم ينل شأوَه من سؤدد بشر
سارت صفاتك فى الآفاق واتضحت وصدّق السمع عنها ما رأى البصر
فاصبر لصرف زمان قد منيت به فآخر الصبر ، يا طودَ النُّهىُ ، الظفر
فما ترى أحداً فى الخلق يسلم من صروف دهر له فى أهله غير
سعوا بقصدك سرًّا ، واستتب لهم ولو سعوا نحوه جهراً لما قدروا
لولا الأمانى التى تحيا النفوس بها لمتّ من لوعة فى القلب تستعر

ومنها فى [ذكر][1] الشيخ عمر الملا :

وأصدق الناس فى حفظ العهود ، إذا ميزت بالفكر أحوال الورى ، عُمَر
الزاهدُ ، العابد ، البَرُّ ، التقى ، ومن يزوره ويقوّى أزرَه الخَضِر

وقال العرْقلة يرثى جمال الدين الوزير والصالح بن رزّيك :

لا خير فى الدنيا ولا أهلها بعد جمال الدين والصالح
بحران ، لولا دمع باكيهما ما كان ماء البحر بالمالح

قال ابن الأثير : قال والدى : كنتُ أرى من الوزير جمال الدين فى الأيام الشهيدية[2] من الكفاية والنظر فى صغير الأمور وكبيرها ، والمحاققة فيها ، ما يدل على تمكنه من الكفاية . فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد ، وجمالُ الدين وزيرُه حينئذ ، وقد تمكن زين الدين علىّ بن بكتكين فى الدولة تمكناً عظيما ، وتقدم عند قطب الدين جماعة من أصحابه ؛ فكان جمال الدين مع تمكنه وعلو محله يهمل بعض الأمور ؛ قال : فقلت له يوماً : أين تلك الكفاية التى كنا نراها منك فى الأيام الشهيدية ؟ ما أرى الآن منها شيئاً ! ! فقال لى : والآن ما عندى كفاية ؟ فقلت : ما هذا العمل من ذلك بشىء . فقال : أنت صبى غِرٌّ . ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد فى كل زمان ، إنما الكفاية أن يسلك الإنسان فى كل زمان ما يناسبه ذلك

---

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٠٨ ا ، ومن ق ١٠٦ ب .
(٢) أي أيام الشهيد عماد الدين زنكى .

الوقت . كان لنا صاحب متمكن قوى العزم[1] لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه ، ولا يَتَلَوَّن (١٠٩ ـ ١) بأقوال أصحابه ، لحفظناه ؛ فكان ماأفعله هو الكفاية . وأما الآن فلنا سلطان غير متمكن ، وهو محكوم عليه ؛ فهذا الذى أفعله هو الكفاية .

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة :

قال ابن الأثير[2] : فيها فتح نور الدّين قلعة بانياس[3] من الفرنج . وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم ، وأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعودة إلى بلادهم ، وأظهر أنه يريد طبريّة ؛ فجعل من بقى من الفرنج همهم حفظها وتقويتها . فسار نور الدين مجدًّا إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ؛ ونازلها ، وضيق عليها وقاتلها . وكان فى جملة عسكره أخوه نصرة الدين[4] أمير أميران ، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه ؛ فلما رآه نور الدين قال له : لو كُشف لك عن الأجر الذى أعد لك لتمنيت أن تذهب الأخرى . وجدّ فى حصارها ، وسمع الفرنج بذلك فجمعوا ، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحه الله تعالى . على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم ، فملك القلعة وملأها ذخائر وعُدة ، ورجالا عدة .

وعاد نور الدّين إلى دمشق وفى يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر ، فسقط من يده فى شعراء بانياس ، وهى كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان . فلما أبعد من المكان الذى ضاع فيه الفص علم به ، فأعاد بعض أصحابه فى طلبه ودلهم على مكانه ، وقال أظنه هنالك ضاع . فعادوا إليه فوجدوه ، فقال بعض الشعراء الشاميين ، وأظنه أحمد بن منير ، من جملة قصيدة يمدحه بها ويهنيه بهذه الغزاة وعود الفص الياقوت :

إن يمتَرِ الشكّاك فيك ، فإنك الـ مهدىّ مطفئ جمرة الدجال

(١) يعنى به عماد الدين زنكى .

(٢) فى الأتابكة : ٢٣٣ ـ ٢٣٥ ، وهو اقتباس حرفى .

(٣) فى سفح جبل الحرمون .

(٤) يلقب هذا الأمير كذلك بلقب ناصر الدين . انظر : ٢٦٨ من هذا الكتاب فى نص المتن ، وفى الحاشية رقم ٥ كذلك .

فلمودة الجبل الذى أظللته بالأمن بين عناطل وجبال
مسترجعاً لك بالسعادة آية ردت مطال الفال غير مُطال
لم يُعْطَها إلا سليمان ، وقد نلت الرقاء بوشك الإعجال
زجر جرى لسرير ملكك أنه كسريره من كل جدرة عال
فلو البحار السبعة استهوينه وأمرتهن قذفنه فى الحال

قلت : هذه الأبيات لابن منير بلا شك ، ولكن فى غير هذه الغزاة ، فإن ابن منير قد سبق أنه توفى سنة ثمان وأربعين[1] ، وفتح بانياس كما تراه فى سنة ستين . وقد قرأت فى ديوان ابن منير : وقال يمدحه ، يعنى نور الدين ، ويهنئه بالعود من غزاة وضياع فص ياقوت جبل من يده لاشتغاله بالصيد شراؤه[2] ألف ومائة دينار . وفى نسخة : ووجد أن خاتماً[3] ضاع منه فى الصَّيد قيمته ألف ومائة دينار ، وأنشده إياها بقلعة حمص . فذكر القصيدة أولها :

* يوماك يوم ندًى ويوم نِزال *

يقول فيها :

أخرست شقشقة الضلال ، وقدتَه قود الذَّلول أطاع بعد صيال
ورميت دار المشركين بصيلم ألقحت فيها الحرب بعد حيال
وسَعَرْتَ بين تريبهم وترابهم ذعراً يُشيب نواصىَ الأطفال
فوق الخطيم ، وقد خطمت زعيمهم ضرباً سوابقه بغير توالى
ضرباً ملأْت فرنجةً من حرِّه رهبا ، به سيف الصقالب صالى
وبهَجٍّ حارمَ أحرمتْ لقراعهم هيم أحلن النوم غير حلال
هجموا على الجسر الحديد[4] حديدها نبعاً يعاذمه[5] أدير دُصال

(١) انظر ما تقدم ص : ٢٢٧ ـــ ٢٢٨ .
(٢) أى قيمته وثمنه .
(٣) فى الأصل وكذلك فى ل ١٠٩ ا : خاتم ، وهو بنفس الوضع فى ق ١٠٧ ا ، وهو خطأ نحوى أظنه من النساخ .
(٤) فى ل ١٠٩ ا ، وكذلك فى ق ١٠٧ ب : هجموا على جسر الحديد .
(٥) عذم يعذم : عض أو أكل بجفاء ، وفرس عذوم : عضوض .

زلزلت أرضهمُ بوقع صواعق أعطيننا أمناً من الزلزال
فى مأزق شمرت ذيلك تحته والنصر فوقك مسبل الأذيال
فى دولة غراء محمودية سحبت رداء الحمد غير مذال
تنسى الفتوح بها الفتوح ، وتجتنى زُهر المقال بباهر الأفعال
لبست بنور الدين نور حدائق ثمراتهن غرائب الأفضال
ملك تحجّب فى السرير بزأرة زرّت حواشيها على رئبال
تنجاب عن ذى لبدتين شذاته فى بردتى بدل من الأبدال
رفع الرواق بروق أنطاكيّة فرمى الخليج بمرهق البلبال
بدر لأربع عشرة اقتبس السنا من خمس عشرة سورة الأنفال
فوز المآل أخاضه ماء الطلى وسواه يُقعده احتيازُ المال
متقسم بين القسيين العلا عن عمٍّ عمٍّ أو مخايل خال
لازلت تطلع من ثنايا جحفل يقفو لواءك كاللوى المنهال
لك أن تطل على الكواكب راقياً والحاسديك بكاً على الأطلال

ومما يناسب هذه السعادة فى وجدان الخاتم بعد وقوعه فى مظنة الهلاك والضياع ما بلغنى أن موسى الهادى[1] لما ولى الخلافة سأل عن خاتم عظيم القيمة كان لأبيه المهدى ، فبلغه أن أخاه الرشيد أخذه ، فطلبه منه فامتنع ، فألح عليه ، فحنق الرشيد ومر على جسر بغداد فرماه فى دجلة . فلما مات الهادى وولى الرشيد الخلافة أتى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه ثَمَّ ، وأمر الغطاسين أن يلتمسوه ، ففعلوا ، فاستخرجوا الخاتم الأول ، فعُد ذلك من سعادة الرشيد و بقاء ملكه .

قال ابن الأثير[2] : ولما فتح نور الدّين حصن بانياس كان ولد معين الدّين

---

(١) الخليفة العباسى ، وخلافته بين سنتى ١٦٩ ــ ١٧٠ هـ .

(٢) الأتابكة : ٢٣٥ ؛ وهو اقتباس حرفى ، والواقع أنه استمرار للاقتباس السابق فى موضوع فتح بانياس ، قطعه أبو شامة بمحاولة لتحقيق تاريخ قصيدة ابن منير ومناسبتها ، بعد أن أخطأ ابن الأثير فيهما ، وربما اقتبسه من بقية القصيدة زيادة عما جاء فى الأتابكة .

أُنَر[1] الذى سلم بانياس إلى الإفرنج قائمًا على رأسه ، فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ، ولك فرحتان ، فقال : كيف ذلك ؟ قال : لأن الله تعالى اليوم بَرّد جلدة والدك من جهنم . وقد تقدم أنه كان صانع بها عن دمشق ولما نزل الفرنج عليها[2] .

وفيها توفى وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيبانى، من بنى ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن الحصن[3] . وكان عالمًا دينا مدبرا حنبلى المذهب ؛ وزر للمقتفى[4] ثم للمستنجد[5] بعده ، وله عدة مصنفات ، منها : الإفصاح فى شرح الأحاديث الصحاح . وكان يجمع فى مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب (١١٠-ا) الأربعة والنحاة وغيرهم ، ويجرى بحضرتهم فوائد كثيرة. ثم توفى وهو ساجد فى صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث عشر جمادى الأولى سنة ستين وخمسمائة . ورثيت له منامات حسنة ، ومدحه جماعة من الفضلاء . ومولده فى ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دُجَيْل[6] تعرف بالدُّور[7] ، وهو الذى محا رسوم سلاطين العجم من العراق وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره . ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف : اجتهد أن تستر العصاة ، فإن ظهور معاصيهم عيب فى الإسلام ، وأولى الأمور ستر العيوب .

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة :

ففيها توفى فتح الدين بن أسد الدين شيركُوه ، أخو ناصر الدين ؛ وقبره بالمقبرة النجمية

---

(١) أتابك دمشق أيام صاحبها مجير الدين آبق بن محمد بن بورى ، توفى سنة ٥٤٤ . انظر ما تقدم فى هذا الكتاب : ١٦٣ - ١٦٧ ، وكذلك ذايل تريخ دمشق لابن القلانسى : ٢٦٤ - ٣٠٦ .

(٢) وذلك سنة ٥٤٢ هـ . انظر ما تقدم فى هذا الكتاب : ١٢٧ - ١٣٨ .

(٣) سبق شىء من التعريف به . انظر هذا الكتاب : ٢٢٣ حاشية : ١ .

(٤) الخليفة العباسى ، تولى الخلافة بين سنتى ٥٣٠ - ٥٥٥ هـ .

(٥) وخلافته من سنة ٥٥٥ إلى سنة ٥٦٦ هـ .

(٦) اسم نهر فى موضعين ، أحدهما مخرجه شمالى بغداد بينها وبين تكريت ، وهو المقصود هنا ؛ والآخر نهر بالأهواز . معجم البلدان : ٤ : ٤١ - ٤٢ .

(٧) اسم لسبعة مواضع بأرض العراق من نواحى بغداد ، والمقصود منها هنا تلك القرية التى تقع فى عمل دجيل ، وتعرف باسم دور بنى أوانر ، أو دور الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ، نفس المصدر : ٩٧ - ٩٨ .

إلى جانب قبر ابن عمه شاهنشاه بن أيوب فى قبة فيها أربعة قبور ، هما الأوسطان منها . وفى هذين الأخوين ، ناصر الدين وفتح الدين ، يقول العرقلة حسان[1] :

لله شبلا أسد خادر ما فيهما جبن ولا شح
ما أقبلا إلا وقال الورى قد « جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ »

وفيها[2] سار نور الدين أيضاً إلى حصن المنيطرة[3] ، وهو للفرنج ، ولم يحشد له ولا جمع عساكره ، إنما سار إليه على غرة من الفرنج ، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا ؛ فانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها ، وجدّ فى قتالها ، وأخذها عنوة وقهراً ، وقتل من بها ، وسبى ، وغنم غنيمة [كثيرة][4] لِأَمْن مَنْ به ، فأخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون ؛ ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلا وقد ملكه . ولو علموا أنه جرد جريدة[5] لأسرعوا ، وإنما ظنوا أن نور الدين فى جمع كثير ، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا منه .

هذا قول ابن الأثير . وذكر القاضى ابن شداد[6] أن ذلك كان فى سنة اثنتين وستين كما سيأتى ، والله أعلم .

وفيها توفى الجليس بن الحباب بمصر . قال العماد فى الخريدة[7] : القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحسين بن الحباب الأغلبى السعدى التميمى ، جليس صاحب مصر[8] ، ففضله مشهور ، وشعره مأثور . وكان أوحد عصره فى مصر نظما ونثراً ،

---

(١) انظر خريدة القصر : قسم شعراء الشام : ١ : ٩٤ .

(٢) اقتباس حرفى من الأتابكة لابن الأثير : ٢٣٥ ــ ٢٣٦ .

(٣) وصف ياقوت هذه البلدة بأنها حصن بالشام قريب من طرابلس . معجم البلدان : ٨ : ١٨٦ .

(٤) ما بين الحاصرتين من ل ٩٠ أ ب .

(٥) الجريدة : الفرقة من العساكر الخيالة لا راجل فيها ، وخرج الجند جريدة أى مسرعين من غير أثقال . لسان العرب ؛ انظر كذلك : Dozy, Supp. Dict. Ar. .

(٦) فى النوادر السلطانية : ٣٠ ــ ٣١ .

(٧) خريدة القصر وجريدة العصر ــ قسم شعراء مصر : ١ : ١٨٩ .

(٨) الخليفة الفائز الفاطمى (٥٤٩ ــ ٥٥٥) ؛ نفس المصدر ، وقد تولى الجليس ديوان الإنشاء فى مصر ، مع الموفق بن الخلال ، فى عهد الوزير طلائع بن رزيك ؛ انظر فوات الوفيات : ١ : ٢٨٨ ؛ النجوم الزاهرة : ٥ : ١٩٢ ، ٣٧١ .

[و] ترسّلا وشعرا ؛ ومات بها فى سنة إحدى وستين ، وقد أناف على السبعين . أنشدنى له الأمير نجم الدين بن مصال[1] من قصيدة يقول فيها[2] :

ومن عجب أن السيوف لديهمُ تحيض دماء ، والسيوف ذكور
وأعجب من ذا أنها فى أكفهم تأجّجُ ناراً ، والأكف بحور

قال[3] : وأنشدنى له الشريف إدريس الإدريسى قصيدة سيّرها إلى الصالح بن رزّيك قبل وزارته ، يحرضه على إدراك (١١٠ ــ ب) ثأر الظافر[4] ، وكان عباس[5] وزيرهم قتله وقتل أخويه يوسف وجبريل ، يقول فيها :

أصادقُهم قولا وغيباً ومشهداً نَحَوْهم على عمد بفعل أعادى[6]
فأين بنو رزيك عنها ونصرهم وما لهمُ من منعة وذياد
(تداركْ من الإيمان قبل دُثورِهِ حشاشة نفس آذنت بنفاد)[7]
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم ومصرعهم لم تكتحل برقاد
فرق جموع المارقين ، فإنها بقايا زروع آذنت بحصاد

وله فيه من أخرى فى هذه الحادثة :

ولما ترامى البربرى بجهله إلى فتكة ما رامها قط رائم

---

(١) من رجال الدولة الفاطمية ، ثم الأيوبية . تولى بعض إمارات الصعيد أيام الخليفة الحافظ الفاطمى ، وتولى الوزارة بعد طرد الوزير ابن السلار أوائل عهد الخليفة الظافر ، لكنه لم يلبث أن فر أمام تقدم جيوش ابن السلار ، ولم يكن قد أقام فى الوزارة أكثر من خمسين يوما ، وهرب إلى الصعيد حيث تتبعته جيوش ابن السلار ، وأتت برأسه . وفيات الأعيان : ١ : ٤٦٨ ؛ الفاطميون فى مصر : ٢٩٢ ــ ٢٩٦ .

(٢) الخريدة ــ قسم شعراء مصر : ١ : ١٩٠ .

(٣) نفس المصدر : ١٩٠ .

(٤) الخليفة الفاطمى بين سنتى ٥٤٤ ــ ٥٤٩ .

(٥) أبو الفضل عباس بن أبى الفتوح ؛ تزوجت أمه ابن السلار وأقامت معه ردحا من الزمن ، وتزوج عباس وأنجب ولداً سماه نصرا . وقد أرسل ابن السلار ، أيام وزارته ، عباساً إلى الشام لحرب الصليبيين ، فتآمر قرب بلبيس على قتل ابن السلار ، وحضر ابنه نصر المؤامرة وتولى تنفيذها . وولى عباس بعد ذلك وزارة الفاطميين . الفاطميون فى مصر : ٢٩٦ وما بعدها .

(٦) هذا البيت ساقط من الخريدة : ١ : ١٩٠ .

(٧) غير موجود فى ل ١١٠ ا ، وهو ساقط من ق كذلك ؛ ويجىء فى الخريدة بعد البيت التالى له هنا . الخريدة : ١ : ١٩٠ .

ركبت إليه متن عزمتك التى | بأمثالها تُلقى الخطوب العظائم
أعدت إليهم ملكهم بعد ما لوى | به غاصب حق الإمامة ظالم[1]

وأنفذ إليه فى المعنى[2] :

أعدت إلى جسم الوزارة روحها | وما كان يرجى بعثها ونشورها
أقامت زماناً عند غيرك طامثاً | فهذا الأوان قرؤها وطهورها[3]
من العدل أن يحيا بها مستحقها | ويخلعهـا مردودةً مستعيرها
إذا ملك الحسناء من ليس كفئها[4] | أشار عليه بالطلاق مشيرها

وله يشكو طبيباً[5] :

وأصل بليّتى مَن قد غزانى | من السَّقَم الملحّ بعسكرين
طبيب طبّه كغُراب بين | يفرق بين عافيتى وبينى
أتى الحمى وقد شاخت وباخت | فرد لها الشباب بنُسختين
ودبرها بتدبير لطيف | حكاه عن سِنان أو حُنين
وكانت نوبةً فى كل يوم | فصيّرها بحذق نوبتين

قلت : الأبيات الرائية تمثل بها الجليس ، وهى لصرد ، وقرأتها فى ديوانه ؛ وهى من قصيدة مدح بها وزير الخليفة ببغداد فخر الدولة أبا نصر محمد بن جهير ويهنئه بعوده إلى الوزارة ؛ وأول القصيدة[6] :

لحاجةُ قلب ما يفيق غرورها | وحاجة نفس ليس يُقضى يسيرها

---

(١) فى الخريدة حق الأمانة ، وبين هـذا البيت والذى قبله أبيات أربعة وردت فى الخريدة ، ولم يقتبسها أبو شامة ، الخريدة : ١ : ١٩٠ .
(٢) نفس المصدر : ١ : ١٩٣ .
(٣) فى الخريدة : * وهذا أوان قرئها وطهورها *
(٤) فى الخريدة : أهلها .
(٥) يسميه العماد فى الخريدة ابن السديد . ويعلق محققها بأنه كان طبيب الفاطميين وعاش بعدهم طويلا حتى توفى سنة ٥٩٢ هـ ، وقد وردت الأبيات فى الخريدة : ١ : ١٩٢ ـ ١٩٣ .
(٦) فى ل ، وكذلك فى نسخة ق ١٠٨ ب : وأولها .

(وهى طويلة يقول فيها متغزلا)[1]:

وقفنا صفوفاً فى الديار، كأنها ... صحائف ملقاة ونحن سطورها
يقول خليلى، والظباء سوانح: ... أهذى التى تهوى؟ فقلت: نظيرها
وقد قلتما لى ليس فى الأرض جنة ... أما هذه فوق الركائب حورُها؟
أراكَ الحِمى، قل لى بأى وسيلة ... وصلت إلى أن صادقتك ثغورها!

ويقول فى مديحها:

وما لى بها علم، فهل أنت عالم ... أأفواهها أولى بها أم نحورها
على رِسلكم فى الهجر، إنّا عصابة ... إذا ظفرت فى الحب عف ضميرها
فقل لليالى: كيف شئت تقلّبى ... ففى يد عبل الساعدين أمورها
أمانىُّ فى نفس الوزارة بُلِّغت ... به كنهَها حتى استحقت نذورها
لوَتْ وجهها عن كل طالب متعة ... إلى خاطبٍ حلَّ عليه سفورها
إذا مثلَ الأقوام دون عرينه ... تساوى به ذو طيشها ووقورها
تكاد لِما قد ألبستْ من سكينة ... ترف على تلك الرءوس طيورها

(١١١ — ا) ثم دخلت سنة اثنتين وستين [وخمسمائة][2]:

ففيها[3] عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخرة! وقد كان بعد رجوعه من مصر لا يزال يحدث نفسه بقصدها ومعاودتها، حريصاً على الدخول إليها، يتحدث به مع كل من يثق إليه. وكان مما يهيجه على العود زيادة حقده على شاور وما عمل معه. فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها، وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب. وفى ذلك يقول العرقلة[4]:

---

(١) ساقطة من ل ١١٠ ب؛ وكذلك من ق ١٠٩ ا.
(٢) من ل ١١٠ ب.
(٣) اقتباس حرفى طويل من الأتابكة: ٢٣٦ — ٢٤١.
(٤) هذه الأبيات غير موجودة فى الأتابكة.

أقول والأتراك قد أزمعت مصرَ إلى حرب الأعاريب :
ربّ ، كما ملّكتها يوسفَ الصِّ(م)ـدِّيقَ من أولاد يعقوب
يملكها في عصرنا يوسفُ الص(م)ـادقُ من أولاد أيوب
من لم يزل ضرّاب هام العدا حقًّا وضرّاب العراقيب

ثم إن أسد الدين جد في السير على البرّ ، وترك بلاد الإفرنج عن يمينه ، فوصل إلى الديار المصرية وقصد إطفيح[1] ، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي ، ونزل بالجزيرة[2] مقابل مصر ، وتصرّف في البلاد الغربية وأقام بها نيفاً وخمسين يوماً .

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم و يستصرخهم ؛ فأتوه على الصعب والذلول ، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمير ، وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النُّورى على الإسراع في المسير ؛ فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم . فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي ؛ وكان أسد الدين والعسكر النُّورى قد ساروا إلى الصعيد فبلغوا مكاناً يعرف بالبابيْن ، وسارت العساكر المصرية ، والفرنج وراءهم ، فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جمادى الأولى .

وكان [شيركوه][3] قد أرسل إليهم جواسيس ، فعادوا وأخبروه بكثرة عَددهم وعُددهم ، وجدهم في طلبه ؛ فعزم على قتالهم ولقائهم ، وأن تحكم السيوف بينه و بينهم .

إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطير الذى عطبهم فيه أقرب من السلامة ، لقلة عددهم و بعدهم عن بلادهم ؛ فاستشارهم ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام ، وقالوا له : إن نحن انهزمنا ، وهو الذى لا شك فيه ، فإلى أين نلتجئ و بمن نحتمى ، وكل من في هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدوّ لنا ، و يوَدون لو شربوا دماءنا ؛ وحق لعسكر عدتهم ألفا فارس قد

---

(١) قرية من قرى الجيزة ، وهى الآن بمركز الصف . انظر الخطط التوفيقية : ٨ : ٧٧ ــ ٧٨ .
(٢) ويسميها ياقوت جزيرة مصر ، ويعرفها بأنها من عمال الفسطاط ، وكانت من متنزهات مصر ، وللشعراء فيها أقوال كثيرة . معجم البلدان : ٣ : ١٠٤ .
(٣) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح .

بعُدوا عن ديارهم وقل ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات ألوف ، مع أن كل أهل البلاد عدو لهم فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النُّورية يقال له شرف الدين بزغش ، وكان من الشجاعة بالمكان المشهور ، وقال : من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحاً أو مع النساء فى بيته ؛ والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة و بلاء تُعذرون فيه ليأخذن إقطاعاتكم وليعودنّ (١١١ ب) عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم ، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار ؟ ! قال أسد الدين : هذا رأيى و به أعمل ، ووافقهما صلاح الدّين يوسف بن أيوب ، ثم كثر الموافقون لهم على القتال ، فاجتمعت الكلمة على اللقاء . فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة ، وقد جعل الأثقال فى القلب يتكثر بها ، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد .

ثمّ إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه فى القلب ، وقال له ولمن معه : إن الفرنج والمصريين يظنون أننى فى القلب فهم يجعلون جَمْرتهم بإزائه وحملتهم عليه ، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم ، واندفعوا بين أيديهم ؛ فإذا عادوا عنكم فارجعوا فى أعقابهم . واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم و يعرف صبرهم وشجاعتهم ، ووقف بهم فى الميمنة . فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه ، فقاتلهم من به قتالا يسيراً ، ثم انهزموا بين أيديهم ، فتبعوهم . فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين فهزموهم ، ووضع السيف فيهم فأثخن ، وأكثر القتل والأسر ، وانهزم الباقون . فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا فى القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعاً ليس بها منهم ديّار ، فانهزموا أيضاً . وكان هذا من أعجب ما يؤرخ : أن ألفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل[1] .

ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية وجبى ما فى طريقها من القرايا والسواد من الأموال ، ووصل إلى الإسكندرية فتسلمها من غير قتال : سلمها إليه أهلها ؛ فاستناب بها

---

(١) يرد هذا فى الأتابكة ، الذى نقل عنه أبو شامة ، فى فصل جديد بعنوان مستقل ..

صلاح الدّين ابن أخيه ، وعاد إلى الصعيد وتملّكه ، وجبى أمواله ، وأقام بها حتى صام رمضان .

وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم ، وأقاموا عوض من قتل منهم ، واستكثروا ، وحشدوا ، وساروا إلى الإسكندرية ، وبها صلاح الدين فى عسكرٍ يمنعونها منهم ، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج ، فاشتد الحصار وقل الطعام بالبلد ، فصبر أهله على ذلك . ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم ، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان ، ووصله رسل[1] المصريين والفرنج يطلبون الصلح ، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد ؛ فأجابهم إلى ذلك وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر ، ولا يتسلمون منها قرية واحدة ، وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين . فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا ؛ وعاد إلى الشام ، فوصل دمشق ثامن عشر ذى القعدة ؛ وتسلم المصريون الإسكندرية فى النصف من شوال .

وأما (١١٢ ـ ا) الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة[٢]، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع الملك العادل من إنفاذ عسكرٍ إليهم ، ويكون للفرنج من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار . هذا كله يجرى بين الفرنج وشاور ؛ وأما العاضد صاحب مصر فليس إليه من الأمر شىء ، ولا يعلم بشىء من ذلك : قد حكم عليه شاور وحجبه . وعاد الفرنج إلى بلادهم ، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة .

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمى ، وهو من أكابر أمراء الملك العادل ، وهو خال صلاح الدين يوسف ، ينهى محبته وولاءه ، ويسأله أن يأمر بإصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته ، ويجمع كلمة الإسلام ، وبذل مالاً يحمله كل سنة . فأجابه إلى ذلك ، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلا . فبقى

---

(١) فى ل ١١١ ب : رسول .

(٢) فى الأصل ما يقام للدواب من العلف الذى يكفيها يومها وليلتها . وشحنة البلد من فيه الكفاية لضبطها من قوات الأمن . والشحنكية رئاسة الشرطة . انظر القاموس المحيط ؛ وكذلك : *Dozy ; Supp. Dict. Ar.*

الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار سنة أربع وستين .

قال القاضي أبو المحاسن [يوسف بن شداد][1] : ذكر عود أسد الدين إلى مصر في المرة الثانية ، وهي المعروفة بوقعة البابين : لم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاوراً ذلك وداخله الخوف على البلاد من الأتراك ، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد ، وأنه لا بد له من قصدها . فكاتب الفرنج وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكيناً كلياً ، ويعينونه على استئصال أعدائه ، بحيث يستقر قدمه فيها . وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين ، فاشتد خوفهما على مصر أن يملكها الكفار فيستولون على البلاد كلها . فتجهز أسد الدين ، وأنفذ نور الدين معه العسكر ، وألزم صلاح الدين رحمه الله بالمسير معه على كراهة منه لذلك ، وذلك في أثناء ربيع الأول . وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الفرنج إليها . واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين ، والمصريون بأسرهم[2] ، وجرى بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة ، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدين .

وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين ، قدس الله روحه ، جرد العساكر إلى بلاد الإفرنج وأخذ المنيطرة ؛ وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم وعادوا . وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين ، وما عانوه من الشدائد وعاينوه من الأهوال . وما عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلهم عن مصر ، وعاد إلى الشام في بقية السنة ، وقد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليها من الفرنج ، لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها . فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل والقضاء يجره إلى شيء قد قُدر لغيره وهو لا يشعر بذلك .

---

(١) أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح ، والفقرة الواردة هنا اقتباس حرفي من ابن شداد : النوادر السلطانية : ٢٩ — ٣٠ .

(١) يعني والمصريون بأسرهم متفقون مع شاور والفرنج على أسد الدين .

قال(١) : وفى أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المنيطرة بعد مسير أسد الدين فى رجب ، وخرب قلعة (١١٢ ـ ب) أكاف بالبرية .

وفى رمضان منها اجتمع نور الدين وأخوه قطب الدين وزين الدين بحماة للغزاة ، وساروا إلى بلاد الفرنج ، فخربوا هونين(٢) فى شوال منها .

وفى ذى القعدة منها كان عود أسد الدين إلى مصر .

وفيه مات قرا أرسلان(٣) بديار بكر .

فصل

وفى شعبان من هذه السنة قدم دمشق عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأصفهانى ، مصنف كتابى الفتح والبرق ؛ فأنزله قاضى القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم بن الشَّهْرَزَوْرِى(٤) بالمدرسة النُّورية الشافعية(٥) عند حمام القصير بباب الفرج ، المنسوبة الآن إلى العماد . وإنما نسبت إليه لأن نور الدين رحمه الله تعالى ولاها إياه(٦) فى رجب سنة سبع وستين بعد الشيخ الفقيه بن عبد [الحارثى](٧) .

---

(١) فى النوادر السلطانية : ٣٠ ـ ٣١ ، وهو اقتباس حرفى .

(٢) بلد فى جبال عاملة مطل على نواحى مصر . معجم البلدان : ٨ : ٤٨٦ ، ويذكر الأستاذ جب «Gibb» أنها تقع عند التقاء الطريق القادم من صفد بالطرق الموصلة من تبنين إلى بانياس . انظر : *The Damascus Chronicle of the Crusades, P. 334*

(٣) فخر الدين قرا أرسلان بن ركن الدولة داود ، صاحب ديار بكر ، تولى بين سنتى ٥٣٩ ، ٥٦٣ هـ . انظر مفرج الكروب : ١ : ١٥٣ فى المتن وفى الحاشية : ٣ .

(٤) أبو الفضل محمد بن أبى محمد عبد الله الفقيه الشافعى . تولى قضاء الموصل أيام زنكى ، وقدم دمشق سنة ٥٥٠ ، وتولى قضاءها سنة ٥٥٥ ، وتوفى سنة ٥٧٢ . طبقات الشافعية الكبرى .

(٥) وهى التى عرفت فيما بعد باسم العمادية أيضاً ، داخل باب الفرج . انظر الدارس : ١ : ٤٠٦ وما بعدها .

(٦) فى ل ١١٢ ب : ولاه إياها ، وكلاهما بمعنى .

(٧) ما بين الحاصرتين من الدارس : ١ : ٤٠٧ ، وهو ساقط من ك ، ل ، ق وكذلك من بعض نسخ الدارس . وهو الفقيه أبو البركات الخضر بن شبل بن عبد الحارثى الدمشقى خطيب دمشق ، وقد توفى سنة اثنتين وستين وخمسمائة . انظر الدارس : ١ : ٤٠٧ . وفى مكان آخر من الدارس : الفقيه ابن عبد الواحد ، أو ابن عبد الله : انظر الدارس : ١ : ١٨٣ حاشية : ١ .

وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ابنى شاذى من تكريت ، بسبب أن عمه العزيز أحمد بن حامد اعتقله السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه(1) بقلعة تكريت(2) ، ونجم الدين أيوب إذ ذاك واليها ، فانتسجت المودة بينهم من هناك . فلما سمع نجم الدين بوصوله ، بكر إلى منزله لتبجيله ، وكان صلاح الدين وشيركوه حينئذ بمصر ، فمدح العماد نجم الدين أيوب بقصيدة أولها(3) :

يومُ النوى ليس من عمرى بمحسوب	ولا الفراق إلى عيشى بمنسوب
ما اخترت بُعدك ، لكن الزمان أتى	كَرها بما ليس ، يامحبوب ، محبوبى
أرجو إيابى إليكم ظافراً عجلا	فقد ظفِرت بنجم الدين أيوب
موفق الرأى ، ماضى العزم ، مرتفع	على الأعاجم مجداً والأعاريب
أحبك الله إذ لازمت نجدته	على جبين بتاج الملك معصوبُ(4)
أخوك وابنك ، صدقاً منهما ، اعتصما	بالله ، والنصر وعدٌ غير مكذوب
هما هامان فى يومَىْ وغًى وقِرًى	تعوّدا ضرب هام أو عراقيب
غداً يشبان فى الكفار نار وغى	بلفحها يصبح الشبان كالشيب
بملك مصر ونصر المؤمنين غداً	تحظى النفوس بتأنيس وتطييب
ويستقر بمصرٍ يوسفٌ ، وبه	تقر بعد التنائى عين يعقوب
ويلتقى يوسف فيها بإخوته	والله يجمعهم من غير تثريب

وكان إنشاده هذه القصيدة فى آخر شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، وتم ملكهم مصر بعد سنتين [قال](5) فنظمتُ مافى الغيب تقديره .

---

(1) السلطان السلجوقى فى العراق : تولى السلطنة سنة ٥١١ هـ ، وتوفى سنة ٥٢٥ . انظر تاريخ دولة آل سلجوق : ١٠٩ ، وما بعدها ، وكذلك : *Muhammadan Dynasties, P. 154.*

(2) راجع الظروف التى جرت فيها هذه الحوادث فى تاريخ دولة آل سلجوق : ١٥٢ ـ ١٥٤ .

(3) فى ك : منها أولها .

(4) ما هنا من ل ١١٢ ب ، وهو كذلك فى ق ١١١ ا . وفى الأصل : محجوب ولوقها : معصوب .

(5) ما بين الحاصرتين من ل ١١٢ ب ، وهى ساقطة من ك ووجودها ضرورى ، لأن العماد هو القائل لا أبو شامة .

قال : وكان أسد الدين قد جمع وسار إلى مصر فى الرمل فى النصف من ربيع الأول ، ووصل فى سادس ربيع الآخر إلى إطفيح وعبر منها إلى الجانب الغربى ، وأناخ بالجيزة محاذاة مصر ، فأقام عليها نيفاً وخمسين يوماً . واستعان شاور بالفرنج ورتبوا لهم سوقاً بالقاهرة ، وعبروا بهم من البلاد الشرقية إلى الغرب ؛ وعلم أسد الدين فسار أمامهم ، فالتقوا (١١٣ ـ ١) بموضع يعرف بالبابين ، فكسرهم أسد الدين وأصحابه ، وقتلوا من الفرنج وممن تبعهم من المصريين ألوفاً ، وحصل منهم فى الأسار سبعون فارساً من بارونيتهم . فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الإسكندرية ، فوجدوا مساعدة من أهلها فدخلوها . ثم قال أسد الدين : أنا لا يمكننى أن أحصر نفسى ؛ فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصعيد فاستولى عليها ، وجبى خراجها . وأقام صلاح الدين بالإسكندرية فسار إليه شاور والفرنج، فحاصروه أربعة أشهر ، وصدق أهل الإسكندرية القتال مع صلاح الدين ، وقوى أسد الدين بقوص ، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص . فسمع الفرنج أنه جاء يقصدهم فرحلوا عن الحصار . وكان شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين بالذهب ، فلما راسلوه[1] فى المهادنة أجاب ، وطلب منهم عوض ماغرمه ؛ فبذلوا له خمسين ألف دينار ، فخرجوا من الإسكندرية فى النصف من شوال ، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذى القعدة ، وعادوا إلى الخدمة النورية . فاجتمع العماد بأسد الدين وأنشد هذه القصيدة :

بلغتَ بالجد مالا يبلغ البشر ... ونلتَ ماعجزت عن نيله القُدر
من يهتدى للذى أنت اهتديت له ... ومن له مثل ما أثّرته أثرا
أسيرتَ أم بسُراك الأرضُ قدطويت ... فأنت إسكندرٌ فى السير أم خَضِر
أوردْت خيلا بأقصى النيل صادرةً ... عن الفرات يقاضى وِرْدَها الصَّدَر
تناقلت ذكرك الدنيا ، فليس لها ... إلا حديثك ما بين الورى سمر
فأنت مَنْ زانت الأيام سيرتَه ... وزاد فوق الذى جاءت به السِّير
لو فى زمان رسول الله كنت ، أتت ... فى هذه السيرة المحمودة السور

---

(١) أى راسلوا شيركوه .

أصبحت بالعدل والإقدام منفرداً ... فقل لنا : أعليٌّ أنت أم عمر
إسكندرٌ ذكروا أخبار حكمته ... ونحن فيك رأينا كل ما ذكروا
ورُسْتُمٌ خبرونا عن شجاعته ... وصار فيك عياناً ذلك الخبر
افخر[1] ؛ فإن ملوك الأرض أذهلهم ... ما قد فعلت ، فكلٌّ فيك مفتكر
سهرت إذ رقدوا ، بل هجت إذ[2] سكنوا ... وصُلت إذ جبنوا ، بل طُلت إذ قصُروا
يستعظمون الذى أدركته عجباً ... وذاك فى جنب ما ترجوه محتقر
قضى القضاء بما ترجوه عن كثب ... حتما ، ووافقك التوفيق والقدر
شكت خيولك إدمان السرى ، وشكت ... من فَلِّها البيضُ ، بل من حَطْمها السُّمُر
يسرت فتح بلاد كان أيسرها ... لغير رأيك قفلاً فتحه عسر
قرنت بالحزم منك العزم ، فاتسقت ... مآربٌ لك عنها أسفر السفر
ومن يكون بنور الدين مهتدياً ... فى أمره ، كيف لا يقوى له الوزر
يرى برأيك ما فى الملك يبرمه ... فأنت منه بحيث السمع والبَصر
لقد بغت فئةُ الإفرنج فانتصفت ... منها ، بإقدامك ، الهندية البتر
(١١٣ ـ ب) غرست فى أرض مصر من جسومهمُ ... أشجار خط لها من هامهم ثمر
وسال بحر نجيع فى مقام وغًى ... به الحديد غمامٌ ، والدم المطر
أنهرت منهم دماء بالصعيد ، جرى ... منها إلى النيل فى واديهمُ نَهَر
رأوا إليك عبور النيل إذ عدموا ... نصراً فما عبروا حتى قد اعتبروا
تحت الصوارم هامُ المشركين ، كما ... تحت الصوالج يوماً خفّت الأكر
أفنت سيوفك من لاقت ، فإن تركت ... قوماً فهم نفر مَن قبلها نفروا
لم ينج إلا الذى عافته من خَبث ... وحش الفلا ، وهو للمحذور منتظر
والساكنون القصورَ القاهرية قد ... نادى القصورُ عليهم أنهم قُهِروا
وشاورٌ شاوروه فى مكائدهم ... فكاده الكيد لما خانه الحذر
كانوا من الرعب موتى فى جلودهم ... وحين أمنتهم من خوفهم نُشِروا

(١) بقطع الهمزة ، ليستقيم الوزن .
(٢) فى ك : إن ، والمثبت هنا من ل ١١٣ ا ، وهو كذلك فى ق ١١١ ب .

وإنّ من شيركوهَ الشركَ منخزلٌ والـكفرَ منخذل ، والدينَ منتصر
عوّل على فئـةٍ عنـد اللقاء وفت وعدٌ عن تركمانٍ قبـله غدروا
وكيف يُخذل جيش أنت مالـكه والقائدان له التأييد والظفر
أجاب فيك إلٰه الخلق دعوة من يطيب بالليـل من أنفاسه السّحر

وقال العماد : واتصلت بينى و بين صلاح الدّين يوسف ابن أخيه مودة ، تمت لى بها على الزمان عُدة ؛ ولم يزل يستهديني نظمى ونثرى ، و يشعرنى أنه يميل إلى شعرى . فأول ماخدمته به هذه الـكلمة :

كيف قلتم بمقلتيـه فتور وأراها بلا فتور تجـور

ومنها :

مستجيرٌ جَوْرى ، وإنّيَ منه بابن أيوبَ يوسفٍ مستجير
فضله فى يد الزمانـ سوار مثلها رأيه على الملك سور
كرمٌ سابغ ، وجودٌ عميم وندًى سائغ ، وفضل غزير
أنت من لم يزل يحن إليه ، وهو فى المهد ، سرجه والسرير
من دم الغادرين غادرت بالأمـ س صعيد الصعيد وهو غدير
ولـكلٍّ مما تطاولتَ فيهم أمل قاصر وعمر قصير
لاذ بالنيل شاورٌ مثل فرعو ن ، فذل اللاّجى وعز العُبور
شارك المشركين بغياً ، وقِدماً شاركتها قريظةٌ والنضير
والذى يدعى الإمامةَ بالقا هرة ارتاع أنه مقهور
وغدا المَلْك خائفاً من سُطاكم ذا ارتعاد كأنه مقرور
وبنو الهنفريّ(١) هانوا ففروا ومن الأُسد كلُّ كلب فرور
إنما كان للـكلاب عواء حيث ما كان للأسود زئير

---

(١) وردت فى الأصل : القهقرى ، وأمامها فى الهامش كلمة : غريب . وفى ل ١١٣ ب وردت : الهنفرى ، وهى أولى لتناسب الحديث فى البيت السابق لها عن الملك إذ المقصود به ملك بيت المقدس . وفى ق ١١٢ ا : وبنو الهفري . وهو أغرب !

وقليب عند الفرار سليب فهو بالرعب مطلق مأسور
لم يبقّوا سوى الأصاغر للسبـ ـى فودوا أن الكبير صغير(١)
وحميْت الإسكندرية عنهم ورحى حربهم عليهم تدور(٢)
حاصروها وما الذى بان من ذبِّـ(م)ـك عنها وحفظها محصور
كحصـار الأحزاب طيبةَ قدماً ونبىُّ الهدى بهـا منصور
فاشكر الله حين أولاك نصراً فهو نعم المولى ونعم النصـير
(١١٤ ـ ١) ولكم أرجف الأعادى، فقلنا ما لما تذكرونه تأثير
ورقبنا كالعيد عودك فاليو م به للأنام عيـد كبير
عاد من مصر يوسفٌ وإلى يعـ ـقوب بالتهنئات جاء البشـير
فلأيوب من إياب صلاح الدِّ(م)ين يوم به توفَّى النـذور
ولكم عودة إلى مصر بالنصـ ـر على ذكرها تمر العصـور
فاستردوا حق الإمامة ممن خان فيهـا فإنه مستعـير
وافترعها بكراً، لها [فى مدى](٣) الدهـ ـر رواح فى مدحكم وبكور
أنا سيرت طالع العزم منى وإلى قصـدك انتهى التسيير
وأرى خاطرى لمدحك إلفاً إنمـا يألف الخطيرَ الخطير

وهى والتى قبلها طويلتان جداً. فانتظمت معرفة العماد بصلاح الدين وكان له مساعداً عند نور الدين.

---

(١) ورد هذا البيت ناقصاً مضطربا فى ل ١١٣ ب:

لم يبقوا الأصـاغر للسبى فودوا لو أن الكبير صغير

وهو غير مستقيم وزناً أو معنى. وفى ق ١١١٢ أ:

لم تبقوا سوى الأصـاغر للسبـ ـى فودوا لو أن الكبير صغير

(٢) فى ل ١١٣ ب:

* ورحى من بهم عليهم تدور *

وهو كذلك فى ١١١٢ أ.

(٣) ما بين الحاصرتين مضاف ليكتمل المعنى ويستقيم الوزن، وهو غير موجود فى الأصل، ساقط كذلك من نسخة ل، ونسخة ق.

وقرأت فى ديوان العرقلة : وقال يمدح أسد الدين شيركوه ، وقد أخذ الشقيف ورحل طالباً حصناً يقال له الغُراق :

رحلت من الشّقيف إلى الغُراق ... بعـزم كالمهنّدة الرقاق
ونكست الأعادى منه قهراً ... ومجدك فى ذرا الجوزاء باقى
بجأشك لا بجيشك نلت هذا ... وبالتوفيق لا بالإتفاق[1]
فداؤك من مضى بالحصن قبلى ... إلى دار الخلود من الرفاق
وما نخشى على الإسلام بؤساً ... إذا هلك الجميع وأنت باقى
أشاوركم تُشاور كل خب ... وتنفق عند مثلك بالنفاق
أتصبر إن أتتك بحار خيل ... وقدماً ما صبرتَ على السواقى
متى رفعت لك السودان رأساً ... وقد خلاهم مثل الزقاق
وعيشك ماله من مصبر بد ... ومَن عندى ثلاثاً بالطلاق
هو الأسد الذى ما زال حتى ... بنى مجداً على السبع الطباق

فصـــل

قال ابن الأثير : وفى هذه السنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلب أن يعبر الفرات إليه بعساكره ؛ فتجهز وسار هو وزين الدين فى العساكر الكثيرة ، فاجتمعوا بنور الدين على حمص. فدخل بالعساكر الإسلامية بلاد الفرنج واجتاز على حصن الأكراد ، فأغاروا ونهبوا وأسروا ، وقصدوا عَرْقَة[2] ونزلوا عليها وحصروها ، وحصروا جَبَلَة[3] وأخربوها . وتوجهت عساكر المسلمين يميناً وشمالا تغير وتخرب البلاد ، وفتح العَرِيمة وصافيثا[4] . وعاد إلى حمص، فصام بها شهر رمضان . ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هُونين ،

---

(١) بقطع الهمزة ليستقيم الوزن .

(٢) تقع قريباً من حصن الأكراد فى السفح الشمالى لجبال لبنان ، وفى قلب الوادى الذى يصل حمص وحماه بالساحل . *The Crusaders in the East, P. 31* .

(٣) قلعة مشهورة بمنطقة الساحل ، من أعمال حلب قرب اللاذقية . معجم البلدان : ٣ : ٥١-٥٤ .

(٤) تقسم هاتان القلعتان فى نفس المنطقة ، إلى الشمال من عرقة :
The Crusaders in the East, P. 192

وهى للفرنج أيضاً ، من قلاعهم المنيعة ، فانهزم الفرنج عنها وأحرقوها ، فقصدها نور الدين فوصلها من الغد ، وخرب سورها جميعه وأراد الدخول إلى بيروت فتجدد فى العسكر خُلف أوجب التفرق ، فعاد . وسار قطب الدين إلى الموصل وأقطعه مدينة الرَّقَّة فأخذها فى طريقه.

قال : وفى هذه السنة عصى الأمير غازى بن حسان المنبجى صاحب مَنْبِج[1] على نور الدين ، وهو كان أقطعه إياها ، فأرسل إليه نور الدين عسكراً حصره بها وأخذها منه (١١٤ ــ ب) ، وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان ، وكان عاقلا خيراً ، حسن السيرة ، فبقى بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة اثنتين وسبعين كما سيأتى .

وفى هذه السنة[2] توفى القاضى الرشيد أحمد بن على بن الزبير صاحب كتاب الجنان ، قال العماد فى الخريدة[3] : كان ذا علم غزير وفضل كثير ، قتله شاوَر صبراً فى سنة اثنتين وستين ، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه فى قصده . وأخوه المهذب أبو على الحسن بن على بن الزبير أشعر منه وتوفى قبله بسنة ، لم يكن فى زمانه أشعر منه[4] . وله[5] شعر كثير ، منه قصيدة غراء فى مدح الصالح بن رزيك ، وذكر فيها نور الدين، أولها[6] :

أعلمتَ حين تجاوَر الحيـان ... أن القـلوب مواقد النيران
يا كاسر الأصنام قم فانهض بنا ... حتى تصـير مكسِّر الصلبان
فالشام ملـكك قد ورثت بلاده ... عن قومك الماضين من غسان
وإذا شـككت بأنهـا أوطانهم ... قدماً فسل عن حارث الجَوْلان[7]

---

(١) مدينة كبيرة واسعة فى فضاء من الأرض ، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وهى من حلب على عشرة فراسخ ، وكان يحيط بها سور عظيم . معجم البلدان : ٨ : ١٦٩ ــ ١٧١ .

(٢) فى ل ١١٤ ب : وفيها .

(٣) قسم شعراء مصر : ١ : ٢٠٠ ، وبهامش ص ٢٠٠ تعريف به يدل على أنه كان من أهل أسوان والتطم فى سلك الدعاة الفاطميين ، وذهب إلى اليمن داعياً للحافظ الفاطمى سنة ٥٣٩ ، وقيل إنه ادعى بها الخلافة ، قتله شاور سنة ٥٦٢ أو ٥٦٣ .

(٤) انظر الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٢٠٤ .

(٥) أى المهذب .

(٦) نفس المصدر : ١ : ٢٠٩ ــ ٢١٠ .

(٧) جاء عنه فى الحاشية «١» من ص ٢١٠ من المصدر السابق : اسم إقليم فى شمال شرقى الأردن مقترن بالفساسنة ... وكان طلائع (ابن رزيك) ينتسب إليهم .

أورمت أن تتلو محاسن ذكرهم   فاسند روايتها إلى حسان[1]
ما زلزلت أرض العدا ، بل ذاك ما   بقلوب أهليها من الخفقان
وأقول إن حصونهم سجدت لما   أوتيت من ملك ومن سلطان
ولقد بعثت إلى الفرنج كتائباً   كالأسد حين تصول فى خَفّان[2]
لبسوا الدروع ، ولم تخل مِنْ قبلهم   أنِ البحار تحل فى غُـدران
مجات فى تل العَجُول[3] قراهم   وهم لك الضيفان بالذّيفان[4]
وثللت فى يوم العريش عروشهم   بشبا ضراب صادق وطعان
ألجأتهم للبحر لما أن جرى   منه ومن دمهم معاً بحران
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما   لم يأتِ فى حين من الأحيان
وأعدت رُسْل ابن القسيم[5] إليه فى   شعبان كى يتلاءم الشّعبان
والفال يشهد فى اسمه[6] أن سوف يغـ   ـدو الشام وهو عليكما قسمان
وأراك من بعد الشهيد أباً له   وجعلته من أقرب الإخوان
وهو الذى ما زال يفعل فى العدا   ما لم يكن لِيُعَدّ فى الإمكان
قتل البرنس ومن عساه أعانه   لما عتا فى البغى والعدوان
وأرى البرية حين عاد برأسه   مُرّ الجنى يبدو على المران
وتعجبوا من زرقة فى طرفه   وكأن فوق الرمح نصلاً ثانى
عجباً لجود يديه إذ يبنى العلا   والسيل يهدم ثابت الأركان
قلدت أعناق البرية كلها   مِنناً تحمل ثقلها الثقلان
حتى تساوى الناس فيك وأصبح الـ   ـقاصى بمنزلة القريب الدانى

---

(١) وهو حسان بن ثابت الذى اشتهر بمدحه للغساسنة قبل الإسلام . انظر نفس المصدر : ٢١٠ حاشية : ٢ .
(٢) خفان : مأسدة قرب الكوفة . نفس المصدر ، حاشية : ٣ .
(٣) مكان قريب من كل من عسقلان وغزة . انظر *The Crusaders in the East. P. 310* .
(٤) الذيفان : السم القاتل .
(٥) نور الدين محمود ، والقسيم جده آق سنقر ، قسيم الدولة ، والد عماد الدين زنكى .
(٦) فى الخريدة : باسمه .

وفى هذه السنة ذكر القاضى كمال الدين بن الشَّهْرَزَوْرِى للسلطان نور الدين رحمه الله حال العماد الكاتب وعرفه به ، وعرض عليه قصيدة له فى مدحه مطلعها :

لو حفظت يوم النوى عهودها ما مُطلت بوصلكم وعودها[1]

ومنها :

محمد يحمد عيش بلدة مالكُها بعدله محمودها
مؤيد أموره بعزمة من السموات العلا تأييدها
آثاره حميدة ، وإنما للمرء من آثاره حميدها
إن الورى بحبه وبغضه يعرف من شقيها سعيدها
(١١٥ - ا) قد جاءكم نور من الله ، فمن به اهتدى فإنه رشيدها
جلا ظلامَ الظُّلم نورُ الدين عن أرض الشآم ، فله تحميدها
إن الرعايا منه فى رعاية ونعمة مستوجب مزيدها
لنومها يسهر ، بل لأمنها يخاف ، بَلْ يخصبها بجودها
بالدين والملك له قيامُه وللملوك عنهما قعودها
ودأبه ثلم ثغور الكفر ، لا ثم ثغور ناقع برودها
قد أسبغ الله لنا بعدله ظلال أمن وارف مديدها
غدا ملوك الروم فى دولته وهم على رغمهم عبيدها
لما أبت هاماتهم سجودَها لله ، أضحى للظُّبا سجودها
إن فارقت سيوفه غمودها فإن هاماتهمُ غمودها
كم مغلقات ، من حصون عزمه مفتاحها ، وسيفه إقليدها
قد ودَّت الفرنج لو فرّت نَجَتْ منك ، ولكن روعها يبيدها
قهرتَها حتى لودَّ حيُّها من ذلة لو أنه فقيدها
أماتها رعبك فى حصونها كأنما حصونها لحودها

---

(١) هذا البيت غير موجود فى مطلع القصيدة فى نسخة ق .

وإن مصراً لك تعنو بعدما ... لسيفك العضب عنا صعيدها

والملة الغــراء بخالٍ بالها ... عالٍ سناها ، بك حالٍ جيدها

مفــترة ثغــورها ، ممنوعة ... بثغــورها ، محفوظة حدودها

وإن بغى جالوتها ضلالةً ... فأنت فى إهلاكه داودها

يا ابن قسيم الدولة الملك الذى ... خرّت له من المــلوك صِيدها

دع العــدا بغيظها ، فإنما ... يذيب أكباد العــدا حقودها

يادولة نوريةً أمّن الورى ... وخصبها ، وَجودها ، وُجودها

ما مَثَلُ الدنيا لمن يجمعهــا ... بالحــرص إلا قَزّةٌ ودودُها

أنت الذى يرفضها عن قدرة ... فلا يشوب زهــدَه زهيدُها

فابق لنا يامالــكا ، بقــاؤه ... فى كل عام للرعايا عيدها

فى نعمة جــديدة ســعودها ... ودولة ســعيدة جــدودها

وهى طويلة . فرتبه نور الدين فى ديوانه منشئاً لاستقبال سنة ثلاث وستين .

قال: ووجدت على الأيام منه الإعزاز والتمــكين . قلت : وذلك بعد أن استعفى أبو اليُسْر شاكر بن عبد الله من الخدمة فى كتابة الإنشاء وقعد فى بيته . كذا ذكر العماد فى الخريدة .

وقال : تولى ديوان الإنشاء بالشام سنين كثيرة ، وله مقاصد حسنة فى الــكتب ، وهو حميد السيرة ، جميل السريرة .

وفيها توفى الحافظ أبو سعد عبد الــكريم محمد السمعانى المروزى رحمه الله تعالى .

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة :

فذكر العماد أن نور الدين رحل إلى حمص ، ثم مضى إلى حَمَاة ، ثم شتّى بقلعة حلب ومعه الأسد والصّلاح . ونزل العماد بمدرسة ابن العجمى وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وقد عثر فرسه فى الميدان وهو يلعب بالــكرة مع نور الدين رحمه الله تعالى :

لا تُنــكرنّ لسابح عثرت به ... قدم وقد حمل الخضم الزاخرا

ألقى على السلطان طِرفك طرفه   فهوى هنالك للسلام مبادرا
سبق الرياح بجريه ، وكففته   عنها ، فليس على خلافك قادرا
ضعفت قواه إذ تذكر أنه   فى السرج منك يُقل ليثاً خادراً
ومتى تطيق الريح طودا شامخاً   أو يستطيع البرق جوناً ماطرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره   فالبرق يسقط حينَ يخطف سائرا
(١١٥ ـ ب) وأَقِلْ جوادك عثرة ندرت له   إن الجوادَ لمَن يُقيل العاثرا
وتوقّ من عين الحسود وشرها   لا كان ناظرها بسوء ناظرا
واسلم لنور الدين سلطانِ الورى   فى الحادثات معاضدا ومؤازرا
وإذا صلاح الدين دام لأهله   لم يحذروا للدهر صَرفاً ضائرا

وجرت بين العماد(١) وبين الإمام شرف الدين أبى سعد عبد الله بن أبى عصرون(٢) مكاتبات . كتب إليه العماد :

أيا شرف الدين إن الشتا   بمكافاته كفّ آفاته
وكفك من كرم كافها   لقد كفلت لى بكافاته
وإنك مَن عرفه شكرنا   غدا عاجزا عن مكافاته

قال : فكتب إلىَّ شرف الدين فى جوابها :

إذا ما الشتاء وأمطاره   عن الخير حابسة رادعه
فكافاته الست أعطيتها   وحوشيتَ من كافه السابعه
وكف المهابة والإحتشام   لكفِّىَ عن بره مانعه
وهمة كل كريم النِّجار   بميسور أحبابه قانعه
ونفسىَ فى بسط عذرى إليه ، جعلْتَ الفداء له ، طامعه
وشوقى إلى قربه زائد   ومعذرتى إن جفا واسعه

(١) ما هنا من ل ١١٥ ب . وفى ك : العماد الدين .

(٢) الإمام التميمى الموصلى قاضى قضاة دمشق ، ولد سنة ٤٩٢ ، وتوفى سنة ٥٨٥ . ولى قضاء سنجار ونصيبين وحران ، وجاء إلى حلب سنة ٥٤٥ ، ودخل دمشق مع نور الدين عند فتحها ٥٤٩ ، وتولى مناصب عدة فى دمشق وخارجها ، وتولى منصب قاضى القضاة بدمشق سنة ٥٧٣ ، وكف بصره قبل وفاته بعشر سنين . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، وطبقات الشافعية ، وشذرات الذهب .

قال : فكتبت إليه جوابها :

أيا من له همة فى العلا لذروتها أبدا فارعه
ومن كفه ديمة ماتزا ل بالعرف هامية هامعه
والفضل فى سوق أفضاله بضائع نافقة نافعه
وهل كابن عصرون فى عصرنا إمام أدلته قاطعه
لخبر فوائده جمة وبحر موارده واسعه
أيا شرف الدين شرفتنى بإهداء رائقة رائعه
أطعتُ أوامرك الساميات وما برحتْ همتي طائعه
أرى كل جارحة لى تودّ (م) لو أنها أذن سامعه
وأما الشتاء وكافاته وكفُّك عن كافه الرابعه
فنفسى منزهة بالعفا ف عنها ، وفى غيرها طامعه
وماذا تُطيق إذا لم تكن بميسور سيدنا قانعه

وهى أكثر من هذا .

قال : وكان ابن حسان صاحب منبج قد ساءت أفعاله ، فبعث إليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه ؛ ثم توجّه نور الدين إليها لتهذيب أحوالها ، ومدحه العماد بقصيدة منها :

بشرى الممالك فتح قلعة منبج فليَهنِ هذا النصر كل متوّج
أعطيت هذا الفتح مفتاحاً ، به فى الملك يفتح كل باب مرتج
وافى يبشّر بالفتوح وراءه فانهض إليها بالجيوش وعرّج
أبشر ، فبيت القدس يتلو منبجاً ولمَنبج لسواه كالأنموذج
ما أعجزتك الشهب فى أبراجها طابا ، فكيف خوارج فى أبرُج
ولقدرُ من يعصيك أحقر أن يرى أثر العبوس بوجهك المتباج
لكن تهذيب من عصاك سياسة فى ضمنها تقويم كل معوّج
فانهض إلى البيت المقدس غازياً وعلى طرابلس ونابلس عج

قد سِرت فى الإسلام أحسن سيرة … مأثورة ، وسلكتَ أوضحَ منهج

وجميع ما استقريت من سنن الهدى … جددت منه كلَّ رسم مبهج[١]

قال العماد : وسار نور الدين من مَنْبِج إلى قلعة نجم[٢] ، وعبر الفرات (١١٦ — ا) إلى الرُّها، وكان بها يتالى صاحب مَنْبِج ، وهو سديد الرأى رشيد المنهج ، فنقله إليها مُقْطَعاً ووالياً . وأقام نور الدين بقلعة الرهامدة : فمدحه العماد بقصيدة ، وتحجَّب له صلاح الدين فى عرضها ، وهى :

أدركت من أمر الزمان المشتهى … وبلغت من نيل الأمانى المنتهى

وبقيت فى كنف السلامة آمناً … متكرِّماً بالطبع لا متكرِّها

لا زالت نور الدين فى فلك الهُدى … ذا غرة للعالمين بها ألبَها

يامحييَ العدل الذى فى ظله … مِن عَدْله رَعَت الأسودُ مع المها

محمودٌ المحمودُ من أيامه … لبهائها ضحك الزمان وقهقها

مَولى الورى، مُولى الندى ، معلى الهدى … مُردى العدا، مسدى الجدا، معطى اللُّها

اراؤه بصوابها مقرونة … وبعقتضاها دائرٌ فلك النهى

متلبِّس بحصافة وحصانة … متقدِّس عن شَوْب مكر أو دها

يامن أطاع الله فى خلواته … متأوباً من خوفه متأوها

أبداً تقدم فى المعاش لوجهه … عملاً يبيِّض فى المعاد الأوجها

كل الأمور وَنَى ، وأمرك مبرم … مستحكم لا نقضَ فيه ولا وها

ما صينَ عنك الصِّينُ لَوْ حاولتها … والمشرقان ، فكيف منبجُ والرُّها

ما الملوك لدى ظهورك رونق … وإذا بدَتْ شمس الضحى خفِىَ السُّها

إن الملوك لَهَوْا وإنك من غدا … وبماله والملك منه مآلَها

شرهت نفوسهمُ إلى دنياهمُ … وأبى لِنَفسِك زهدها أن تشرها

---

(١) هذا البيت والذى قبله مثبتان بالهامش فى ك مع إشارة إلى مكانهما بالمتن .

(٢) قلعة حصينة مطلة على الفرات على جبل ، وعندها جسر يعرف بجسر منبج تعبر عليه القوافل من حران إلى الشام ، وبينها وبين منبج أربعة فراسخ . معجم البلدان : ٧ : ١٥١ .

ما نمت عن خير ولم يك نائماً | من لا يزال على الجميل منبها
أخملت ذكر الجاهلين ، ولم تزل | ملكا بذكر العالمين منوها
ورأيت إرعاء الرعايا واجباً | تغنى فقيراً أو تجير مدلها
لرضاهمُ متحفظا ، ولحالهم | متفقداً ، ولدينهم متفقها
وبما به أمرَ الإله أمرتهم | من طاعة ونهيتهم عما نهى
عن رحمة لصغيرهم لم تشتغل | عن رأفة لكبيرهم ان تُشدها
باليأس عندك آمل لم يُمتحن | بالرد دونك سائل لن يُجبَها
أتعبت نفسك كى تنال رفاهة | من ليس يتعب لا يعيش مرفَّها
فقت الملوك سماحة وحماسة | حتى عدمنا فيهمُ لك مشبها
ولك الفخار على الجميع ، فدونهم | أصبحت عن كل العيوب منزها
وأراك تحلُم حين تصبح ساخطا | ويكاد غيرك ساخطاً أن يسفها

قلت : رحم الله العماد ، فقد نظم أوصاف نور الدين الجليلة بأحسن لفظ وأرقه ؛ وهذا البيت الأخير مؤكد لما نقلناه فى أول الكتاب[1] من قول الحافظ أبى القاسم رحمه الله تعالى فى وصف نور الدين رحمه الله تعالى ، إنه لم يستمع منه كلمة فحش فى رضاه ولا فى ضجره[2] ، وقلّ من الملوك من له حظ من هذه الأوصاف الفاضلة والنعوت الكاملة .

قال العماد : ثم عاد نور الدين إلى حلب فى شهر رجب ، وضربت خيمته فى رأس الميدان الأخضر .

قال : وكان مولعاً بضرب الكرة[3] وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع فى الليلة المُسْفرة ، ويركب صلاح الدين مبكراً كل بكرة ، وهو عارف بآدابها فى الخدمة ، وشروطها المعتبرة .

---

(١) انظر ص ١١ من هذا الكتاب .

(٢) المثبت هنا من ل ١١٦ ب ، وفى ك : لم يستمع منه فى رضاه ولا ضجره كلمة فحش . والمثبت هنا يتفق مع ما جاء فى أول الكتاب ص : ١١ .

(٣) انظر ما تقدم فى هذا الكتاب ، ص : ١٢ ـ ١٣ ، فى تبرير لعب نور الدين بالكرة من قول منسوب إليه .

قال : وأقطعه فى تلك السنة ضيعتين إحداهما من ضياع حلب والأُخرى من ضياع كفر طاب[1] . قال : وكتبت إليه فى طلب كنبوش :

أصبحت بغلتى تشكّى[2] من العُرْ ... ى ، وأسراجها بلا كنبوش
قلت : كُفى . فخير يومك عندى ... أن تفوزى بالتبن أو بالحشيش
وافرحى ليلة الشعير كما يفـ ... ـرح قوم بليلة الماشـوش
لو تبصرتِ حالتى لتصبر ... ت ، فإياك عندها أن تطيشى
أوَما مات فى الشتاء من البر ... د ، ومن فرط جوعه ، إكديشى
فثقى واسكنى بجود صلاح الد (م) ين غرسِ الملوك مَلْك الجيوش
فهو يجلوك للعيونِ بكنبو ... ش جديد مستحسن منقوش
كم عدو من بأسه فى عثار ... وولى بجـوده منعوش
والموالى على الأسرة ، والأع ... داء تحت الهوان فوق النعوش

قال : وأقطع أسدَ الدين حمص وأعمالها ، فسار إليها ، فسد ثغورها ، وضبط أمورها ، وحمى جمهورها . وكان نور الدين قد جدد سورها وحصن دورها ، وبلى الفرنج بمنه بالمغاور والمراوغ ، ذى البأس الدامغ . وسأله نور الدين فى السُّلُوِّ عن حب مصر ، وقال : قد تعبت مرتين واجتهدت ، ولم يحصل لك ماطلبت ؛ وقد أذعنوا بالطاعة ، وشفعوا السؤال بالشفاعة ، وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعة .

قلت : وأنشد العماد أسدَ الدين فى رجب من هذه السنة :

دمتَ فى الملك آمراً ذا نفاذ ... أســدَ الدين شيركوه بن شاذى
يا كريماً عن كل شر بطيئاً ... وإلى الخـير دائم الإغـذاذ
وملاذ الإسلام أنت ، فلا زلـ ... ـت لأهل الإسلام خـير ملاذ

---

(١) بين المعرة وحلب فى برية يشرب أهلها مياه الأمطار التى تتجمع فى صهاريج . معجم البلدان : ٧ : ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

(٢) فى ك : تشكو ؛ والمثبت هنا من ل ١١٦ ب ، وهو الذى يستقيم به البيت وزناً .

في نفوس الكفار رعبك قد حلّ (م) بصَدْع الأكباد والأفلاذ
لم تدع بالظُّبا ، رءوساً وأصنا ماً من المشركين غير جذاذ
أنت من نازل الدعيين في مصـ ـر لنصر الإمام في بغداذ
وبلاد الإسلام أنقذتها أنـ ـت من الشرك أيما إنقاذ

فصـــــل (١١٧ — ١)

في وفاة زين الدين[1]

قال ابن الأثير[2] ، وغيره : في سنة ثلاث وستين سار زين الدين على بن بكتكين ، نائب أتابك قطب الدين ، عن الموصل إلى إِرْبِل ، وسلم جميع ما كان من البلاد والقلاع إلى قطب الدين ماعدا إربل ، فإنها كانت له من أتابك زنكى رحمه الله تعالى . فمن ذلك سنجار وحرّان وقلعة عَقْر الحُمَيدية[3]، وقلاع الهكّارية جميعها[4] . وكان نائبه بتكريت الأمير تبر ، فأرسل إليه ليسلمها ، فقال : إن المولى أتابك لايقيم بتكريت ولا بد له من نائب فيها ، وأنا أكون ذلك النائب ، فليس له مثلي ؛ فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد . وأما شَهْرَزُوْر فكان بها الأمير بوزان ، فقال مثله أيضاً ، فأقرّت بيده ؛ فكان في طاعة قطب الدين .

وسبب فراق زين الدين أنه أصابه عمى وصمم ، وأقام بإربل إلى أن توفى بها ، في ذى الحجة من هذه السنة ، وكان قد استولى عليه الهرم وضعفت قوته .

وكان خيِّراً عادلا حسن السيرة ، جواداً ، محافظاً على حسن العهد وأداء الأمانة ، قليل

---

(١) فى هامش ك أمام هذا العنوان : والد مظفر الدين ، صاحب إربل ؛ وهى غير موجودة فى ل ١١٧ ، أو فى ق .

(٢) فى الأتابكة : ٢٤١ — ٢٤٤ ؛ وهو اقتباس حرفى .

(٣) قلعة حصينة فى جبال الموصل ، أهلها أكراد ، وتقع شرقى مدينة الموصل . معجم البلدان : ٦ : ١٩٤ — ١٩٦ .

(٤) الهكارية : بلدة وناحية وقرى فوق الموصل فى بلد جزيرة ابن عمر ، يسكنها الأكراد الهكارية ، ومنهم القاضى عيسى الهكارى الذى سيقف إلى جانب صلاح الدين فى مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه ، كما سيجىء فيما بعد . انظر معجم البلدان : ٨ : ٤٦٩ .

الغدر بل عديمه . وكان إذا وعد بشيء لابد له من أن يفعله و إن كان فعله خطيراً . وكان حاله من أعجب الأحوال ، بينما يبدو منه مايدل على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه مايدل على إفراط الذكاء وغلبة الدهاء . بلغنى أنه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنه نفق له ، فأمر له بفرس ؛ فأخذ ذلك الذنب أيضاً غيره من الأجناد فأحضره وذكر أنه نفق له دابة ، فأمر له بفرس وتداول ذلك الذنب اثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرساً . فلمّا أحضره آخرهم قال لهم : أما تستحيُون منى كما أستحيى أنا منكم ؟ قد أحضر هذا عندى اثنا عشر رجلا وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم . أتظنون أننى لا أعرفه ؟ بلى والله ، وإنما أردت أن يصلكم عطائى بغير مَنّ ولا تكدير ، فلم تتركونى !

ليس الغبىّ بسيّدٍ فى قومه لكنّ سيّد قومه المتغابى

قال[1] : وكان يعطى كثيراً ويخلع عظيما ؛ وكان له البلاد الكثيرة ، فلم يخلّف شيئاً بل أنفذه جميعاً فى العطايا والإنعام على النّاس . وكان يلبس الغليظ ويشدّ على وسطه كلّ مايحتاج إليه من سكّين ودرفش ومطرقة ومسلّة وخيوط ودسترك وغير ذلك . وكان أشجع الناس ، ميمون النقيبة ، لم تنهزم له راية . وكان يقوم المقام الخطير فيَسْلم منه بحسن نيته وكان تركيا أسمر اللّون خفيف العارضين قصيرا جدا ؛ وبنى مدارس وربُطاً بالموصل وغيرها . وبلغنى أنه مدحه الحيص بيص[2] ، فلمّا أراد الإنشاد قال له : أنا لا أدرى ماتقول لكنّ أعلم أنك تريد شيئاً ؛ وأمر له بخمسمائة دينار وأعطاه فرساً وخِلْعة وثياباً ، يكون مجموع (١١٧ ــ ب) ذلك ألف دينار . قال ومكارمه كثيرة .

ولما توفى بإربل كان الحاكم بها خادمه مجاهد الدّين قايماز ، وهو المتولّى لأمورها . وولى بعد زين الدّين ولده مظفّر الدّين كوكبرى مدّة ثم فارقها لِخُلْفٍ كان بينه وبين مجاهد الدّين قايماز ؛ وجرت أمورٌ يطول ذكرها .

ولما فارق زين الدّين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح ، فسلك غير طريق زين الدّين ، فكرهه الناس

(١) استمرار لنفس الاقتباس .

(٢) تقدم شيء من التعريف به . انظر ص : ٣٤٤ حاشية : ٣ .

وذمُّوه ؛ فلم تَطُلْ أيَّامُه : وسيجيء ذكر عزله فى أخبار سنة ستّ وستّين إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة :

ففى[1] أولها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جعبر[2] ، وأخذها من صاحبها شهاب الدّين مالك بن علىّ بن مالك العقيْلى من آل عقيل من بنى المسيّب[3] ؛ وكانت بيده ويد آبائه من قَبْله من أيام السّلطان ملكشاه ، وقد تقدم ذكر ذلك[4] . وهى من أمنع الحصون وأحسنها ، مطلّة على الفرات لايطمع فيها بحصار ؛ وقد أعجز جماعة من الملوك أخذُها منه ، وقُتِلَ عليها عماد الدّين زنكى والد نور الدّين .

ثمّ اتّفق أنّه[5] خرج صاحبها منها يوماً يتصيّدُ ، فصاده بنُو كلب ، فأخذوه أسيرا وأوثقوه ، وحملوه إلى نُور الدّين ، فتقرّبُوا به إليه ، وذلك فى رجب مِنْ سنة ثلاث وستّين ؛ فحبسه بحلب وأحسن إليه ، ورغبه فى الإقطاع والمال ليسلم إليه القلعة فلم يفعل ؛ فعدل به نور الدين إلى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل أيضاً ؛ فسير إليها عسكرا مقدمه الأمير فخر الدين مسعُود بن أبى على الزعفرانى ، فحصرها مدة فلم يظفر منها بشىء ؛ فأمدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية ،[6] وهو أكبر أمراء نورُ الدين ورضيعه ووالى معاقله ، فأقام عليها وطاف حوالبها فلم ير له فى فتحها مجالا ، ورأى

---

(١) الاقتباس هنا من الأتابكة : ٢٤٤ – ٢٤٥ ، بتصرف كثير . ويبدأ هذا الحديث فى الأتابكة تحت عنوان : ذكر ملك نور الدين قلعة جعبر .

(٢) قلعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين ، وكان جعبر صاحبها قبل تملكها يخيف السبيل؛ واسم القلعة القديم دوسر . وقد استشهد عندها عماد الدين زنكى ، قتله أحد رجاله ، وقد تقدم تفصيل هذا . انظر ص : ١٠٨ – ١٠٩ من هذا الكتاب ، وكذلك معجم البلدان : ٣ : ١٠٨ .

(٣) كانوا من رجال الدولة الحمدانية ، ثم ، بعد سقوطها ، استقلوا بسلطانهم متخذين الصيبين مركزاً يوسعون منه نفوذهم . وقد تفرع العقيليون وتوزعوا فى مناطق الجزيرة وشمالى الشام ، حتى استولى نور الدين محمود على قلعة جعبر فى هذه السنة ، ٥٦٤ ، من صاحبها عندئذ مالك بن على .

(٤) انظر ص ١٠٧ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٥) فى ل ١١٧ ب ، وكذلك فى ق : أن .

(٦) سبق ذكر شىء عنه ، ص ١٧٢ بالمتن والحاشية رقم ٥ ، وسيتردد ذكره مع إخوته فى مناسبات أخرى .

أخذها بالحصر متعذرا محالا . فسلك مع صاحبها طريق اللين ، وأشار عليه بأخذ العِوض من نور الدين ؛ ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى سروج[1] وأعمالها والملاّحة التى فى عمل حلب والباب[2] وبزاعة[3] وعشرين ألف دينار معجلة ؛ فأخذ جميع ماشرطه مكرها فى صورة مختار . قال ابن الأثير : وهذا إقطاع عظيم جدا لكنه لا حِصْن[4] فيه .

وتسلم مجد الدين قلعة جعبر وصعد إليها منتصف المحرم . ووصل كتابه إلى نور الدين بحلب ، فسار إليها وصعد القلعة فى العشرين من المحرم ؛ ثم سلمها نور الدين إلى مجد الدين ابن الداية ، فولاها أخاه شمس الدين عليًا . وكان هذا آخر أمر بنى مالك ، ولكل أمر آخر[5] ولكل ولاية نهاية ؛ يؤتى الله الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء .

قال ابن الأثير : بلغنى أنه قيل لشهاب الدين أيُّما أحب إليك وأحسن مقامًا ، أسَرُوج والشام أم القلعة ؟ فقال : هذا أكثر مالا ، والعز بالقلعة فارقناه .

قال العماد : وأنشدت نور الدين بقلعة جعبر (١١٨ ـ ا) قصيدة أولها :

إِسلم لبكر الفتوح مفترعًا ودُمْ لمُلك البلاد منتزعا
فإنّ أولى الورى بها ملك غدا بعبء الخطوب مضطلعا
إن ضاق أمر فغير همته لكشف ضيقَ الأمور لن يسعا
يا محيِيَ العدل بعد ميتته ورافع الحق بعدما اتضعا
ونور دين الهدى الذى قمع الشِّرْ(م) رك ، وعفّى الضلال والبدعا
أنت سليمان فى الغناء وفى الـ مُلك ، وتحكى بزُهدك اليَسَعا
حُزتَ البقا ، والحياء ، والكرم المحـ ـضَ ، وحُسن اليقين ، والورعا

(١) قريبة من حران من ديار مضر . معجم البلدان : ٥ : ٧٧ .

(٢) بليدة صغيرة ، وتعرف بباب بزاعة فى طرف وادى بطنان ، تبعد عن حلب بعشرة أميال وعن منبج نحو ميلين . نفس المصدر : ٢ : ٩ .

(٣) بين منبج وحلب ، بينها وبين كل منهما مرحلة . نفس المصدر : ٢ : ١٦٢

(٤) فى ل ١١٨ ا : لاحظ ، وهى كذلك فى ق أيضاً . والمثبت هنا من ك ، وهو يطابق ماجاء فى الأتابكة .

(٥) فى ل ١١٨ ا : حد .

أسقطت أقساط ما وجدت من المكس بعدلٍ ، والقاسط ارتدعا
ولم تدع فى ابتغاء مصلحة الدين لنا باقياً ، ولن تدعا
وكل ما فى الملوك مفترق من المعالى للملك اجتمعا
هتك الرُّبط والمدارس تبدو فيها ثواباً وتهدم البيعا
ما زلت ذا فطنة مؤيدة على غيوب الأسرار مطلعاً
بيأسك البيض والطلى اصطبحت بعدلك الذئب والطلا رتعاً
كم صائدٍ لم يقع له قنص فى شَرَكٍ وهو فيه قد وقعا
ومالكٍ حين رُمت قلعته غدا مطيعاً للأمر متبعا
عنّا خشوعاً لرب مملكة لغير رب السماء ما خشعا
كان مقيما منها على الفلك الأ على شهاباً بنوره سطعاً
لكنما الشهب ما تنير إذا لاح عمودُ الصباح فانصدعا
يدفعها طائعاً إليك ، وكم عنها إباء بجهده دفعاً
هى التى فى علوها زحل كرّ على وردها وما كرعا
وهى التى قاربت عطارد فى الأ أفق فلاحاً والفرقدين معا
كأن منها الشهبا إذا استرق السمع أتاها فى خيفة ودعا
هضبة عزٍّ لولاك ما ارتقيت وطود ملك لولاك ما فرعا
ما قبلت فى ارتقاء ذروتها من ملكٍ لارُقيّ ولا خدعاً
عزت على المالك الشهيد وأعطتك قيادا مازال ممتنعاً
للأب لو جل خطبها لغدا محرماً لابنه وما شرعا
لا زلت محمودُ فى أمورك محمودًا بثوب الإقبال مدرعا

وفيها وفى سابع عشر صفر من هذه السنة توفى بهاء الدين عمر أخو مجد الدين بن الداية . وفيه وفى أخويه يقول العماد الكاتب من قصيدة :

أنتم لمحمودٍ كآل محمد متصادقى الأفعال والأسماء
يتلو أبا بكر عَلَى حسناته عمرُ الممدّح فى سنًا وسناء
ويليه عثمان المرجّى للعُلا وعلىّ المأمول فى اللأواء

وتقبّل الحسن المجّد مجدهُم فهمُ ذوُو الإحسان والنّعماء
فرعت لمجد الدين إخوته الذّرا دون الورى فى المجد والعلياء
من سابق كرماً وشمس ساده شرفاً وبدر دُجنة وبهاء
سُرُج الهدى،سُحُب النّدى،شُهُب النّهى أُسْدُ الحروب ، ضراغم الهيجاء

يريد سابق الدين عثمان ، وشمس الدين عليًّا[1] وبدر الدين حسنا[2] ، وبهاء الدين عمر ؛ ومجد الدين الأكبر[3] ، فهم خمسة ، رحمهم الله .

فصل

(١١٨ ــ ب) وفى هذه السنة فتحت الديار المصرية ، سار إليها أسد الدين مرة ثالثة ، فهزم العدو وقتل شاوراً وولِىَ الوزارة مكانه ، ثم مات ، فوليها صلاح الدين .

وسبب ذلك أن الفرنج كانوا فى النوبتين الأُوليَيْن اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شيركوه قد خبروا الدّيار المصرية واطلعوا على عوراتها ، فطمعوا فيها ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد . فجمعوا وحشدوا ، وقالوا : ما بمصر من يصدنا ؛ وإذا أردناها فمن يردنا ؟! ثم قالوا : نور الدين فى البلاد الشمالية والجهة الفُراتية ، وعسكر الشام متفرق كل فى بلده ، حافظ لما فى يده ؛ ونحن ننهض إلى مصر ، ولا نطيل بها الحصر ، فإنه ليس لها معقل ، ولا لأهلها [منّا[4]] موئل ؛ وإلى أن تجمع عساكر الشام ، [نكون][5] قد حصلنا على المرام ، وقوينا بتملك الديار المصرية على سائر بلاد الإسلام . فتوجهوا إليها سائرين ، ونحوها ثائرين ، وأظهروا أنهم على قصد حمص وشايعهم على قصد مصر جماعة من أهلها كابن الخياط[6] وابن قرجلة[7] ، وغيرهما من أعداء شاور .

---

(١) فى الأصل ، وفى ل ١١٨ ب : على . (٢) فى ك ، وفى ل ١١٨ ب : حسن .
(٣) فى ل ١١٨ ب : هو الأكبر .
(٤) الإضافة من ل ١١٨ ب . ومن ق ١١٧ ا
(٥) ساقطة من الأصل ، وكذلك من ل ١١٨ ب ومن ق ١١٧ ا ، والسياق يقتضيها .
(٦) هو يحيى بن الخياط من رجال الدولة الفاطمية منذ عهد وزيرها الصالح طلائع بن رزيك . خرج على شاور الوزير الفاطمى ولكنه تمكن من إخضاع ثورته . انظر النكت العصرية فى صفحات مختلفة .
(٧) سيرد أنه يسير فى جيوش أمورى فى طريق القاهرة ، مع بعض الخارجين على شاور ، بعد سقوط بلبيس فى أيدى الفرنج .

وكان[1] الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة ، وسكر[2] فرسانهم أبواب البلدين ، والمفاتيح معهم ، على ما سبق ذكره[3] ، وتحكموا تحكماً كبيراً ، فطمعوا فى البلاد ، وأرسلوا إلى ملكهم مُرِّى — ولم يكن مَلَكَ الفرنجَ منذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة ومكراً ودهاء — يستدعونه لتملك البلاد . وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه ؛ فلم يجبهم إلى المسير . واجتمع فرسان الفرنج وذوُو الرأى والتقدم وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم : الرأى عندى ألاَّ نقصدها فإنها طعمة لنا ، وأموالها تساق إلينا ، نتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها فإن صاحبها وعساكره ، وعامة أهل بلاده وفلاحيه ، لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين . وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام . فلم يصغوا إلى قوله وقالوا : إن مصر لا مانع لها ولا حافظ ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها ، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها .

وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها ؛ فأجابهم إلى ذلك على كره شديد ، وتجهزوا ، وأظهروا أنهم على قصد الشام ، وخاصة مدينة حمص ، وتوجهوا من عسقلان فى النصف من المحرم ، ووصلوا أول يوم من صفر إلى بلبيس ونازلوها ، وحصروها ، فملكوها قهراً ونهبوها ، وسبَوْا أهلها ، وأقاموا بها خمسة أيام ثم أناخوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر ، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل (١١٩ — ا) بلبيس ، فحملهم الخوف [منهم][4] على الامتناع ، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه ، وبذلوا جهدهم فى حفظه . ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس لملكوا مصر والقاهرة سرعةً ، ولكن الله تعالى حسَّن لهم ذلك ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

---

(١) بدء اقتباس حرفى طويل من الأتابكة : ٢٤٦ — ٢٤٩ ؛ تصرف فيه أبو شامة بعض التصرف تقديماً وتأخيراً .

(٢) فى الأصل : وسكن ، والمثبت هنا من ل ١١٨ ب ، ومن ق ١١٧ ب .

(٣) عند الحديث على نتائج الحملة التى قام بها شيركوه على مصر سنة ٥٦٢ .

(٤) الإضافة من ل ١١٩ ا ، وهى مثبتة كذلك فى ق .

وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر، تاسع صفر، قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد، خوفاً عليها من الفرنج؛ فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر.

ثم ضاق الحصار وخيف البوار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية، فشرع فى تمحّل الحيل، وأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة، وأن هواه معه، وتخوفه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه؛ ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين. فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويؤخر البعض؛ واستقرت القاعدة على ذلك. ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم وربما سلمت إلى نور الدين، فأجابوه كارهين، وقالوا: نأخذ المال نتقوى به، ونكثر من الرجال ثم نعود إلى البلاد بقوة لا نبالى معها بنور الدين ولا غيره. ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[1]. فعجل لهم شاور مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً.

وكان خليفة مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل فى الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتُنْقذهن[2] من الفرنج. فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع فى تجهيز العساكر إلى مصر. ولما صالح شاوَر الفرنج على ذلك المال عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقى المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث بلاد مصر[3]، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده فى عسكر وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث [الذى][4] لنور الدين. هذا قول ابن الأثير[5].

وقال العماد: عجل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعاً، وإرغاماً له وإطماعاً،

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٥٤

(٢) هذه الكلمة مطموسة فى الأصل، والمثبت هنا من ل ١١٩ ب، وهو يطابق ما جاء فى الأتابكة.

(٣) فى ل ١١٩ ب: ثلث البلاد من مصر

(٤) الإضافة من ل ١١٩ ب.

(٥) فى الأتابكة، وهو نفس الاقتباس الذى أشرنا إلى بدايته.

وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخاً مستنفراً ، وبما ناب الإسلام من الكفر مخبراً ؛ ويقول : إن لم تبادر ذهبت البلاد . وسيّر الكتب مسودة بمدادها ، كاسية لباس حدادها ، فى طيها ذوائب مجزوزة ، وعصائب محزوزة ، أظن أنها شعور أهل القصر ، للإشعار بما عراهم من بليّة الحصر . وأرسلها تباعاً ، وأردف بها نجّابين سراعا ؛ وأقام منتظراً ، ودام متحيراً ، وعامل الفرنج بالمطال ، يتقدم فى كل حين مالا ، ويطلب منهم إمهالا . وما زال يعطيهم ويستنيمهم ، حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله تعالى .

فصـــل

فيما فعله نور الدين

كان[1] نور الدين لما أتاه الرسل أولاً من العاضد قد أرسل (١١٩ ـ ب) إلى أسد الدين يستدعيه من حمص ، وهى إقطاعه ، فلما خرج القاصد من حلب لقى أسد الدين قد وصلها . وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته فى هذا الأمر فبقى مسلوب القرار ، مغلوب الاصطبار ، لأنه كان قد طمع فى بلاد مصر فخاف خروجها من يده ، وأن يستولى عليها الكفر . فساق فى ليلة واحدة من حمص إلى حلب ، واجتمع بنور الدين ساعة وصوله . فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسرّه ، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة فى ذلك ، وأعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة ، وحكّمه فى العساكر والخزائن ، فاختار من العسكر ألفى فارس ، وأخذ المال ، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس . وكان فى مدة حشد التركمان[2] سار نور الدين لتسلم[3]، قلعة جعبر ؛ ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق ، ورحلا فى جميع العساكر إلى رأس الماء.[4] وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة لهم

---

(١) من الأتابكة : ٢٤٩ ــ ٢٥٠ بشىء من التصرف .

(٢) فى ل ١٢٠ ا : فى مدة حشده للتركمان .

(٣) فى ل ١٢٠ ا لتسليم .

(٤) فى منطقة حوران على مسيرة يوم من دمشق . انظر :
The Crusaders in the East, pp. 195 - 196 وكذلك *Lane - Poole, Saladin*, p. 95

على الطريق غير محسوبة من القرار الذى له . وأضاف إلى أسد الدين جماعةً من الأمراء منهم مملوكه عز الدين جرديك ، وغرس الدين قليج ، وشرف الدين برغش ، وناصح الدين خمارتكين ، وعين الدولة [ابن][1] الياروقى ، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى ، وغيرهم . ورحلوا على قصد مصر ، مستنزلين من الله تعالى النصر ، وذلك منتصف ربيع الأول .

وخيَّم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء ، وأقام ينتظر ورود المبشرات ؛ فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين ، وسبَّ الملك كل من أشار عليه بقصد مصر ؛ وأمر نور الدين بضرب البشائر فى سائر بلاده ، وبث رسله إلى الآفاق بذلك .

وقال القاضى أبو المحاسن[2] : لقد قال لى السلطان ، يعنى صلاح الدين : كنت أكرهَ الناس للخروج فى هذه الدفعة ، وما خرجت مع عمى باختيارى . قال : وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ »[3] . وقال ابن الأثير : أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته ، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه[4] .

حُكى لى عنه أنه قال : لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضى الله عنه ، مستصرخين ومستنجدين ، أحضرنى وأعلمنى الحال ، وقال تمضى إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولى إليه يأمره بالحضور ، وتحثه أنت على الإسراع فما يحتمل الأمر التأخير . قال ففعلت . فلما فارقنا[5] حلب على ميل منها لقيناه قادماً فى هذا المعنى ؛

---

(١) الإضافة من ل ١٢٠ ا . ومن ق ١١٨ ب .

(٢) فى النوادر السلطانية : ٣١ ؛ وهو اقتباس حرفى .

(٣) سورة البقرة : آية ٢١٦

(٤) إشارة من ابن الأثير الى تطور الحوادث فيما بعد إذ استقر الأمر لصلاح الدين فى مصر ، ثم فى الشام ، وتأسست الدولة الأيوبية ، بينما كان استقرار ملك صلاح الدين نذيرا بتدهور سلطان أسرة زنكى .

(٥) ماثبت هنا من ل ١٢٠ ا ليناسب مابعده ، وفى ك : فارقت .

فقال [له][1] نور الدين: تجهز للمسير، فامتنع خوفاً من غدرهم أولا، وعدم ماينفقه فى العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضى أن أسير (١٢٠ - ١) أنا بنفسى إليها، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره. قال فالتفت إلىّ عمى أسد الدين وقال: تجهز يا يوسف؛ قال: فكأنما ضرب قلبى بسكين! فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق مالا أنساه أبداً. فقال عمى لنور الدين: لا بد من سيره معى، فترسم له. فأمرنى نور الدين وأنا أستقيله. فانقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير، فقال لى نور الدين: لابد من مسيرك مع عمك. فشكوت إليه الضائقة وقلة الدواب وما أحتاج إليه؛ فأعطانى ماتجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت. وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرت معه. فلما استقر أمره وتوفى، أعطانى الله من ملكها مالا كنت أتوقعه.

قلت: وحرضه أيضاً حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة مدحه بها. قال[2]:

وهل أخشى من الأنواء بخلا ... إذا ما يوسف بالمال جادا[3]
فتى للدين لم يبرح صلاحا ... وللأعداء[4] لم يبرح فسادا
لئن أعطاه نور الدين حصناً ... فإن الله يعطيه البلادا
إلى كم ذا التوانى فى دمشق ... وقد جاءتكم مصرٌ تهادى
عروس بعلها أسد هزبر ... يصيد المعتدين ولن يصادا
ألا يا معشر الأجناد سيروا ... وراء لوائه تلقَوا رشادا
فما كل امرئ صلى مع النّا ... س مأموماً كمن صلى فُرادى

(١) الإضافة من ل ١٢٠ ا.
(٢) انظر الخريدة: قسم شعراء الشام: ١٩٩-٢٠٠. وبها مما ورد هنا الأبيات الخمسة الأولى، كما أن بها من نفس القصيدة زيادة عما جاء هنا.
(٣) فى الخريدة: ويوسف لى، فتى أيوب، جادا.
(٤) فى الخريدة: وللأموال.

فلما سار صلاح الدين إلى مصر عبر العرقلة على داره ، فوجدها مغلقة ، فقال :

عبرت على دار الصلاح وقد خلت　　من القمر[1] الوضّاح والمنهل العذب
فوالله لولا سرعةٌ مثل عزمه　　لغرّقها طرفى وأحرقها قلبى

ودار صلاح الدين هى التى وقفها رباطاً للصوفية بحارة قطامش جوار قيسارية القصاع ، وإليها يجرى الماء من حمام نور الدين رحمه الله . فقضى الله ما قضى من رحيل الفرنج وتملك صلاح الدين على ما سيأتى .

وللأمير الفاضل أسامة بن منقذ فى صلاح الدين قصيدة أولها :

* سلم على مصر لا ربع بذى سلم *

يقول فيها :

الناصر الملك الموفى بذمته　　ومَن ندى كفه يغنى عن الديم
ومن إذا جرد البيض الصوارم فى ال　　هيجاء أغمدها فى البيض والقمم
ومن حوى الملك من بعد الطاعة فى انـ　　تزاعه بشبا الهندية الحذم[2]
ورد طاغية الإفرنج يحسب ما　　رجاه من مُلك مصرٍ كانٍ فى الحلم
(١٢٠ ب) ولّى وراحته صفر وقد ملئت　　بعد الطاعة من يأس ومن ندم
يصَعِّدون على ما فاتهم نفَسا　　لولا فح البحر أضحى الموج كالحمم
وفى السلامة ، لولا جهلهم ، ظفر　　لمن أراد نزالَ الأسد فى الأجم
وهم أسود الشرى ، لكن أذلّهم　　مَلْكٌ لديه الأسود الغُلب كالغنم

وله من قصيدة أخرى :

أقمت عمود الدين حين أماله　　لطاغى الفرنج الغُتْم[3] طاغى بنى سعد
وجاهدت حزب الكفر ، حتى رددتهم　　خزايا ، عليهم خيبة الذل والرد

---

(١) فى ك : الذهب ؟ وفوقها : القمر ؟ تصحيحاً .

(٢) الحذم : القاطع .

(٣) الغتمة : العجمة ، والأغتم : من لا يفصح شيئاً ، والجمع : غتم . القاموس المحيط .

أفدت بما قدمت ملكا مخلداً وذكراً مدى الأيام يقرن بالحمد
وذكرك فى الآفاق يسرى ، كأنه الصبـ ـباح له نشر الألوة والنـد

ولأبى الحسن بن الذروى فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مُرِّى :

ولكم أشمت الروم أشأم بارق أضحت مياه نفوسها من قطره
وافاك بحر دروعها عن مدّه ومضى وقد حكمت ظُباك بجزره
ولقيت « مُرِّيًّا » وطعم حياته حلو ، فبدله القتال بمره
فاعقد إليه الرأى فى عذب القنا واحلل بها عجلاً معاقد مكره
واطرده من وكر الشآم ، فإنه قد طار منك بخافق من ذعره

فصـــل

فى القبض على شاور وقتله

وصل[1] أسد الدين القاهرة رابع ربيع الآخر[2] واجتمع بالعاضد خليفة مصر ، فخلع عليه وأكرمه ، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة ؛ ولم يمكن شاور المنعُ من ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد ، ورأى هوى العاضد معهم من داخله ، فلم يتجاسر على إظهار ما فى نفسه ، فكتمه ، وهو يماطل أسد الدين فى تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر ، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين . وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ، ويعده ويمنيه « وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا »[3] .

ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ، ويقبض عليهم ؛ فنهاه ابنه الكامل وقال له : والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرّفن أسد الدين . فقال له

(١) اقتباس حرفى من الأتابكة : ٢٥١ – ٢٥٣ .

(٢) فى ل ١٢١ ا ، وكذلك فى ق : سابع رابع الآخر . وقال ابن واصل فى مفرج الكروب (١ : ١٦١) لأربع مضين من ربيع الآخرة .

(٣) سورة النساء : آية : ١٢٠ ، حيث جاءت : « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » وسورة الأسراء : آية : ٦٤ ، حيث جاءت : « وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

أبوه والله لئن لم أفعل هذا لنقتلن جميعاً . فقال : صدقت ، ولأن نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، فليس بينك و بين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً ، و يملكون البلاد ؛ فترك ما كان عزم عليه . فلما رأى العسكر النُّورى المطْل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف ، وعز الدين جرديك ، وغيرهما ، على قتل شاور ، وأعلموا أسد الدين بذلك ، فنهاهم ؛ فقالوا : إنا ليس لنا فى البلاد شىء منهما هذا على حاله ؛ فأنكر (١٢١ ـ ا) ذلك . واتفق أن أسد الدين سار بعض الأيام إلى زُيارة قبر الشافعى ، رضى الله عنه ، وقصد شاور عسكره على عادته للاجتماع به ، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جرديك ، ومعهما جمع من العسكر ، فخدموه وأعلموه أن أسد الدين فى الزيارة ؛ فقال: نمضى إليه . فسار ، وهما معه قليلا ، ثم ساوَرُوه وألقوه عن فرسه ؛ فهرب أصحابه وأخذ أسيراً ، ولم يمكنهم قتله بغير أمر[1] أسد الدين ، فسجنوه فى خيمته وتوكلوا بحفظه . فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعاً ، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه . وأرسل العاضد لدين الله، صاحب مصر ، فى الوقت ، إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور ويحثه على قتله ؛ وتابع الرسل بذلك . فقتل شاور فى يومه ، وهو سابع عشر ربيع الآخر ، وحمل رأسه إلى القصر ، ودخل أسد الدين إلى القاهرة ، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خاف منه[2] على نفسه ، فقال لهم : أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور ؛ فقصدها الناس ينهبونها ، فتفرقوا عنه . هذا قول ابن الأثير .

وقال ابن شداد[3] : أقام أسد الدين بها يتردد إليه شاور فى الأحيان ، وكان وعدهم بمال فى مقابلة ما خسروه من النفقة ، فلم يوصل إليهم شيئاً . وعلقت مخاليب الأسد فى البلاد ، وعلم أن الفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد ، وأن ترددهم إليها فى كل وقت لا يفيد ، وأن شاوراً يلعب بهم تارة وبالإفرنج أخرى ، وملاّكها قد كانوا على البدعة

---

(١) فى ل ١٢١ ا : إذن .

(٢) فى ل ١٢١ ب : ماخافه .

(٣) فى النوادر السلطانية : ٣١ ـ ٣٢ .

المشهورة عنهم ، وعلموا أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور . فأجمعوا أمرهم على قبضه إذا خرج إليهم ، وكانوا هم يترددون إلى خدمته دون أسد الدين ، وهو يخرج فى الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به . وكان يركب على قاعدة وزارتهم بالطبل والبوق والعَلَم ، فلم يتجاسر على قبضه منهم إلا السلطان نفسه ، يعنى صلاح الدين ، وذلك أنه لما سار إليهم تلقاه راكباً وسار إلى جانبه ثم أخذ بتلابيبه ، وأمر العسكر أن خذوا على أصحابه ، ففروا ونهبهم العسكر ، وقُبض شاور وأنزل إلى خيمة مفردة . وفى الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول لا بد من رأسه ، جرياً على عادتهم فى وزارتهم فى تقرير قاعدة مَن قوىَ منهم على صاحبه ، فحزت رقبته وأنفذوا رأسه إليهم .

قال العماد : ودخل أسد الدين فى الرابع من شهر ربيع الآخر الإيوان ، وخُلع عليه ولقى الإحسان . وتردد شاور إلى أسد الدين وتودد ، وتجدد بينهما من الوداد ما تأكد . وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة ، والأطعمة الواسعة ، والحلاوات والميرة . فقال صلاح الدين : هذا أمر يطول ، ومسألة فرضها يعُول ، ومعنا هذا العسكر الثقيل ، وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل ، ولا أمر لنا مع استيلاء (١٢١-ب) شاور ، ولا سيما إذا راوغ وغادر. فأنفذ أسد الدين الفقيه عيسى[1] إلى شاور يشير عليه بالاحتراز[2] ، وقال له : أخشى عليك مَن عندى من الناس . فلم يكترث بمقاله ، وركب على سبيل انبساطه واسترساله ، فاعترضه صلاح الدين فى الأمراء النورية وهو راكب على عادته فى هيبته الوزيرية ، فبغته وشحته ، وقبضه وأثبته ، ووكل به فى خيمة ضربها له ، وحاول إمهاله . فجاء من القصر من يطلب رأسه ، ويعجل من العمر يأسه . وجاء الرسول بعد الرسول ، وأبوا أن يرجعوا إلا بنُجح السُّول . فجم حمامه ، وحمل إلى القصر هامه .

قلت : وبلغنى أن الذى حز رقبة شاور هو عز الدين جرديك . وكان صلاح الدين

---

(١) أبو محمد ضياء الدين عيسى بن محمد الهكارى ، وسيكون له دور كبير فى تجميع الكلمة حول صلاح الدين عند توليه وزارة مصر ، كما سيأتى . توفى سنة ٥٨٥ بعد حياة حافلة بالكفاح الحربى والعلمى إلى جانب صلاح الدين الأيوبى . انظر وفيات الأعيان .

(٢) فى ل ١٢١ ب ، وكذلك فى ق : بالاحتراس .

لما لقيه فى أصحابه سار بجنبه وأراد إفراده عن العسكر ، فالتمس منه المسابقة بفرسيهما ، فأجابه ، ووافقهما فى ذلك جُرديك . وكان ذلك عن أمر قد تقرر ، فحركوا خيلهم ، فلما بعدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجرديك على شاور داخل الخيمة .

وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عرقلة :

لقد فاز بالملك العقيم خليفة　　له شيركوهُ العاضديُّ وزير
كأن ابن شاذى والصلاح وسيفه　　علىٌّ لديه شبَّرٌ وشبير[1]
هو الأسد الضارى الذى جل خطبه　　وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى ، حتى لقد قال قائل　　على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره　　ولا زال فيها منكر ونكير

وقال أيضاً :

إن أمير المؤمنين الذى　　مصر حماه وعلىٌّ أبوه
نص على شاور فرعونُها　　ونص موساها على شيركوه

وقد وصف الفقيه الشاعر أبو حمزة عمارة اليمنى فى كتاب الوزراء المصرية الذى صنفه حال شاور فى وزارته الأولى[2] ، ثم قال : وزارة[3] شاور الثانية : فيها تكشفت صفحاته ، وأحرقت لفحاتُه ، وأغرقت نفحاته ، وغَضَّه الدهر وعضه ، وأوجعه الثُّكل وأمضه ، وبان غمره وثماده ، وجمره ورماده ، ولم يجف من الأنكاد لبده ، ولا صَفا من الأقذاء وِرْدُه . وما هو إلا أن تسلمها بالراحة ، وسُلِمت له الهموم عوضاً عن الراحة .

وفى أول ليلة دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالباً بلبيس ، فأقام بها ، ثم عاد إلى القاهرة ، فكسر الناس يوم التاج وأسر أخوه صبح ، وأصيب على باب القنطرة بحجر

---

(١) شبر وشبير اسمان للحسن والحسين ولدى على بن أبى طالب . وقد جاء فى اللسان : شبر وشبير ومشبر أولاد هارون على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، ومعناها بالعربية حسن وحسين ومحسن . وبها سمى على أولاده . انظر لسان العرب ، وانظر كذلك : مفرج الكروب : ١ : ١٦٧ حاشية ٢ .

(٢) النكت العصرية : ٦٧ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ٧٨ — ٨١ .

كاد يموت منه ، وتعقّب ذلك تنقّل[1] القتال على القاهرة حتى دُخلت من الثغرة . ثم تبع هذا مجيء الفرنج ، وعمل البرج ، وحصار بلبيس ؛ ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخياط طالباً للوزارة ؛ ثم تلا ذلك نفاق لوائة ومن ضامّها من قيس ، وخروج أخيه نجم وابنه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم (١٢٢ ا) ثم خروج ابنه الكامل فى بقية العسكر . وفى أثناء هذه المدة قبضُه على الأثير بن جلب راغب وقتله ، وأسر معالى بن فُريج ثم قتله .

واتصل إليه الخبر من قدوم أسد الدين إلى إطفيح بأم النوائب [الكُبرَ][2] ؛ ووافق مجيء الغزّ قدومَ الفرنج ناصرين للدولة ، وتوجهوا من مصر فى البر الشرقى تابعين للغزّ . ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال ، ماتنقطع دونه الآمال،وخيموا على ساحل المقسم ، وأظهروا رجوعهم إلى الشام ؛ فتجهز الكامل للمسير صحبة الإفرنج. حدثنى القاضى الأجل الفاضل عبد الرحيم[3] بن على البيسانى ، قال : أنا أذكر وقد خلونا فى خيمة وليس معنا أحد ، إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم ، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج ، وعزم نجم الدين على التغريب إلى سليم وما وراءها ، وقال شاور : لكن لا أبرَحُ أقاتل بمن صَفَا معى حتى أموت . فنحن فى ذلك حتى وصل إلينا الداعى ابن عبد القوّى وصنيعة المُلك جوهر وعزّ [الأستاذ][4] وقد التزموا المال . وتفرع على هذا الأصل مقام الغز بالجيزة ، ونوبة البابَين ، وحصار الإسكندرية ، وانصراف الغز راجعين ، والفرنج بعدهم .

فما هو إلا أن توهم شاور أن الدهر قد نام وغفا ، وصفح عن عادته وعفا ؛ وإذا الأيام لاتخطب إلا زواله وفوْتَه ، ولا تريد إلا انتقاله وموته . فكان من قُدوم الفرنج إلى بلبيس وقتل من فيها وأسرهم بأسرهم ماأوجب حريق مصر، ومكاتبة الأجل نور الدين بن القسيم ،

---

(١) فى النكت : تنقيل .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٢٢ ا ، وهى مثبتة كذلك فى النكت : ٧٩ .

(٣) فى ل ١٢٢ ب : الرحمن ، وهو خطأ من الناسخ .

(٤) الاضافة من النكت المصرية : ٨٠ .

وإنجاده كلمة الإسلام بأسد الدين ومن معه من المسلمين الذين قلت فيهم وقد ربط الإفرنج الطريق عليهم :

أخذتم على الإفرنج كل ثنيّة وقلتم لأيدى الخيل مرّى على مرّى
لئن نصبوا فى البر جسراً ، فإنكم عبرتم ببحر من حديد على الجسر

قلت : وهذان البيتان من قصيدة ستأتى . ومُرّى هو اسم ملك الإفرنج .

قال عمارة[1] : فقضى قدوم الغز برحيل الفرنج عن الديار المصرية ، ولم يلبث شاور أن مات قتيلا بعد قدوم الغز بثمانية عشر يوماً . وهذه السنوات التى وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والدوارل ، وفيها ماهو عليه أكثر مما هو له [2] .

قال[3] : ولم يربِّ أحد رجال الدولة مثل ما ربّاهم الصالح بن رُزّيك ، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام ، وكانت وزارته تسعة أشهر مدة حمل الجنين ، ولا أتلف أموالهم مثل شاور ؛ وشاور هو الذى أطمع الغز والإفرنج فى الدولة حتى انتقلت عن أهلها .

ولما[4] عاد من حصار الإسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق : كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه فى قاعة البستان من دار الوزارة ، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار .

وقال الحافظ أبو القاسم : لما خيف من شر شاور ومكره ، لما عرف من غدره وضرّه ، واتضح الأمر فى (١٢٢ ب) ذلك واستبان ، تمارض الأسد ليقتنص الثعلبان . فجاءه قاصداً لعيادته ، جارياً فى خدمته على عادته ؛ فوثب جُرديك و برغش ، موليَا نور الدين ، فقتلا شاورا ، وأراحا العباد والبلاد من شره وما شاورا . وكان ذلك برأى صلاح الدين ، فإنه أول من تولى القبض عليه ، ومد يده الكريمة بالمكروه إليه . وصفا الأمر لأسد الدين وملك ، وخلع عليه الخلع وحنك ؛ واستولى أصحابه على البلاد ، وجرت أموره على السداد ، وظهر منه جميل السيرة ، وظهرت كلمة السنة .

---

(١) استمرار للاقتباس السابق .
(٢) نهاية هذا الاقتباس .
(٣) فى النكت العصرية : ٨٨ .
(٤) النكت العصرية : ٨٧ .

فصــــل

فى وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر . أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها ، وسار ودخل القصر ، وترتب وزيرا ، ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة[1] فنزلها ، وهى التى كان بها شاور فمَن قبله من الوزراء ، فلم ير فيها مايقعد عليه . واستقر فى الأمر ولم يبق له فيه منازع ولا مناوئ . وولى الأعمال من يثق إليه ، واستبد بالولاية ، فأقطع البلاد العساكر التى قدمت معه ؛ وصلاح الدين مباشر للأمور مقرر لها ، وزمام الأمر والنهى مفوض إليه لمكان كفايته ودرايته ، وحسن تأتيه وسياسته[2] .

قال العماد: وكُتب لأسد الدين منشور من القصر ، بسيط الشرح طويل الطى والنشر ، كتب العاضد فى طُرّته بخطه ، ولا شك أنه بإملاء كاتبه[3] : « هذا عهد لاعهد لوزير بمثله[4] ، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحمله ، والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله . فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة ، واسحب ذيل الفخار بأن اعْتَزَتْ[5] خدمتك إلى بنوة النبوة . واتخذه للفوز سبيلا ، ﴿وَلاَ تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ »[6] .

ونسخة المنشور : « من عبد الله ووليه أبى محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين ، إلى السيد الأجل ، الملك المنصور ، سلطان الجيوش ، ولى الأئمة ، مجير الأمة ، أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبى الحارث شيركوه العاضدى ، عضد الله

---

(١) هى الدار التى أنشأها الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى الوزير الفاطمى وأصبحت من بعده مقراً للوزراء ، ثم للأيوبيين متخذة اسم دار السلطنة أو الدار السلطانية ، ثم صارت داراً للضيافة بعد أن انتقل عنها الملك الكامل الأيوبى إلى القلعة . انظر خطط المقريزى .

(٢) مصدر هذه الفقرة الأتابكة : ٢٥٣ ؛ وقد تصرف فيها أبو شامة بحرية كاملة فى حدود الفكرة .

(٣) فى ل ١٢٣ ا : كتابه. وفى مفرج الكروب (١ : ١٦٤): وكتب له منشور بالإنشاء الفاضلى .

(٤) فى مفرج الكروب (١ : ١٦٥) : هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله .

(٥) التسبت والصلت .

(٦) سورة النحل : ٩١ .

به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته ، وأعلى كلمته . سلام عليك ، فإنه يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وعلى آله الطاهرين ، والأئمة المهديين وسلم تسليما » .

ثم ذكر باقى المنشور ، وهو مشتمل على كلام طويل ، وحشو غير قليل ، على عادة الكتاب المتأخرين الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين ، والبلاغة عكس ذلك . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « بُعثت بجوامع الكلم واختُصر لى الكلام اختصاراً » .

ولما استقل أسد الدين (١٢٣) بالوزارة طلب من القصر كاتب إنشاء ، فأرسل إليه بالقاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى . وكان أبوه من أهل بَيْسان[1] الشام . ثم ولى قضاء عسقلان ؛ وخرج الفاضل إلى الديار المصرية فولى كاتباً بالإسكندرية على باب السّدرة . ثم إنه اتصل بالكامل بن شاور فاستكتبه وزاحم به كتّاب القصر ، فثقل عليهم أمره ، فلما طلب أسد الدين كاتباً أرسل إليه ، وظن رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لا يتم ، وأن أسد الدين سيُقتل كما قتل من كان قبله ، فأرسلوا بالفاضل إليه وقالوا لعله يُقتل معه فنتخلص من مزاحمته لنا . فكان من أمره ما كان ، واستمر فى الدولة ، ولم يزدد فى كل يوم إلا تقدماً ، بصدقه ودينه وحسن رأيه ، رحمه الله .

وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنئة لأسد الدين أولها :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب ... كم راحة جُنيت من دوحة التعب

ياشيركوهُ بن شاذى الملك دعوةَ مَن ... نادى ، فعرّف خير ابن بخير أب

جرى الملوك وما حازوا بركضهمُ ... من المدى فى العلا ماحزت بالخبب

تَمَلَّ من ملك مصر رتبة قصرت ... عنها الملوك فطالت سائر الرتب

فتحت مصر ، وأرجو أن تصير بها ... ميسراً فتح بيت القدس عن كثب

---

(١) بالأردن بالغور الشامى بين الليمى حوران وفلسطين ، يذكر ياقوت أنها وبئة حارة وأهلها سمر الوجوه جعد الشعور لشدة الحرارة . معجم البلدان : ٢ : ٣٣١ ـ ٣٣٣ .

قد أمكنت أسد الدين الفريسة من ... فتح البلاد ، فبادر نحوها ، وثِب

أنت الذى هو فرد من بسالته ... والدين من عرفه فى جحفل لجب

فى حلق ذى الشرك من عدوى سطاك شجاً ... والقلب فى شجن ، والنفس فى شجب

زارت بنى الأصفر البيض التى لقيت ... حمر المنايا بها مرفوعة الحجب

وإنها نقد[1] من خلفها أسد ... أرى سلامتها من أعجب العجب

لقد رفعنا إلى الرحمن أيدينا ... فى شكرنا ما به الإسلام منك حُبى

شكا إليك بنو الإسلام يُتْمهم ... فقمت فيهم مقام الوالد الحدِب

فى كل دار من الإفرنج نادبة ... بما دهاهم ، فقد باتوا على ندب

من شر شاور أنقذت العباد ، فكم ... وكم قضيت لحزب الله من أرب

هو الذى أطمع الإفرنج فى بلد الـ ... إسلام حتى سعَوا للقصد والطلب

وإن ذلك عند الله محتسب ... فى الحشر من أفضل الطاعات والقرب

أذله [الملك][2] المنصور منتصراً ... لما دعا الشرك : هذا قد تعزز بى

وما غضبتَ لدين الله منتقماً ... إلا لنيل رضا الرحمن بالغضب

وأنت من وقعتْ فى الكفر هيبته ... وفى ذويه وقوع النار فى الحطب

وحين سرت إلى الكفار فانهزموا ... نُصرت نصر رسول الله بالرعب

يا محيى الأمة الهادى بدعوته ... للرشد كل غوىٍّ منهمُ وغبى

(١٢٣ب) لما سعيتَ لوجه الله مرتقباً ... ثوابه ، نلتَ عفواً كل مرتقب

أعدت نقمة مصرٍ نعمةً ، فغدت ... تقول : كم نكتِ لله فى النكب[3]

أركبتَ رأس سنان رأس ظالمها ... عدلا ، وكنت لوزرٍ غير مرتكب

ردَّ الخلافة عباسيةً ، ودع الد(م)عىَّ فيها يصادفْ شر منقلب

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسله ... فالحزم عندى[4] قطع الرأس كالذنب[5]

---

(١) النقد : الغنم الصغار الحجازية ، أو هى جنس من الغنم قصار الأرجل .

(٢) ساقطة من ك ، وهى كذلك فى ل ١٢٣ ب ، وفى ق ١٢٢ ب .

(٣) فى المفرج (١ : ١٦٧) : تقول لكم نكث لله فى النوب .

(٤) فى ل ١٢٣ ب : عند ؛ وبه لا يستقيم وزن البيت .

(٥) فى مفرج الكروب ١ : ١٦٧ : والذنب .

وقال العماد فى الخريدة[1] : أنشدنى الحافظ أبو القاسم[2] لنفسه ، وقد أعفى الملك العادل نور الدين ، قدس الله روحه ، أهل دمشق من المطالبة بالخشب فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر ، فكتب إليه يهنيه[3] :

لما سمحت لأهل الشام بالخشب ... عُوِّضت مصر بما فيها من النشب
وإن بذلت لفتح القدس محتسباً ... للأجر جوزيت أجراً غير محتسب
والأجر فى ذاك عند الله مرتقب ... فيما يثيب عليه خيرُ مرتقِب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه ... خير من الفضة البيضاء والذهب
ولست تعذر فى ترك الجهاد وقد ... أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل[4] ... لما تريد ، فبادر فجأة النوب
فأحزم الناس من قوّى عزيمته ... حتى ينال بها العالى من الرتب
فالجَدُّ والجِدُّ مقرونان فى قرن ... والحزم فى العزم ، والإدراك بالطلب[5]
فطهر المسجد الأقصى وحوزته ... من النجاسات ، والإشراك ، والصلُب
عساك تظفر فى الدنيا بحسن ثنا ... وفى القيامة تلقى خير منقلب[6]

فصـــــل

فى وفاة أسد الدين شيركوه وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه

توفى أسد الدين فجأة يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام .

---

(١) قسم شعراء الشام : ٢٧٦ ــ ٢٧٧ .

(٢) على بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر صاحب موسوعة تاريخ دمشق .

(٣) فى الخريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ٢٧٦ . وأملاه على فى الثانى والعشرين من جمادى الأولى سنة أربع وستين وخمسمائة .

(٤) فى ل ١٢٤ ا : ممتثلا ، وكذلك فى ق ١٢٢ ب ؛ وهو خطأ .

(٥) فى الخريدة : فى الطلب ، والمثبت هنا أولى .

(٦) فى الخريدة : حسن منقلب .

وقال ابن شداد(1) : كان أسد الدين كثير الأكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة ، تتواتر عليه التخم والخوانيق وينجو منها بعد معاناة شدة عظيمة ، فأخذه مرض شديد ، واعتراه خانوق عظيم ، فقتله رحمه الله . وفُوض الأمر بعده إلى صلاح الدين واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام . وبذل الأموال ، وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا فملكها ، وشكر نعمة الله عليه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص بلباس الجد والاجتهاد ، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدا ، إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته . ولقد سمعت منه ، رحمه الله ، يقول : لما يسر الله لى الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك فى نفسى . ومن حين استتب له الأمر مازال يشن الغارات على الفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادهما ، وغشى الناس من سحائب الأفضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام . هذا كله وهو وزير متابع للقوم ،(2) لكنه (١٢٤ ـ ا) مُقوٍّ مذهب السنة ، غارسٌ فى البلاد أهل العلم والفقه والتصوف والدين ، والناس يهرعون إليه من كل صوب ويفدون إليه من كل جانب ؛ وهو رحمه الله ، لا يخيب قاصداً ، ولا يعدم وافداً .

ولما(3) عرف نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين ، وذلك فى رجب من هذه السنة .

وقال ابن الأثير(4) : أما كيفية ولاية صلاح الدين فإن جماعة من الأمراء النُّورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة ، منهم الأمير عين الدولة الياروقى ، وقطب الدين خسرو بن تليل ، وهو ابن أخى أبى الهيجاء الهَذْبانى الذى كان صاحب إربل ، ومنهم سيف الدين على بن أحمد الهكارى(5) ، وجده كان صاحب قلاع الهكّارية ، ومنهم شهاب الدين محمود الحارمى وهو خال صلاح الدين ؛ وكل من هؤلاء

(1) فى النوادر السلطانية : ٣٢ ـ ٣٣ : وهو اقتباس حرفى .
(2) أى للفاطميين الشيعيين .
(3) نفس المصدر .
(4) فى الأتابكة : ٢٥٥ ـ ٢٥٨ ، وهو اقتباس حرفى طويل .
(5) فى مفرج الكروب (١ : ١٦٨) : سيف الدين على بن أحمد المشطوب .

قد خطبها ، وقد جمع ليغالب عليها . فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين ، فأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ، ويوليه الأمر بعد عمه .

وكان الذى حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال ، كان في ولايته بحكمه ولا يجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامى من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه ، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين . فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام ، فألزم به وأخذ كارهاً . إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بسلاسل ! فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة : الجبة والعمامة وغيرهما[1] ، ولقب بالملك الناصر ، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه .

وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى[2] معه فسعى مع سيف الدين على بن أحمد حتى أماله إليه ، وقال له : إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمى وابن تليل ، فمال إلى صلاح الدين . ثم قصد شهاب الدين الحارمى وقال له : إن صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك ، وقد استقام الأمر له ، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه فلا يصل إليك ؛ ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلفه له . ثم عدل إلى قطب الدين وقال له : إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الياروق ، وعلى كل حال فالجمع بينك و بين صلاح الدين أن أصله من الأكراد فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك ؛ ووعده وزاد في إقطاعه ؛ فأطاع صلاح الدين أيضاً . وعدل إلى عين الدولة الياروق ، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً ، فلم تنفعه رُقاه ولا نفذ فيه سحره ، وقال : أنا لا أخدم يوسف أبداً ، (١٢٤ ـ ب) وعاد إلى نور الدين ومعه غيره ، فأنكر عليهم فراقه وقد فات الأمر ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه ؛

---

(١) سيرد وصف هذه الخلع فيما بعد اقتباسا من وصف ابن أبى طى لها .

(٢) تقدم شىء من التعريف به وسيتكرر ذكره فيما بعد في مناسبات عدة .

وهو نائب عن الملك العادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين فى البلاد كلها ، ولا يتصرفون إلا عن أمره .

وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأسفهسلار[1] ويكتب علامته[2] فى الكتب تعظيما أن يكتب اسمه ، ولا يفرده فى كتاب بل يكتب : الأمير الأسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا .

واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه ، فلم يمكنه منعه . فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه .

وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته ، فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد . ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر ، فسير نور الدين العساكر ، وفيهم إخوة صلاح الدين ، منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو أكبر من صلاح الدين[3] فلما أراد أن يسير قال له : إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذى كان يقوم فى خدمتك وأنت قاعد فلا تَسِرْ ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ؛ وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامى ، وتخدمه بنفسك كما تخدمنى ، فسر إليه واشدد أزره ، وساعده على ما هو بصدده . فقال : أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى . فكان كما قال .

---

(١) اصطلاح عسكرى مركب من كلمتين : أسفه = مقدم ، وهى فارسية ، سلار = عسكر . وهى تركية ، فمعناه : مقدم العسكر . وقد استعمل هذا الاصطلاح منذ العهد الفاطمى ، وتغير معناه تغيراً طفيفاً بمرور الزمن وبصفة خاصة فى العصر المملوكى ، لكنه لم يخرج عن دائرة النظام العسكرى . انظر صبح الأعشى ح : ٣ ، ح ٦ .

(٢) العلامة اصطلاح يختاره الخليفة أو السلطان ليوقع به على المنشورات والأوامر الرسمية ، وهى عبارة عن آية قرآنية أو حديث أو قول مأثور أو اقتباس شعرى ، وقد تكون توقيعاً بالاسم . انظر الخطط المقريزى ح ٣ ، والسلوك : ١ : ٣٤٤ حاشية : ١ .

(٣) كان لتورانشاه جهد واضح الى جانب أخيه صلاح الدين . ذلك أنه فتح النوبة سنة ٥٦٨ ، واليمن سنة ٥٦٩ وحكم بها نيابة عن أخيه . ثم عاد إلى دمشق سنة ٥٧١ وبقى بها حتى أنابه أخوه عنه فى الاسكندرية سنة ٥٧٦ ، وبها مرض وتوفى . وسيرد تفصيل كل هذا فى مواضعه . انظر أيضاً وفيات الأعيان ١ : ٩٩ ــ ١٠٠ .

وقال العماد : لما فُرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراؤهم واختلطت أهواؤهم ، وكاد الشمل لا ينتظم ، والخلل لا يلتئم . فاجتمع الأمراء النُّورية على كلمة واحدة ، وأيد متساعدة ، وعقدوا لصلاح الدين الرأى والراية ، وأخلصوا له الولاء والولاية ، وقالوا : هذا قائم مقام عمه ونحن بحكمه ، والتزموا لصاحب القصر [1] بتوليته . ونادت السعادة بتلبيته ، وشرع فى ترتيب الملك وتربيته ، وفض ختوم الخزائن ، وأبَضَّ رسوم المزائن ، وسلط الجود على الموجود ، و بسط الوفور للوفود ، وفرق ما جمعه أسد الدين فى حياته . وأنارت على منار العلا أناة آياته ، ورأى أولياءه تحت ألويته وراياته ، وأحبوه ، ومازالت محبته غالبة على مهابته ، وهو يبالغ فى تقريبهم كأنهم ذوو قرابته . وما زاده الملك ترفعاً ، وما أفاده إلا تأصلا فى السماح وتفرعاً ؛ وضم من أمر المملكة ما كان منشوراً ، وكتب له العاضد صاحب القصر منشوراً ، وهو بالمثال الكريم الفاضلى الذى هو السحر الحلال ، والعذب الزلال . ثم أورده العماد وهو شبيه بمنشور عمه أسد الدين [2] . وجرى القلم فيه بما خط له القلم فى الأزل من وصف (١٢٥ — ١) جهاده وسلمه .

ففى ذلك المنشور : « والجهاد أنت رضيع دَرِّه ، وناشئة حِجره ، وظهور الخيل مواطنك ، وظلال الخيام مساكنك ، وفى ظلمات قساطله تُجلى محاسنك ، وفى أعقاب نوازله تتلى مناقبك . فشمر له عن ساق من القنا ، وخُض فيه بحراً من الظبا ، واحلل فى عقد كلمة الله وثيقات الحبا ، وأسِل الوهاد بدم العدا ، وارفع برءوسهم الربا ، حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك ، وشهوداً لك يوم مقامك » .

وفى طُرَّته بالخط العاضدى ، ولم يذكره العماد فى كتابه : « هـذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته عند الله سبحانه عليك ، فأوف بعهدك و يمينك ، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ، ولمن مضى بجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن أسوة ، ولمن تبقى بثقته بنا أعظم سلوة . ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ » [3] .

---

(١) فى ل ١٢٥ ا ، وكذلك فى ق : والزموا صاحب القصر .
(٢) فى ل ١٢٥ ا : بمنشور أسد الدين عمه ، وكذلك فى ق ١٢٤ ا .
(٣) سورة القصص : ٨٣ .

يعنى بمن مضى أسد الدين و بمن بقى صلاح الدين .

ثم قال العماد : وهذا آخر منشور طُويت به تلك الدولة وخُتمت ، وتبدّدَت عقودها وما انتظمت .

ووصلت كتب صلاح الدين إلينا إلى الشام ، بما تسنى له من المرام ، ولمن يقصده بالاستدعاء والاستبطاء ، ولمن تأخر عنه بالخلع والعطاء . وترددت الكتب الصلاحية بذكر الأشواق ، وشكوى الفراق ، وشرح الاستيحاش ، و بريح القلوب العطاش ، فإن أصحابنا و إن ملكوا ، ونالوا مقاصدهم وأدركوا ، حصلوا بين أمة لا يعرفونها ، بل ينكرونها ولا يألفونها ، ورأوا وجوهاً هناك بهم عابسة ، وأعيناً للمكائد متيقظة ، وعن الود ناعسة ، فإن أجناد مصر كانوا فى الدين مخالفين ، وعلى عقيدتهم مماقدين مخالفين .

وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتاباً أوله :

أيها الغائبون عنى ، وإن كنـ تم لقلبى بذكركم جيرانا
إننى مذ فقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندى عيانا

فسألنى المكتوب إليه أن أكتب جوابه ، فقلت :

أيها الظاعنون عنى ، وقلبى معهم لا يفارق الأظعانا[1]
ملكوا مصر مثل قلبى ، وفى هـ ـذا وهاتيك أصبحوا سكانا
فاعدلوا فيهما فإنكم اليو م ملكتم عليهما سلطانا
لا ترُوعوا بالهجر قلب محب أورثته روعاته[2] الخفقانا
حبذا معهد قضينا به العيـ ش فكنا بربعه جيرانا
إذ وجدنا من الحوادث أمناً وأخذنا من الخطوب أمانا
ورتعنا من المنى فى رياض وسكنا من المغانى جنانا

و بعد ، فإن وفود الهناء ، وأمداد الدعاء ، متواصلة على الولاء ، صادرة عن محض

---

(١) فى مفرج الكروب (١ : ١٧٢) : ما يفارق الأشجانا .
(٢) فى مفرج الكروب : أوصابه .

الولاء ، إلى غاية[1] جنابه المأنوس ، ومنيع كنفه المحروس ، فليهنه الظفران : بالملك و بالعدو ، وفرع هضاب المجد والعلو ؛ وكيف لايكون النصر مساوقا لدين هو صلاحه ، والتأييد مرافقاً لعزم هو نجاحه وفلاحه :

(١٢٠ب) فالشام يغبط مصراً مذ حللت بها — كما الفرات عليكم يحسد النيلا
نلتم من الملك عفواً ما الملوك به — عُنُوا قديماً وراموه فما نِيلا

قال العماد : ورثيت أسد الدين بقصيدة خدمت بها نور الدين وعزيت بها أخاه نجم الدين ، منها :

تضعضع فى هذا المصاب المباغت — من الدين ، لولا نورُه ، كل ثابت
فأيام نور الدين دامت منيرة — لنا ، خلفاً من كل مودٍ وفائت
فما بالنا نبدى التصامُم غفلةً — وداعى المنايا ناطق غير صامت
نؤمل فى دار الفناء بقاءنا — ونرجو من الدنيا صداقة ماقت
وما الناس إلا كالغصون ، يد الردى — تقرّب منها كل عود لناحت
لقد أبلغت رُسْل المنايا وأسمعت — ولكنها لم تحظ منا بناصت
فلهفى على تلك الشمائل ، إنها — لقد كرُمت فى الحسن عن نعت ناعت

وله من أخرى عزى بها أخاه نجم الدين أيوب وولده ناصر الدين محمداً ، يقول :

ما بعد يومك للمعنَّى المدنف — غير العويل وحسرة المتأسف
مما أجرأ الحدثان ! كيف سطا على الـ — أسد المخوف سطا ولم يتخوف[2]
من ذا رأى الأسد الهصور فريسة — أم أبصر الصبح المنير وقد خفى[3]
مَن ثابتٌ دون الكماة سواه إن — زلت بهم أقدامهم فى الموقف ؟

(١) فى ل ١٢٠ ب ، وكذلك فى ق ، وفى مفرج الكروب (١ : ١٧٣) عالى .
(٢) فى مفرج الكروب : ١ : ١٧١ .
ما أجرأ الحدثان ، كيف عدا على الـ — أسد المخوف سطا ولم يتوقف
(٣) يتبادل هذا البيت والذى بعده مكانيهما فى مفرج الكروب .

ماكان أسنى البدر لو لم يستتر | ماكان أبهى الشمس لو لم تكسف
(ماكنت أخشى أن يُلم ملمه | يوماً ، وأنت لكربها لم تكشف)[1]
أيام عمرك لم تزل مقسومة | لله ، بين تعبُّد وتعرُّف
متهجداً لعبادة ، أو تاليا | من آية ، أو ناظراً فى مصحف
نُجِع الندى والبأس منك بحاتم | وبحيدر ، والحلم منك بأحنف
بالملك فزت ، وحزته عن قدرة | ومضيت عنه بسيرة المتعفف
ووُصفت ، يا أسداً لدين محمد ، | مدحاً بما ملكٌ به لم يوصف
وقفوت آثار الشريعة كلها | وقد اهتدى مَن للشريعة يقتفى
[أأنفت من دنياك حين عرفتها | فلويت وجه العارف المتنكف][2]

ومنها :

يا ناصر الدين استعذ بتصبر | مُدْنٍ إلى مرضاة ربٍّ مزلف
وتعزَّ نجم الدين عنه مهنَّأً | أبد الزمان بمُلك مصر ويوسف
لاتستطيع سوى الدعاء ، فكلنا | إلا بما فى الوسع ، غير مكلف

ولعمارة اليمنى فى صلاح الدين مدائح ، منها قوله[3] :

لك الحسبُ الباقى على عقب الدهر | بل الشرف الراقى إلى قمة النَّسر
كذا فليكن سعى الملوك إذا سمت | بها الهمم العليا إلى شرف الذكر
نهضتم بأعباء الوزارة نهضة | أقلتم بها الأقدام من زلة العثر
كشفتم عن الإقليم غمته ، كما | كشفتم بأنوار الغنى ظلمة الفقر
حميتم من الإفرنج سرب خلافة | جريتم لها مجرى الأمان من الذعر
ولما استغاث ابن النبى بنصركم | ودائرة الأعمار أضيق من شبر

(١) هذا البيت ساقط من ل ١٢٦ ا وكذلك من ق ١٢٥ ا ، ومن مفرج الكروب .

(٢) هذا البيت موجود فى ل ١٢٦ ا وكذلك فى ق ١٢٥ ا وفى مفرج الكروب : ١٧٢:١ ؛ وهو ساقط من الأصل .

(٣) فى ديوان عمارة الملحق بكتاب النكت العصرية ثمانية عشر بيتاً من هذه القصيدة: ٢٧٠-٢٧١ .

(١٢٦ ا)جلبتم إليه النصر أوساً وخزرجاً — وما اشتُقّت الأنصار إلا من النصر

كتائب ، فى جَيْرون منها أواخر — وأولها بالنيل من شاطئَىْ مصر

طلعتم فأطلعتم كواكب نصرة — أضاءت ، وكان الدين ليلا بلا فجر

وآبت إليكم يا ابن أيوب دولة — تراسلكم فى كل يوم مع السَّفر

حمى الله فيكم عزمة أسدية — فككتم بها الإسلام من ربقة الأسر(١)

أخذتم على الإفرنج كل ثنيَّة — وقلتم لأيدى الخيل مُرِّى على مُرِّى

لئن نصبوا فى البر جسراً فإنكم — عبرتم ببحر من حديد على الجسر

طريق تقارعتم عليها مع العدا — فقرتم بها ، والصخر يُقرع بالصخر

وأزعجه من مصر خوف يلزُّهُ — كما لز مهزوم من الليل بالفجر

وكم وقعة عذراء لما افتضضتها — بسيفك لم تترك لغيرك من عذر

وأيديكمُ بالبأس كاسرةُ العدا — ولكنها بالجود جابرة الكسر

أبوك الذى أضحى ذخيرةَ مجدكم — وأنت له خير النفائس والذخر

ومن كنت معزوفاً له فاستفزه — بمثلك تيهٌ فهو فى أوسع العذر

فكيف أبٌ أصبحت نار زناده — وإلا كنور البدرِ من سنه البدر

توفره وسط الندىّ كرامةٌ — وتحمل عنه مايؤود من الوقر

وتخلفه حرباً وسلماً خلافة — تؤلف أضداداً من الماء والجمر

وكم قمت فى بأس ، وجود ، ورتبة — بما سره فى الخطب ، والدست ، والثغر

ولو أنطق الله الجمادات لم تقم — بنعمتكم بالمستحق من الشكر

يد لا يقوم المسلمون بشكرها — لكم آلَ أيوبٍ إلى آخر الدهر

بكم أمّن الرحمن أعظُم يثرب — وأمن أركانَ الثنيّة والحِجر

ولو رجعت مصرٌ إلى الكفر لانطوى — بساط الهدى من ساحة البر والبحر

ولكن شددتم أزره بوزارة — غدا لفظها يشتق من شدة الأزر

(١) فى ديوان عمارة : من ربقة الكفر .

فهنيتم فتحاً تقدم جله وبشّر أن الكل يتلو على الإثر
وما بقيت فى الشرك إلا بقية تتمّمها فى ذمة البيض والسمر
وعند تمام الملك آتى مهنئاً وملتمساً أجر الكهانة والزجر
ولولا اعتقادى أن مدحك قربة أرجّى بها نيل المثوبة والأجر
لما قلت شعراً بعد إعفاء خاطرى ولى سنوات منذ تبت عن الشعر
فأوص بىَ الأيام خيراً ، فإنها مصرّفة بالنهى منك وبالأمر
وجائزتى تسهيل إذنى عليكم وملقاكم لى بالطلاقة والبشر

وقال أيضاً من قصيدة :

يا شبيه الصدّيق عدلا وحسناً وسميًّا حكاه معنى ومغنى
هذه مصر يوسفٍ ، حل فيها يوسفٌ مالكا وما حل سجنا
أنت حرّمت أن يثلّث فيها بسوى الله وحده أو يثنّى
إنما الملك والوزارة جسم أنت روح فيه ، وفى اللفظ معنى

(١٢٦ ب) وقال أيضاً من قصيدة[١] :

ملكُ صلاح الدين ، لا قُوضت أطنابه ، ملك التقى والصلاح
سيرة عدل حسّنت عندنا ما كان من وجه الليالى القباح
سافر فى الدنيا وأقطارها ذكرٌ غدا عنه جميلا وراح
قل لابن أيوب ، وكم ناصح أنفع ممن هو شاكى السلاح
حاربْ على مثل نجوم السما فمُلك مصر ما عليه اصطلاح
قولا لمن فى عزمه فترة ارجع[٢] إلى الجد وخل المزاح
فالقدس قد أذّن إغلاقه على يدى يوسفَ بالانفتاح[٢]

وقال أيضاً من قصيدة :

ونُبتَ بمصر عن سميك يوسفٍ كما ناب عن سكب الحيا واكفٌ سكب

---

(١) فى النكت العصرية : ١٩٢ ـ ١٩٣ قصيدة من نفس الوزن والقافية ، وهى أيضاً فى مدح صلاح الدين ، وأرجح أن ما ذكر هنا هو بعض هذه القصيدة .

(٢) بقطع الهمزة .

حذوت على سَجِلَّيْ نداه وهديه وإن كنت لا سجنٌ حواك ولا جُب
ووافقته فى الصفح عن كل مذنب فما منك تثريب وإن عظم الخطب

وللحكيم عبد المنعم الجليانى من قصيدة طويلة :

أبو المظفر مأوى كل مضطهد[1] بحلمه[2] ونداه يضرب المثل
مهما يمل جائر أو عائث عَمِهٌ فمند عدل صلاح الدين يعتدل
أحيا به الله مصراً فهى ناشزة وافتكها من عدو ما به قِبل
كَم للفرنج بهـا وِرداً ومنتجعاً ونارهم حولها تذكو وتشتعل
فأطفأ الناصر المنصور جذوتهم وأدبروا بقلوب شهمها وجِل
مَلْك تقلد سلك المُلْك منتظماً وقال للمـال هذا منك لى بدل
ففرق المـال جمعاً للقلوب به وحسبه فيهمُ إدراك ما سألوا
إنّ الملوك الذين امتد أمرهمُ لم يخزنوا المال ، بل مهما حوَوْا بذلوا
كذا السياسة ، فالأجناد لو علموا بخل المليك وجاءت شدة خذلوا

فصـــــل

وهذا الذى ذكرناه من قصة شاور وما جرى بسببه فى الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملا على زيادات وفوائد فى كتاب ليحيى ابن أبى طىّ الحلبى فى السيرة الصلاحية ، فأحببت ذكره مختصراً .

ذكر أن الملك الصالح طلائع بن رُزِّيك[3] ، وزير الديار المصرية ، لما قُتل فى رمضان سنة ست وخمسين ، بتدبير عمة العاضد عليه ، أوصى عند موته ابنه رزيك بشاور ، وقال

(١) فى ق ١٢٦ ا : مضطيد .
(٢) فى ق ١٢٦ ا : بحكمة ، وكذلك فى ل .
(٣) تولى وزارة مصر سنة ٥٤٩ ، وهى السنة التى تولى فيها الفائز الفاطمى الخلافة وبقى طول عهد الفائز ، إلى سنة ٥٥٥ ، وأوائل عهد العاضد ، فى الوزارة ، حتى اغتيل فى دهليز القصر ، سنة ٥٥٦ ، بتدبير عمة العاضد وتآمرها عليه . وكان للصالح طلائع بن رزيك نشاط حربى كبير فى الشام ضد الصليبيين ومحاولات للتحالف مع نور الدين محمود ضد من استقر منهم بأرض الشام وفلسطين . انظر وفيات الأعيان ح ١ ، والنجوم الزاهرة ، وخريدة القصر : قسم شعراء مصر : ح ١ ، وكذلك : الفاطميون فى مصر .

له : لا تُزلزله من ولايته فإنه أسلم لك . ويقال إنه أنشد أبياتاً منها :

فإذا تبدد شمل عقدكما لا تأمنا من شاور السعدى

وكان شاور متولى قوص والصعيد الأعلى ؛ فلما دفن الصالح استوزر ابنه رزيك ولقب بالعادل . ولما استقرت أحواله أرسل إلى عمة العاضد فخنقها ؛ واجتمع إلى رزيك أولاد عمته ، ومن جملتهم عز الدين حسام ، وأشاروا عليه بعزل شاور ، فامتنع ، ثم ألحوا عليه فأجاب . وبلغ شاوراً فجاهر بالعصيان وجمع العربان وأهل الصعيد وصار[1] إلى القاهرة ، وخرج إليه جماعة من أمرائها كانوا كاتبوه ، فخرج رزيك تحت الليل (١٢٧ ا) فضل الطريق وتاه ، فوقع عند إطفيح ، وثَمّ بيوت عرب ، فقبضوا عليه ؛ وحُمل إلى شاور وقد دخل القاهرة وتسلمها ، وأخرجت إليه خلع الوزارة وتم أمره .

ولما حصل رُزَّيك عند شاور أكرمه وصلب الذى أتى به ونادى عليه : هذا جزاء من لا يراعى[2] الجميل ؛ وكان للصالح إليه إحسان . وتفرّق آل رزيك فى البلاد ، ونجا حسام الذى كان سبب هلاك بنى رزيك بأموال وصار إلى حماة فأقام بها واشترى القرى ، ولم يزل بها إلى أن مات . وكان فى خروجه أودع عند الفرنج سبعين ألف دينار فوفَوْا له وردوها عليه . ثم أراد تقى الدين أخذها منه ، فقال : من العجب أن الفرنجى يفى لى بردها وتأخذها أنت منى . فكف عنه .

وتمكن شاور ، وكان له ثلاثة أولاد : طىّ ، والكامل ، وسليمان ، فتبسطوا على الناس وتعاظموا فمجتهم الأنفس .

وكان مُلْهَم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك ؛ فلما شاهدا ميل الناس عن شاور بسبب أولاده أخذا فى مراسلة رزيك بن الصالح ، وهو فى السجن ، والعمل له فى إعادته إلى الوزارة . واتصل ذلك بطىّ بن شاور ، فدخل على أبيه وقال له : أنت غافل ومُلْهَم وضرغام يفسدان أمرك ، وقد شرعا فى أمر رزيك واستحلفا له جماعة من الأمراء ، ولا يمكن تلافى حالك إلا بقتل رزيك . فقال له : إن الصالح أولانى جميلا وبسببه

(١) فى ل ١٢٧ ا : وسار .

(٢) فى ل ١٢٧ ب : لا يرعى .

حللت هذا المحل . فتركه ولده طيّ ، ودخل على رزيك فقتله فى سجنه ، وسمع شاور ذلك فقامت قيامته ؛ ونُمى الخبر إلى ضرغام وأخيه ملهم فثارا[1] وأثارا من استحلفاه من الأمراء ، وزحفا بالعساكر [إلى شاور][2] فانهزم وخرج من باب القاهرة وهرب إلى الشام . وأدرك ضرغام ولديه طيّاً وسليمان فقتلهما ، وأسر الكامل فأخذه ملهم واعتقله عنده ، وأراد ضرغام قتله فمنعه منه ملهم وحفظ له جميلا كان قد فعله معه .

واستقر أمر ضرغام فى الوزارة وخُلِع عليه ولقب بالملك المنصور . ولما استقر به الأمر بلغه أن جماعة من الأمراء حسدوه واستصغروه وكاتبوا شاوراً ، وكان صار إلى الشام ، فأخذ فى إعمال الحيلة عليهم وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلا فقتلهم جميعاً ، ولم يتعرض لأموالهم ولا لمنازلهم . وقيل إنه قتل منهم سبعين أميراً ، ويقال إنه جعلهم فى توابيت وكتب على كل تابوت اسم صاحبه ، فكان ذلك أكبر الأسباب فى هلاكه ، وخروج دولة المصريين عن يد أصحابها لأنه أضعف عسكر مصر بقتل الأمراء .

وأما شاور فإنه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصل إلى دمشق بعد تحققه قتل ولديه . ولما وصل إلى بُصرى اتصل خبره بنور الدين فندب جماعة إلى تلقِّيه ، وأنزله فى جوسق[3] الميدان الأخضر ، وأحسن ضيافته وإكرامه . ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أحضر نور الدين ابن الصوفى وجماعة من وجوه (١٢٧ ب) الدمشقيين وقال لهم : اخرجوا إلى هذا الرجل وسلموا عليه وعرفوه أعذارنا فى التقصير فى حقه، وسلوه فيما قدم ، وماحاجته ، فإن كان ورد علينا مختاراً للإقامة أفردنا له من جهاتنا مايكفيه ويقوم بأربه وأوده ، ونكون عوناً له على زمانه ، وإن كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته . فخرج الجماعة [إليه][4] بالرسالة فشكر إحسان نور الدين وسكت عما وراء ذلك . فسأله القوم الجواب، فقال : إذا لم يبيَّت الرأى جاء فطيراً . فعاد القوم إلى نور الدين وعرفوه مادار بينهم وبينه ،

---

(١) فى ل ١٢٧ ب . فثاروا ، وكذلك فى ق ١٢٦ ب ، وهو خطأ .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٢٧ ب ، ومن ق ١٢٦ ب .

(٣) الجوسق معرب اللفظ الفارسى كوسك ، ومعناه القصر ، ويجمع على جواسق . انظر السلوك : ١ : ٥٩٩ حاشية : ١ .

(٤) الإضافة من ل ١٢٨ ا

فأمرهم بالعود إليه من غدِ ذلك اليوم ، ففعلوا ، وطلبوا الجواب ، فسكت وأطال أيضاً ، ثم قال : إن رأى نورُ الدين ، أطال الله بقاءه ، الاجتماع بي فله علوُّ الرأى . فعرّفوا نور الدين بمقالته ، فأجاب نور الدين أن يكون الاجتماع على ظهر بالميدان الأخضر . وركب نور الدين من الغد فى وجوه دولته وخواص مملكته فى أحسن زىّ وأكمل شارة . فلما دخل الميدان ركب شاور من الجوسق والتقيا فى وسط الميدان بالتحية فقط ، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه . ثم سارا من موضع اجتماعهما ، وهو نصف الميدان ، إلى آخره ، ثم انفصلا من هناك وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق ، وأخذ ثقته ذلك فى جمع العساكر .

وأما ضرغام فإنه حين استقر به الأمر أنشأ كتاباً إلى نور الدين ، على يد علم الملك ابن النحاس[1] ، يظهر فيه الطاعة ويعرّض بخذلان شاور ، فأظهر نور الدين لعلم الملك القبول فى الظاهر وهو مع شاور فى الباطن ، وأجاب عن الكتاب ، وانفصل علم الملك عن دمشق . فلما كان بظاهر الكرك أخذه فيليب بن الرفيق الفرنجى وحصل على جميع ما كان معه ، وانهزم علم الملك بنفسه وتوجه إلى الساحل وسار إلى مصر .

وفى هذه الأيام أنفذ نور الدين واستحضر أسد الدين شيركوه من إقطاعه من الرحبة ، وكان نور الدين قد تيمن بأسد الدين وتبرك بميمون نقيبته ، لأنه لم يرسله فى أمر إلا نجح ، ولم يولجه فى مضيق إلا انفتح . ولما حضر أسد الدين إلى دمشق خلا به نور الدين وتحدث معه بأشياء فى أمر مصر ، وأمره بالاستعداد . وكان نور الدين قد أزاح علة العسكر الذى يريد تسييره إلى مصر ، فخرج من يومه .

وكان شاور قد أطمع نور الدين فى أموال مصر ورغبه فى ملكها ، وأنه إذا ملكها كان من قِبله فيها .

ولما بلغ شاوراً استتبابُ أمر العسكر سأل عن المقدم عليه ، فقيل له أسد الدين شيركوه ، فلم يطب له ذلك ، لأنه ظن أن التقدمة تكون له ، فلما زُحم[2] بهذا العود سُقط فى يده ؛

---

(١) فى الخريدة ذكر ولده يحيى بن علم الملك بن النحاس المصرى ، وهو من أمراء الدولة المصرية أيام رزيك وولده ، وأصله من ولد تميم بن المعز الصنهاجى صاحب المهدية بالمغرب ، انظر قسم شعراء مصر : ٢ : ١٢١ ـ ١٢٣ .

(٢) فى ل ١٢٨ ا ، وكذلك فى ق : زوحم .

وفُت فى عضده ، ولم يجد بدأً من المسير . فخرج واجتمع بأسد الدين وسارا جميعاً حتى وصلوا[1] أطراف البلاد المصرية ونزلوا على تل فى الحوف قريب من بلبيس يعرف بتل بسطة ، وضربوا خيامهم هناك .

ولما (١٢٨ ــ ا) اتصل بضرغام خبر ورود شاور وأسد الدين بالعساكر الشامية جمع أمراء مصر واستشارهم ؛ فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتخرج جريدةً وتَلقى العساكر الشامية بصَدْر[2] ، وهى على يومين من القاهرة ، فإنهم لايثبتون ، لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء ، ولمكان قلة الماء عليهم ، لأن المسافر إلى مصر يحمل الماء من أيْلة[3] مسيرة ثلاثة أيام ، فلم يروا ذلك واختاروا أن يلقوهم على بلبيس . فأمر ضرغام الأمراء بالخروج ، فخرجوا فى أحسن زى وأكمل عدة ، والمقدَّم عليهم ناصر الدين مُلْهَم ، أخو ضرغام ، وجاءوا حتى أحاطوا بالتل الذى كان أسد الدين نازلا عليه .

ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر وأنهم قد ملكوا عليهم الجهات وسدوا منافذ الطرقات ، قال لشاور : يا هذا ، لقد أرهقتنا وغررتنا ، وقلت إنه ليس بمصر عُساكر ، فجئنا فى هذه الشرذمة ! فقال له شاور : لا يهولنك ما تشاهد من كثرة الجموع فأكثرها الحاكة والفلاحون الذين يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا ، فما ظنك بهم إذا حمى الوطيس وكَلِبَت الحرب ! وأما الأمراء فإن كتبهم عندى وعهودهم معى ، وسترى ذلك إذا لقيناهم . ثم قال : أريد أن تأمر العساكر بالاستعداد للوثوب[4] ، ففعل ، ونهاهم شاور عن القتال .

ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب إلى أن حمى النهار والتهب الحديدُ على أجساد الرجال ، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار ، وخلعوا السلاح ، ونزلوا عن الخيول ، وجلسوا فى الظل . فأمر شاور الناس بالحملة فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه وأطلق

---

(١) الضمير فى هذا وفيما بعده للجمع على تقدير : الجنود ، وفيما قبل بالتثنية لعوده إلى شاور وأسد الدين .

(٢) يذكر ياقوت أنها كانت قلعة خراباً بين القاهرة وأيلة ، ويحدد ابن أبى طى هنا بعدها عن القاهرة بمسيرة يومين . انظر معجم البلدان ٥ : ٣٤٤ .

(٣) على بحر القلزم عند التقاء بلاد الحجاز بالشام ، مدينة صغيرة بها زرع يسير ، وكانت مجتمع حجاج الفسطاط والشام نفس المصدر : ١ : ٣٩١ ــ ٣٩٢ .

(٤) فى ل ١٢٨ ب : والركوب . وهى كذلك فى ق .

عنانه وولى منهزماً . وتركوا خيمهم وأموالهم ليس بهـا حافظ ، فاحتوى عليها أصحاب أسد الدين ، وأسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين ، ولم يمكّن شاور من تقييدهم والاحتياط عليهم فهربوا . وساق أسد الدين وشاور فى إثر الناس ، ونزلوا على القاهرة وقاتلوها أياماً . وراسل شاورٌ العاضد فى إصلاح الحال وأن يأذن له فى الدخول إلى القاهرة ، فأذن له .

وكان ضرغام صار إلى تحت القصر وقال: أريد أمير المؤمنين يكلمنى لأسأله عما أفعل ، فلم يجبه أحد . فذهب على وجهه منهزماً، وخرج من باب زويلة والعامة تلعنه وتصيح عليه ، فالتحقه رجل من أهل الشام ليقتله ، فقال له ضرغام : أوصلنى إلى أسد الدين ولك مناك ، فلم يقبل منه وحمل عليه فطعنه ، فأرداه ، ونزل إليه واحتز رأسه وحمله إلى أسد الدين ، وأعلمه بما جرى بينهما،فصعُب على أسد الدين وأوجعه ضرباً ، وأراد قتله ، فشفع فيه شاور . ودخل شاور القاهرة وقتل ملهماً أخا ضرغام عند بركة الفيل ، وخرج ابنه الـكامل من دار ملهم ، وكان معتقلا فيها ، وخرج معه القاضى الفاضل ، (١٢٨ ب) وكان أيضاً معتقلا فيها معه .

واستقام أمر شاور فى الوزارة ، وأقام أسد الدين على المقسم ينتظر أمر شاور فيما ضمن لنور الدين ، وأرسل إليه يقول له : قد طال مقامنا فى الخيم وقد ضجر العسكر من الحر والغبار . فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار وقال: ترحل الآن فى أمن الله تعالى ودَعَتِه(١) . فلما سمع أسد الدين ذلك أرسل إليه : إن نور الدين أوصانى عند انفصالى عنه ، إذا ملك شاور تـكون مقيما عنده ، ويكون لك ثلث مُغَلّ البلاد ، والثلث الآخر لشاور وللعسكر ، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه فى مصالحه . فقال شاور : أنا ما قررت شيئاً مما تقول، أنا طلبت نجدة من نور الدين ، فإذا انقضى شغلى عادوا إلى الشام . وقد سيرت إليكم نفقةً فخذوها وانصرفوا ، وأنا أتصرف(٢) مع نور الدين . فقال أسد الدين : أنا لا يمكننى مخالفة

---

(١) فى ل ١٢٩ ا : فى أمن الله وفى دعته .

(٢) فى ك : وأنا أتصرف ؛ ثم شطبت هذه الـكلمة ، وكتب بعدها : أنفصل . وفى ل ١٢٩ ا ، وفى ق : أنفصل . والأولى ما ثبت هنا .

نور الدين ، ولا أقدر على الانصراف إلا بإمضاء أمره . فأمر شاور بإغلاق باب القاهرة ، وأخذ في الاستعداد للحصار ، واستعد أسد الدين أيضاً ، وسيَّر صلاح الدين في قطعة من الجيش[1] إلى بلبيس لجمع الغلال والأتبان والأحطاب وماتدعو الحاجة إليه ، ويكون جميع ذلك في بلبيس ذخيرة ، وأخذ في قتال القاهرة .

وكاتب شاور ملك الفرنج مُرِّى يستنجده ويقول له : إن شيركوه طلع معى نجدةً على ضرغام ، فلما حصلوا فى البلاد طمعوا فيها ، ومتى ملكوها مضافةً إلى بلاد الشام لم يكن لك معهم عيش ولا قرار . وضمن له فى كل مرحلة يرحلها إلى ديار مصر ألف دينار ، وقرر شيئاً لقضيم دوابهم وشيئاً لاسبتاريته[2] . فخرج مُرِّى من عسقلان فى جموعه إلى فاقوس فى سبع وعشرين مرحلة ، وقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار .

ولما تحقق أسد الدين قرب الفرنج من القاهرة أجفل عنها إلى بلبيس ، وانضاف إليه من أهلها الكنانيَّة . وخرج شاور فى عساكر مصر واجتمع بالفرنج ، وجاء حتى خيَّم على بلبيس وأحاط بها محاصراً لأسد الدين ، يباكر الحرب ويراوحها ، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر .

وانقطعت أخبار مصر ومن بها عن نور الدين ، وكان اتصل بنور الدين ، وهو بدمشق خبر مسير الفرنج إلى ديار مصر وغدر شاور ؛ فكاتب الأطراف بقدوم العساكر ، فقدم عليه عساكر الشرق جميعها واجتمعوا بأرض حلب ، فنزل بهم مجد الدّين بن الدّاية ، وكان

---

(١) فى ك : الخدم ؛ والمثبت هنا من ل ١٢٩ ا .

(٢) الاسبتارية : جماعة من فرسان الصليبيين حبسوا أنفسهم على حرب المسلمين ، وكانوا يعرفون باسم *Hospitallers* ، تأسست سنة ١٠٩٩ م ، بعد استيلاء الصليبيين على القدس ، وإن كان نشاطها قد ظهر قبل ذلك بكثير ، وهدف هذه الجماعة ، فى أول أمرها ، علاج المرضى وإيواء الحجاج المسيحيين ومساعدتهم فى مقرهم المعروف باسم *Hospice* ببيت المقدس . وهناك جماعة أخرى تشبه هذه الجماعة هى فرسان المعبد *Templers* وكانت تعرف باسم جماعة الداوية أو الديوية ، أنشأها *Hugh de Payns* سنة ١١١٩ بهدف حماية طريق الحجاج بين يافا والقدس ، ثم تحولت هى أيضاً الى هيئة دينية حربية وقفت جهودها على حرب المسلمين . انظر النجوم الزاهرة : ٦ : ٣٣ حاشية : ٢ ؛ السلوك : ١ : ٦٨ حاشية : ٤ ؛ مفرج الكروب : ١ : ١٨٨ حاشية : ٢ .

نائب نور الدين بحلب ، (وسار)[1] إلى جهة حارم ونزل على أرتاح[2] ، وخرج نور الدين من دمشق وشن الغارة على الساحل ، وقتل وأسر عالماً عظيما ، ثم قصد جهة حلب وجعل طريقه حصن الأكراد ؛ فلما حصل بأرضه شن الغارة فيها وغنم غنيمة عظيمة ، ونزل فى مرجه ، فخرج إليه الفرنج الإخوة من حصن الأكراد وهجموا عسكره (١٢٩ – ا) ، وقتلوا جماعة من المسلمين ؛ وكان عسكر نور الدين غافلا فلم يتماسك الناس وساروا على وجوههم .

وسار نور الدين إلى أن اجتمع بعساكره على أرتاح ، وكان أخوه نصرة الدين مع الفرنج ، فلما عاين أعلام نور الدين لم يتماسك أن حمل بجميع أصحابه قاصداً أخاه نور الدين ، فلما قَرُب منه نزل وقبل الأرض فلم يلتفت عليه[3] ، فتم على وجهه . واصطف الناس للحرب ، فحملت الفرنج فكسرت الميسرة ، ثم عادت فوجدت راجلها جميعه قد قتل والخيل قد أطبقت عليهم ، فنزلوا عن الخيل وألقوا أسلحتهم وأذعنوا بالأمان ، فأخذوا جميعاً قبضاً بالأيدى .

وسار إلى حارم ففتحها ، وأراد النزول على أنطاكية فلم يتمكن لشغل قلبه بمن فى مصر من المسلمين ؛ فانحرف قاصداً لدمشق ، ونزل على بانياس ، فافتتحها . وأغار على بلد طبرية وجمع أعلام الفرنج وشِعافهم وجعلها فى عَيْبَة وسلمها إلى نَجّاب ، وقال له : أريد أن تُعمل الحيلة فى الدخول إلى بلبيس ، وتخبر أسد الدين بما فتح الله على المسلمين ، وتعطيه هذه الأعلام والشِّعاف ، وتأمره بنشرها فى أسواق بابيس[4] ، فإن ذلك مما يفتُّ فى أعضاد الكفار و يدخل الْوَهَن عليهم . ففعل ذلك . فلما رأى الفرنج الأعلام والشِّعاف قلقُوا لذلك وخافوا على بلادهم ؛ وسألوا شاوراً الإذن فى الانفصال . فانزعج شاور لذلك ، وخاف من عاقبة الأمر ، وسألهم التمَهُّل أياماً ؛ وجمع أمراءه للمشورة ، فأشاروا عليه بمصالحة

---

(١) ساقطة من ل ١٢٩ ا وكذلك من ق .

(٢) حصن منيع من أعمال حلب ، كان من العواصم . معجم البلدان : ١ : ١٧٦ – ١٧٧ .

(٣) هكذا فى الأصل وفى النسخ المساعدة ، والأولى : إليه .

(٤) فى ل ١٢٩ ب ؛ وكذلك فى ق : على أسوار بلبيس .

أسد الدين . وتكفّل إتمام الصلح له الأمير شمس الخلافة ؛ فأنفذه إليه ، فتم الصلح على يديه ، على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى .

وحكى أن شاوراً أرسل إلى أسد الدين ، وهو محصور ببلبيس ، يقول له : اعلم أننى أبقيت عليك ولم أمكن الفرنج منك لأنهم كانوا قادرين عليك ؛ وإنما فعلت ذلك لأمرين: أحدهما أنى ما أختار أن أكسر جاه المسلمين وأقوّى الفرنج عليهم . والثانى أنى خفت أن الفرنج إذا فتحوا بلبيس طمعوا فيها ، وقالوا هذه لنا ؛ لأنا فتحناها بسيوفنا ؛ وما من [يوم][1] كان يمضى (بمصر)[2] إلا وأنا أنفذ إلى كبار الفرنج الجملة من المال ، وأسألهم أن يكسروا همة الملك عن الزّحف .

قال : وأقام أسد الدين بظاهر بلبيس ثلاثة أيام ، ورحلت الفرنج إلى جهة الساحل ، وسار أسد الدين قاصداً الشام ، وجعل مسيره على البرّية .

واتفق أن البرنس أرناط[3] صاحب الكَرَك[4] والشَّوْبك[5] تأوّل ليمينه الّتى حلفها لأسد الدين ، وقال : أنا حلفت أنّى ما ألحق أسد الدين ولا عسكره فى البر ، وأنا أريد ألحقه فى البحر . (وركب فى البحر)[6] وصار فى يوم واحد إلى عسقلان ، وخرج منها إلى الكرك والشوبك وجمع عسكره المقيم هناك ، وقعد مرتقباً خُروج أسد الدين من البرية ليوقع به . وعلم أسد الدين بمكيدة أرناط بالحِدْس والتّخمين ، فسلك طريقاً مِنْ خلف

---

(١) من ل ١٢٩ ب .

(٢) ساقطة من ل ١٢٩ ب ، وكذلك من ق .

(٣) هو *Le Prince Arnauld* صاحب الكرك والشوبك ، وكان يسمى قبل ذلك : *Renaud de Chatillon* .

(٤) قلعة حصينة جداً فى طرف الشام بين أيلة وبحر القلزم ، وبيت المقدس ؛ على سن جبل عال تحيط بها أودية إلا من جهة الربض . معجم البلدان : ٧ : ٢٤٠ .

(٥) بين عمان وأيلة والقلزم ؛ قريباً من الكرك ، وهى تشبهها فى قوة تحصينها . نفس المصدر : ٥ : ٣٠٥ .

(٦) ساقطة من ل ١٣٠ ا ، وكذلك من ق .

المكان الذى كان فيه أرناط : شق إلى الغَوْر[1] (١٢٩ ـ ب) وخرج من البَلْقاء[2] ، وسلمه الله تعالى منه . ودخل دمشق فاجتمع بنور الدين [وأخبره بالأحوال ، وأعلمه بضعف ديار مصر ، ورغبه فيها وشوّقه إلى ملكها ، فرغب فيها نور الدين][3] وأمره بتجنيد الأجْناد واستخدام الرجال .

وأما شاور فإنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم عاد إلى القاهرة ، ولم يكن له همة إلا تَتَبُّع مَنْ علم أن بينه و بين أسد الدين معرفة أو صحبة . وكان اسْتَفْسَد جماعة من عسكر أسد الدين منهم خشترين الكردى وأقطعه شَطّنَوْف[4] ؛ وقتل شاور جماعة من أهل مصر وشرّد آخرين .

ثم توجه أسد الدين فى ربيع الأول سنة اثنتين وستين قاصداً الديار المصرية ، وكتم أخباره ، فما راع شاوراً إلا وُرُود كتاب مُرِّى ملك الفرنج ، يعرفه فيه أن أسد الدين قد فصل عن دمشق بعساكره قاصداً ديار مصر . فطلب شاور منه إعادة النجدة ، والمقرر من المال يصل إليه على ما كان يصل إليه فى العام الماضى . فسار مُرِّى فى عساكر الفرنج إلى مصر على جانب البحر ، وكان أسد الدين سائراً فى البر ، فسبقه الفرنج ونزلوا على ظاهر بلبيس ، وخرج شاور بعساكر مصر واجتمع بالملك ، وقعدوا جميعاً فى انتظار أسد الدين .

وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج بشاور على بلبيس ، فنكب عن طريقهم وأمّ الجبل ، وخرج على إطفيح ، [وهى فى][5] الجنوب من مصر ، وشنّ الغارة هناك . واتصل بشاور خبره ، فسار فى عساكره ، والفرنج فى صحبته ، يقفُو أثره . واتصل بأسد الدين ذلك

---

(١) هو غور الأردن بين البيت المقدس ودمشق منخفض عنهما ، ولذلك سمى الغور ، طوله مسيرة ثلاثة أيام وعرضه مسيرة يوم . فيه نهر الأردن وبلاد وقرى كثيرة ، وعلى طرفه مدينة طبرية وبحيرتها . معجم البلدان : ٦ : ٣١١ ـ ٣١٣ .

(٢) كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى ، قبتها عمان . نفس المصدر : ٢ : ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

(٣) ما بين الحاصرتين من ل ١١٣٠ : وهو ساقط من الأصل ، ومثبت فى ق ١١٢٩ .

(٤) هكذا فى ل ١١٣٠ ، وهى فى ك : شنطوف . وشطنوف كانت من إقليم الغربية يتفرع النيل عندها فرعين فى اتجاهى تنيس ورشيد . وهى على فرسخين من القاهرة . انظر معجم البلدان : ٥ : ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

(٥) المثبت هنا من ل ١١٣٠ ، وفى الأصل : ودخل . وتوافق نسخة ق ١١٢٩ نسخة ل .

فاندفع بين أيديهم حتى بلغ شرونة[1] من صعيد مصر ، وتحيّل فى مراكب ركبها ، وعدى إلى البرّ الغربى . ولما استكمل تعديته أدركَ شاورُ [بعضَ][2] ساقته ومنقطعى عسكريته ، فأوقع بهم . وأحضر شاور أيضاً مراكب وقطع النيل فى أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج ، وسار أسد الدين إلى الجيزة وخيم بها مقدار خمسين يوماً ، واستمال قوماً يقال لهم الأشراف الجعفريون والطلحيون والقرشيون[3] ، فأنفذ أسد الدين إلى شاور يقول له : أنا أحلف لك بالله الذى لا إله إلا هو ، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه ، أننى لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً ، ولا أمكّن أحداً من التعرض إليها ، ومن عارضك فيها كنت معك إلباً عليه ، وما أؤمّل منك إلا نصر الإسلام فقط ، وهو أن العدو قد حصّل بهذه البلاد ، والنجدة عنه بعيدة ، وخلاصه عسير ، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه ، وننتهز فيه الفرصة التى قد أمكنت والغنيمة التى قد كتبت ، فنستأصل شأفته ونخمد ثائرته ، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً .

فلما صار الرسول إلى شاور وأدى إليه الرسالة أمر به فقتل ، وقال : ماهؤلاء الفرنج ، هؤلاء الفَرَج ! ثم أعلم الفرنج بما أرسل به إليه[4] أسد الدين وأعلمهم بما أجابه ، وجدد لهم أيماناً وثقوا بها . وبلغ ذلك أسد الدين (١٣٠ ا) فأكل يديه أسفاً على مخالفة شاور له فى هذا الرأى ، وقال: لعنه الله، لو أطاعنى لم يبق بالشام أحد من هؤلاء الفرنج ! ونزل شاور فى اللوق[5] والمقسم ، وأمر بعمل الجسر بين الجيزة والجزيرة ، وأمر بالمراكب فشحنت بالرجال ، وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين .

---

(١) يعرفها ياقوت بأنها فى الصعيد الأدنى شرقى النيل . معجم البلدان : ٥ : ٢٥٩ .

(٢) من الأصل ل ١٣٠ ا ، وهى ساقطة من الأحد ومثبتة فى ق ١٢٩ ب .

(٣) فى جميع النسخ : الجعفريين والطلحيين والقرشيين .

(٤) فى ل ١٣٠ ب : إليه به .

(٥) اللوق فى الأصل : الأرض اللينة ، وقد أطلق فى الأصل على الجهة التى انحسر عنها ماء النيل من ساحل المقس إلى منشأة المهرانى بالقاهرة ، وعرفت هذه الناحية باسم باب اللوق ، وهو الباب الصالحى المنسوب إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبى ، ذلك أنه بنى فى هذه المنطقة التى بلغت الغاية فى الحسن إلى جانب ميدانه الذى يلعب فيه بالكرة . انظر السلوك : ١ : ٣٤١ ـ ٣٤٢ ، وكذلك خطط المقريزى .

ولما رأى أسد الدين ذلك كتب إلى أهل الإسكندرية يستنجدهم[1] على شاور لأجل إدخاله الفرنج إلى دار الإسلام وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم ؛ فقاموا معه وأمّروا عليهم نجم الدين بن مِصال ، وهو ابن أحد وزراء المصريين ، وكان لجأ إلى الإسكندرية مستخفياً فظهر فى هذه الفتنة .

حدثنى الشريف الإدريسى ، نزيل حلب ، قال : كنت بالإسكندرية يومئذ فكتب معى ابن مصال كتاباً إلى أسد الدين ، وقال لى : قل له إنى أخبرك أن السلاح واصل . وكان أنفذ لأسد الدين خزانة من السلاح ، قال فسبقتُها بيومين ، وحضرت بين يدى أسد الدين وأعطيته الكتب ، وشافهته بمقالة[2] ابن مصال فى معنى السلاح والآلات ، ثم وصلت الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الأمير[3] ابن عوف . قال : وبقينا على الجيزة يومين ، فوصل إلينا رسول ابن مدافع يخبر أسد الدين بقرب شاور منه ويأمره بالنجاة ، فترك أسد الدين الخيام والمطابخ وما يثقل حمله ، وسار سيراً حثيثاً حتى قارب دَلَجة[4] ، فأمر أسد الدين بنهبها فنهبت . ونزل الناس لتمشية الدواب فلم تستتم عليقها حتى أمر أسد الدين بالرحيل وأوقد المشاعل ليلا وسرنا ، فإذا الجاووش[5] ينادى فى الناس بالرجوع ، وعاد أسد الدين إلى دلجة فنزل عليها ، ونزل شاور على الأشمونين[6] . وأمر أسد الدين الناس أن يقفوا على تعبئة ، فأصبحوا على ذلك والتقوا ، فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كبيرة وانهزموا . وكان أسد الدين قد فرّق أصحابه فريقين : فريقاً معه

---

(١) فى ل ١٣٠ ب : يستنجد بهم .

(٢) فى ل ١٣٠ ب : برسالة .

(٣) فى ل ١٣٠ ب : الفقيه ؛ وهى كذلك فى ق .

(٤) قرية بصعيد مصر غربى النيل فى الجبل بعيدة عن الشاطىء . معجم البلدان : ٤ : ٦٧ .

(٥) الجاووش أو الجاويش أو الشاويش : لفظ تركى ، وجمعه جاويشية ، وهم فى نظام دولة المماليك ، التى أعقبت دولة الأيوبيين أربعة جنود يسيرون أمام السلطان ، أو النائب ، فى مواكبه لتنبيه الناس والنداء . والجاويش أيضاً جندى من رتبة بسيطة يكلفه مخدومه بحمل الرسائل وتبليغها . السلوك : ١ : ٨٧٠ ؛ القلاعن : Dozy, Supp. Dict. Ar.

(٦) مدينة الأشمونين بين البحر اليوسفى والنيل ، تحول عنها النيل فى القرون الوسطى فقامت مقامها مدينة المنيا ، وكانت الأشمونين كذلك عاصمة عمل ، إقليم ، الأشمونين ، خامس أعمال الوجه القبلى ، وموقعه بين البهنسا والمنفلوطية ، وكانت تسمى أيضاً باسم الطحاوية . الخطط التوفيقية : ٨ : ٧٤–٧٦ وكذلك صبح الأعشى : ٣ : ٣٩٨ – ٣٩٩ .

وفريقاً جعله مع صلاح الدين وأنفذه ليأتى من خلف عسكر شاور ، فدخل الضعف من هذا الطريق . ثم إن أصحاب أسـد الدين تجمعوا وتماسكوا ، وعلموا أنه لاملجأ[1] لهم إلا الصبر ، فتحالفوا على الموت وحماوا ، وطلع صلاح الدين من ورائهم . فلم تزل الحرب قائمة إلى الليل ، فولت عساكر الإفرنج والمصريين الإدبار ، وكاد مُرّى ملك الإفرنج يؤسر ، وصار شاور ومن سلم معه إلى منية ابن خصيب[2] . وسار أسد الدين على الفيوم إلى الإسكندرية فدخلها ، ونزل القصر وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم ، وكان فيها ابن الزبير متولياً ديوانها ، فحمل إلى أسد الدين الأموال ، وقواه بالسلاح . وخاف أسد الدين أن يقصده شاور والفرنج فيحصروه ، فربما تأذى بالحصار ، فأمر صلاح الدين بالمقام بالإسكندرية وترك عنـده (١٣٠ ب) جماعة من العسكر ، ومن به مرض أو جراح أو ضعف، واستحلف لهوجوه الإسكندرية وأوصاهم به، ورحل فى أقوياء عسكره قاصداً إلى الصعيد . ونزل الفرنج وشاور على الإسكندرية وحاصروها مدة ثلاثة أشهر بأشد القتال ، و بذل أهلها فى نصرة الملك الناصر أموالهم وأنفسهم ، وقتل منهم جماعة عظيمة .

ولما صار أسـد الدين بالصعيد حصّل من تلك البلاد أموالا عظيمة ، ولم يزل هناك حتى صام شهر رمضان . واتصل به اشتداد الأمر على الإسكندرية فرحل من قوص إلى جهتها ، واتبعه جماعة كثيرة من العربان وأهل تلك البلاد . و بلغ ذلك شـاوراً فرحل هو والفرنج ، واضطر إلى الصلح ، وضجرت الفرنج أيضاً ، فتوسط ملك الفرنج فى ذلك ، فتقرر أمر الصلح على أن شاوراً يحمل إلى أسد الدين جميع ماغرمه فى هـذه السفرة ، ثم يعطى الفرنج ثلاثين ألف دينار ، و يعود كل منهم إلى بلاده . وطلب صلاح الدين من ملك الفرنج مراكب يحمل فيها الضعفاء من أصحابه فأنفذ له عدة مراكب .

---

(١) فى ل : لا منجى .

(٢) يعرفها ياقوت بأنها منية أبى الخصيب على شاطىء النيل فى الصعيد الأدنى . ويذكر المقريزى وعلى مبارك أنها تقع على الشاطىء الغربى للنيل شمال أسيوط ، وتنسب الى أبى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر أيام الرشيد . انظر معجم البلدان : ٨ : ١٨٨ ؛ المواعظ والاعتبار : ١ : ٢٠٥ ؛ الخطط التوفيقية : ١٦ : ٥١ ــ ٥٢ .

قال الإدريسى : كنت فى جملة من خرج فى المراكب ، فلما وصلنا إلى ميناء عكا أخذنا واعتقلنا فى معصرة القصب إلى أن وصل الملك مُرِّى فأطلقنا ، فخرجنا إلى دمشق .

وخرج صلاح الدين من الإسكندرية بعد أن استحلف شاوراً لأهلها بألا يعرض لهم بسوء ، واجتمع بعمه أسد الدين .

ثم أنفذ شاور وقبض على ابن مصال وجماعة ممن أعان صلاح الدين وضيق عليهم ، وتتبع أهل الإسكندرية . واتصل ذلك بصلاح الدين فاجتمع بملك الفرنج وقال له : إن شاوراً نقض الأيمان . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه قبض على من لجأ إلينا . فقال : ليس له ذلك . وأنفذ إلى شاور وقال له : إن الأيمان جرت على ألا تعرض لأحد من أهل مصر ولا الإسكندرية ؛ وألزمه يميناً أخرى فى ألا يعرض لأحد ممن لجأ إلى أسد الدين أو صلاح الدين .

ولما شاهد من التجأ إلى الأسد والصلاح فساد تلك الأحوال خافوا من شاور ، فأخذوا فى الرحيل إلى الشام . واتصل ذلك بشاور ، فخرج بنفسه وجمع جميع من عزم على الرحلة إلى الشام ، وحلف لهم على الإحسان إليهم وحماية أنفسهم وأموالهم ، فمنهم من سكن إلى أيمانه ، ومنهم من لم يسكن ورحل .

وألهم الله تعالى أسد الدين أن الفرنج ربما خطر لهم فى مصر خاطر فقصدتها ، فراسل الملك مرى وقال له : قد سأل أهل مصر يمين الملك ألا يدخلَ إليهم ولا يتعرض لهم . فامتنع الملك ، ثم أجاب خوفا أن يتحقق أسد الدين وشاور أنه ربّما قصد ديار مصر ، فربما اجتمعا عليه ، فلم يجد بدأ من اليمين (١٣١ ـ ا) لحلف وحلف أصحابه ؛ وخرج أسد الدين من مصر وفى قلبه الداء الدوى منها ، لأنه شاهدها وشاهد مُغَلّاتها فوجدها أمراً عظيما . فأخذ نور الدين فى تهوين أمر مصر عليه ، وأقطعه حمص وأعمالها .

وحدثنى أبى رحمه الله[1] قال : حدثنى غير واحد أن شاوراً كاتب نور الدين فى ذلك وضمن له أن يحمل فى كل سنة عن ديار مصر مالا مصانعة .

---

(١) المحدث والد ابن أبى طى .

ولما بلغ شاوراً أن نور الدين صرف همة أسد الدين عن ذكر مصر والتعرض لها أنفذ رسولا بهدية سنية ، وأصحبه كتاباً حسناً ، أوله : « ورد كتاب استدعى شكرى وحمدى ، واستخلص من الصفاء ماعندى ، واستفرغ فى الثناء على مرسله جهدى ، فكأنما استمليت[1] معانيه مما عندى ، واشتملت على حقائق قصدى ؛ وسررت للإسلام وأهله ، والدين الذى وعد الله أن يظهره على الدين كله ، وأن يكون[2] مثله ملكا من ملوكه ، يُرجع إليه فى عقده وحله ، وتشير الأصابع وتعقد الخناصر على علو محله. والله يزيده [بمكانه][3] تثبيتا وقوة ، ويحقق على يديه مخايل النصر المرجوة ؛ فما أسعد رأسا دل على نصرة الكلمة ، ودعا إلى سبيل الفئة المسلمة ، ووفر على مصالح الأمة قلوب رعاياها المنقسمة . وأنا متمم من هذا الأمر ما صدر منى ، وباق منه على مانُقل عنى ، لا أتغير[4] عن المصلحة فيه ، ولا يخالف ماأظهرهُ منه لما أخفيه ، ولا أستكثر كبيراً أصل إليه وأتوصل به لما سبق للملك العادل من حقوق استوجب شكرها قولا وفعلا ، ونصرة كانت فى هجير الخطوب برداً وظلا ، وأنعم لاتزال آياتها بألسن الحمد تتلى وتملى . ولعمرى لقد بنى بها فخراً ، وارتفع على الأملاك قدراً وذكراً . ووجب أن يستتمها فلا يصل إلى مواردها الكدر ، ويحوطها فلا تتطرق إلى جوانبها الغير . ووراء هذه المكاتبة من اهتمامى ما لا يعوقه عائق إلا انتظام العقد على الأمور المألوفة ، وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة ، مع أن قوله كيمينه ، وكتابه كصفحة يمينه ، والثقة به واقعة على كل حال ، والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرق أسباب الاختلال » .

قال : وفى سنة أربع وستين طمع مرى ملك الفرنج فى مصر وعول على الدخول إليها والاستيلاء عليها ، وذلك لما انكشف له من عوارها ، وظهر له من ضعف من بقى فيها . فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الداوية[5] والاسبتارية ، وتشاوروا ، فجرت بينهم فى

---

(١) فى الأصل ، وكذلك فى ل ، وفى ق : استملت .
(٢) فى ل وفى ق : بأن يكون .
(٣) ساقطة من ك .
(٤) فى ل : لا يغير .
(٥) فى ل ١٣٢ ا ، وكذلك فى ق : الدولة .

ذلك خطوب؛ ثم أجابوه إلى الخروج معه إلى الديار المصرية. فأحضر وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لخياليته، وفرق قراها على أجناده. وكان، لعنه الله، لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قرى مصر جميعها، وتعرف (١٣١ - ب) له خبر ارتفاعها[1].

ثم سار حتى نزل الداروم[2]، فقامت قيامة شاور لما بلغه الخبر، وانتخب أميراً من أمرائه، يقال له بدران، وسيره إلى لقاء مرى يسأله عن السبب فى قصده. فاجتمع به وسأله؛ فتبالكأ عليه، ثم استلان جانبه، وضمن له رضيخة على أن يورِّى عنهم، ولا يكشف لشاور حالهم. ويقال إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمم على المصريين الحيلة، ويعلم شاوراً أنه إنما قصد مصْرَ للخدمة؛ ففعل ذلك بدران. ولما سمع ذلك شاور أشفق منه، وأحضر الأمير شمس الخلافة محمد بن مختار وقال له: كأن بدران قد غشنى ولم ينصحنى، وأنا فواثق بك: فأريد تخرج وتكشف لى حال الفرنج. فسار شمس الخلافة إلى مُرِّى، وكان بينهما مؤانسة.

فلما دخل على الملك قال له: مرحباً بشمس الخلافة. فقال: مرحباً بالملك الغدار، وإلا ما الذى أقدمك إلينا؟ قال: اتصل بى أن الفقيه عيسى تزوج أخت الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وتزوج الكامل أخت صلاح الدين، فقلنا هذا عمل علينا. فقال له شمس الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فعل ذلك لم يكن فيه نقض للعهد. فقال له الملك: الصحيح أن قوماً من وراء البحر انتهوا إلينا وغلبونا على رأينا[3]، وخرجوا طامعين فى بلادكم، فخفنا من ذلك فخرجنا لنتوسط الأمر بينكم وبينهم. فقال شمس الخلافة: فأى شىء قد طلبوا؟ قال: ألفى ألف دينار. فقال: مكانكم حتى أصل إلى شاور وأبلغه مقالكم وأعود بالجواب. فقال له ملك الفرنج: فنحن ننزل على بلبيس إلى أن تعود.

قال: وحكى أن ملك الفرنج لما وصل إلى الداروم كتب إلى شاور يقول له: إنى قد

---

(١) أى دخلها وإيرادها.

(٢) حصن صغير جنوبى فلسطين، حصنه أمورى الأول، قريباً من غزة بينها وبين مصر، وأقام فيه فرسان الداوية أو المعبد. معجم البلدان: ٤: ١٣، وكذلك: *S. Lane - Poole* فى كتابه *Saladin; P.106*؛ وانظر أيضاً *Stevenson* فى كتابه *The Crusaders in the East, P. 199*.

(٣) فى ل ١٣٢: آرائنا.

قصدت الخدمة على ما قررته لى من العطاء فى كل عام . فأجابه شاور : إن الذى قررته لك إنما جعلته متى احتجت إليك و إذا قدم[1] على عدو ، فأما مع خلو بالى من الأعداء فلا حاجة إليك ولا لك عندى مقرر . فأجابه مرى أن لابد من حضورى وأخذى المقرر . فعلم شاور أنه قد غدر بالعهد ونقض الأيمان ، وأنه قد طمع فى البلاد . فأخذ فى تجنيد الأجناد وحشد العساكر إلى القاهرة ، وأنفذ إلى بلبيس قطعة من الجيش وفيرة وعُدة .

ثم إن ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لا يلوى على قول حتى خيم على بلبيس فى صفر ، وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك ابن النحاس ، وابن الخياط يحيى ، وابن قرجلة . وأرسل إلى طى بن شاور[2] ، وكان ببلبيس ، وقال له : أين ننزل ؟ قال : على أسنة الرماح . وقال له : أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها ؟ فأرسل إليه مرى : نعم هى جبنة والقاهرة زبدة . ثم قاتل بلبيس ليلا ونهاراً حتى افتتحها بالسيف ، وقتل من أهلها خلقاً عظيما وخرب أكثرها ، وأحرق جُلّ آدرها ؛ ثم أخرج الأسارى إلى ظاهر البلد (١٣٢ ــ ا) وحشروا فى مكان واحد ، وحمل فى وسطهم برمحه ففرقهم فرقتين ، فأخذ الفرقة التى كانت عن يمينه لنفسه ، وأطلق الفرقة التى كانت عن يساره لعسكره ، وقال لفرقته : قد أطلقتكم شكراً لله تعالى على ما أولانى من فتح بلاد مصر ، فإنى قد ملكتها بلا شك . ووقف إلى أن عدى أكثرهم النيل إلى جهة منية حمل[3] وأخذ العسكر نصيبهم من الأسارى فاقتسموهم ؛ و بقى أهل بلبيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة فى أسر الفرنج ، وهلك أكثرهم فى أيديهم ، وأفلت منهم اليسير . لأن الملك الناصر رحمه الله لما ملك ديار مصر وقف مُغَلّ بلبيس على كثرته على فكاك الأسرى منهم ؛ وسامح أهل بلبيس بخراجهم إلى آخر أيامه .

ولما اتصل بشاور ما جرى على أهل بلبيس من القتل والأسر ، وأن الفرنج شحنوها

---

(١) فى ل ١٣٢ ب ، وكذلك فى ق : أو إذا قدم .

(٢) فى الأصل : أبى طى ، وهو خطأ ، وفى ل ١٣٢ ب : ابن طى ، وهو خطأ أيضاً .

(٣) قرية بالشرقية تابعة الآن لمركز بلبيس . الخطط التوفيقية : ١٦ : ٦٢ .

بالرجال والمُدد وجملوها لهم ظهراً ، أشفق من ذلك وطلب الإذن على العاضد ؛ فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال : اعلم أن البلاد قد ملكت علينا ، ولم يبق إلا أن تكتب إلى نور الدين وتشرح له ما جرى وتطلب نصرته ومعونته . فكتب جميع ذلك ، وأرسل شاور طَيّ تلك الكتب كتباً وسخّم أعاليها بالمداد .

قال : وحدثنى شمس الخلافة (موسى بن شمس الخلافة)[1] محمد بن مختار قال : إنما كتب هذا الكتاب برأى أبى شمس الخلافة ، لأنه لما رجع من عند مرّى ، لعنه الله ، بعد أخذ بلبيس اجتمع بالكامل بن شاور وقال له : عندى أمر لا يمكننى أن أفضى به إليك إلا بعد أن تحلف لى أنك لا تطلع أباك عليه . فلما حلف له [قال][2] له : إن أباك قد وطّن نفسه على المصابرة وآخر أمره يسلم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين ، وهذا عين الفساد ؛ فاصعد أنت إلى العاضد وألزمه أن يكتب إلى نور الدين ، فليس لهذا الأمر غيره . فقصده الكامل وكتب الكتاب . فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيما ، وأنفذ أسد الدين ، وكان ذلك من مُناه ، وأرسل الفقيه عيسى الهكارى إلى مصر برسالة ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصلة ، وبرسالة سرية إلى العاضد ، وأمره أن يستحلفه على أشياء عيّنها ، وأن يكتم ذلك من شاور .

وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر[3] ، وأمر شاور بإحراق مصر وأنذر أهلها ، فخرج الناس منها على وجوههم وهجُّوا فى بلاد مصر ، وبلغ أجرة الجمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً ، وترك الناس أكثر أموالهم فنهبت . وأحرقت مصر فى تاسع صفر ، وأقامت النار تعمل فيها أربعة وخمسين يوماً .

ثم إن الفرنج ، لعنهم الله ، نزلوا فى بركة الحبش[4] ، وانبثت أخبارهم فى الأطراف ،

---

(١) ساقطة من ل ١٣٢ ب ، ومستدركة فى هامشها .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٣٣ ا .

(٣) المقصود بها الفسطاط وما ألحق بها .

(٤) كانت تعرف ببركة المعارف ، وبركة حبر . رآها ياقوت وذكر أنها من أجل متنزهات مصر [الفسطاط] مشرفة على نيلها ، وليست بركة للماء ، وإنما هى تشبهها . معجم البلدان ٢ : ١٥١ــ١٥٢ .

وتخطفوا من ظفروا به . فأنفذ شاور شمس الخلافة إلى مرّى ، لعنه الله ، فلما دخل عليه سأله أن يخرج إلى باب الخيمة ففعل ، فأراه شمس الخلافة (١٣٢-ب) جهة مصر وقال له : أترى دخاناً فى السماء ؟ قال : نعم . قال : هذا دخان مصر ، ما أتيت إلا وقد أحرقت بعشرين ألف قارورة نفط ، وفرقت فيها عشرة آلاف مشعل ، وما بقى فيها ما يؤمّل بقاؤه ونفعه ؛ فخلِّ الآن عنك مدافعتى ومخاتلتى ، وكونى كما قلت لك انزل فى مكان تقدمت إلى غيره ، وما بقى لك إلا أن تنزل القاهرة . فقال : هو كما تقول ، ولابد من نزول القاهرة ، ومعى فرنج من وراء البحر قد طمعوا فى أخذها . ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلى باب البرقية[1] نزولا قارب به البلد حتى صارت سهام الجرخ تقع فى خيمته ؛ فقاتلوا البلد أياماً .

فلما تيقن شاور الضعف عدل إلى طريق المخادعة والمخاتلة ، والمغاورة والمدافعة ، إلى أن تصل عساكر الشام . فأنفذ شمس الخلافة إلى مرى ، لعنه الله تعالى ، برسالة طويلة فتّل بها فى غاربه ودار من حواليه ؛ وفى ضمنها : « إن هذا بلد عظيم كبير[2] وفيه خلق كثير ، ولا يمكن تسليمه ألبتة ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم ، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة . والرأى أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابى ، وتحصّل شيئاً أدفعه لك [فيحصل لك][3] عفواً » . فاستقرت المصالحة[4] على أربعمائة ألف دينار ، وقيل ألفى ألف دينار ، يعجل له منها مائة ألف دينار . فأجاب مرى إلى ذلك وانعقدت الهدنة ، وحلف مرى ، ورحل إلى بركة الحبش ، وحمل شاور إليه مائة ألف دينار فى عدة دفعات سوّف فيها الأوقات ؛ ثم أخذ يمطله فى الباقى[5] انتظاراً لقدوم العساكر ، ويوهم أنه يجمع لهم الأموال . فلم يشعر الفرنج إلا بهجوم عسكر الشام عليهم ؛ فلما رأوهم رحلوا

---

(١) كان عند حارة البرقية من أحياء القاهرة القديمة ، (والبرقية طائفة من جند الفاطميين) ، ويذكر على مبارك أن مكان هذا الباب غير معروف بالضبط . انظر المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٢ ، والخطط التوفيقية : ٢ : ٨٤ .

(٢) ساقطة من ل ١٣٣ ا .

(٣) ما بين الحاصرتين من ل ١٣٣ ا .

(٤) فى ل ١٣٣ ا ، وكذلك فى ق : المصالحة .

(٥) فى ل ١٣٣ ب ، وفى ق : بالباق .

إلى بلبيس ، ونزل أسد الدين بالمقس[1] . ثم رحل ملك الفرنج ونزل على فاقوس[2] واتبعه أسد الدين ونزل على بلبيس .

وكان لما اتصل بشاور وصول أسد الدين إلى صَدْر أنفذ شمس الخلافة إلى ملك الفرنج يستطلق له منه بعض المال ؛ فصار إليه واجتمع به ، وقال : قد قلّ علينا المال . فقال ملك الفرنج : اطلب منه ما شئت[3] قال: أشتهى أن تهب لى النصف . قال : قد فعلت . فقال شمس الخلافة : ما بلغنى أن ملكا فى مثل حالك وقدرتك علينا وهب مثل هذه الهبة لقوم هم فى مثل حالنا . فقال ملك الفرنج : أنا أعلم أنك رجل عاقل وأن شاوراً ملك، وأنكما ما سألتمانى أن أهبكما هذا المال العظيم إلاَّ لأمر قد حدث . فقال له : صدقت . هذا أسد الدين قد وصل إلى صدر نُصرة لنا ، وما بقى لك مُقام ، وشاور يقول لك أرى لك أن ترحل ونحن باقون على الهدنة فإنه أوفق لك ولنا ، وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذا المال بشىء وحملنا الباقى إليك متى قدرنا ، وإن نحن أخرجنا فى رضاهم أكثر من هذا المال عدنا عليك بما يبقى علينا من المقدار . فقال (١٣٣ ا) ملك الفرنج : أنا راض بذلك وإن بقى علىّ شىء حملته إليكم ؛ وعول على الرحيل ؛ فقال له : بعد أن تطلق طىّ[4] ابن شاور وجميع من فى عسكرك من الأسارى ولا تأخذ من بلبيس بعد انصرافك شيئاً . فأجابه إلى جميع ذلك .

ولما رحلت الفرنج عن القاهرة نزل أسد الدين بأرض يقال لها اللوق ، وأخرج إليه شاور الإقامات الحسنة والخدم الكثيرة ولما اجتمعا قال شاور لأسد الدين : قد رأيت من الرأى أن أخرج أنا وأنت وأن ندرك الفرنج ونوقع بهم . فقال أسد الدين : هذا كان رأيى والفرنج على البر الغربى وليس لهم وزر ، وأما الآن فلا ، لأنهم على البر المتصل ببلادهم

(١) بين يدى القاهرة على النيل فى موقع أم دنين القديمة ، وكان العامل يجلس عندها على المكس ، فقلب وسمى المقس ويسمى أيضاً المقسم . انظر معجم البلدان : ٨ : ١٢٥ .

(٢) تحديد ياقوت لها يفيد فى هذه المناسبة الحربية خاصة . قال : تقع فى الحوف الشرقى الأقصى فى آخر ديار مصر من جهة الشام ، وبينها وبين مصر [الفسطاط] أربعة وخمسون ميلا . معجم البلدان : ٦ : ٣٢٣ .

(٣) فى ل ١٣٣ ب ، وفى ق : شيئا .

(٤) فى الأصل : ابن أبى طى بن شاور ، وفى ل ١٣٣ ب : ابن طى بن شاور . وكل خطأ ، والتصحيح من ق ومن مفرج الكروب ومن غيرها .

ونحن فقد خرجنا من البر فى أسوأ حال من الضعف والتعب ؛ وقد كفانا الله شرهم ونحن إلى الراحة والاستجمام أحوج .

ولما نزل أسد الدين باللوق أرسل له العاضد هدية عظيمة وخلعاً كثيرة ، وأخرج إلى خدمته أكابر أصحابه . ثم إنه خرج إليه فى الليل سراً متنكراً ، واجتمع به فى خيمته ، وأفضى إليه بأمور كثيرة ، منها قتل شاور ، ثم عاد إلى قصره . وكان شاور قد رأى ليلةَ نزل أسد الدين على القاهرة كأنه دخل دار الوزارة فوجد على سرير ملكه رجلا و بين يديه دواة الوزارة وهو يوقع منها بأقلامه ، فسأل عنه ، فقيل هذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما حَصَل أسد الدين بالديار المصرية وانفصل عنها الفرنج أمنت البلاد ، وتراجع الناس إلى بيوتهم وأخذوا فى إصلاح ما شعّثه الفرنج وأفسدوه . وتقاطر الناس إلى خدمة أسد الدّين فتلقاهم بالرحب والسعة وأحسن إليهم .

وأما شاور فإنه أخذ فى التودُّد إلى أسد الدين والتقرب إلى قلبه بجميع ما وجد السبيل إليه ، وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة ، حتى استحوذ على قلبه ، ونوى تبقيته فى ملكه وصفا له قلبه حتى أنفذ إليه سرًّا : احرس نفسك من عساكر الشام .

وأما عسكر الشام فإنهم لما رأوا طِيبَ بلاد مصر وكثرة خيرها وَسَعة أموالها تاقت أنفسهم إلى الإقامة بها ، واختاروا سكناها ، ورغبوا فيها رغبة عظيمة ؛ فقوى طمع أسد الدين فى الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها ، ثم علم أنه لا يتم ذلك وشاور باقي[1] فيها ، فأخذ فى إعمال الحيلة عليه . وكان العاضد قد تقدم إليه بقتله ؛ فجمع أصحابه وشاورهم فى أمر شاور ، وقال لهم : قد علمتم رغبتى فى هذه البلاد ومحبتى لها وحرصى عليها ، لا سيما وقد تحققت أن عند الفرنج منها ما عندى ، وعلمت أنهم قد كشفوا عورتها ، وعلموا مسالك رقعتها ، وتيقنت أنى متى خرجت منها عادوا إليها واحتوَوْا عليها ؛ وهى معظم دار الإسلام وحلوبة بيت مالهم ؛ وقد قوى عندى أن أثب عليها قبل وثوبهم (١٣٣ب) ، وأملكها قبل ملكتهم ، وأتخلص من شاور الذى يلعب بنا وبهم ، ويغرنا ويغرهم ، ويضرب

(١) من ل ١٣٤ ا ، وفى الأصل : باق .

بيننا و بينهم ؛ وقد ضيّع أموال هذه البلاد فى غير وجهها ، وقوّى بها الفرنج علينا ؛ وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبقهم إلى هذه البلاد التى قد قلّ رجالها وهلكت أبطالها . فتنخّلت الآراء بين الأمراء أنه لايتم لهم أمر إلا بعد القبض على شاور ؛ وتفرقوا على إيقاع القبض به .

وكان شاور يركب فى الأبهة العظيمة ، والجلالة الجسيمة ، والعُدة الحسنة ، والآلة الجميلة ، على عادتهم الأولى . وكان من جملة قواعدهم أن الوزير إذا ركب حُمل فى موكبه الطبل والبوق . وكان شاور قليل الركوب ، فجعل الأمراء يترصدونه . ورأى أسد الدين قبل قبض شاور بليلة كأن شاور دخل إليه داره ، وناوله سيفه وعمامته ؛ فتأوله أسد الدين بالقبض عليه وأخذ منصبه .

ثم إن شاوراً ركب يوماً فى أبهته وجلالته ، فلما عاينه الأمراء هابوه وأحجموا عنه ، وكان يوماً عظيم الضباب ؛ وكان خروج شاور من باب القنطرة[1] للسلام على أسد الدين ؛ فتقدم صلاح الدين فسلم عليه ودخل فى موكبه ، ثم سايره ، ثم مد يده إلى تلابيبه وصاح عليه فرجّله . ولما رأى ذلك عسكر الشام قويت عزماتهم ووقعوا فى عسكر شاور فنهبوا ما كان مع رجاله[2] ، وقتلوا منهم جماعة ، وحمل الملك الناصر شاوراً راجلا إلى خيمة لطيفة وأراد قتله ، فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين . وفى الحال ورد على أسد الدين توقيع من العاضد على يد خادم يأمره فيه بقتل شاور ، فأنفذ التوقيع إلى صلاح الدين فقتله فى الحال ، وأنفذ رأسه إلى القصر . وبلغ الكامل بن شاور قتل أبيه فهرب إلى القصر وخلع العاضد على أسد الدين وقلده الوزارة ، وأنفذ إليه طبق فضة فيه رأس الكامل بن شاور ورءوس أولاد إخوته .

ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين أمر بقراءته على رءوس الأشهاد وفرح به

---

(١) كان ملاصقا للبستان الكافورى ، وهو عند حى القنطرة المعروف اليوم بشارع الشعرانى . وقد سمى الباب باسم القنطرة التى بناها جوهر على الخليج ليعبر منها إلى المقس . وهناك باب آخر بنفس الاسم نسبة إلى قنطرة بنى وائل ، وهو من بناء قراقوش . انظر المواعظ والاعتبار : ١ ، ٣٤٧ ، ٢ : ٢٤ ؛ وكذلك الخطط التوفيقية : ٣ : ٢ .

(٢) فى الأصل : مع شاور ، والمذكور هنا من ل ١٣٤ ب ، وهو يبدو أكثر مناسبة للسياق الوصفى لما أصاب العسكر وشاوراً معاً .

غاية الفرح ، وأعيدت قراءته عليه عدة دفعات استحسانا لمعانيه ، واستظرافاً لما أودع من بدائع الكلام فيه .

قال ، ولما اتصل بنور الدين فتح الديار المصرية فرح بذلك فرحاً شديداً ، وواصل الحمد والثناء على الله تعالى إذ كان فى زمنه وعلى يده ؛ وأمر بضرب البشائر فى جميع ولايته وتزيين جميع بلاده ؛ وجلس الهناء بذلك ، وأنشده الشعراء فى فتحها عدة أشعار . غير أنه لما اتصل به أن أسد الدين وَزَر للعاضد واستبد بالأمر فى ذلك الصقع أمضّه ذلك وأقلقه ، وظهرت فى مخايل قسماته وفلتات كلماته الكراهة ، وأخذ فى الفكرة فى أمره وسهر له ليالى ، وأفضى بسره إلى مجد الدين بن الداية . حدثنى جماعة عن شمس الدين على بن الداية ، أخى مجد الدين ، وحدثنى الموفق محمود بن النحاس الفقيه الحلبى وقد جرى ذكر فتح (١٣٤ ا) مصر وأن نور الدين ابتهج به ، فقال: والله ما ابتهج به ، لقد كان وده ألا يفتتح وألا يصير أسد الدين وصلاح الدين إلى ما صارا إليه . ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك فى ألفاظه ووجهه . ولقد أعمل الحيلة فى إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين فما تهيأ له ؛ لا سيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر ، فإنه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحد أن يراه ؛ واهتم لذلك حتى أفضى عليه الهم . ولو لم يكن الفتح إليه منسوباً ، وعليه فضله محسوباً ، لما صبر على ما جرى ، ولا أغضى للملك الناصر [1] على القذى . ولقد كاتب العاضد عدة دفعات فى أمر الأسد والصلاح ، فلم يحصل له فيهما النجاح ، وكثيراً ما يوجد فى كتب نور الدين إلى العاضد التعريض بإنفاذ أسد الدين، ولو أمكنه المجاهرة بالقول لقال.

فمن بعض مكاتباته : « وقد افتقر العبد إلى بعثته ، وأعوز عسكره يُمْن نقيبته ، واشتد حزب الضلال على المسلمين لغيبته ، لأنه ما يزال يرمى شياطين الضلال بشهابه الثاقب ، ويُصْبِى معقل الشرك بسهمه النافذ الصائب » .

قلت : لعل نور الدين رحمه الله إنما أقلقه من ذلك كون أسد الدين وزر للعاضد فخاف من ميله إلى القوم و إلى مذهبهم ، وأن يفسد جنده عليه بذلك السبب . هذا إن صح ما نقلهُ ابن أبى طى ، والله أعلم .

(١) فى الأصل وكذلك فى ل ١٣٤ ب : الملك العادل ، وهو خطأ لأن صلاح الدين لقب بالناصر أما العادل فأخوه .

قال : وكان أسد الدين لما ولى الوزارة لم يغير على أحد شيئاً ، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم ، إلى أن انقضت أيامه ، وفنيت أعوامه .

وكان قرماً يحب أكل اللحم ويواظب عليه ليلاً ونهاراً ، فتواترت عليه التخم ، واتصلت به مرضاته ، إلى أن ظهرت بحلقه خوانيق كان فيها تلافه . ويقال إنه أكل فى ذلك اليوم مضيرة[1] ودخل الحمام ، فلما خرج منها أصابه الخناق .

قال : وكان شجاعاً ، بارعاً ، قوياً ، جلداً فى ذات الله شديداً على الكفار وطأته ، عظيمة فى ذات الله صولته ، عفيفاً ديناً ، كثير الخير . وكان يحب أهل الدين والعلم ، كثير الإيثار ، حدباً على أهله وأقاربه . وكان فيه إمساك ، وخلف مالا كثيراً ، وخلف من الخيل والدواب والجمال شيئاً كثيراً ، وخلف جماعة من الغلمان ، خمسمائة مملوك ، وهم الأسدية .

وهو كان مشيد قواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية ، وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تكريت[2] على إقطاع مبلغه تسمائة دينار ، وتنقل إلى أن ملك الديار المصرية . وعقد له العزاء بالقاهرة ثلاثة أيام .

قلت : وإليه تنسب المدرسة الأسدية بالشرف القبلى ظاهر دمشق[3] ، وهى المطلة على الميدان الأخضر ؛ وهى على الطائفتين الشافعية والحنفية ، والخانقاه الأسدية[4] داخل باب الجابية[5] بدرب الهاشميين .

قال ابن أبى طى : وساعة وفاته وقع الاختلاف فيمن يولى الوزارة بين العسكر الشامى ، ومالت الأسدية إلى صلاح الدين . وفى تلك الساعة أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة ، فأرشد من جماعة من الأمراء إلى شهاب الدين (١٣٤ ب) محمود الحارمى خال صلاح الدين ،

---

(١) مضر اللبن أو النبيذ مضراً ، بسكون الضاد وتحرك ، ومضورا : حمض وابيض ؛ والمضيرة : مريقة تطبخ باللبن المضير ، وربما خلط بالحليب . القاموس المحيط .

(٢) اسمه بهروز وكان شحنة بغداد أيضاً ، وسيأتى تفصيل الحديث عن صلة الأسرة الأيوبية به ، وبعماد الدين زنكى فيما بعد عند الحديث عن وفاة نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين .

(٣) انظر الدارس فى تاريخ المدارس : ١ : ١٥٢-١٥٧ ، ٤٧٣ ، وكذلك خطط الشام : ٦ : ٧٦ .

(٤) يذكر الأستاذ كرد على أنها غير معروفة الآن خطط الشام : ٦ : ١٣٤ .

(٥) غربى البلد وينسب الى قرية الجابية لأن الخارج إليها يخرج منه لكونه مما يليها . وكان ثلاثة أبواب أوسطها أكبرها . انظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر : ١ : ٢٦٢ - ٢٦٣ .

فأنفذ إليه وأحضره وخاطبه فى تولى الوزارة ، فامتنع من ذلك ، وأشار بولاية الملك الناصر . وكان الحارمىّ أولا قد رغب فى الوزارة وتحدث فيها ، وحصل مايحتاجه ، فلما رأى مزاحمة عين الدولة بن ياروق وغيره عليها خاف أن يشتغل بطلبها فيفوته ، وربما فاتت صلاح الدين فأشار به لأنها إذا كانت فى ابن أخته كانت فى بيته .

وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع ، وأعجبه عقله وسداد رأيه ، وشجاعته ، وإقدامه على شاور فى موكبه ، وأنه قتله حين جاءه أمره ولم يتريث ولا توقف . فسارع إلى تقليده الوزارة ، وما خرج شهاب الدين الحارمى من حضرة العاضد إلا وخِلَع الوزارة قد سبقت إلى الملك الناصر .

وكانت(١) خلعة الوزارة عمامة بيضاء تِنّيسى بطرز ذهب وثوب دبيقى بطراز ذهب ، وجبة تحتها سقلاطون بطرازى ذهب ، وطيلسان دبيقى بطراز دقيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ، وسيف محلى بجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وطوق ، وتخت وسرفسار ذهب مجوهر ، وفى رقبة الحجر مشدّة بيضاء وفى رأسها مائتا حبة جوهر ، وفى أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر ، وقصبة ذهب فى رأسها طالعة مجوهرة ، وفى رأسها مشدة بيضاء بأعلام ذهب ، ومع الخلعة عدة بقج ، وعدة من الخيل ، وأشياء أخر ؛ ومنشور الوزارة ملفوف فى ثوب أطلس أبيض .

وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة ، سنة أربع وستين وخمسمائة ؛ [وقرىء المنشور](٢) بين يدى الملك الناصر يوم جلوسه فى دار الوزارة ؛ وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية ؛ وكان يوماً عظيما .

---

(١) يلاحظ فى هذه الفقرة أنها كتبت بأسلوب دارج . ولما عرف عن أبى شامة من دقة فى النقل والاقتباس يمكن القول بأن الأصل الذى نقلت عنه كتب بهذا الأسلوب . ومن ثم يمكن القول أيضاً بأن هذا النوع من الوثائق الحكومية ، كان يكتب بمثل هذا الأسلوب . وسيرد مثل آخر لهذا عند الحديث عن هدية صلاح الدين الى نور الدين ، سنة ٥٦٩ ، وهى الهدية التى حملها معه ابن القيسرانى ، الوزير النورى

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٣٠ ب .

وخلع السلطان على جماعة الأمراء والكبراء ، ووجوه البلد ؛ وأرباب دولة العاضد ، وعمّ الناس جميعهم بالهبات والصلات .

ولما استقرت قدمه فى الوزارة والرياسة قام فى الرعية مقام من قام بالشريعة والسياسة ، ونظم بحسن تدبيره من الدولة بَدَدَها ، وجرى فى مناهج العدل على جَدَدِها ، وحَيْعَلَ[1] إلى وجوده وفضله ، ونادى إلى رفده و بذله ؛ وكاتب الأطراف بما صار إليه من السلطان ، وسر قلوب الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريف الرتبة والمكان ؛ واستدعى إلى حوزته الأصحاب والأهل ، وروّى بفسيح كرمه مَنْ بعد منه وقرب من أهل الفضل ؛ وتاب من الخمر وعدل عن اللهو ، وتيقظ للتدبير وسها عن السهو ، وتقمص بلباس الدين ، وحفظ ناموس الشرع المبين ؛ وشمر عن ساق الجد والاجتهاد ، وأفاض على الناس من كرمه وَجُود جوده (١٣٥ ـ ا) شآبيب فضله الغائب عن المهاد ؛ وورد عليه القصاد والزوار ، وأمّه[2] بنفائس الخطب وجواهر الأشعار .

حدثنى بعض الأمراء قال : أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر وأحبه محبة عظيمة ، و بلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر راكباً ، فإذا حصل عنده أقام معه فى قصره اليوم والعشرة لا يعلم أين مقره .

قال : ولما استولى الملك الناصر على الوزارة، ومال إليه العاضد ، وحكّمه فى ماله و بلاده ، حسده[3] من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشامية ، كابن ياروق وجرديك وجماعة من غلمان نور الدين . ثم إنهم فارقوه وصاروا إلى الشام .

وحدثنى أبى رحمه الله تعالى[4] قال: حدثنى جماعة من أصحاب نور الدين أن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين وما قد انعقد له من المحبة فى قلوب الرعايا أعظم ذلك وأكبره ، وتأفف منه وأنكره ، وقال : كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمرى ! وكتب فى ذلك عدة كتب ، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله ،

---

(١) بمعنى دعا ، وهو فعل مأخوذ من : حى على . . . على طريقة النحت ، وذلك مثل : حوقل من : لا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢) أم ، بضم الهمزة : قصد ، من أم بفتح الهمزة .

(٣) فى الأصل ، وكذلك فى ل وفى ق : وحسده . وزيادة الواو هنا تفسد المعنى .

(٤) المحدث والد ابن أبى طى .

إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره ، وأنه ما فارق قبول رأيه و إشارته . وأمر نور الدين من بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه ، وطلب منه حساب مصر وما صار إليه . وكان كثيراً ما يقول : ملك ابن أيوب !

قلت : هذا كله مما تقتضيه الطباع البشرية والجبلة الآدمية . وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك ، إلا من عصم الله ، ومن أنصف عذَر ، ومن عرف صبر . والذى أنكره نور الدين هو إفراط صلاح الدين فى تفرقة الأموال واستبداده بذلك من غير مشاورته ؛ هذا مع أن ابن أبى طىّ متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به ، فإن نور الدين رحمه الله كان قد أذل الشيعة بحلب وأبطل شعارهم وقوى أهل السنة[1] ؛ وكان والد ابن أبى طى من رءوس الشيعة فنفاه من حلب . وقد ذكر ذلك كله ابن أبى طى فى كتابه مفرقاً فى مواضع ، فلهذا هو فى الكتاب الذى له كثير الحمل على نور الدين رحمه الله ، فلا يُقبل منه ماينسبه إليه مما لايليق به . والله أعلم .

قال : ولما ملك الملك الناصر مصر انتزع نور الدين حمص والرحبة من ناصر الدين ابن أسد الدين ، وفرق عماله وأعطاه تل باشر[2] ثم أخذها منه ؛ ولقد كان يتألم للملك الناصر . ويقال إنه لما مرض قال : ما أخطأت إلا فى إنفاذى أسد الدين إلى مصر بعد علمى برغبته فيها ، وما يحزننى شىء كعلمى بما ينال أهلى من يوسف بن أيوب . ثم التفت إلى أصحابه فقال : إذا أنا مت فصيروا بابنى إسماعيل إلى حلب فإنه لايبقى عليه غيرها .

قال ابن أبى طى : ولقد كان يبلغ الملك الناصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضه ، غير أنه يلقاها بصدر رحب ، وخلق عذب . حدثنى أبىَ[3] عن ابن قاضى (١٣٥ ب) الدهليز ، وكان من خواص الملك الناصر ، قال : جرى يوماً بين

---

(١) انظر ما تقدم فى ص : ١٤٧ من هذا الكتاب . وقد كانت الحركات الثورية التى تنشب فى حلب تعتمد ، إلى حد كبير ، فى مناسباتها المختلفة على تأييد الشيعة وأقرب مثل لهذا ما حدث فى مناسبة مرض نور الدين سنة ٥٥١ عند ما التف الشيعة حول أخيه نصرة الدين أمير أميران وأيدوه على شريطة أن يسمح لهم بإعادة النظم الشيعية فى الأذان . انظر ص : ٢٧٥ من هذا الكتاب .

(٢) شمال حلب . معجم البلدان : ٢ : ٤٠٢ .

(٣) المحدث والد ابن أبى طى .

يدى السلطان ذكر نور الدين فأكثر الترحم عليه ، ثم قال : والله لقد صبرت منه على مثل حزّ المدى ووخز الإبر ، وما قدر أحد من أصحابه أن يجد عليّ مايعتده ذنباً ؛ ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لى هفوة يعتدها عليّ فلم يقدر . ولقد كان يعتمد فى مخاطباتى ومراسلاتى على الأشياء التى لا يُصبر على مثلها لعلّى أتضرر أو أتغير ، فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتى ، فما أبلغته أربه يوماً قط .

قلت : وقد وقفت على كتاب بخط نور الدين رحمه الله يشكر فيه من صلاح الدين رحمه الله تعالى ، وذلك ضد ما قاله ابن أبى طى . كتب نور الدين ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون[1] رحمه الله وهو بحلب ليوليه[2] قضاء مصر . صورته : « حسبى الله وكفى . وفق الله الشيخ الإمام شرف الدين لطاعته وختم له بخير . غير خاف عن الشيخ[3] ما أنا عليه وفيه ، وكل غرضى ومقصودى فى مصالح المسلمين ، وما يقربنى إلى الله ، والله ولى التوفيق ، والمطلع على نيتى . وأنت تعلم نيتى كما قال عز من قائل : « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ »[4] . أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها ، فهى من الفتوحات الكبار ، [التى جعلها][5] الله تعالى دار إسلام بعد ما كانت دار كفر ونفاق ؛ فلله المنة والحمد . إلا أن المقدم على كل شىء أمور الدين التى هى الأصل ، وبها النجاة ؛ وأنت تعلم أن مصر وإقليمها ما هى قليلة ، وهى خالية من أمور الشرع ؛ وما تُدخر الدموع إلا للشدائد ، وأنا ما كنت أسخى ولا أشتهى مفارقتك . والآن فقد تعين عليك وعليّ أيضاً أن ننظر إلى مصالحها ، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت ، ولا أقدر أولى أمورها ولا أقلدها إلا لك حتى تبرأ ذمتى عند الله . فيجب عليك ، وفقك الله ، أن تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها ، وتعمل ما تعلم أنه يقربك إلى الله . وقد برئت ذمتى ، وأنت تجاوب الله . فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالى ، وفقه الله ، فيطيب قلبى وتبرأ ذمتى . وقد كتبت هـذا بخطى حتى لا يبقى عليّ حجة . تصل أنت وولدك عندى حتى أسيّركم

---

(١) تقدم شىء من التعريف به . انظر ص : ٣١ : حاشية : ١ .
(٢) فى الأصل : لتوليه . والمثبت هنا من ل ١٣٦ ب .
(٣) فى ل ١٣٦ ب ، وكذلك فى ق : على الشيخ .
(٤) سورة الرعد : آية : ٤٣ .
(٥) مستدركة فى هامش الأصل ، وهى فى صميم ل ، وكذلك فى ق .

إلى مصر والسلام . بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين ، وفقه الله ، فأنا منه شاكر كثير كثير كثير ، جزاه الله خيراً وأبقاه ، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم ، ومنفعة لأهل الإسلام . الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير[1] ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما » .

قال ابن أبي طيّ : وأبطل صلاح الدين من المكوس والمظالم : مايستخرج بديوان صناعة مصر مائة ألف (١٣٦ ا) دينار ، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مائة ألف دينار ؛ فسامح بجميع ذلك ، وأمر بكتابة سجل به من ديوان الإنشاء ، وأُنفذ إلى سائر أعمال مصر يُقرأ على المنابر . وعرض عليه سياقة جرائد الدواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين متقدمة ، آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة ، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف أردب غلة ، فسامح في جميع ذلك ، وأبطله من الدواوين ، وأسقطه عن المعاملين[2] . وأُنهي إليه ما يُستأدى من الحجاج بالحجاز المحروس من المكوس ، فأنكره وأكبره ، وعوض عنه بعدة ضياع ؛ فأغاث أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شرحها .

قلت : وسيأتي كل ذلك في موضعه . ونسخة منشور إسقاط المكوس في أخبار سنة سبعٍ وستين ، وذلك بإشارة نور الدين رحمه الله ، وفي أيامه .

فصـــل

ذكر العماد في ديوانه قصيدة يمدح بها نور الدين ويهنئه بملك مصر ، ولم يذكرها في كتاب البرق . منها :

بملك مصر أهنى مالك الأمم ... فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم

أضحى بعدلك شمل الملك ملتئما ... وهل بعدلك شيء غير ملتئم

---

(١) في الأصل : خير ؛ والمثبت هنا من ل ١٣٦ ب .

(٢) في الأصل : من المعاملين ، والمثبت هنا من ل ١٣٧ ا .

يافاعل الخير عن طبع بلا كلف   ومُولى العرف عن خلق بلا سأم

ووامقاً ثـلم ثغر الـكفر تعجمه   لا لثم ثغر شنيب واضح شبم

لله درك نور الدين من ملك   بالعزم مفتتح بالنصر مختتم

آثار عزمك فى الإسلام واضحة   وسره لك باد غير مكتتم

بمـا مِن العدل والإحسان تنشره   تخاف ربك خوف المذنب الأثم

أوردت مصر خيول النُصر عادمة   ثنى الأعنة إقداماً على اللجم

فأقبلت فى سحاب من ذوابلها[1]   وقضبها بدماء الهـام منسجم

تمـكّن الرعب فى قلب العدو بها   تمـكن النار بالإحراق فى الفحم

سرت لتقطع ما للـكفر من سبب   واهٍ ، وتوصل ما للدين من رحم

مستسهلات وعور الطرق فى طلب الـ   ـعلياء ، مقتحمات أصعب القحم

وجاعِلاَت من الإفرنج غلّهم   والقيد فى موضع الأطواق والحزم

لقد شفت غلة الإسلام وانتقمت   من العدو بحـد الصارم الَحذِم[2]

أعانها الله فى إطفاء جمر أذى   من شر شاور فى الإسلام مضطرم

وأصبحت بك مصر بعد خيفتها   للأمن والعز والإقبـال كالحرم

والسُنة اتسقت ، والبدعة انمحقت   وعاودت دولة الإحسان والـكرم

ملوكها لك صاروا أعبداً ، وغدا   بها عبيدك أملاكا ذوى حُرم

أنبَت عنك بها قرما ينوب بهـا   فى البأس عن عنترٍ[3] فى الجود عن هرم[4]

(١٣٦ ب) لله درك نور الدين من ملك   عدلٍ لحفظ أمور الدين ملتزم

---

(١) الذوابل : الرماح . القاموس المحيط .

(٢) حذمه يحذمه : قطعه ، والحذم ككتف : القاطع كالحذيم . القاموس المحيط .

(٣) عنترة بن شداد الفارس الجاهلى الأسود ، صاحب المعلقة التى أولها :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم

(٤) هرم بن سنان الجواد العربى الذى أصلح بين عبس وذبيان وتحمل ديات القتلى ، فأنشد فيه زهير ابن أبى سلمى معلقته التى مطلعها :

أمن أم أوفى دمنة لم تـكلم   بحـومانة الدراج فالمتثلم

كانت ولاية مصر قبل عزتها　　بكشف دولتها لحماً على وضم[1]
فالنيل ملتطم ، جار على خجل　　جاراً لبحر نوال منك ملتطم
أُغْزُ الفرنج ، فهذا وقت غزوهم　　واحطِم جموعهم بالذابل الحطِم
وطهر القدس من رجس الصليب وثِب　　على البغاث[2] وثوب الأجدل[3] القَطِم[4]
فملك مصر وملك الشام قد نظما　　فى عِقْد عز من الإسلام منتظم
محمودٌ ، الملك الغازى ، يسوسهما　　بالفضل، والعدل، والإفضال، والهمم
بالشكر كل لسان ناطق أبداً　　محمودٌ الملك محمودٌ بكل فم
فأشك بمصر وأظهر عز سنتها　　كم تقتفى ، وإلى كم تشتكى ، وكم

ولِلْعَلَم الدين الشاتانى[5] فى نور الدين رحمه الله :

مانال شأوك فى المعالى سنجر　　كلا ، ولا كسرى ، ولا الإسكندر[6]
ياخير من ركب الجياد ، وخاض فى　　لجج المنايا والأسنة تقطر
هل حاز غيرك ملك مصر ، وصار من　　أتباعه مَن جده المستنصر[7]
والمستضى[8] بالله معتضد به　　وبجده ، وبجده مستظهر
أو سدَّ بالشام الثغور محامياً　　للدين حتى عاد عنها قيصر
يبكى فيروى الأرض بحر دموعه　　والجو من أنفاسه يتسعر

---

(١) الوضم : ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب أو حصير . وتركهم لحماً على وضم : أوقعهم فذللهم وأوجعهم . القاموس المحيط .

(٢) البغاث شرار الطير . والمثل : إن البغاث بأرضنا يستنسر ، يقصد به : من جاورنا عز بجوارنا . القاموس المحيط .

(٣) الأجدل والأجدلى : الصقر .

(٤) قطم الشىء : قطعه ، وقطم ككتف : القاطع .

(٥) أبو على الحسن بن سعيد بن عبد الله ؛ فقيه شافعى غلب عليه الشعر ، استوطن الموصل ، وردد على بغداد ، واتصل بصلاح الدين فأكرمه . ولد سنة ٥١٠ وتوفى سنة ٥٩٩ .
وشاتان قلعة بديار بكر . انظر : وفيات الأعيان : ١ : ١٧٥ ؛ معجم البلدان : ٥ : ٢٠٦ .

(٦) فى ل ١٣٧ ب ، وكذلك فى ق : ولا إسكندر .

(٧) الخليفة الفاطمى ، تولى الخلافة ستين سنة بين سنتى ٤٢٧ ــ ٤٨٧ .

(٨) الخليفة العباسى ، تولى الخلافة بين سنتى ٥٦٦ ــ ٥٧٥ .

أوَما أبوك بسيفه فتــح الرُّها والأســد تقتنص الـكماة وتزأر
هابت ملوك الأرض بأس كماتهـا فتقاعدوا عن قصدها وتأخروا
ما ضره طَىُّ المنيــة ذاتَه وصفاتُه بين البرية تنشر
فلــكم على كل الملوك مزية لوقائع مشهورة لا تنــكر
وإذا عــددنا الأنام مناقباً فعليك قبل الـكل يثنى الخنصر
فى الرأى قيس ، فى السماحة حاتم فى النطق قس ، فى البسالة حيدر
دانت لك الدنيا وأنت تعافها وســواك فى آماله يتعــثر
من ذا يصون الصين عنك وأنت مَن أسد الشرى منه تخاف وتحذر

قال العماد : وأنفذ صلاح الدين من مصر خلعاً لجماعة من الأعيان ، وأنفذ للعماد عمامة ملبوسة ، فـكتب إليه قصائد فى هذا المعنى ، منها :

يا صلاح الدين الذى أصلح الفا سد بالعــدل من خطوب الزمان
أنت أجريت نيل مصر إلى الشا م نوالاً ، أم سال نيل ثانى !
وعلى نيلهــا لِكفيك فضل فهما بالنضــار جاريتــان
وصلت أعطياتك الغر غزراً فتلقت آمالنــا بالتهانى
خِلَــع راقت العيون ورقّت[1] وعلا وصفها عن الإمكان
مذهبات كأنها خلــع الرو ض وان قد أهديت لأهل الجنان
مشرقات بطرزها الذهبيـا ت الحسان الرفيعة الأثمــان
فالعمامات كالغمامات ، والطرو ز بروق كثيرة اللمعان
(١١٣٧) والموالى بهــا من التيه والفخ ر على الدهر ساحبو الأردان
كيف خُص العماد بالأدْوَن المخْ لَق من دون عصبة الديوان
أخليقٌ من نسجه لك فى المد ح جديد بأمْهَن الخلقــان !
وكذا عادة الليــالى : تخص الـ فاضل المستحق بالحرمان

---

(١) فى الأصل : وراعت . والمذكور أولى لمناسبة أسلوب العماد .

لم تزل سائرات جودك بالشا   م لديه غزيرة الثهتان
فإذا لم تزده مصر كمالا   فى المنى فاحمه من النقصان

وكتب إلى فخر الدين أخى صلاح الدين[1] قصيدة ، منها :

عبدك شمس الدولة المرتجى   منتظر تشريفك المذهبا
فاعتب صلاح الدين لى حالتى   عساه بالإصلاح أن يعتبا
عرِّفه ما تمّ ، فإنى أرى   من فضله للفضل أن يغضبا
وكيف يرضى ذاك بعض الرضا   ومجده يأباه كل الإبا
وقل له : جاءته ملبوسةً   تخلفت مِن تُبّع فى سبا
عمامة رقّت ورثّت ، فما   نشرتُها إلا وطارت هَبَا !

قال : فوصل إلىّ من صلاح الدين عمامة مذهبة ، وكتب يعتذر عن العمامة التى قبلها .
وكتب إلى سعد الدين كمشتكين [كتاباً يقول فيه][2] : استعير[3] لسانه فى الاعتذار إلى العماد فإنى أستقل لمرامه إرم ذات العماد . فكتب العماد :

أما العماد فقد تضاعف شكره   نعماك ، شكر الروض نُعمى الصَّيِّب
لعمامة ذهبية كغمامة   يبدو بها برق الطراز المغربى
ما كان أحسن حاله لو أنه   شُفعت عمامته بثوب مُذهب

قال : وكتب إليه :

أهنى الملك الناصِـ   ـرَ بالملك وبالنصر
وما مهد من بنيا   ن دين الحق فى مصر
وما أسداه من برّ   بلا عدّ ولا حصر
وما أحياه من عدل   وما خفف من إصر
وإعلاء سنا السنـ   ـة فى بحبوحة القصر

(١) اسم هذا الأخ توران شاه ويعرف أيضاً بالمعظم شمس الدولة ، ساعد أخاه صلاح الدين فى اقرار الأمور بمصر بإخماد ثورة السودان بالقاهرة ، ثم اتجه إلى اليمن لفتحها سنة ٥٦٩ وتولاها نائباً عن أخيه ، ثم عاد إلى دمشق سنة ٥٧١ فاستخلفه صلاح الدين بها مدة قصيرة ، وتوفى بالاسكندرية سنة ٥٧٦ .
(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٣٨ ا .
(٣) فى الأصل : يستعير . والمثبت هنا من ل ١٣٨ ا .

قد استولى على مصرٍ بحق يوسفُ العصر
وأحيا سنة الإحسا ن فى البدو وفى الحضر

وكتب إليه الأمير أسامة بن منقذ من قصيدة يقول[1] :

ديارَ الهوى حيًّا معالمك القطر وجادكِ جود الناصر الغدِق الهمر
به رجعت فى عنفوان شبابها ونضرتها من بعد ما هرمت مصر
وكم خاطبٍ ردته لم يك كفئها إلى أن أتاها خاطب سيفه المهر
حماها حمى الليث العرين ، وصانها كما صان عيناً من مُلِمّ القذى شفر
وكان بها بحر أجاج ، فأصبحت ومن جوده العذب النمير بها بحر

وله فيه من أخرى :

فما أنت إلا الشمس ، لولاك لم تزل على مصر ظلماء الضلالة سرمدا
وكان بها طغيان فرعون لم يزل كما كان لما أن طغى وتمردا
فبصّرتهم بعد الغواية والعمى وأرشدتهم بعد الضلال إلى الهدى

وله فيه من أخرى :

قل للملوك : تزحزحوا عن ذروة الـ علياء الملك الهمام الناصر
يعطى الألوف ويلتقيها باسما طلق المحيا فى القنا المتشاجر

وقرأت فى ديوان المَرْقَلة[2] : وقال فى المولى الملك الناصر وقد أنفذ له من ديار مصر (١٣٧ ـ ب) ذهباً ولغيره سلاما[3] :

صلاح الدين قد أصلحت دنيا شقى لم يبت إلا حريصا
وأرسلت السلام لنا عموما[4] وجودُك جاءنى وحدى خصوصا

---

(١) فى الأصل ، وكذلك فى نسخة ل ونسخة ق : ... من قصيدة أولها يقول ، بزيادة كلمة أولها ، أو كلمة من .
(٢) أبو الندى حسان بن نمير الكلبى ، عاش بين سنتى ٤٨٦ ـ ٥٦٧ . انظر : الخريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ١٧٨ـ٢٢٩ .
(٣) نفس المصدر : ٢١١ .
(٤) فى الخريدة : أتى منك السلام لنا عموما .

فكنت كيوسف الصديق لما تلقى منه يعقوب القميصا

وكان العرقلة من جملة المتردّدين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق ، فلما صار إلى مصر وعد أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار . فلما تم أمره بمصر كتب إليه العرقلة قصيدة منها[1] :

إليك صلاح الدين مولاى أشتكى زماناً على الحرّ الكريم يجور
تُرى أبصر الألف التى كنت وَاعِدى بها فى يدى قبل الممات تصير
وهيهات والإفرنج بينى وبينكم سياجٌ قتيل دونه وأسير
ومن عجب الأيام أنك ذو غنى بمصر ، ومثلى بالشآم فقير[2]

وقال أيضاً[3] :

قل للصلاح مُعينى عند إعسارى يا ألفَ مولاىَ أينَ الألفُ دينار ؟
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكم وما تفى جنة الفردوس بالنار
فجُد بها عاضِديّاتٍ[4] مسطرة من بعض ما خلف الطاغى[5] أبو الطارى[6]
حمراً كأسيافكم ، غرا كخيلكمُ عُتْقاً ثقالا كأعدائى وأطارى

وأنفذ له من مصر عشرين ألف دينار . فقال :

(يامالكا ما برحت كفه تجود بالمال على كفى)[7]
أفلح بالعشرين من لم يزل فى رأس عشرين من الكهف

---

(١) المصدر السابق : ٢٠٨ — ٢٠٩ .
(٢) فى الخريدة : وإنى فى دمشق فقير .
(٣) نفس المصدر : ١٧٨ .
(٤) فى الخريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ١٧٨ : حاشية ٧ : منسوبة إلى العاضد الفاطمى ، ضربها بالقاهرة سنة ٥٦٤ وضرب على وجهها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وآية من القرآن ، وعلى ظهرها البسملة والتاريخ والمكان والاسم « أبو محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين » .
(٥) فى هامش الأصل تعليق نصه : يعنى بالطاغى شاوراً وله ابن اسمه الطارى .
(٦) فى الخريدة: أبو العار .
(٧) هذا البيت مثبت فى هامش ل ١٣٨ ب .

يا ألف مولاى ولكنها محسوبة من جملة الألف

وذكر العماد فى الخريدة أن العرقلة قصد صلاح الدين إلى مصر فأعطاه ذلك ، وأخذ له من إخوته مثله ؛ فعاد إلى دمشق وهو مسرور مجبور ، وكان ذلك ختام حياته . ودنا أجل وفاته فمات بدمشق فى سنة ست ، أو سبع ، وستين وخمسمائة .

قلت : وفى ديوانه ما يدل على قدومه مصر ، فإن فيه : وقال . وكتبها على حمام عمَّرها المولى الملك الناصر بديار مصر :

يا داخل الحمام هُنِّئتها دائرة كالفلك الدائر

تأمل الجنة قد زُخرفت وعمرت للملك الناصر

كأنما فيض أنابيبها نداه للوارد والصادر

فصـــل

فى قتل المؤتمن بالخرقانية[1] ، ووقعة السودان بين القصرين ، وغير ذلك .

قال العماد : وشرع صلاح الدين فى نقض إقطاع المصريين ، فقطع منهم الدابر من أجل مَن معه من العساكر . وكان بالقصر خصى ، يدعى بمؤتمن الخلافة[2] ، متحكم فى القصر ، فأجمع هو ومن معه على أن يكاتبوا الفرنج ويقبضوا (١٣٨ ـ ١) على الأسدية والصلاحية ، لأن صلاح الدين يخرج إلى الفرنج بمن معه ، فيؤخذ مَن بقى من أصحابه بالقاهرة ، ويُتبع من وراءهم ، فتكون عليهم الدائرة . فكاتبوا الفرنج ؛ واتفق أن رجلا من التركمان عبر البئر البيضاء[3]

---

(١) قرية صغيرة بمديرية القليوبية على الشاطىء الشرقى للنيل بينها وبين القناطر الخيرية نحو ثلث ساعة ، وكانت تسمى فى العصر الفاطمى : الخاقانية . انظر مفرج الكروب : ١ : ١٧٦ حاشية : ١ ؛ وكذلك الخطط التوفيقية : ١٠ : ٩٧ .

(٢) واسمه جوهر : انظر : المواعظ والاعتبار للمقريزى ، وكذلك مفرج الكروب : ١ : ١٧٤ : حاشية : ٢ .

(٣) قرية من بلبيس بينها وبين الخانكة ، ومكانها اليوم عزبة أبى حبيب بناحية الزوامل فى حوض يعرف إلى الآن باسم حوض البيضاء . وفى معجم البلدان : البيضاء اسم لأربع قرى فى مصر ، الأولى من كورة الشرقية (وهى المقصودة هنا) والثانية غربى النيل بين مصر والاسكندرية ، والثالثة من ضواحى الإسكندرية ، والرابعة قرب المحلة . انظر : المواعظ والاعتبار ، وكذلك معجم البلدان : ٢ : ٣٣٦ ؛ النجوم الزاهرة ٨ : ٤٤ حاشية : ٢ ، مفرج الكروب : ١ : ١٧٥ : حاشية : ٤ .

فرأى مع إنسان ذى خلقان نعلين جديدين ليس بهما أثر مشى ، فأنكرهما ، فأخذهما ، وجاء بهما إلى صلاح الدين ، ففتقهما ، فوجد مكاتبة للفرنج فيهما من أهل القصر ، يرجون بحركتهم حصول النصر . فأخذ الكتاب وقال : دلونى على كاتب هذا الخط ؛ فدلوه على يهودى من الرهط . فلما أحضروه ليسألوه ، ويعاقبوه على خطه ويقابلوه ، نطق بالشهادة قبل كلامه ، ودخل فى عصمة إسلامه ؛ ثم اعترف بما جناه ، وشيده من الأمر وبناه ، وأن الآمر به مؤتمن الخلافة ، وأنه برىء من هذه الآفة . فحسن لدى السلطان إسلامه ، وثبت اعتصامه ، وعرف استسلامه ، ورؤى إخفاء هذا السر واكتتامه .

واستشعر الخصىّ العَصِىّ ، وخشى أن تسبقه على شق العصا العِصىّ ؛ فما صار يخرج من القصر مخافة ، وإذا خرج لم يبعد مسافة ؛ وصلاح الدين عليه مغضب وعنه مغض ، لا يأمر فيه ببسط ولا قبض ؛ إلى أن استرسل واستبسل ، فظن أن ما نسله من الشر العقيم فصل . وكان له قصر فى قرية يقال لها الخرقانية خُرقه ، ورقع ما يتسع عليه من خَرَقه ؛ وهو بقرب قليوب ؛ فخلا فيه يوماً للذته ، ولم يدر أنه يوم ذلته ، وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته ؛ فأنهض إليه صلاح الدين من أخذ راسه ، ونزع ما جاء به لباسه ، وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة أربع ؛ فورد موارده من رَداه على أدون مشرع .

قال : ولما قُتل غار السودان وثاروا ، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً . وكانوا إذا قاموا على وزير قتلوه ، واجتاحوه وأذلوه ، واستباحوه واستحلوه ؛ فحسبوا أن كل بيضاء شحمة ، وأن كل سواد فحمة . فثار أصحاب صلاح الدين إلى الهيجا ، وتقدمهم الأمير أبو الهيجاء (١) ؛ واتصلت الحرب بين القصرين ، وأطاحت بهم العسكرية من الجانبين ، ودام الشر يومين ، حتى أحس الأساحم بالحَيْن . وكلما لجئوا إلى محلة أحرقوها عليهم ، وحَوَوْا ما حواليهم ، وأخرجوا إلى الجيزة ، وأذلوا بالنفى عن منازلهم العزيزة ؛ وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذى القعدة ، فما خلص السودان بعدها من الشدة ؛

---

(١) فى مفرج الكروب : أبو الهيجاء « السمين » . وحذفها أولى لتوافق أسلوب العماد . انظر : مفرج الكروب : ١ : ١٧٦ .

ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلا ، وأينما وقفوا أُخذوا وقتّلوا تقتيلا .

وكانت لهم على باب زويلة محلة تسمى المنصورة(١) ، وكانت بهم المعمرة المعمورة ، فأخلى بنيانها من القواعد فأصبحت خاوية ، ثم حرثها بعض الأمراء واتخذها بستانا ، فهى الآن جنة لها ساقية .

قال : وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبيل هذه النوبة أخوه الأكبر ، فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، (١٣٨ ــ ب) أنفذه إليه نور الدين من دمشق يشد أزره بمصر ، لما سمع حركة الفرنج وأهل القصر ، فوصل القاهرة فى ثالث ذى القعدة . قال : و باشر بنفسه وقعة السودان هذه ، وكان له فيها أثر عظيم .

ومن عجيب ما اتفق أن العاضد كان يتطلع من المنظرة يعاين الحرب بين القصرين ، فقيل إنه أمر مَنْ بالقصر أن يقذفوا العساكر الشامية بالنشاب والحجارة ففعلوا ؛ وقيل إن ذلك كان من غير اختياره . فأمر شمس الدولة الزراقين بإحراق منظرة العاضد ، فهمّ أحد الزراقين بذلك ، و إذا باب المنظرة قد فتح وخرج منه زعيم الخلافة وقال : أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة و يقول : دونكم والعبيد الكلاب ، أخرجوهم من بلادكم . وكانت العبيد مشتدّة الأنفس بأن العاضد راضٍ بفعالهم ، فلما سمعوا ذلك فُتّ فى أعضادهم ، فجبنوا وتخاذلوا وأدبروا .

ومما كتبه العماد على لسان غيره إلى صلاح الدين قصيدة منها :

بالملك الناصر استنارت فى عصرنا أوجه الفضائل
علىّ من حقه فروض شكراً لما جاد من نوافل
يوسف مصر الذى إليه تشد آمالنا الرواحل
أجريت نيلين فى ثراها : نيل نجيع ونيل نائل
وما نفيت السودان حتى حكّمت البيض فى المقاتل

(١) هى الحارة المنصورية التى ذكرها المقريزى فى المواعظ والاعتبار وذكر أنها كانت كبيرة متسعة وبها منازل عدة للسودان ، أمر صلاح الدين بتخريبها بعد وقعة سنة ٥٦٤ التى نكل فيها بالثائرين منهم وكانت خارج باب زويلة .

صيرت رحب الفضاء ضيقاً عليهم كفة الحابل
وكل رأى منهم كراء وأرض مصر كلام واصل[1]
وقد خلت منهم المغانى وأقفرت منهم المنازل
وما أصيبوا إلا بطَلٍّ فكيف لو أمطروا بوابل
والسود بالبيض قد أبيحوا فهى بَوَازٍ بهم نوازل[2]
مؤتمن القوم خان حتى غالته من شره غوائل
عاملكم بالخنا ، فأضحى ورأسه فوق رأس عامل[3]
يا مخجل البحر بالأيادى قد آن أن تُفتح السواحل
فقدِّس القدس من خباث أرجاس كفر غُتم أراذل[4]

قال العماد : ومما مدحتُ به صلاح الدين فى ذلك التاريخ تهنئة له بالملك وتعزية بعمه :

---

(١) فى ك بالهامش تعليق نصه : « حاشية : قال المؤلف : هذان البيتان اللذان أولهما : وما نفيت السودان ، وكل رأى ، فيهما زحاف وذلك أنه استعمل مفعولن فى موضع فاعلن لأن هذا الوزن هو مسدس البسيط المخلع ، ومنه :

* أصبحت والشيب قد علانى *

وتقطيعه :

* مستفعلن فاعلن فعولن *

واستعمله العماد فى هذين البيتين مخبونا :

* مستفعلن مفعولن فعولن *

والله أعلم » . يقول المحقق : ويلحق بهذين البيتين البيت التاسع وأوله :

* وما أصيبوا إلا بطل *

ويقول أيضاً : وفى تعليق أبى شامة نظر .

(٢) فى ل ١٣٩ ب وكذلك فى ق ١٣٨ ب :

* فهم نواز بهم نوازل *

وفى مفرج الكروب : ١ : ١٧٨ :

* فهم بواديهم نوازل *

(٣) العامل : صدر الرمح .

(٤) الأغتم : من لا يفصح شيئاً ، والجمع : غتم .

أبا يوسف الإحسان والحسن، خير من حوى الفضل والإفضال والنهى والأمرا
ومن للهدى وجه النجـاح برأيه تجلّى، وثغر النصر من عزمه افترّا
حمى حوزة الدين الحنيف بحوزه من الخالق الحسنى ومن خلقه الشكرا
أبوه أبى إلا العـلاء، وعمـه بمعروفه عمّ الورى: البدوَ والحضرا
وطال الملوك شيركوهَ بطوله وما شاركوه فى العلا لحوى الفخرا
بنو الأصفر الإفرنج لاقوا ببيضه وسمـر عواليه منایاهمُ حمرا
وما ابيضّ يوم النصر واخضرّ روضه من الخصب حتى اسودَّ بالنقع واغبرّا
رأى النصر فى تقوى الإله، وكل من تقوّى بتقوى الله لا يعدم النصرا
ولما رأى الدنيا بعين ملالة أغذّ من الأولى مسيراً إلى الأخرى
وقام صـلاح الدين بالملك كافلا وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدرا
(١١٣٩) ولما صبت مصرٌ إلى عصر يوسف أعاد إليهـا الله يوسف والعصرا
فأجرى بهـا من راحتيه بجوده بحاراً، فسماها الورى أنملا عشرا
هزمتم جنود المشركين برعبكم فلم يلبثوا خوفاً ولم يمكثوا ذعرا
وفرقتمُ من حول مصر جموعهم بكسر، وعاد الكسر من أهلها جبرا
وأمّنتم فيهـا الرعايا بعدلكم وأطفأتم من شر شاوَرِها الجمرا
بسفك دم حطتم دماء كثيرة وحزتم بهـا أبديتم الحمد والشكرا
وما يرتوى الإسـلام حتى تغادروا لكم من دماء الغادرين بهـا غُدْرا
فصُبوا على الإفرنج سوط عذابهـا بأن تقسموا ما بينها القتل. والأسرا
ولا تهملوا البيت المقدس، واعزموا على فتحه غازين، وافترعوا البكرا
تديمون بالمعروف طيّب ذكركم وما الملك إلا أن تديموا لكم ذكرا
وإن الذى أثرى من المـال مُقْتِرٌ وإن يُفْنِه فى كسب محمدة أثرى

قال: وكثرت كتب صلاح الدين إلى أصدقائه مبشرة بطيِّب أنبائه. فمنها كتاب ضمه هذا البيت:

ما كنت بالمنظور أقنع منكم ولقد رضيت اليوم بالمسموع

فقلت فى جوابه أبياتاً منها هذه :

يا هَلْ لسالف عيشتى بفنائكم ... من عودة محمودة ورجوع
قد غبتم عن ناظرى ما أذّنت ... للقلب شمسٌ مَرة بطلوع
كنتُ المشفّع فى المطالب عندكم ... فغدوت أطلب طيفكم بشفيع
أصبحت أقنع بالسلام على النوى ... و بقربكم كم بتُّ غير قنوع

قال : ووصل أيضاً منه كتاب ضمنه هذا البيت :

وأنثر در الدمع من قبل أبيضا ... وقد حال مذ بِنْتُم فأصبح ياقوتا

فنظمت فى جوابه أبياتاً منها :

هنيئاً لمصر حَوز يوسف ملكها[1] ... بأمر من الرحمن قد كان موقوتا
وما كان فيها قتلُ يوسف شاوراً ... يماثل إلا قتل داود جالوتا
وقلت لقلبى : أبشر اليوم بالمنى ... فقد نلتَ ماأملت، بل حزت ما شيتا

قال : وفى هذه السنة قَتل العاضد بالقصر ابنى شاور الكامل وأخاه ، يعنى الطارى ، يوم الاثنين الرابع من جمادى الآخرة وذلك أنه لما قُتل شاور عاذوا فى القصر ، فكأنما نزلوا فى القبر ؛ فلو أنهم جاءوا إلى أسد الدين سَلموا ، وامتنعوا وعُصموا ، فإنه ساءه قتل شاور و إن كان أمِنَ بقتله ما حاذر .

قلت : الكامل هو شجاع بن شاور ، وكان له أخوان : طى تقدم ذكر قتل ضرغام له ، والآخر الطارى قال الفقيه أبو الحسن على بن محمد بن أبى السرور الروحى فى تاريخه : أُخذ ابنا شاور ، شجاع الملقب بالكامل والطارى الملقب بالمعظم ، وأخوه الملقب بفارس المسلمين ؛ فقتلوا ودير برءوسهم .

قال : ولما وَلى صلاح الدين ساس الرعية وأظهر لهم من العدل ما لم يعلموه ، فاجتمع أهل البلاد[2] وكرهوه ، (١٣٩-ب) فأوقع براجلهم وأخرجهم من القاهرة إخراجاً عنيفاً ،

---

(١) فى مفرج الكروب : ١ : ١٧٨ :
* هنيئاً لمصر كون يوسف ملكها *
(٢) المقصود بأهل البلاد أصحاب الأمر والنهى فيها .

وأخرج بعد ذلك فارسهم وشتت شملهم ؛ « فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا »[1] .

قال : ولما كانت سنة ست وستين رفع جميع المكوس صادرها وواردها ، جليلها وحقيرها ؛ وغزا بلاد الشام غزوتين .

قال ابن شداد : وفى المحرم من هذه السنة توفى ياروق الذى تنسب إليه الياروقية ، يعنى المحلة التى بظاهر حلب[2] .

قال غيره : وفيها احترق جامع حلب وأسواق البز ، وأخذ نور الدين فى عمارته آخر السنة .

ثم دخلت سنة خمس وستين [وخمسمائة] :

ففى أول صفر منها نزل الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، على دمياط من الديار المصرية . قال ابن الأثير[3] : كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك ، فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية يستمدونهم و يعرفونهم ما تجدد من ملك مصر ، وأنهم خائفون على البيت المقدس (من المسلمين)[4] ؛ وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة ؛ فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، واتّعدوا على النزول على دمياط ، ظنًّا منهم أنهم يملكونها و يتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر . فلما نازلوها حصروها ، وضيقوا على من بها[5] ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر فى النيل ، وحشر فيها كل من عنده ، وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر ، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو

---

(١) سورة النمل ، آية : ٥٢ .

(٢) وتنسب إلى ياروق أحد أمراء نور الدين محمود ، وهو من التركمان ، نزل فيها بعسكره وعمر بها دورا ومساكن . توفى فى ياروق سنة ٥٦٤ هـ . انظر : معجم البلدان : ٨ : ٤٩ .

(٣) فى الأتابكة : ٢٥٨ ـ ٢٦٠ ، وهو اقتباس حرفى .

(٤) ساقطة من نسخة ل ١٤٠ ب ، وكذلك من نسخة ق .

(٥) اشترك فى هذه الحملة جنود أمورى الأول (ملك المقدس بين سنتى ١١٦٢ ـ ١١٧٤) وأسطول الإمبراطور البيزنطى عمانويل (حكم بين سنتى ١١٤٣ ـ ١١٨٠) وبلغت عدة السفن مائتى سفينة . انظر : The Crusaders in the East, p. 195 ، وكذلك : حسن حبشى : نور الدين والصليبيون : ١٣٤ ـ ١٤٠ .

له ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج ، وإن سار إليها خلفه المصريون فى مخلفيه ومخلفى عسكره بالسوء ، وخرجوا من طاعته ، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه . فجهز إليه نور الدين العساكر أرسالا ، كلما تجهزت طائفة أرسلها ؛ فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً . ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر فدخل بلاد الإفرنج فنهبها ، وأغار عليها واستباحها ، ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد عن ممانع .

فلما رأى الإفرنج تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين بلادها ، ونهبها وإخرابها ، رجعوا خائبين ولم يظفروا بشىء ؛ وهذا موضع المثل : « ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين ! » ، فوصلوا إلى بلادهم فرأوها خاوية على عروشها .

وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً ، أخرج منها صلاح الدين أموالا لاتحصى حكى عنه أنه قال ما رأيت أكرم من العاضد : أرسل إلىّ مدة مُقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها

قال القاضى ابن شداد[1] : لما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم وما تم (للسلطان)[2] من استقامة الأمر فى الديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك فاجتمع الفرنج والروم جميعاً وحدثوا نفوسهم بقصد الديار (١١٤٠) المصرية ، والاستيلاء عليها وملكها ، ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر ، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه . فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات[3] والجروخ[4] وآلات الحصار وغير ذلك . ولما سمع

---

(١) فى النوادر السلطانية : ٣٣ ـ ٣٤ ، وهو اقتباس حرفى .

(٢) ساقطة من ل ١٤١ ا ، وهى موجودة فى النوادر .

(٣) جمع دبابة ، شبه برج متحرك ، يتكون أحيانا من أربع طبقات ، من الخشب والرصاص والحديد والنحاس ، ويتحرك على عجلات ، ويستقر الجنود داخله فى طبقاته لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار . والدبابة فى أبسط صورها تتكون من الخشب المكسو بالجلد المنقوع فى الخل لصيانتها من الاحتراق . انظر : السلوك : ١ : ٥٦ : حاشية : ٨ ، وكذلك : Dozy. Supp Dic Ar .

(٤) الجروخ جمع جرخ : آلة حربية تستعمل لرمى السهام والنفط والحجارة ، ويقال لمستخدمها من =

الفرنج بالشام ذلك اشتد أمرهم ، فسرقوا حصن عكا من المسلمين ، وأسروا صاحبها ، وكان مملوكاً لنور الدين يسمى خطلخ العلمدار[1] ، وذلك فى ربيع الآخر منها .

وفى رجب منها توفى العمادى صاحب نور الدين وأمير حاجبه ، وكان صاحب بعلبك وتدمر .

ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم ، فنزل على الكرك محاصراً لها فى شعبان من هذه السنة ، فقصده فرنج الساحل ، فرحل عنها وقصد لقاءهم فلم يقفوا له . ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية [بحلب][2] فى رمضان ، فاشتغل قلبه لأنه كان صاحب أمره ، فعاد يطلب الشام ، فبلغه خبر الزلزلة بحلب التى ضربت كثيراً من البلاد ، وكانت فى ثانى عشر شوال من السنة المذكورة وهو بعشترا[3] . فسار [يطلب حلب ، فبلغه موت أخيه قطب الدين بالموصل ؛ وكانت وفاته فى الثانى والعشرين من ذى الحجة ، وبلغه الخبر][4] وهو بتل باشر فسار ليلته طالباً بلاد الموصل .

ولما علم صلاح الدين شدة قصد العدو دمياط أنفذ إلى البلد وأودعه من الرجال والأبطال والفرسان والميرة وآلات السلاح ما أمِنَ معه عليه ، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات ، وإزعاج العدو عنهم إن نزل عليهم ، وبالغ فى الهدايا والعطايا والهبات . وكان وزيراً متحكماً لا يرد أمره فى شىء . ثم نزل الفرنج عليها فى التاريخ المذكور واشتد زحفهم عليها وقتالهم لها ، وهو رحمه الله تعالى يشن الغارات عليهم من خارج ، والعسكر يقاتلهم من داخل . ونصرُ الله للمسلمين يؤيدهم ، وحسن قصده فى نصرة دين الله يسعدهم وينجدهم ، حتى بان لهم الخسران ، وظهر على الكفر الإيمان ، ورأوا أنهم ينجون برءوسهم ، ويسلمون بنفوسهم ، فرحلوا خائبين خاسرين ، فحرقت مجانيقهم ، ونهبت

= الجند جرخى : انظر السلوك : ١ : ١٠٣ : حاشية : ١ ، وكذلك *Dozy. Supp. Dict. Ar.* .

(١) فى مفرج الكروب : ١ : ١٨١ : الجدار .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٤١ ا .

(٣) يعرفها ياقوت بأنها موضع بحوران من أعمال دمشق : معجم البلدان : ٦ : ١٧٩ .

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من صميم الأصل مثبت بهامشه ، وهو موجود فى صميم ل : ١٤١ ا .

آلاتهم ، وقتل منهم خلق عظيم ، وسلم البلد بحمد الله ومنّه .

وقال العماد : أقام صلاح الدين بالقاهرة فى دار ملكه ، ومدار فلكه ، يُنهض إليها المدد بعد المدد ، ويرسل إليها العدد بعد العدد ، ويسهر ليله ، ولا يقيل نهاره ، وقد أخلص لله سره وجهاره ، ولا ينام ولا ينيم ، وعنده من ذلك المُقْعِد المقيم . وسبق تقىّ الدين ، ابن أخى السلطان ، إلى دمياط فدخلها ، وكذا خاله شهاب الدين محمود فنزلها . واتّصل الحصار ، وتواصل الأنصار ، ودب فى الفرنج الفناء ، وهب عليهم البلاء ، فرحلوا عنها فى الحادى والعشرين من ربيع الأول ، بالذل الأكمل ، والصغار الأشمل .

وكان لما وصل الخبر بوصولهم ، واجتماعهم على دمياط ونزولهم ، اغتم واهتم ، واستصعب الملم ، وأنهض من عنده عسكراً ثقيلا مقدّمه الأمير (١٤٠ ب) قطب الدين خسرو الهذبانى ، وكان مقداماً مقدّما ، وهُماما مُعْلما ، وأمره أن يسير بالعسكر ، ويخوض بهم بحر العجاج الأكدر ، فوصل فى النّصف من ربيع الأول قبل رحيل الفرنج بأسبوع ، فوقع رَوْعُه من الكفر فى كل رُوع .

قُلت : وبلغنى من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية ، فجاء فى جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسّم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أنْ يَتَبَسَّمَ لتتم السلسلة ، على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك وقال : إنى لأستحيى من الله تعالى أن يرانى متبسما والمسلمون محاصرون بالفرنج . وبلغنى أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : أَعْلِم نور الدّين أنّ الفرنج قد رحلوا عن دمياط فى هذه الليلة ، فقال يارسول الله ربما لا يصدقنى فاذكر لى علامة يعرفها ، فقال : قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت : يارب انصر دينك ولا تنصر محموداً ، من هو محمود الكلب حتى ينصر !! قال : فانتهيت ونزلت إلى المسجد ، وكان [من][1] عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بغَلَس ولايزال يتركع فيه حتى يصلى الصبح ، قال :

---

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٤١ ب .

فتعرضت له ، فسألنى عن أمرى ، فأخبرته بالمنام ، وذكرت له العلامة ، إلا أننى لم أذكر لفظة الكلب . فقال نور الدين رحمه الله تعالى : اذكر العلامة كلها ؛ وألح على فى ذلك ، فقلتها ؛ فبكى رحمه الله وصدّق الرؤيا . وأرّخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك فى تلك الليلة .

فصــــل

أرسل نور الدين كتاباً إلى العاضد صاحب القصر يهنيه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط ، وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الأتراك فى مصر خوفاً منهم ، والاقتصار على صلاح الدين وألزامه وخواصه . فكتب إليه نور الدين يمدح الأتراك ويُعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات[1] الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك فإن الفرنج لا يرعبون إلا منهم ، ولولاهم لزاد طمعهم فى الديار المصرية ، وتحصلوا منها على الأمنية ، فلعل الله ييسر فتح المسجد الأقصى ، مضافاً إليه نعمه التى لا تحصى .

قلت : ولعمارة اليمنى من قصيدة :

من شاكرٍ ، والله أعظم شاكر ... ما كان من نُعمى بنى أيوب
طلب الهدى نصراً ، فقال ، وقد أتوا : ... حسبى ، فأنتم غاية المطلوب
جلبوا إلى دمياط عند حصارهم[2] ... عز القوىّ وذلة المغلوب
وجلوْا عن الإسلام فيها كربة ... لو لم يجلّوها أتت بكروب
(١٤١) فالناس فى أعمال مصر كلها ... عتقاؤهم من نازح وقريب
إن لم تظن الناس قشراً فارغاً ... وهم اللباب ، فأنت غير لبيب

---

(١) جمع قنطارية ، وهى نوع من الرماح يصنع من خشب يعرف باليونانية بهذا الاسم : مفرج الكروب : ١ : ١٨٣ : حاشية : ١ .

(٢) فى ل ١٤٢ ا : عند حصارها .

وللشهاب فتيان الشاغورى[1] من قصيدة يقول :

ولا غرو أن عاد الفرنج هزيمة ... ولو لم تعد لم يبق للشرك ساحل
فقد أيقنت أعداؤه أن حظهم ... لديه رماح أشرعت أو سلاسل
ولما أتوا دمياط كالبحر طامياً ... وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الإحصاء والعد جمعهم ... ألوف ألوف خيلهم والرواحل
رأوا دونهم أسداً ، بأيديهم القنا ... وبيضاً رقاقاً أحكمتها الصياقل
وداروا بها فى البحر من كل جانب ... ومن دونها سد من الموت حائل
رجا الكلب، ملك الروم إذ ذاك، فتحها ... فخاف ، فأم الملك والروم هابل
فعادوا على الأعقاب منها هزيمة ... كأنهم ـ ذلاً ـ نعام جوافل
وما أمّلوا أن يلحقوا ببلادهم ... لتعصيهم مما رأوه المعاقل

قال العماد : وسألنى كريم الملك أن أعمل له أبياتاً فى صلاح الدين تهنئة بالنصر فى دمياط ، فعملت قصيدة منها :

يا يوسف الحسن والإحسان ، يا ملكا ... بجده صاعداً أعداؤه هبطوا
حللت من وسط العلياء فى شرف ... ومركز الشمس من أفلاكها الوسط
هنيت صونك دمياط التى اجتمعت ... لها الفرنج فما حلوا ولا ربطوا
مصر بيوسفها أضحت مشرّفة ... وكل أمر لها بالعدل منضبط
وحين وافى صلاح الدين أصلحها ... فللمصالح من أيامه نمط

قال [العماد][2] : ومما سيّرته إلى صلاح الدين قصيدة منها[3] :

كأن قلبى وحبّ مالكه[4] ... مصر وفيها المليك يوسفها

---

(١) فتيان بن على بن ثمال ويعرف بالشهاب الشاغورى المعلم ، نسبة الى حى من أحياء دمشق ؛ لزم صحبة نور الدين محمود بن المبارك شحنة دمشق ، وكان يعلم أولاده الخط . ولد بعد سنة ٥٣٠ وتوفى سنة ٦١٥ . انظر خريدة القصر : قسم شعراء الشام : ١ : ٢٤٧ .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٤٢ ا .

(٣) الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٩ ـ ١٣ . وهى طويلة .

(٤) ضبطها فى الخريدة : وحب مالكه بضم الكاف . والمثبت هنا أولى لأن المعنى طبقا للخريدة : ويا حبذا مالكه . وطبقا للضبط الذى فضلته نلاحظ تشبيها طرفاه القلب وحبه لمالكه ، ومصر ويوسف مالكها .

هــذا بسلب الفؤاد يظلمنى وهو بقتل الأعــداء ينصفها
الملك الناصر الذى أبداً بعز سلطــانه يشرّفها
قام بأحوالهــا يدبرها حسناً ، وأثقالهــا يخففها[١]
بعدله والصــلاح يعمرها وبالندى والجميل يكنفها
من دنس الغادرين يرحضها ومن خَبَاث العدا ينظفها[١]
وإن مصراً بملك يوسفها جنــة خلد يروق زخرفها
وإنه فى السماح حاتمهــا وإنه فى الوقار أحنفها
يوسف مصر الذى[٢] ملاحمها جاءت بأوصافه تعرفها
كتْب التواريخ لا يزيّنهــا إلا بأيامه[٣] مصنفهــا
وحُطت دمياط إذ أحاط بهــا مَن بِرُجوم البــلاء يقذفها
لاقت غواة الفرنج خيبتهــا فزاد من حسرة تأسفها
أوردت قُلب القلوب أرشــيةً من القنا للدماء تنزفها[٤]
وليتهــا سفكها فعاملها عاملها[٥] ، والسنان مشرفها
يُمضى لك الله فى قتالهم عزيمة للجهــاد ترهفها

وله فيه من أخرى[٦] :

قد استقرت أمورى فيــه بحسْب اقتراحى
كما استقر صــلاح الدُّ (م) نيا بملك الصلاح
تنــير شمس أياديــ ــه فى سمــاء السماح[٧]

---

(١) هذا البيت غير موجود فى الخريدة .
(٢) فى الخريدة : التى .
(٣) فى الخريدة ، وفى مفرج الكروب : ١ : ١٨٤ : إلا بأوصافه .
(٤) القلب جمع قليب وهو البئر ، والأرشية جمع رشا وهو الحبل .
(٥) العامل الأول : الوالى ، والثانى : صدر الرمح .
(٦) الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٢٢ ــ ٢٥ . وهى طويلة .
(٧) فى الخريدة :
.. تنير شمس مساعيــ ـه من سماء الصباح

وأمْــرُه مستفــاد من القَضــاء المتــأح

وأرسله نور الدين إلى خِلاَط(1) ، ومتوليها حينئذ ظهير الدين سكمان المعروف بشاه أرمن . قال : فلما كنت بِمارِدِين(2) كتبت إلى بعض المعارف :

(١٤١ ب) قد نزلنــا فى جــوارك وحللنــا قرب دارك
وسرينا فى الدياجى فهــدانا ضــوء نارك
فتــدارك أمرنا اليــو م بطَــول متــدارك
وتفردْ باغتنــام الشُّــ(م)ــكر من غير مشــارك

قال العماد : وفى هذه السنة خرج نور الدين إلى داريًّا(3) فأعاد عمارة جامعها ، وعمر مشهد أبى سليمان الدارانى ، وشتَّى بدمشق .

فصــــل

فى مسير نجم الدين أيوب إلى مصر بباقى أولاده وأهله

وقد وصف ذلك عمارة فى قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين ، تقدم بعضها(4) ، يقول فيها :

صحَّت به مصر ، وكانت قبـله تشــكو سقاماً لم يعن بطبيب
عجباً لمعجزة أتت فى عصره والدهر ولاَّد لــكل عجيب
رد الإله به قضيــة يوسف نسقاً على ضرب من التقريب
جاءته إخــوته ووالده إلى مصر على التــدريج والترتيب
فاسعد بأكرم قادم ، وبدولة قد ساعدتك رياحها بهبوب

---

(1) عاصمة أرمينية الوسطى : معجم البلدان : ٣ : ٤٥٣ .

(2) قلعة على قمة جبل تشرف على دارا ونصيبين ودنيسر ، تقل فيها عيون الماء ويشرب أهلها من صهاريج معدة فى الدور المبنية على شكل متدرج : معجم البلدان : ٧ : ٣٦١ .

(3) من قرى دمشق بالغوطة : نفس المصدر : ٤ : ٢٤ .

(4) انظر ما تقدم ص : ٤٦٠ .

قال العماد : لما دخل فصل النيروز وزاد استأذن الأمير نجم الدين أيوب نور الدين في قصده ولده صلاح الدين والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته وسبده ولبده[1] ، وخيّم بظاهر البلد إلى أن بان وضوح جَدّده ؛ وسار في حفظ الله تعالى ، فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب ، وقضى صاحب القصر العاضدُ من حق قدومه ما وجب ، وركب لاستقباله ، وزاد إقبال البلاد بإقباله .

ولما عزم على التوجه إلى مصر شرع في تفريق أملاكه ، وتوفير ماله في شركه على أشراكه ، وما استصحب شيئاً من موجوده ، وجعله نهبة لجوده .

قلت : ووقف رباطاً داخل الدرب بزقاق العونية بباب البريد[2] .

ثم قال العماد : ولما نصب نجم الدين أيوب لقصد مصر مضاربه ، وسحب للعلا على روض الرضا سحائبه ، خرج نور الدين إلى رأس الماء[3] بعسكره وخيامه ، وأرهف للجد في الجهاد [حد اعتزامه . ثم أقام بعد توديعه ، والوفاء بحق تشييعه ، إلى أن اجتمعت إليه عساكره ، وحضر][4] بادى جنده وحاضره ، وعب بحره ، وماج زاخره .

ثم توجهنا إلى بلاد الكرك مستهل شعبان ، ونزلنا أياماً بالبلقاء[5] على عمّان ، وأقمنا على الكرك أربعة أيام نحاصرها ، ونصبنا عليها منجنيقين . فورد الخبر أن الفرنج قد تجمعوا ووصلوا إلى ماعين[6] ، فقال نور الدين : نرى أن نعطف أعنتنا وبالله نستعين ، فإنا إذا كسرناهم وقسرناهم ، وقتلناهم وأسرناهم ، أدركنا المراد ، وملكنا البلاد . فرحلنا

---

(١) السبد : القليل من الشعر . وجاء ماله سبد ولا لبد : أى لا قليل ولا كثير .

(٢) أحد الأبواب الأربعة لمسجد دمشق وهى باب البريد ، وباب جيرون ، وباب الزيادة ، وباب الفراديس . انظر : *Le Strange. Palestine Under Muslems, p 226.*

(٣) من أرض حوران وتقع على طريق الحج ، على مسافة عشرين ميلا شمال درعا ، وعلى مسيرة يوم جنوب دمشق . انظر : *The Camascus Chronicle Of the Crusades p. 306* وكذلك : *The Crusaders in the East , pp. 193-194, 235.* وانظر : *Saladin. p. 95*

(٤) ما بين الحاصرتين من ل ١٤٣ ا ، وهو مستدرك فى هامش الأصل بخط مخالف .

(٥) كورة من أعمال دمشق ، عاصمتها عمان ، بها قرى ومزارع كثيرة . معجم البلدان ٢ : ٢٧٧ .

(٦) شرقى البحر الميت ، إلى الجنوب الغربى من حشبان (*Hishban*) . انظر : *The Crusaders in the East,p. 235*

إليهم فولوا مدبرين حين سمعوا برجوعنا ، وقالوا رحيلهم عن الحصن قد حصل (١٤٢ أ) وهو مقصودنا . وعاد نور الدين إلى حوران فخيم بعشترا وصام رمضان .

وقال ابن الأثير(١) : كان سبب حصر نور الدين الكرك أن نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، سار عن دمشق إلى مصر فسير نور الدين معه عسكراً ، فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودة ما لا يعد ؛ فخاف نور الدين عليهم ، فسار إلى الكرك فنزل عليه وحصره ، وسار نجم الدين أيوب ومن معه سالمين ، ونصب نور الدين على الكرك المجانيق ، فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا وساروا إليه ، وأن ابن الهنفرى وفليب بن الرفيق ، وهما فارسا الفرنج فى وقتهما ، فى المقدمة إليه . فرحل نور الدين ، رحمه الله تعالى ، نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق بهما باقى الفرنج ، وكانا فى مائتى فارس وألف تركبلى ومعهم من الراجل خلق كثير . فلما قاربهما رجعا القهقرى إلى من وراءهم من الفرنج ، وقصد نور الدين وسط بلادهم ، ونهب ما كان على طريقه ، ونزل بعشترا ، وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم ، فلم يبرحوا من مكانهم خوفاً منه .

وقال ابن شداد(٢) : أنفذ صلاح الدين فى طلب [والده ليكمل له السرور ، ويجمع القصة مشاكلة ما جرى للنبى يوسف الصديق عليه السلام . فوصل](٣) والده نجم الدين إليه ، وسلك معه من الأدب ما كان عادته ، وألبسه الأمر كله . فأبى أن يلبسه ، وقال : يا ولدى ، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفء له ، فما ينبغى أن نغير موقع السعادة ؛ فحكمه فى الخزائن كلها(٤) . وكان رحمه الله تعالى كريماً يطلق ولا يرد . ولم يزل صلاح الدين وزيراً محكماً إلى أن مات العاضد أبو محمد عبد الله ، وبه ختم أمر المصريين .

وقال ابن أبى طى الحلبى : أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد إلى نور الدين يعاتبه فى تأخير إقامة الدعوة له بمصر ، فأحضر الأمير نجم الدين أيوب وألزمه الخروج إلى ولده

---

(١) فى الأتابكة : ٢٦٠ ـ ٢٦١ ، وهو اقتباس حرفى .
(٢) فى النوادر السلطانية : ٣٤ ـ ٣٥ .
(٣) ما بين الحاصرتين من ل ١٤٣ ب ، وهو مستدرك فى هامش الأصل بخط مخالف .
(٤) فى ل ١٤٣ ب : بأسرها .

بمصر بذلك ، وحمّله رسالة منها : « وهذا أمر تجب المبادرة إليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة ، والمنقبة النبيلة ، قبل هجوم الموت ، وحضور الفوت ، لا سيما و إمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته ، وهو عنده من أهم أمنيته » .

وسار نجم الدين ، وأصحبه نور الدين هدية سنية للملك الناصر ، وخرج العاضد لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح عند شجرة الإهليلج[1] ، ولم يجر بذلك عادة لهم . وكان من أعجب يوم شهده الناس ، وخلع العاضد عليه ولقّبه الملك الأفضل ، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا ، وأظهر السلطان من بره وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والأجر ، وأفرد له داراً إلى جانب داره ، وأقطعه الإسكندرية ودمياط والبحيرة ، وأقطع شمس الدولة [تورانشاه][2] أخاه قوص وأسوان وعيذاب[3] ، وكانت عبرتها فى هذه السنة مائتى ألف وستة وستين ألف دينار .

وسار شمس الدولة إلى قوص وولاها شمس الخلافة محمد بن مختار . وكان السلطان قبل إقطاعها شمس الدولة قد سيّر رسلان بن دغمش لجباية خراجها ، فخرج عليه عباس بن شاذى فى جماعة من الأعراب والعبيد فى مرج بنى هميم[4] ، فقتله رسلان وعاد إلى القاهرة . وفى هذه السنة ليلة عيد الفطر رزق السلطان ولده الملك الأفضل نور الدين علياً[5] وفرح (١٤٢ ب) به فرحاً عظيما ، وخلع وأعطى ، وتصدق بما بهر به العقول .

ومن قصيدة للحكيم عبد المنعم ، قد تقدم بعضها[6] :

---

(١) شجر الإهليلج ، كما فى القاموس المحيط : شجر له ثمر منه الأصفر ، والأسود وهو النضيج ، ومنه كابلى ينفع من الخوانيق ويحفظ العقل ويزيل الصداع ! ! وصحراء الإهليلج ، وهى المقصودة هنا ، شرقى الخندق فى الرمل ، إليها كانت تنتهى عمارة خطة الحسينية بالقاهرة من جهة باب الفتوح ، وكان بها شجر الإهليلج الهندى فعرفت به . المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٣٨ .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح .

(٣) على البحر الأحمر ، وكانت مرسى المراكب التى تصل بين عدن والصعيد . معجم البلدان : ٦ : ٢٤٦ .

(٤) شرقى النيل من أعمال الصعيد . معجم البلدان : ٨ : ٧ .

(٥) فى الأصل ، وكذلك فى نسخة ل وفى نسخة ق : على .

(٦) الحكيم عبد المنعم الجليانى . وقد سبق بعض هذه القصيدة قبيل الحديث الذى اقتبسه أبو شامة من ابن أبى طى عن شاور .

في مشرق المجد نجم الدين مطلعه وكل أبنائه شهب ، فلا أفلوا
جاءوا كيعقوب والأسباط ، إذ وردوا على العزيز من أرض[1] الشام واشتملوا
لكنّ يوسف هذا جاء إخوته ولم يكن بينهم نزع ولا زلل
وملكوا أرض مصر في شماختـه ومثلها لرجال مثلهم نزلوا

فصل

في ذكر الزلزلة الكبرى

قال ابن الأثير[2] : وفي ثاني عشر شوال كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها ، عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها ؛ إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام . فخربت بعلبك وحمص ، وحماة ، وشيزر ، وبعرين[3] ، وغيرها ؛ وتهدمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها ، وهلك من الناس ما يخرج عن العد والإحصاء فلما أتى نور الدين خبرها سار إلى بعلبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها ، وكان لم يبلغه خبر غيرها . فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد بخراب أسوارها ، وخلوها من أهلها ؛ فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها ، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حماة ، ثم إلى بارين . وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج لا سيما قلعة بارين ، فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء ألبتة ، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير ، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلا ونهاراً . ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد ، فإنها كانت قد أتت عليها ، وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ ، فكانوا لا يقدرون يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفاً من الزلزلة ، فإنها عاودتهم غير مرة ؛ وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج . فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها

---

(١) بتسهيل الهمزة .

(٢) في الأتابكة : ٢٦١ــ٢٦٢ ، وهو اقتباس حرفي .

(٣) بين حلب وحماة من جهة الغرب وهي قريبة من حماة ، وبين حمص والساحل . وصحة الاسم بارين ، أما بعرين فلهجة العامة . انظر : مفرج الكروب ١ : ٢٢ ؛ ومعجم البلدان ٢ : ٣٤ــ٣٥ ، ٢٢٥ .

و بأهلها أقام فيها و باشر عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين . ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها ، وجميع البلاد وجوامعها ، وأخرج من الأموال ما لا يقدّر قدره .

وأما بلاد الفرنج ، خذلهم الله تعالى ، فإنها أيضاً فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا ، وهم أيضاً يخافون نور الدين على بلادهم ، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده من قصد الآخر .

قال العماد : وكانت قلاع الفرنج المجاورة لبعرين ولحصن الأكراد[1] وصافيثا والعُرَيمة وعرقا[2] في بحر الزلازل غرقى ، لا سيا حصن الأكراد ، فإنه لم يبق له سور ، وقد تم عليه فيه دحور وثبور . فشغلهم سوءهم عن سواه ، وكل اشتغل بما دهاه ، وتواصلت الأخبار من جميع بلاد الشام (١٤٣ ـ ا) بما أحدثته الزلزلة من الانهداد والانهدام .

قال : وما سكنت النفوس من رعبها ، وتسلت القلوب عن كربها ، إلا بما دهم الكفار من أمرها وعراهم من ضرها ، فلقد خصتهم بالأمَضّ الأشق ، وأخذتهم الرجفة بالحق ، فإنها وافقت يوم عيدهم وهم في الكنائس ، فأصبحوا للردى فرائس ، شاخصة أبصارهم ينظرون « فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ »[3] .

ثم ذكر العماد قصيدة في مدح نور الدين ووصف الزلزلة مطلعها :

هل لعاني الهوى من الأسر فادي	ولساري ليل الصبابة هادي
جنّبوني خطب البعاد ، فسهلٌ	كل خطب سوى النوى والبعاد
كنت في غفلة من البين حتى	صاح يوم الأثيل بالبين حادي[4]
قد حللتم من مهجتي في السويدا	ء ، ومن مقلتي محل السواد

(١) حصن منيع يطل على جبل الجليل الذي يقابل حمص من جهة الغرب ؛ أنزل به بعض أمراء الشام جماعة من الأكراد ليكونوا بينهم وبين الفرنج لحصنوه ، ثم أخذه الفرنج منهم شراء . معجم البلدان : ٣ : ٢٨٤ .

(٢) وعرقة : حصن من نواحي الروم : نفس المصدر : ٦ : ١٥٧ .

(٣) سورة النحل : آية ٢٦ .

(٤) في ل ١٤٤ ب : حسادي .

وبخلتم من الوصال بإسعا فى ، أما كنتمُ من الأجواد

وبعثتم نسيمكم يتلافا نى ، فعاد النسيم من عُوّادى

سمتمونى تجلداً واشتياقاً ومحال تجمّع الأضداد

أبقاء بعد الأحبة يا قلـ بىَ ! ما هذه شروط الوداد

ذاب قلبى وسال فى الدمع لما دام من نار وجده فى اتقاد

ما الدموع التى تحدرها الأشـ واق إلا فتائت الأكباد

حبذا ساكنو فؤادى ، وعهدى بهمُ يسكنون سفح الوادى

أتمنى بالشام أهلى ببغدا د ، وأين الشآم من بغداد

ما اعتياضى عن حبهم[1] يعلم اللـ ـهُ تعالى إلا بحب الجهاد

واشتغالى بخدمة الملك العا دل محمودٍ ، الكريم ، الجواد

أنا منه على سرير سرورى راتع العيش فى مَراد مُرادى

قيدتنى بالشام منه الأيادى والأيادى للحر كالأقياد

قد وردت البحر الخضم وخلّفـ ـتُ ملوك الدنيا به كالثِّماد

هو نعم الملاذ من نائب الدهـ ـر ونعم المعاذ عند المعاد

جل رزء الفرنج فاستبدلوا منـ ـه بلُبس الحديد لبس الحِداد

فرّق الرعب منه فى أنفس الكفـ (م)ار بين الأرواح والأجساد

سطوة زلزلت بسكانها الأر ض وهدت قواعد الأطواد

أخذتهم بالحق رجفة بأس تركتهم صرعى صروف العوادى

خفضت فى قلاعها كل عال وأعادت قلاعها كالوهاد

أنفـذ الله حكمه فهو ماض مظهر سر غيبه فهو بادى

آية آثرت ذوى الشرك بالهُلْـ ـك وأهل التوحيد بالإرشاد

والأعادى جرى عليهم من التد مير ما قد جرى على قوم عاد

(١) فى الأصل : بحبهم والمثبت هنا من ل ١٤٤ ب .

أشركت فى الهلاك بين الفريقيـ ن : دعاةِ الإشراك والإلحاد
ولقد حاربوا القضاء ، فأمضى حكمه فيهم بغــير جِلاد
(١٤٣ب) والإله الرؤوف فى الشام عنا دافع لطفــه بلاء البـــلاد

قال العماد : ومنها معنى مبتكر ابتدعته فى الزلزلة ، وهو :

وبحق أصيبت الأرض لمـا سكنت من مقام أهل الفساد

قال العماد : فى هذه السنة عند وصولنا إلى حلب فى الخدمة النُّورية كنت مقرِّظاً للفضائل الشَّهْرَزَوْرِية ، وكان الحاكم بها القاضى محيى الدين أبو حامد محمد ، ابن قاضى قضاة الشام كمال الدين أبى الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرَزَوْرِى . وكان كمال الدين قد علق به تنفيذ الأحكام وإليه أمور الديوان ، وهو ذو المكانة والإمكان ، فى بسط العدل والإحسان ؛ ومحيى الدين ولده ينوب عنه فى القضاء بحلب وبلدانها ، وينظر أيضاً فى أمور ديوانها ؛ وبحماة وحمص من بنى الشهرزورى قاضيان ، وهما حاكمان متحكمان . وكان هذا محيى الدين من أهل الفضل ، وله نظم ونثر ، وخطب وشعر ؛ وكانت معرفتى به فى أيام التفقه ببغداد فى المدرسة النظامية ، منذ سنة خمس وثلاثين ، والمدرس شيخنا معين الدين سعيد بن الرزّاز ؛ وكان مذهبُ الشافعى رضى الله تعالى عنه بعلمه مُعلماً مذهب الطراز . وكانت الزلزلة بحلب قد خربت دار محيى الدين وسلبت قراره ، وغلبت اصطباره ، وحلبت أفكاره ؛ فكتبت إليه قصيدة مطلعها :

لو كان من شكوى الصبابة مشكيا لعدا على عدوى الصبابة معديا

ومنها :

مات الرجاء ، فإن أردت حياته ونشوره ، فارجُ الإمام المحييا
أقضى القضاة ، محمد بن محمد من لستَ منه للفضائل محصيا
قاضٍ به قضت المظالم نحبهـا وغـدا على آثارهن معفيا
يا كاشــفاً للحق فى أيامه غُررا يدوم لهـا الزمان مغطيا
لم تنعش الشهباء عنـد عثـارها لو لم تجدك لطود حلمك مرسيا

رجونت لسطوتك التى أرسلتها نحو الطغاة لحد عزمك ممهيا[١]
وتظلمت من شرهم فتململت عجل أجازتها عليها مبقيا
أنفت من الثقلاء فيها إذ رمت أثقالها ورأتك منهـا ملجيا
حَلَبٌ لها حلب المدامع سُـيّل[٢] أن لاقت الخطب الفظيع[٣] المبكيا
وبعدل نور الدين عاود أفقها من بعد غيم الغم جواً مصحيا
أضحى لبهجتها معيداً بعـدما ذهبت ، وللمعروف فيها مبديا
لأمورها متـدبراً ، لشتاتها متألفـاً ، لصلاحها متوليـاً
فالشرع عاد بعـدله مستظهراً والحق عاد بظـله مستذريا
(١١٤٤) والدهر لاذ بعفوه مستغفراً مما جناه ، مطرقا ، مستحييا

فصـــل

فى غزو صاحب البيرة ووفاة صاحب الموصل

قال ابن الأثير[٤] : كان شهاب الدين محمد بن إلياس بن إيلغازى بن أرتق ، صاحب قلعة البيرة[٥] قد سار فى عسكره ، وهم مائتا فارس ، إلى الخدمة النورية وهو بعشترا . فلما وصل إلى اللبوة ، وهى من أعمال بعلبك ، ركب متصيداً فصادف ثلثمائة [فارس][٦] من الفرنج قد ساروا للغارة على بلاد الإسلام ، وذلك سابع عشر شوال ، فوقع بعضهم على بعض واقتتلوا ، وصبر الفريقان لا سيما المسلمون ، لأن ألف فارس منهم لا تصبر لحملة ثلثمائة فارس

---

(١) أمهى الحديدة : أحدها . القاموس المحيط .

(٢) فى ل ١١٤٥ : مسيل .

(٣) فى الأصل : الفضيع ؛ والمثبت هنا من ل ١١٤٥ .

(٤) فى الأتابكة : ٢٦٣–٢٧٢ ؛ وهـو اقتباس طويل حرفى فى غالبه ، وبشىء من الحـذف فى بعضه .

(٥) قرب سميساط بين حلب ومنطقة الثغور ، وهى قلعة حصينة ، (معجم البلدان : ٢ : ٣٣) . فى منطقة أعالى الفرات قريباً من سروج والرها : *Saladin, p.49* .

(٦) ما بين الحاصرتين من ل ١١٤٥ .

من الفرنج . وكثر القتلى بينهم وانهزم الفرنج ، وعمهم القتل والأسر ، فلم يفلت منهم إلا من لا يعتد به . « وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ، وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا »[1] وسار شهاب الدين بالأسرى ورءوس القتلى إلى نور الدين ، فركب هو وعسكره إلى لقائه ، واستعرض الأسرى ورءوس القتلى ، فرأى فيها رأس مقدم الأسبتارية صاحب حصن الأكراد ، وكانت الفرنج تعظمه لشجاعته ودينه عندهم ، ولأنه شجى فى حلوق المسلمين ؛ وكذلك أيضاً رأى رأس غيره من مشهورى الفرنج ، فازداد سروراً ، ولله الحمد .

قال : وفى شوال سنة خمس وستين[2] توفى الملك قطب الدين مودود بن زنكى بالموصل[3] . وكان لما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكى بن مودود ، وهو أكبر أولاده ، وأعزهم عليه ، وأحبهم إليه . وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين زنكى لأنه كان قد أكثر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى ، وتزوج ابنته ، وكان عزيزه وحبيبه . وكان نور الدين يبغض عبد المسيح [لظلم كان فيه ، ويذمه ويلوم أخاه قطب الدين على توليته لأموره . فخاف عبد المسيح][4] أن يتصرف عماد الدين فى أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده ، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش ، زوجة قطب الدين ، فردوه عن هذا الرأى . فلما كان الغد أحضر [قطب الدين مودود][5] الأمراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازى . وتوفى وقد جاوز عمره أربعين سنة .

وكان تام القامة كبير الوجه ، أسمر اللون ، واسع الجبهة ، جهورى الصوت . وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً .

ولما توفى استقر سيف الدين [غازى][5] فى الملك[6] ورحل عماد الدين إلى عمه

---

(١) سورة الأنفال : آية : ٤٢ .

(٢) فى ل ١٤٠ ب : وفيها فى شوال ، أعنى سنة خمس وستين .

(٣) الذى حكم بين سنتى ٥٤٤-٥٦٥ ؛ وكان تولى الموصل بعد وفاة سيف الدين غازى الأول .

(٤) مستدركة بهامش الأصل ؛ وهى فى صميم المتن بنسخة ل ، ١٤٥ ب .

(٥) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح .

(٦) واستمر فى الحكم إلى سنة ٥٧٦ ، وعندئذ خلفه أخوه عز الدين مسعود الأول ، كما سيأتى فى حينه .

نور الدين شاكياً ومستنصراً . وكان عبد المسيح هو متولى[1] أمور سيف الدين ويحكم فى مملكته ، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه ، لأنه فى عنفوان شبابه وعزة حداثته .

قال[2] : وهذه حادثة تحث على العدل : كان من جملة أعمال جزيرة ابن عمر[3] قرية تسمى العُقَيمة مقابل الجزيرة من الجانب الشرقى ، يفصل بينهما دجلة (١٤٤ ب) لها بساتين كثيرة ، بعضها تمسح أرضه ويؤخذ على كل جريب من الأرض التى قد زرعت شىء معلوم[4] وبعضها عليه خراج ولا مساحة عليه ، وبعضها مطلق منهما . فالممسوح منها لا يحصل لأصحابه منه إلا القدر القريب ، وكان لنا بها عدة بساتين . فحكى لى والدى قال : جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة ، وأنا حينئذ أتولى ديوانها ، يأمر بأن تجعل بساتين العقيمة كلها ممسوحة ؛ فشق ذلك علىّ لأجل أصحابها ، ففيها ناس صالحون ولى بهم أنس وهم فقراء . فراجعته ، وقلت له : لا تظن أنى أقول هذا لأجل ملكى ، لا والله ، وإنما أريد أن يدوم الناس على الدعاء للمولى قطب الدين وأنا أمسح ملكى جميعه . قال : فأعاد الجواب بأمر المساحة ويقول : تمسح أولا ملكك ليقتدى بك غيرك ، ونحن نطلق لك ما يكون عليه . فشرع النواب يمسحون . وكان بالعقيمة رجلان صالحان بينى وبينهما مودة ، اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة ، فحضرا عندى وتضرّرا من هذه الحال ، وسألانى المكاتبة فى المعنى ؛ فأظهرت لهما كتاب عبد المسيح جواباً عن كتابى ، فشكرانى ، وقالا : وأيضاً تعودُ تراجعهُ . فعاودت القول ، فأصر على المساحة ؛ فعرّفتهما الحالة . فلما مضى عدة أيام عدت يوماً إلى دارى وإذا هما قد صادفانى على الباب ، فقلت لنفسى : عجباً لهذين الشيخين ، قد رأيا مراجعتى وهما يطلبان منى مالا أقدر عليه ! فقلت لهما : والله إنى لأستحيى منكما كلما جئتما فى هذا المعنى ، وقد رأيتما الحال كيف هو . فقالا : صدقت ، ولم نحضر إلا لنعرفك أن حاجتنا قضيت . فظننت أنهما قد أرسلا إلى الموصل من شفع لهما[5] ، فدخلت إلى دارى وأدخلتهما معى ، وسألتهما عن الحال كيف هو ، ومن

(١) فى ل ١٤٥ ب : وهو يتولى ؛ وفى الأتابكة ، وهو مصدر هذه الحادثة ، وهو الذى يدبر .
(٢) ابن الأثير فى الأتابكة ، وهو استمرار للاقتباس السابق .
(٣) انظر ص : ٦٢ ، حاشية : ٤ من هذا الكتاب .
(٤) كل فدان مصرى يساوى ٣٫٠٧ جريبا . انظر كتاب الخراج للدكتور ضياء الدين الريس : ٢٦١ ـ ٢٧٩ .
(٥) فى ل ١٤٦ أ : من يشفع لهما.

الذى سعى لهما . فقالا : إن رجلا من الصالحين الأبدال [1] شكونا إليه حالنا ، فقال : قد قضيت حاجة أهل العقيمة جميعهم [2] . قال : فوقع عندى من هذا ولكن تارة أصدقهما لما أعلم من صلاح أحوالهما ، وتارة أعجب من سلامة صدورهما ، كيف يعتمدان على هذا القول ويعتقدانه واقعاً لا شك فيه ! فلما كان بعد أيام وصل قاصد من الموصل بكتاب يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيمة وإطلاق كل مسجون وبالصدقة ، فسألت القاصد عن السبب ، فأخبرنا أن قطب الدين شديد المرض . قال : فأفكرت فى قولهما وتعجبت منه ، ثم توفى بعد يومين من هذا . قال : ورأيت والدى إذا رأى أحد الرجلين يبالغ فى إكرامه ، ويحترمه ، ويقضى أشغاله ، واتخذهما صديقين .

قال[3] : وكان قطب الدّين من أحسن الملوك ، وأعفّهم عن أموال رعيته ، محسنا إليهم ، كثير الإنعام عليهم ، محبوباً إلى صغيرهم وكبيرهم ، حليماً عن المذنبين ، سريع الانفعال للخير . حدّثنى والدى قال : استدعانى يوما وهو بالجزيرة ، وكنت أتولى أعمالها ، فلامنى فى بعض الأمر ، فقلت : أخاف من الاستقصاء ؛ لو دُعى على بعض هؤلاء الملوك ، (١٤٥ ا) وأومأت إلى أولاده ، لكانت شعرة منه تساوى الدنيا وما فيها ، ولنا مواضع تحتمل العمارة لو عمرت لتحصل منها أضعاف هذا . فقال : جزاك الله خيراً ! لقد نصحت وأديت الأمانة ، فاشرع فى عمارة هذه الأماكن . ففعلت ، وكبرت منزلتى عنده ، ولم يزل يثنى علىّ .

قال : وكان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه . لقد صبر من نوابه زين الدّين وجمال الدّين وغيرهما على مالم يصبر عليه سواه . وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدّين كثير المساعدة والإنجاد له بنفسه وعسكره وأمواله ؛ حضر معه المصافّ بحارم وفتحها وفتح بانياس . وكان يخطب له فى بلاده باختياره من غير خوف . وكان إحسانه إلى

---

(١) المقصود بهذا اللفظ الأولياء والعباد ، سموا بذلك لأنهم كلما مات منهم واحد أبدل به آخر . تهذيب تاريخ دمشق : ١ : ٥٩ حاشية : ١ .

(٢) فى ل ١٤٦ ا : كلهم .

(٣) ابن الأثير فى الأتابكة : نفس المصدر والصفحات .

أصحابه متتابعاً من غير طلب منهم ولا تعريض . وكان يبغض الظلم وأهله ، و يعاقب من يفعله . قال : و بالله أقسم إذا فكرت فى الملوك أولاد زنكى : سيف الدين ونور الدين وقطب الدين ، وما جمع الله فيهم من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأفعال ، وحسن السيرة ، وعمارة البلاد ، والرفق بالرعية ؛ إلى غير ذلك من الأسباب التى يحتاج الملك إليها ، أذكر قول الشاعر :

من تلقَ منهم تقلْ لاقيت سيدَهم مثل النجوم التى يسرى بها السّارى

قلت : وقرأت بخط الشيخ عمر الملا ، رحمه الله ، فى كتاب كتبه إلى بعض الصالحين وسأله فيه الدعاء لقطب الدين صاحب الموصل وقال فيه : « يا أخى ، لو ذهبت أشرح لك سيرته فى بلاده وعيش رعيته فى ولايته أطلت وأضجرت . غير أنى أذكر لك ماخصه الله به من الأخلاق الصالحة : هو من أكثر الناس رحمة ، وأشدهم حياء ، وأعظمهم تواضعاً ، وأقلهم طمعاً ، وأزهدهم فى الظلم ، وأكثرهم صبراً ، وأبعدهم غضباً ، وأسرعهم رضا . وهو من هذه الأخلاق على حدٍّ أحبه أنا محبة لا أقدر أصفُها ، و بينى و بينه إخاء ومزاورة، يزورنى وأزوره » .

فصــــل

قال ابن الأثير[1] : ولما بلغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين وملك ولده سيف الدين بعده ، واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالأمور ، وحكمه على سيف الدين أنِف من ذلك وكبر لديه ، وشق عليه . وكان يبغض عبد المسيح لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة فى إقامة السياسة : وكان نور الدين رحمه الله تعالى ليناً رفيقاً عادلا ، فقال : أنا أولى بتدبير أولاد أخى[2] وملكهم . ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جعبر أول المحرم .

---

(١) فى الأتابكة : ٢٧٦ ــ ٢٧٩ ، وهو اقتباس حرفى . ونلاحظ أن أبا شامة يؤثر أن يذكر نائب قطب الدين باسم عبد المسيح فى كل مناسبة يذكره فيها ابن الأثير بلقب فخر الدين .
(٢) فى ل ١٤٦ ب : بنى أخى .

ثم دخلت سنة ست وستين [وخمسمائة]

وقصد [1] الرَّقَّة فامتنع النائب بها شيئاً من الامتناع ، ثم سلمها على شيء اقترحه . فاستولى نور الدين عليها وقرر أمورها ؛ وسار إلى الخابور [2] فملكه جميعه ؛ ثم ملك نصيبين وأقام بها يجمع العساكر ، فإنه كان قد سار جريدة ، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن وديار بكر [3] ، واجتمعت (١٤٥ ب) عليه العساكر ؛ وقد كان ترك أكثر عسكره [4] بالشام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم . فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار لحصرها ، وأقام عليها ، ونصب المجانيق ، وكان بها عسكر كبير من الموصل . فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثونه على السُّرعة إليهم ليسلموا البلد إليه وأشاروا بترك سنجار ، فلم يقبل منهم ، وأقام حتى ملك سنجار وسلمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زنكي . ثم سار إلى الموصل فأتى مدينة بَلَد [5] وعبر دجلة في مخاضة عندها إلى الجانب الشرقي ، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى [6] ، ودجلة بينه وبين الموصل .

وقال : ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة . وكان عبد المسيح قد سيَّر عز الدين مسعود بن قطب الدين أتابك إيلْدِكِز [7] صاحب بلاد الجبل وآذربيجان وأرّان [8] وغيرها يستنجده ، فأرسل إيلْدِكِز رسولا إلى نور الدين ينهاه عن

(١) الاقتباس من نفس المصدر والصفحات .

(٢) اسم لنهر كبير يمتد بين رأس عين والفرات ويصب في الفرات عند قرقيسياء ، وهو اسم للولاية كلها كذلك : معجم البلدان : ٣ : ٣٨٣ ـ ٣٨٤ .

(٣) المقصود حصن كيفا . وقد حكم بين سنتي ٥٦٢ ـ ٥٨١ ، وتسلم آمد كذلك من صلاح الدين سنة ٥٧٩ . انظر معجم الأنساب لزامباور .

(٤) في ل ١٤٦ ب : وقد ترك عسكره .

(٥) مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل وبينهما سبعة فراسخ ، وتبعد عن نصيبين ثلاثة وعشرين فرسخاً . معجم البلدان : ٢ : ٢٦٥ ـ ٢٦٧ .

(٦) نفس المصدر : ٨ : ٣٦٨ .

(٧) حكم بين سنتي ٥٣١ ـ ٥٦٨ . وضبط الاسم من معجم الأنساب . انظر كذلك : Muhammadan Dynasties

(٨) في الأتابكة : أرانية . وأران إقليم بينه وبين آذربيجان نهر يسمى نهر الرس ، فما جاوره من ناحيتي الشمال والغرب فهو من أران ، وما جاوره من الشرق يعتبر من آذربيجان . معجم البلدان : ١ : ١٧٠ .

قصد الموصل ويقول له : إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها . فلم يَلْتَفِتْ نور الدين إلى رسالته ، وكان بسنجار ، فسار إلى الموصل ، وقال للرسول : قل لصاحبك : أنا أرفق ببنى أخى منك فلا تُدخل نفسك بيننا ، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب همدان ، فإنك قد ملكت نصف بلاد الإسلام (١) وأهملت الثغور حتى غلب الكُرْج (٢) عليها ؛ وقد بليت أنا وحدى بأشجع الناس ، الفرنج ، فأخذت بلادهم ، وأسرت ملوكهم ، فلا يجوز لى أن أتركك على ما أنت عليه ، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام ، وإزالة الظلم عن المسلمين . فعاد الرسول بهذا الجواب .

وحصر نور الدين الموصل ، فلم يكن بينهم قتال ، وكان هوى كل من بالموصل ، من جندى وعامى ، معه ، لحسن سيرته وعدله . وكاتبه الأمراء يعلمونه أنهم على الوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه . فلما علم عبد المسيح ذلك راسله فى تسليم البلد إليه وتقريره على سيف الدين ، ويطلب الأمان وإقطاعاً يكون له . فأجابه إلى ذلك وقال : لا سبيل إلى إبقائه بالموصل ، بل أن يكون عندى بالشام ، فإنى لم آت لأخذ البلاد من أولادى ، إنما جئت لأخلص الناس منك وأتولى أنا تربية أولادى . فاستقرت القاعدة على ذلك ، وسلمت الموصل إليه ، فدخلها ثالث عشر جمادى الأولى ، وسكن القلعة . وأقر سيف الدين غازى على الموصل ، وولى بقلعتها خادماً يقال له سعد الدين كمشتكين (٣) ، وجعله دُزداراً فيها ، وقسم جميع ماخلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضَى الفريضة .

ولما كان يحاصر الموصل جاءته خلعة من الخليفة فلبسها ، فلما دخل الموصل خلعها

(١) فى ل ١٤٧ ا : قد ملكت النصف من بلاد الإسلام .

(٢) الكرج أمة من المسيحيين كانت تسكن القوقاز فى جوار مدينة تفليس ، ثم استولوا على تفليس سنة ٥١٥ وبقيت معهم حتى أخذها جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢١ . انظر : مفرج الكروب : ١ : ١٩٢ فى الهامش نقلا عن Allen , History of the Georgian People

(٣) سيلعب كمشتكين هذا دوراً هاماً فى علاقة مصر بالشام بعد وفاة نور الدين محمود وولاية ابنه الملك الصالح إسماعيل ، عندما يبدأ النزاع بين أمراء نور الدين من جانب وصلاح الدين صاحب مصر عندئذ من الجانب الآخر . وسيأتى تفصيل هذا كله ابتداء من حوادث سنة ٥٦٩ ، وهى السنة التى توفى فيها نور الدين .

على سيف الدين . وأطلق المكوس جميعها من الموصل وسائر مافتحه من البلاد، وأمر ببناء الجامع النورى (١١٤٦) بالموصل ، فبنى وأقيمت الصلاة فيه سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة [١] .

وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً ، وسار إلى الشام ، فقيل له : إنك تحب الموصل والمقام بها ونراك أسرعت العود ؟ فقال : تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت ؛ ويمنعنى أيضاً أننى ههنا لا أكون مرابطاً للعدو وملازماً للجهاد. ثم أقطع نصيبين والخابور العساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازى ابن أخيه مع الموصل ، وعاد إلى الشام ومعه عبد المسيح ، فغير اسمه وسماه عبد الله ، وأقطعه إقطاعاً كثيراً .

وقال العماد : استدعانى نور الدين ونحن بظاهر الرقّة وقال لى : قد أنست بك وأمنت إليك ، وأنا غير مختار للفرقة ، ولكن المهم الذى عرض ، لا يبلغ فيه غيرك الغرض ، فتمضى إلى الديوان العزيز جريدة [٢] ، وتؤدى عنى رسالة سديدة سعيدة ، وتُنهى أنى قصدت بيتى و بيت والدى ، ومَغْنى طريفى وتالدى ، وأنا كبيره ووارثه ، والذى له حديثه وحادثه . فامض وخذ لى إذناً فإنى أعد كل جارحة لما أخاطب به أذناً ، وأمثل ما يصلنى من المثال لدفع كل مكروه ركناً. وأمر ناصر الدين محمد بن شيركوه أن يسيرنى إلى الرحبة [٣] ، فى رجال مأمونى الصحبة وسرت منها على البرية غربى الفرات ، بخفير من بنى خفاجة . فذكر أنه وصل وقضى الحاجة ، ثم رجع من عند الخليفة المستنجد إلى نور الدين، وهو يحاصر سنجار ، فأخذها وسلمها إلى ختنه ابن أخيه عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى .

قال : ثم رحل على عزم الموصل وقصد بلد ، واستوضح فيها الجدد ، ودُلَّ هناك فى دجلة على مخاضة ، وكان ذا أخلاق وهمم مرتاضة ، فاستسهل من خوضها والعبور فيها

---

(١) فى الأتابكة : سنة ثمان وستين وخمسمائة .

(٢) الجريدة فى الأصل اصطلاح يقصد به الفرقة من العسكر الخيالة لا راجل فيها ، وكانت تعنى كذلك أحياناً سير السلطان على وجه السرعة دون حشد أو أثقال Dozy; Supp. Dict. Arabe وهى هنا تعنى سير العماد ، رسول نور الدين ، فى سرعة إلى بغداد قبل أن يسىء الديوان فهم هذه الخطوة التى اتخذها نور الدين .

(٣) على شاطىء الفرات أسفل قرقيسياء ، على مسافة نيف وعشرين فرسخاً من الرقة ومائة فرسخ من بغداد . معجم البلدان ٤ : ٢٣٦ — ٢٣٨ .

ما ظن مستصعبا ، وسهل لنا الله ذلك ورأينـاه أمراً عجباً ؛ وجاء دليل تركمانى قدامنـا ، وهو يقطع دجلة تارة طولا وتارة عرضاً أمامنا ، ونحن وراءه كخيط واحد لا نميل يميناً ولا يساراً ، ولا نجـد لنا فى سوى المجاز اختياراً ؛ حتى عـبرنا من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى برجالنا وأثقالنا ، وخيلنا وبغالنا وجمالنـا ؛ وأقمنا بقية ذلك اليوم ، حتى تمّ عبور القوم.

ثم رحلنا ونزلنا على الموصل من شرقها ، وخيمنا على تلّ توبة[1] ، فاستعظم أهلها تلك النوبة ، وما خطر ببالهم أننا نعبر بغير مراكب ، وأنّا نأخذ عليهم ذلك الجانب . فعرفوا أنهم محصورون ، مقهورون ، محسورون ؛ وانقطعت عنهم السبل من الشرق ، وتعذر عليهم الرقع لاتساع الخرق ؛ وبسط العطاء ، وكشف الغطاء ، وتـكلم فى المصلحة والمصالحة الوسطاء ؛ ومُد الجسر ، وقضى الأمر ، وأنعم نور الدين على أولاد أخيـه ، ومثلوا بناديه ؛ وأقر سيف الدين غازياً على قاعدة أبيه ، وألبسه التشريف الذى وصله من أمير المؤمنين المستضىء .

ثم دخل قلعة الموصل (١٤٦ ب) وأقام بهـا سبعة عشر يوماً ، وجدد مناشير أهل المناصب وتوقيعات ذوى المراتب من القضاة والنقابة وغيرهما . وأمر بإسقاط جميع المـكوس والضرائب ، وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس ، فمنه :

« وقد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال ؛ فسحقاً للسحت ، ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت ؛ وبعداً لما يبعد من رضا الرب ، ويقصى من محل القرب . وقد استخرنا الله وتقربنا إليه ، وتوكلنا فى جميع الأحوال عليه ، وتقدمنا بإسقاط كل مكس وضريبة ، فى كل ولاية لنا بعيـدة أو قريبة ؛ وإزالة كل جهة مشتبهة مشوبة ، ومحو كل سُنّة سيئـة شنيعة ، ونفى كل مَظلمة مُظلمة فظيعة ؛ وإحياء كل سنة حسنة ، وانتهاز كل فرصة فى الخير ممكنة ، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخـذه من الأموال المحظورة ، خوفاً من عواقبها

---

(١) موضع شرقى دجلة يقابل مدينة الموصل ويتصل بنينوى . وقيل سمى بهذا الاسم لأن أهل نينوى ، وهم قوم يونس عليه السلام ، لجئوا إليه بعد أن أصابهم العذاب وأظهروا التوبة فتاب الله عليهم ، معجم البلدان : ٢ : ٤٠٤ .

الرديئة المحذورة ، فلا يبقى فى جميع ولايتنا جور جائر جارياً ، ولا عمل لا يكون به الله راضياً ، إيثاراً للثواب الآجل ، على الحطام العاجل . وهـذا حق لله قضيناه ، وواجب علينا أديناه ، بل هى سنّة استننّاها[1] ، ومحجة واضحة بيناها ، وقاعدة محكمة مهدناها ، وفائدة مغتنمة أفدناها » .

فصـــــل

قال العماد : وكان بالموصل رجل صالح يعرف بعمر الملّا ، سمى بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوّت بها ، وكل ما عليه من قميص ورداء ، وكسوة وكساء ، قد ملكه سواه واستعاره ، فلا يملك ثوبه ولا إزاره . وكان له شيء فوهبه لأحد مريديه ، وهو يتجر لنفسه فيـه ، فإذا جاءه ضيف قراه ذلك المريد . وكان ذا معرفة بأحـكام القرآن والأحاديث النبوية .

وكان العلماء والفقهاء ، والملوك والأمراء ، يزورونه فى زاويته ، ويتبركون بهمته ، ويتيمنّون ببركته . وله كل سنة دعوة يحتفل بها فى أيام مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضره فيها صاحب الموصل ، ويحضر الشعراء ويُنشدون مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المحفـل .

وكان نور الدين من أخص محبيه يستشيره فى حضوره ، ويـكاتبه فى مصالح أموره . وكانت بالموصل خربة واسعة فى وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع فى عمارتها إلا مَن ذهب عمره ، ولم يتم على مراده أمره . فأشار الشيخ عمر على نور الدين بابتياعها ، ورفع بنائها جامعاً تقام فيه الجمع والجماعات ؛ ففعل وأنفق فيه أموالا كثيرة ، ووقف عليـه ضيعة من ضياع الموصل ، ورتب فيه خطيباً ومدرساً[2] . وكان قد وصل فى تلك السنة وافداً الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقانى الشافعى ، من أصحاب الإمام محمد بن يحيى ، فسأله أن يكون مدرساً فى ذلك الجامع وكتب له به منشوراً .

قال : وحضر مجاهد الدين قايماز صاحب إربل إلى الخدمة النورية فى الموصل . وكان

(١) فى ل ١٤٨ ا : سنناها .

(٢) سبق فى هذا الـكتاب قصة إشراف الشيخ عمر الملا على بناء هذا الجامع واعتراض بعض أمراء نور الدين على ذلك ورفضه اعتراضهم . انظر ص : ٢٠ ـ ٢١ .

دخولهم إياها فى بحبوحة (١١٤٧) الشتاء ؛ فكتب العماد إلى بعض كبراء الموصل قصيدة ، منها :

ما يمنع الخادم من قصده الـ ... خدمة غير الطّرْق والوحل
كأنما موْصلكم مقطع ... ما يُهتدى فيه إلى وصل
وكلّ معروف بها منكر ... كما تراه ضيّق السّبل
وكل من حلّ بها لا يرى ... فى زمن الخصب سوى المحل
ومذ دخلناها حصلنا بها ... كرهاً على خرج بلا دخل
أصعب ما نلقاه من أهلها ... قول بلا أهل ولا سهل
وكنت أهواها ، ولكننى ... لقيت منها كلّ ما يسلى
وأنت من أصبح إحسانه ... حلية هذا الزّمن العُطل

قال : وعاد نور الدّين إلى سنجار فأعاد عمارة أسوارها . ثم أتى حرّان. وقد اقتطعها عن صاحب الموصل هى ونصيبين ، والخابور ، والمِجْدل [1] . ووصل حلب فى خامس رجب .

قال ابن شدّاد [2] : دخل حلب فى شعبان وزوّج صاحب الموصل ابنته .

قال العماد : وفوّض القضاء والحكم بنصيبين وسنجار والخابور إلى الشيخ شرف الدين ابن أبى عصرون ، فولّى بها نوابه وحكّم فيها أصحابه .

وقال القاضى ابن شدّاد : لما صارت الموصل إلى سيف الدّين ، ابن أخى نور الدين ، كان قد استولى عليه وتولى أمر البلد رجل يقال له عبد المسيح كان نصرانياً فأسلم ، وقيل إنه كان باقياً على نصرانيته وله بيعة فى داره ، وتتبع أرباب العلم والدّين وشتّتهم وأبعدهم وآذى المسلمين . فبلغ نور الدين ذلك ، وكُتب له قصص فى ذلك . فسار ونزل على الموصل من جانب الشطّ ، والشط بينه و بينها ، وقال : لا أقاتل هذه البلدة وأهتك حرمتها وهى

(١) الضبط من معجم البلدان : ٧ : ٣٨٧ ؛ ويعرفها ياقوت بأنها بلد طيب من إقليم الخابور .
(٢) فى النوادر السلطانية : ٣٥ .

لولدى . وراسل سيف الدين وقال له : أنا ليس مقصودى البلد و إنما مقصودى حفظ البلد لك ، فإنه قد كُتِب إلىّ فى عبد المسيح كذا وكذا ألف قصة بما يفعل مع المسلمين ، و إنما مقصودى أزيل هذا النصرانى عن ولاية المسلمين .

قال : وعبد المسيح يدبّر البلد و يدور فيه ، والأمر إليه . و بذل الصلح لنور الدين ؛ فقال نور الدّين : أنا قد جئت ولا بدّ لى من دخول البلد . فقال : نعم لا يدخل إلا من باب السّر ، فقال نور الدين : ما أدخل إلا من باب السر . فجرت بين نور الدين و بين ابن أخيه مراسلات ، إلى أن علم أن نيته صالحة ، فصالحه فى السر ؛ وركب عبد المسيح وخرج يدور بين السورين ، فجاءه بعض أصحابه وقال له : أنت نائم ؟ دمُك قد راح وأنت غافل ! فقال : ما الخبر ؟ فقال : سيف الدين قد صالح عمه وأنت فى مقابلة نور الدّين . فجاء ودخل على سيف الدين وألقى شربوشه [1] بين يديه ، وقال له : أنت قد صالحت عمك وقد عمِلتُ ما عملت فى حفظ بلدك ، وما لى طاقة بمقابلة نور الدين ؛ فالله الله فى دمى ! فقال له : ما لى طاقة بدفعه عنك ، ولكن عليك بالشيخ عمر الملّا ! فقال : والله لو مضيت إليه لم يفتح لى ــ لعلمه بما جرى [منه] [2] فى حق المسلمين ــ ولكن تسيِّر أنت إليه . فأنفذ سيف الدين إليه واستحضره ، وكان معتكفاً ، فقال له : ما الخبر ! فقال سيف الدين (١٤٧ ب) لعبد المسيح : منك إليه ؛ فوقف بين يديه يبكى ؛ فالتفت إليه الشيخ عمر وقال : من يعادى الرجال يبكى مثل النساء ! فقال له : قد تمسكت بك وأطلب منك حقن دمى ! فقال : أنت آمن على دمك ؛ فقال : وعلى مالى ! فقال : وعلى مالك ؛ فقال : وعلى أهلى ! فقال : وعلى أهلك .

وكان شرف الدين بن أبى عصرون مع نور الدين حينئذ ؛ فقال سيف الدين لعمر الملّا : تخرج تحلِّف نور الدين ؛ فأحضر الفقهاء وعملوا له نسخة يمين لنور الدين ونسخة يمين لعبد المسيح ؛ فأخذهما عمر وخرج إلى نور الدين ، فقام نور الدين وخرج من خيمته والتقاه وأكرمه . فقال له عمر : الناس يعلمون حُسْن عقيدتك فىّ ، وقد خرجت فى كذا وكذا ،

---

(١) الشربوش : قلنسوة طويلة تلبس بدل العمامة ، وكانت للأمراء ولا يلبسها رجال العلم . السلوك : ١ : ٢٥١ .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٤٩ أ .

وناوله النسخة التى تتعلق بسيف الدين ، فقرأها وناولها لابن أبى عصرون ، فقال : نسخة جيدة . فقال له الشيخ عمر الملاّ : « إيش » تقول فى هذه النسخة ؟ فقال : جيدة ؛ فقال : [إذا][1] حلف بها على هذا الوجه أليس أنها تقع لازمة ؟ فقال : بلى . فقال للحاضرين : اشهدوا على الشيخ بذلك ، يشير إلى أن نور الدين كان يجرى منه أيمان فى وقائع ، وكان ابن أبى عصرون يفتيه بالخروج منها ، فقيَّد عليه القول ، فأجاب نور الدين إلى ذلك ، فقال له : قد علم الناس حسن عقيدتك فىّ ، وأن قولى مسموع عندك ، وقد خرجت إليك ولا بدّ لى من ضيافة ، فقال : كيف لى بذلك وأنت لا تأكل طعامى ولا تقبل منى شيئاً ! فقال : تحلف لى بهذه النسخة ، فوقف عليها وتغير وجهه ، وقال : أنا ما جئت إلا فى هذا لأخلص المسلمين منه ! فقال له[2] الشيخ عمر : فما نطلب منك أن توليه على المسلمين ! فقال : قد أمّنته على نفسه ، فقال: وعلى أهله ! فقال : ومن أهله ؟ فقال : نصارى ، فقال : أمّنتهم ، فقال : وعلى ماله ، فقال : ومن أين لهذا الكلب مال ؟ هذا مملوك لنا ، فقال : قد أعتق وماله له ، وهو اليوم كان صاحب الموصل ، قال : قد أمنته على ماله . فحلف له على ذلك جميعه ، واستقرّ الصلح .

وخرج سيف الدّين إلى خدمة نور الدين ، فوقف بين يديه ، فأكرمه نور الدين ، وكان وَصله خلعة أمير المؤمنين فخلعها عليه ، فدخل إلى الموصل بها ، وانتقل إلى جانب الشط الآخر ، ولم يدخل إلى الموصل إلى أن جاء مطر شديد جدًّا فدخل من باب السر إليها ، وأقام بها مدة ورتب أمورها وولى فيها كمشتكين فرأى النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وهو يقول له : جئت إلى بلدك وطاب لك المقام به ، وتركت الجهاد وقتال أعداء الدين ! فاستيقظ من منامه وسار سحرة ذلك اليوم ولم يلبث ، ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه ، رحمه الله تعالى .

فصـــــل

وصل الخبر بموت الإمام المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتفى ، ونورُ الدين مخيم

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٤٩ ا .
(٢) ساقطة من ل ١٤٩ ا ، وكذلك من نسخة ق .

بشرقىّ الموصل بتلّ توبة . وكانت وفاته يوم السبت تاسع ربيع الآخر ، وبويع ابنه المستضئ بأمر الله أبو محمد الحسن .

وكان مولد المستنجد مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة ، وكانت خلافته إحدى عشرة (١٤٨ ا) سنة وستة أيام . وهو الثانى والثلاثون من خلفاء بنى العباس . وهذا العدد له بحساب الجمّل ، اللام والباء ، فيه يقول بعض الأدباء :

أصبحت « لبّ » بنى العباس كلهم   إن عُـدِّدت بحساب الجمّل الخلفا

وكان أسمر تام القامة طويل اللحية ، وكان من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية ؛ كان عادلا فيهم كثير الرفق بهم ، وأطلق من المكوس كثيراً ، ولم يترك بالعراق مكسا . وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس .

قال ابن الأثير[(١)] : بلغنى أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس ويكتب فيهم السِّعايات فأطال حبسه ، فحضر بعض أصحابه وشفع فيه ، وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال له : أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى إنسانا آخر مثله أحبسه لأكفّ شره عن الناس[(٢)] .

وتوفى فى أيامه[(٣)] شيخ الشيوخ إسماعيل بن أبى سعد ، وصار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ ، وذلك سنة إحدى وأربعين .

وفى سنة ثمان وأربعين توفى محمد بن نصر القيسرانى ، وأحمد بن منير ، الشاعران . وقد تقدم ذلك[(٤)] .

وفى سنة تسع وأربعين توفى الحكيم أبو الحكم الشاعر الأندلسى .

وفى سنة إحدى وخمسين توفى الوأواء الشاعر الحلبى .

---

(١) فى الأتابكة : ٢٧٥ ؛ وهو اقتباس حرفى .
(٢) ينتهى هنا هذا الاقتباس الحرفى .
(٣) فى ل ، ١٤٩ ب : وفى أيامه توفى ، وكذلك فى ق .
(٤) انظر هذا الكتاب : ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

وفى سنة ثلاث وستين توفى الشيخ أبو النجيب الصوفى الفقيه الواعظ .

قال العماد : وجاءنا رسل دار الخلافة مبشرين بخلافة المستضىء ، واتفق ذلك يوم عبور دجلة . وركب يوم النزول على تل توبة فى الأهبة السوداء ، واليد البيضاء ، وذلك بمرأى ومنظر أهل الموصل الحدباء . ثم أرسل الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون إلى بغداد نائباً عنه فى خدمة الإمام . ومما نظمه العماد فيه :

قد أضاء الزمان بالمستضىّ ... وارث البُرد ، وابن عم النبىّ
جاء بالحق ، والشريعة ، والعد ... ل ، فيا مرحباً بهذا المجىّ
فهنيئاً لأهل بغداد ، فازوا ... بعد بؤس بكل عيش هنىّ
ومضىٌّ إن كان فى الزمن المظ ... لم ، فالعود فى الزمان المضىّ

وله من قصيدة أخرى :

لهفى على زمن الشباب ، فإننى ... بسوى التأسف عنه لم أتعوض
نقضت عهود الغانيات ، وإنها ... لولا نقاء شبيبتى لم تنقض
يا حسن أيام الصبا ، وكأنها ... أيام مولانا الإمام المستضى
ذو البهجة الزهراء يشرق نورها ... والطلعة الغراء ، والوجه الوَضِى
قَسَم السعادة والشقاوة ربُّنا ... فى الخلق ، بين محبِّه والمبغض

ومنها :

فضل الخلائف والخلائق بالتقى ... والفضل،والإفضال،والخُلق الرضى
فانعَمْ أميرَ المؤمنين بدولة ... ما تنتهى ، وسعادة ما تنقضى

قال : ووصل نور الدين ، رحمه الله تعالى ، إلى دمشق وأدى فرض الصيام ، وخرج بعد العيد إلى الخيام ، وأخرج سرادقه إلى جسر الخشب(١) ، وسرنا إلى عشترا . ثم ذكر

---

(١) جنوب دمشق بينها وبين منازل العسكر . ومنازل العسكر منطقة كانت تتجمع فيها الجيوش التى تريد مهاجمة دمشق ، وكان قريباً منها جسر خشبى أقيم على نهر الأردن أسفل بحيرة طبرية . انظر : The Damascus Chronicle of the Crusades, p. 283 : وكذلك The Crusaders in the East, p. 179

العماد هنا سرّية[1] صاحب البيرة الأرتقى باللبوة، وقد مضت فى أخبار سنة خمس وستين[2] (١٤٨ ب) ثمّ ذكرها ابن الأثير .

فصـــــل

فيما جرى بمصر فى هذه السنة

قال العماد : كان بمصر حبس للشحن يعرف بدار المعونة [3] فأعادها صلاح الدين مدرسة للشافعية فى أول سنة ست وستين ، وعمل فى النّصف من المحرّم دار الغزل مدرسة للمالكية [4] ، وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها ، وذلك فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة . ثم خرج إلى الغزاة وأغار على الرملة وعسقلان وهجم ربض غزة ، ثم رجع إلى القاهرة .

ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله فأشفق عليها وأحبّ أن يجتمع بها شمله ، فخرج فى النصف من ربيع الأول . وكانت بأيلة قلعة فى البحر قد حصنها أهل الكفر ، فعمر لها مراكب وحملها إلى ساحلها على الجمال ، وركبها الصّناع هناك وشحنها بالرجال ، وفتح القلعة فى العشر الأول من ربيع الآخر ، واستحلها واستباح بالقتل والأسر أهلها ، وملأها بالعدد والعدد ، وحصّنها بأهل الجلاد والجلد . واجتمع بأهله وسار بهم على سمت القاهرة ، ودخلوا فى السادس والعشرين من جمادى الأولى إليها . وسار إلى الإسكندرية فى الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ويرتب قواعدها ، وهى أول دفعة سار إليها فى أيام سلطانه ، وعم أهلها بإحسانه ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها .

---

(١) فى الأصل : سيرة ، والمثبت هنا من ل ١٥٠ ا .

(٢) انظر ما تقدم ص : ٤٧١ ـ ٤٧٢ .

(٣) هما داران للمعونة ، كانت كل منهما تعرف باسم حبس المعونة ، إحداهما بالفسطاط والأخرى بالقاهرة ، واسمها مأخوذ من ظروف إنشائها إذ أنها بنيت بمعونة المسلمين لينزلها ولاتهم ، ثم جعلت داراً للشرطة ، ثم حولت فى عهد العزيز بالله الفاطمى إلى سجن عرف باسم حبس المعونة ، ثم حولها صلاح الدين إلى مدرسة للشافعية . مفرج الكروب : ١ : ١٩٧ : حاشية : ٤ .

(٤) وكانت قبل ذلك قيسارية يباع فيها الغزل ، وعرفت كذلك باسم المدرسة القمحية لأن القمح كان يوزع على فقهائها من ضيعة بالفيوم أوقفها صلاح الدين عليها ، نفس المصدر : ١ : ١٩٨ : حاشية : ١ .

وفى النصف من شعبان اشترى تقى الدين عمر بن شاهنشاه[1] ، وهو ابن أخى صلاح الدين ، منازل العز بمصر وجعلها مدرسة للشافعية ، واشترى الروضة وحمام الذهب وغيرهما من الأملاك ووقفها عليها .

وفى النصف من جمادى الآخرة أغار شمس الدولة ، أخو السلطان ، بالصّعيد على العربان ، ثم دخل القاهرة فى عاشر شهر رمضان .

وفى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة توفى القاضى الموفق أبو الحجاج يوسف ابن الخلال[2] ، وكان من الأماثل الأفاضل ، ولم يزل صاحب ديوان الإنشاء إلى أن كبر . وكان الأجل الفاضل يوصل إليه كل ما كان له ، وقام به مدة حياته يكرم عهده ويكفله . وقال [العماد][3] فى الخريدة : هو ناظر ديوان مصر وإنسان ناظره ، وجامع مفاخره ؛ وكان إليه الإنشاء ، وله قوة على الترسل يكتب ما يشاء ، عاش كثيراً وعطل فى آخر عمره ، وأضر ولزم بيته إلى أن تعوض منه القبر . ومن شعره :

يا أخا الغرة ، حسب الدهر من عظة المغرور ما أصبح يبدى
تؤثر الدنيا ، فهل نلت بها لحظة تخلص من همّ وكدّ !!

قلت : وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجزرى فى أول كتابه المسمى بالوشى المرقوم فى حل المنظوم ، قال حدثنى عبد الرحيم بن على البيسانى رحمه الله بمدينة دمشق فى سنة ثمان وثمانين (١١٤٩) وخمسمائة قال : كان فن الكتابة بمصر فى زمن بنى عبيد[4] غضاً طريا ، وكان لايخلو ديوان المكاتبات من رأس

---

(١) صاحب حماة ، من رجال صلاح الدين الذين اعتمد عليهم فى حروب الوحدة بين مصر والشام وفى تحرير فلسطين ، وناب عنه فى مصر سنة ٥٧٩ ، وحاول السير إلى المغرب لسوء تفاهم بينه وبين صلاح الدين ، فترضاه السلطان وولاه حماة ، وكان قبل هذا صاحب إقطاع الفيوم حيث أنشأ مدرستين للشافعية والمالكية . وسيأتى تفصيل ذلك فى مواضعه . انظر أيضاً : وفيات الأعيان : ١ : ٣٨٣ - ٣٨٤ .

(٢) آخر رؤساء ديوان الإنشاء فى العصر الفاطمى ، وكان له فضل تدريب القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى على صناعة الإنشاء . انظر وفيات الأعيان وشذرات الذهب .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح . انظر : الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٢٣٥ - ٢٣٧ .

(٤) يعنى الخلفاء الفاطميين .

يرأس مكاناً وبياناً ، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً . وكان من العادة أن كلا من أرباب الدّواوين إذا نشأ له ولدو شدّا شيئاً من علم الأدب أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع . قال : فأرسلني والدى ، وكان إذا ذاك قاضياً بثغر عسقلان ، إلى الديار المصرية فى أيام الحافظ ، وهو أحد خلفائها[1] ، وأمرنى بالمسير إلى ديوان المكاتبات ، وكان الذى يرأس به فى تلك الأيام رجل يقال له ابن الخلال . فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرّفته من أنا وما طلبى ، رحّب بى وسهل ، ثم قال : ما الذى أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت : ليس عندى شىء سوى أنى أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة . فقال : وفى هذا بلاغ . ثم أمرنى بملازمته ؛ فلما ترددت إليه[2] تدربت بين يديه ، ثم أمرنى بعد ذلك أن أحلّ شعر الحماسة ، فحللته من أوله إلى آخره ، ثم أمرنى أن أحله مرة ثانية ، فحللته .

وقال ابن أبى طىّ : فى هذه السنة شرع السلطان ، يعنى صلاح الدين ، فى عمارة سور القاهرة ، لأنه كان قد تهدم أكثره وصار طريقاً لا يردُّ داخلاً ولا خارجاً ، وولاه لقراقوش الخادم[3] ، وقبض على القصور وسلمها إليه ، وأمر بتغيير شعار الاسماعيلية ، وقطع من الأذان « حىّ على خير العمل » ، وشرع فى تمهيد أسباب الخطبة لبنى العباس .

وفيها طلب شمس الدولة [تور انشاه] ؛[4] من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة وازداد على إقطاعه بوش[5] وأعمال الجيزة وسمّنود[6] وغيرها .

---

(١) حكم بين سنتى ٥٢٤ ــ ٥٤٤ .

(٢) فى ل ١٥٠ ب : فترددت إليه .

(٣) أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدى ، نسبة إلى أسد الدين شيركوه ، فقد كان من مماليكه ، ثم خدم صلاح الدين ، وتولى زمام القصر الفاطمى ، وناب عن صلاح الدين فى بعض المناسبات وأشرف على بناء القلعة والسور وقناطر الجيزة ، ولما فتحت عكا تولاها وسوّرها ، ثم أسره الفرنج فافتك نفسه بعشرة آلاف دينار . توفى سنة ٥٩٧ ودفن بسفح المقطم ، وسيأتى تفصيل هذا كله فى مناسباته . وقراقوش لفظ تركى معناه العقاب الطائر . انظر وفيات الأعيان : ١ : ٥٤٣ .

(٤) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح .

(٥) مدينة بصعيد مصر غربى النيل بعيدة عنه ، من أعمال بنى سويف . معجم البلدان : ٢ : ٣٠٤ ، الخطط التوفيقية : ١٠ : ٥ .

(٦) على ضفة النيل غربى الفرع الدمياطى بينها وبين المحلة ميلان ، انظر معجم البلدان : ٥ : ١٣٣ ؛ الخطط التوفيقية : ١٢ : ٤٦ .

قلت : وقد وقفت على كتاب فاضلىّ وصف فيه غزاة غزاها صلاح الدين رحمه الله فى زمان وزارته [1] وكان الكتاب إلى مدينة قوص ، وأظن هذه الغزاة هى التى أشار إليها العماد فى أثناء كلامه السابق أوّل الكتاب [2] : « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ » [3] .

وفيه : « توجهنا من بركة الجب [4] يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأوّل ، ووصلنا بتاريخ السّابع والعشرين من الشهر المذكور ، والعساكر بالسّهل والوعر منتظمة ، والهمم على السهل والصّعب مزدحمة وجنود الله فى الأرض المُعْلمة ، قد أيّدتها جنود السماء المسوّمة . وصابحنا الدّير [5] يوم الأربعاء بقتال جعل كلّ من فى حصن الدّير راهبا ، ونصبنا عليه منجنيقا لا يزال بشهاب القذف ضاربا . فلما تعالى النّهار ملكنا ربضه ، وأطلقنا فيه النيران ، ورملنا الرجال بالدم ، وأرملنا النسوان [6] ؛ وزحفنا إلى أبراجه وهى أبراج قد استعدت للبلى جلبابا ، فجعلنا لكلّ واحد جورة مفردة و بابا ، وسرحنا إليهم رسل المنايا من النّشاب ، وقصدنا أحد الأبراج والبيوت تؤتى فى الحرب (١٤٩ ب) من غير الأبواب ، وتقدّمت إليها [7] نقّابة الحلبيّة فباتت ليلتها تساوره ، وتراجعه بألسنة المعاول وتشاوره . وأسفر الصبح وقد أمكن تعليقه ، وتيسّر تحريقه ، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود ، فلم يكن إلّا مقدار اشتعالها حتى خرّ صريعا سريعا ، وعفّر بين أيدينا سامعا مطيعا . وانتظمت الرجال على أحجاره ، وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره ؛ فحصلت فى القبضة ، وعجز من كان

---

(١) انظر : Saladin, pp. 105–107، وكذلك : The Crusaders in the East, p. 199 .

(٢) انظر ما تقدم فى أول هذا الفصل .

(٣) سورة آل عمران : آية : ١٧٤ .

(٤) خارج القاهرة من الجهة الشمالية ، وكان صلاح الدين يخرج إليها للصيد ، وفى زمن المقريزى كانت مقر تجمع الحجاج فى طريقهم الى الحجاز ، وسميت عندئذ باسم بركة الحاج : السلوك : ١ : ٥٨ : حاشية : ٢ .

(٥) فى الأصل هنا بالهامش تعليق نصه : « حاشية ؛ قال المؤلف : بلغنى أن الدير هو الداروم ، والله أعلم » اهـ . وقد استمر هذا الحصار أربعة أيام وأتيحت الفرصة لأمورى ملك القدس كى يسرع الى نجدة الداروم فتركها صلاح الدين وتقدم نحو غزة وهاجمها وضرب المدينة ، ولكنه لم يستطع أخذ قلعتها . انظر : ستيفنسون : The Crusaders in the East وكذلك : Saladin تأليف لين پول .

(٦) المثبت هنا من ل ١٥١ ا ؛ وفى الأصل : وأرسلنا النسوان .

(٧) المثبت هنا من ل ١٥١ ا ؛ وفى الأصل : وتقدمت إليهم .

فيهـا عن النهضة ؛ واحتـكم فيها العذاب بالسيف والنار ، وضاق عليهم مجال النفس والقرار » .

« واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق ، وتيسير السّبيل للقتال وتخليص الطريق ، هـذا والسّلوب والنهوب قد امتارت منها العساكر ، وخرجت فيهـا مكنونات الذخائر ، وأشبه اليوم يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ، وظهر الأرض منهم بالدّم المائر » .

« فلمّا كان بكرة الجمعة وَرَدَتْنا الأخبار بأن الملك قد زحف من غزّة فى فارسه وراجله، ورامحه ونابله ، وحشودِ دياره ، وجنود أنصاره ؛ فركبنا مستبشرين بزحفه ، موقنين بحتفه ، ولقيناه ، فأحطنا من بين يديه ومن خلفه . وناوشته الخيل الطّراد ، وأحدقت به أحداق الأغلال بالأجياد ، وانتظرت حملته التى كان لهـا قبل ذلك اليوم موقع ، وصدمته التى لها من رجال الحرب موضع ؛ فملأ الله قلبه رعبا وثنى صدقه كذبا . ولم يزل يخاتل ولا يقاتل ، ويواصل المسير ولا يصاول ، والقتل فى أعقابه ، وأيدى السيوف وسواعد الرّماح لا تنى فى عقابه ، حتى تحصّل فى الدّير هو وخيله ورجله ، ولم يبق له من مُلك الشام إلّا ماوطئته رِجله . فناصبناه الحصار فى ليلة السّبت مستهل ربيع الآخر بالركوب إليه ، والوقوف عليه ، لعلّه يبرز ويبارز ، ويخرج ولا يحاجز ؛ فخرست غماغمه ، واستذابت ضراغمه ، فتركناه وراء ظهورنا ، وجعلنـا بلاده أمام صدورنا ؛ فكنا فى توليته مرضين لله تعالى سبحانه لامغضبين ، وفى تركه وراء ظهورنا ومباعدته من الله متقربين » .

« وواجهنا غزّة بعساكرنا المنصورة ، وأطفنا بهـا فى أحسن صورة ، وهى على ماعلم من كونها بكرا لم تفترعها الحوادث ، وحصانا لم يطمثها أمل طامث؛ وهى معقل الديوية[1] الذين هم جمرة الشّرك ، وداهية الإفك ؛ وأتى الله ببنيانها من القواعد ، وأنجز فيهـا من النّصر صادق المواعد ، ووردناها بأيمن الموارد ؛ وفتحناها من عدّة جوانب ، ووطئناها وإذا هى كأمس الذاهب ، فألقتْ إلينا أفلاذ كبدها ، وذخيرة يدها ، فمن بين مَوَاشٍ بخراب البلاد التى منها خرجت[2] ، وخيول مسومة كأنها لركوبنا أسرجت وألجمت ، وحوامل

(١) انظر هذا الكتاب : ٢٨٤ : حاشية : ١ .

(٢) فى الأصل : تخرب البلاد التى خرجت منها ، والمثبت هنا من ل ١٥١ ب ، وهو الذى يتفق مع الأسلوب المسجوع لهذا الخطاب .

أثقال وزوامل خَفَفَت عن عساكرنا وفرّجت ، وميرة كثيرة تمكنت منها يد الأجناد وأفرجت ، وأسارى المسلمين فكوا من القيد والقد ، وأنقذوا بلطف الله من سوء المكيدة وشدة الجهد . فأمّا الرءوس (١١٥٠) المقطوعة وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم مجموعة ، فإن الفضاء الفضى تعصفر من دمائهم وتذهّب ، وجرى منها مابه اضطرم وَقْدُ الجحيم وتلهّب . وفى الحال أمرنا بالنار أن تشتغل بها وتشتعل ، وبالهدم أن ينقل عنها معاوله وينتقل ، « فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ »[1] ، أو تنظر إلّا طلولا على عروشها خاوية ، وعِراصا من سكانها خالية ، قد بقيت عبرة للعابر ، وذكرى للذاكر ، وموعظة سارةِ المسلم مرغمة للكافر » .

« ثم عدنا بقية يوم السبت إلى الملك ، خذله الله تعالى ، راجين أن يحمله الشكل على الإقدام ، ويخرجه حر النّار إلى مقام الانتقام ، فإذا شيطانه قد نصحه ، وقَتْل أصحابه قد جرحه ؛ فبِتْنا عليه والألسنة بفراره تعيّره ، واسبتاره يقرعه ويقرّره » .

« وأصبحنا يوم الأحد ثانى شهر ربيع الآخر والكسبُ قد أثقل المقاتلة ، ونصرُ الله قد بلغ الغاية المستأصلة ، ورحلنا والسّلامة لصغير عسكرنا وكبيره شاملة ، والعدو قد غُزى فى عُقره وعُقر ، وأذل فى دار ملكه واحتقر . ووصلنا إلى مستقر سلطاننا فى يوم الاثنين الحادى عشر من الشهر المذكور ، فاستقبلنا من مولانا ، صلوات الله عليه ، وتشريفه واستقبال ركابه ، ومشافهتنا بمقبول دعائه الشريف ومجابه ، ماعظمت به النعم وجلّت ، وزالت به وعثاء الطريق وتجلّت ، وجادتّها سماء إنعامه التى لم تزل تجودنا واستهلت » .

قلت ومن قصيدة لعمارة فى مدح صلاح الدّين أولها[2] :

* فؤاد بنار الشوق والوجد محرق *

يقول فيها :

لعل بنى أيّوب إن علموا بما ... تظلّمت منه أن يرّقوا ويشفقوا
غزوا عُقر دار المشركين بغزّة ... جهاراً ، وطرف الشرك خزيان مطرق

(١) سورة الحاقة : آية : ٨ .
(٢) انظر النكت العصرية : ٢٩٩ ـ ٣٠٠ .

وزاروا مصلّى عسقلان بأرعن يفيض إناء البر منـــه ويفهق
وكانت على ماشاهد الناس قبلكم طرائق من شوك القنا ليس تُطرق
وما عصمتهم منك إلّا معاقل تأنّوا على تحصينهـــا وتأنقوا
جلبت لهم من سَورة الحرب ماالتقى وآدُرُه سور عليهم وخنــدق
وأخربت من أعمالهم كل عامر يمر به طيف الخيــال فيفرق
أضفت إلى أجر الجهاد زيارة الـ خَليل ، فأبشر ، أنت غازٍ مُوفق
وهيجت للبيت المقــدّس لوعة يطول بها منـــه إليك التشوق
تنشق من ملقاك أعظم نفحـــة تطيب على قلب الهدى حين تنشق
وغزوك هــــذا سُلّم نحو فتحه قريبـــا ، وإلّا رائد ومطرّق
هو البيت، إن تفتحه ، والله فاعل ، فما بعـــده باب من الشام مغلق

ثم دخلت سنة سبع وستين [وخمسمائة]

واستفتحها صلاح الدين رحمه الله تعالى بإقامة الخطبة فى الجمعة الأولى منها بمصر لبنى العباس ، وفى الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة ، وانقطع (١٥٠ ب) ذكر خلفاء مصر . وتوفى العاضد يوم عاشـوراء بالقصر ، وانقضت تلك الدّولة بانتهاء ما دام لهــا من العصر .

وذكر العماد أيضا فى أخبار سنة اثنتين وسبعين ، كما سيأتى ، أنّ الذى خطب بمصر لبنى العباس أولا هو أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الحسين بن أبى المضاء البعلبكى ؛ وذكر ذلك أيضا ابن الدّبيثى فى تاريخه . وقد أشار إليه القاضى الفاضل فى كتاب له إلى وزير بغداد سيأتى ذكره .

قال ابن الأثير (١) : كان السبب فى ذلك أنّ صلاح الدين يوسف بن أيوب لمــا ثبتت قدمه فى مصر وزال المخالفون له وضعف أمر العاضد ، وهو الخليفة بها ، ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية

(١) فى الأتابكة : ٢٨٢ — ٢٨٤ ؛ وهو اقتباس حرفى .

و إقامة الخطبة العباسية . فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك ، لميلهم إلى العلويين ؛ فلم يصغ نور الدين إلى قوله ، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاما لا فسحة له فيه .

واتفق أن العاضد مرض ، وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له ، فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية ؛ فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف ذلك إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين . وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمى يعرف بالأمير العالم ، وقد رأيناه بالموصل كثيرا ، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال : أنا أبتدئ بها . فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضىء بأمر الله ، فلم ينكر أحد ذلك عليه ؛ فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضىء بأمر الله ، ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان ؛ وكتب بذلك إلى سائر الدّيار المصرّية .

وكان العاضد قد اشتد مرضه ، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا ، إن سلم فهو يعلم وإن تُوفّى فلا ينبغى أن نُنغّص عليه هذه الأيام التى قد بقيت من أجله ؛ فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم .

قال [1] : ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وعلى جميع ما فيه . وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش ، وهو خصىٌّ ، لحفظه ، وجعله كأستاذ دار [2] العاضد ؛ فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ، ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد ، ووكل لحفظهم ، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم فى الإيوان فى القصر ، وجعل عندهم من يحفظهم ، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والإماء ، فأعتق البعض

(١) ابن الأثير فى الأتابكة ؛ وهو استمرار للاقتباس السابق .

(٢) أو أستادار : وهو من يتولى شئون مسكن السلطان أو الأمير . صبح الأعشى : ٤ : ٢٠ ، ٥ : ٤٥٧ .

ووهب البعض وباع البعض ،وأخلى القصر من أهله وسكانه ؛ فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره مر الأيام وتعاقب الدهور .

قال : ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين ، فظن أن ذلك خديعة ، فلم يمض إليه ، فلما توفى علم (١٥١ ا) صدقه فندم على تخلفه عنه .

قلت : أخبرنى الأمير أبو الفتوح بن العاضد ، وقد اجتمعت به سنة ثمان وعشرين وستمائة[1] وهو محبوس مقيد بقلعة الجبل بمصر ، أن أباه فى مرضه استدعى صلاح الدين فحضر ، قال وأحضرنا ، يعنى أولاده وهم جماعة صغار ، فأوصاه بنا ، فالتزم إكرامنا واحترامنا ، رحمه الله . وأما ندمُ صلاح الدين ، فبلغنى أنه كان على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض ، وقال : لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها إلى أن يموت .

قال العماد : وجلس السلطان للعزاء ، وأغرب فى الحزن والبكاء ، و بلغ الغاية فى إجمال أمره ؛ والتوديع له إلى قبره ؛ ثم تسلم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه . وكان مذ نافق مؤتمنُ الخلافة وقتل ، صُرِف مَنْ هو زمام القصر وعُزل ، ووكل بهاء الدين قراقوش بالقصر وجعله زمامه ، واستنابه مقام نفسه وأقامه ؛ فما دخل إلى القصر شىء ولا خرج إلا بمرأى منه ومسمع ، ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع . فلما توفى العاضد بطلت تلك القواعد ، ووهت المقاعد ، وأمر السلطان بالاحتياط على أهله وأولاده فى موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد ، وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والأزواد .

قلت : أخبرنى أبو الفتوح أنه جعلهم فى دار برجوان[2] فى الحارة المنسوبة

(١) وكان أبو شامة قد سافر إلى مصر لزيارتها والاتصال بعلمائها ، وفى هذه الزيارة نجده خرج من دمشق آخر ربيع الثانى سنة ٦٢٧ ، فوصل دمياط فى جمادى الأولى ، ودخل القاهرة والفسطاط فى جمادى الثانية ، والاسكندرية فى ذى الحجة ، ثم عاد إلى دمشق فى ربيع الثانى سنة ٦٢٨ . انظر الذيل على الروضتين .

(٢) وزير الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وقد قتل سنة ٣٩٠ . وقد اشتهر برجوان بالبذخ والترف ، وهما ظاهرتان من ظواهر العصر الفاطمى فى أوجه وعزه ؛ وبلغ من ترف برجوان أنه وجد فى خزائنه عند مقتله ألف سروال دبيقى وعدد ضخم من الآلات الموسيقية والطرف المختلفة . انظر « الفاطميون فى مصر » وانظر كذلك : « المواعظ والاعتبار » .

إليه بالقاهرة ، وهى دار كبيرة واسعة ، كان عيشهم فيها طيبا ؛ ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها ، وأبعدوا عنها .

قال العماد : وهم إلى اليوم فى حفظ قراقوش واحتياطه واستظهاره ، يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه فى ليله ونهاره ؛ وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم من القصر فى إيوان ، واحترز عليهم فى ذلك المكان بكل إمكان ، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا ، وهم إلى الآن محصورون محسورون لم يظهروا ، وقد نقص عددهم ، وقلص مددهم . ثم عرض من بالقصر من الجوارى والعبيد ، والعدّة والعديد ، والطّريف والتليد ، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهن ، وجمع الباقيات فوهبهنّ وفرقهن ؛ وأخلى دوره ، وأغلق قصوره ، وسلّط جوده على الموجود ، وأبطل الوزن والعدّ عن الموزون والمعدود ، وأخذ كل ما صلح له ولأهله وأمرائه ، ولخواص مماليكه وأوليائه [1] ، من أخاير الذخائر ، وزواهر الجواهر ، ونفائس الملابس ، ومحاسن العرائس ، وقلائد الفرائد ، والدرّة اليتيمة ، والياقوتة العالية الغالية القيمة ، والمصوغات التّبريّة ، والمصنوعات العنبرية ، والأوانى الفضيّة ، والصوانى الصينيّة ، والمنسوجات المغربيّة ، والممزوجات الذهبيّة ، والمحوكات النّصاريّة ، والكرائم واليتائم ، والعُود والتمائم ، والعقود والنقود ، والمنظوم والمنضود ، والمحلول والمشدود ، والمنعوت والمنحوت ، والدرّ والياقوت ، والحلى (١٥١ ب) والوشى ، والعبير والحبير ، والوثير والنثير ، والعينىّ واللّجينى ، والبسط والفرش ، وما لا يعدّ إحصاء ، ولا يحد استقصاء ؛ فوقع فيها الفناء ، وكشف عنها الغطاء ، وأسرف فيها العطاء ؛ وأطلق البيع بعد ذلك فى كل حدث وعتيق ، ولبيس وسحيق ، وبال وأسمال ، ورخيص وغال ، وكل منقول ومحمول ، ومصوغ ومعمول . واستمر البيع فيها مدّة عشر سنين ، وتنقلت إلى البلاد بأيدى المسافرين الواردين والصادرين .

ونقلت من ديوان العماد بخطه قال : ولما وصل خبر موت العاضد الذى كان بمصر فى القصر ، موسوماً بالأمر ، فى ليلة عاشوراء سنة سبع وستّين ، بعد الخطبة بها للمستضىء بالله أمير المؤمنين ، عملت هذه الأبيات . فذكر قصيدة منها :

(١) فى الأصل : كل ما صلح له ولأهله ، والخواص وأمرائه ، مماليكه وأوليائه . والمثبت هنا من ل ١٥٣ ا .

توفى العاضد الدّعىّ ، فما يفتح ذو بدعةٍ بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى ، وغَدا يوسُفُها فى الأمور محتكما
وانطفأت جمرة الغواة ، وقد باح من الشرك كل ما اضطرما
وصار شمل الصلاح ملتئما بها ، وعِقد السداد منتظما
لما غدا معلنا شعار بنى الْ عبّاس حقا ، والباطل اكتتما
و بات داعى التوحيد منتصرا ومِنْ دُعاة الإشراك منتقما
وظلّ أهل الضلال فى ظلل داجية من غَيابةٍ وعمى
وَارتبك الجاهلون فى ظلمٍ لما أضاءت منابر العُلما
وعاد بالمستضىء مجتهدا بناء حق قد كان منهدما
واعتلت الدولة التى اضطهدت وانتصر الدين بعدما اهتُضما
واهتز عِطف الإسلام من جذل وافترّ ثغر الإيمان وابتسما
واستبشرت أوجه الهدى فرحا فليقرع الكفرُ سِنّهُ ندما
عاد حريم الأعداء منتهك الْ حمى ، وفىء الطغاة مقتسَما
قصور أهل القصور أخربها عامر بيت من الكمال سما
أزعج بعد السكون ساكنها ومات ذلا وأنفه رُغما

ومن كتابٍ فاضلىّ عن السلطان صلاح الدين إلى وزير بغداد على يد الخطيب شمس الدين بن أبى المضاء فى بعض السنين : (١) « كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع ، وعلم الجهاد مرفوع ، وسؤدد السواد متبوع ، (٢) وحكم السداد بين الأمة موضوع ، وسبب الفساد مقطوع ممنوع . وقد توالت الفتوح غربا ويمنًا وشآما ؛ وصارت البلاد بل الدنيا ، والشهر بل الدهر ، حرماً حراما ، وأضحى (٣) الدين واحدا بعد ما كان أديانا ؛ والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها [إلا] (٤)

(١) وهو الكتاب الذى سبقت الإشارة إليه فى أول الحديث عن حوادث هذه السنة . انظر ما تقدم ص : ٤٩٢ .
(٢) يقصد بالسواد شعار العباسيين .
(٣) فى ل ١٥٣ ب : فأضحى .
(٤) ما بين الحاصرتين من ل ١٥٣ ب .

صُمًّا وعُميانا ؛ والبدعة خاشعة ، والجمعة جامعة ، والمذلة فى شيع الضلال شائعة ؛ ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء ، وسموا أعداء الله أصفياء ، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا ، وفرقوا أمر الأمــة وكان مجتمعا ، وكذبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف ، ونثرت أقلام الظُّبا حروف رءوسهم نثر الأقلام للحروف ،(١٥٢أ) ومزقوا كل ممزق وأخذوا منهم كل مخنق ، وقطع دابرهم ، ووعظ آيبهم غابرهم ،ورغمت أنوفهم ومنابرهم ،وحقت عليهم الكلمة تشريدا وقتلا ، وتَمَّتْ كلِماتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ؛ وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم ، ولا الليل عن سير إليهم بنائم . ولا خفاء عن المجلس الصاحبىّ أن من شد عقد خلافة وحلّ عقد خلاف ، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاف والأسلاف ، فإنه مفتقر إلى أن يُشكر ما نصح ، ويُقَلَّد ما فتح ، ويبلَّغ ما اقترح ، ويقدَّم حقه ولا يطَّرح ، ويقرب مكانه وإن نزح ، وتأتيه التشريفات الشّريفة ، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة ، وتُلَبّى دعوته بما أقام من دعوة ، وتوصل عروته بما وصل من غزوة ، وترفع دونه الحجب المعترضة ، وترسل إليه السحب المروضة ، فكل ذلك تعود عوائده ، وتبدو فوائده ، بالدولة التى كشف وجهه لنصرها ، وجرد سيفه لرفع منارها ، والقيام بأمرها . وقد أتى البيوت من أبوابها ،وطلب النّجعة من سحابها، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها ، وأنهض لإيصال ملطفاته وتنجيز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر ، وهو الذى اختاره لصعود درجة المنبر ، وقام بالأمر قيام من برّ ، واستفتح بلباس السواد الأعظم ، الذى جمع الله عليه السواد الأعظم ،أملا أنه يعود إليه بما يطوى الرجاء فضل عقبه، ويخلد الشرف فى عقبه» .

ولصاحبنا مجد الدين محمد بن الظهير الإربلى (١) من قصيدة فى مدح بعض ذرية السلطان رحمه الله تعالى :

مليك من القوم الذين رماحهم ... دعائم هــذا الدين فى كل مشهد
هم نصروا التوحيد نصرا مؤزرا ... به عزّ فى الآفاق كلّ موحــد
وهم قهروا غُلب الفرنج ببأسهم ... فدانوا لهم بالرغم لا عَنْ تودُّد

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر الحنفى ، عاش بين سنتى ٦٠٢ ـ ٦٧٧ ، وهو من مواليد اربل ، وتتلمذ ، مثل أبى شامة ، على الشيخ علم الدين السخاوى ، ودرس بالمدرسة القيمازية لمنشئها صارم الدين قايماز النجمى المتوفى سنة ٥٩٦ . انظر شذرات الذهب : ٥ : ٣٥٩ ؛ وكذلك الدارس فى تاريخ المدارس : ١ : ٥٧٢ ـ ٥٧٣ .

ورِدوا إلى البيت المقدّس نُوره ... وقد كان فى ليلٍ من الشّرك أسود

وهم سهلوا سبـل الحجيج وآمنوا ... بها الركبَ خوفَ الـكافر المتشدّد

وقــد ركبت فرسانه بحر أيلةٍ ... يخوضون فى بحر من الـكيد مُزبِد

وهم رجعوا مِصراً إلى دعوة الهدى ... بعزمٍ ورأيٍ فى العظائم محصد

وهم شيّدوا ركن الخلافة بالّذى ... أعادوه من حقّ طريفٍ ومتـالد

وهم شرفوا قــدر المنابر باسمها ... وذكرٍ منوطٍ بالرسول محمد (١)

وهم وهبوا عزّ الممالك ، واكتفوا ... بسُمر العوالى والعــلاء المشيد

فَسَلْ عن ظُباهم يوم «حطين» كم مَضت ... بمرّ مراد الله فى كل أصْيــد

وضَعِّفْ حديث العدل والبأس والنّدى ... إذا كان عنْ أيامهم غيرَ مُسند

وقال ابن أبى طىّ الحلبى : قد قدمنا ذكر مكاتبة نور الدّين رحمه الله وإلحاحه على صلاح الدّين فى إقامة الخطبة بمصر للعباسيين وأنه أنفذ إليـه أباه الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد إلى نور الدين فى ذلك . ولـما ولى ابنه المستضىء أقبل أيضا (١٥٢ ب) على مكاتبة نور الدين فيـه ، وألح نور الدين على صلاح الدين فى طلبه ، وأفضى به الأمر إلى أنه اتهم صلاح الدين وشنع عليـه بسببه ، وأكثر القول فى ذلك .

ولما قدم الأمير نجم الدّين حداه على فعل ذلك فاعتذر إليه بأن أحواله لم تستقر بعد، وأموره مضطربة ، وأعداؤه كثيرون ، وأن المصريين لهم جماعة كبيرة متفرقة فى بلاد مصر من السودان وغيرهم ، وأن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التـدريج وإلّا فسدت أحواله . فلما أوقع السلطان الملك الناصر بالسّودان والأرمن ونـكث أمر المصريين وقطع أخبارهم ، وترك أجناده فى دورهم ، ثم قطع إقطاع العاضد وقبض جميع ما كان بيده من البـلاد ، واستولى على القصور ووكل بها وبمن فيها قراقوش الخادم ، خلت له بلاد مصر من معاند ومنابذ ؛ ثم شرع وأبطل من الأذان « حىّ على خـير العمل » ، وأنـكر على من يتّسم بمذهبهم الانتساب إليهم . فلمّا رأى أموره مواتية ، وأعداءه قليلين (٢) شرع حينئذ فى الخطبة

---

(١) فى الأصل : بمجد ، وفوقها : محمد .
(٢) فى الأصل : وأعداؤه قليلون .

لبنى العبّاس. ولمّا عول على ذلك أمر والده الأمير نجم الدّين بالنزول إلى الجامع فى جماعة من أصحابه وأمراء دولته ، وذلك فى أول جمعـة من السّنة ، وأمره أن يُحضر الخطيب إليهّ ويأمره بما يختاره . وإنما فعل الملك النّاصر ذلك ووكل الأمر إلى غيره استظهارا وخوفا من فادحة ربما طرأت ، أوعدوّ ربما ثار ، فيـكون هو معتذرا من ذلك .

ولمّا حصل نجم الدّين بالجامع أحضر الخطيب وقال [له] (١) : إن ذكرت هـذا المقيم بالقصر ضربت عنقك . فقال فلمن أخطب ؟ قال : للمستضىء العبّاسى . فلمّا صعد المنبر وخطب ووصل إلى ذكر العاضد لم يذكر أحداً لـكنّه دعا للأئمة المهديّين وللسّلطان الملك النّاصر ، ونزل ، فقيل له فى ذلك فقال : ما علمت اسم المستضىء ولا نعوته ، ولا تقرّر معى فى ذلك شىء قبل الجمعة ، وفى الجمعة الثانية أفعل إن شاء الله ما يجب فعله فى تحرير الاسم والألقاب على جارى العادة فى مثل ذلك .

قال : وقيل إنّ العاضد لمّا اتّصل به ما فُعل من قطع اسمه من الخطبة قال لمن خُطب ؟ قيل له لم يُخطب لأحد مسمّى . قال : فى الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مسمّى . واتّفق أنه مات قبل الجمعة الثانية . قيل إنه أفـكروا ستولى عليه الفـكر والهم حتى مات. وقيل إنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتم وقام ليدخل إلى داره فعثر وسقط ، فأقام متعلّلا خمسة أيام ومات . وقيل إنه امتصّ فصّ خاتمه ، وكان تحته سمّ ، فمات .

ولمّا اتّصل موته بالملك الناصر قال : لو علمنا أنه يموت فى هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة . فحُـكى أن القاضى الفاضل قال للسّلطان : لو علم أنـّكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت ؛ أشار إلى أن العاضد قتل نفسه . وكان موته يوم عاشوراء .

قال : وحكى ابن المارستانى فى سيرة ابن هبيرة الوزير (٢) قال : إن من عجيب ماجرى

---

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٥٤ ب .

(٢) وهو أبو الحسن أمين الدولة هبة الله بن صاعد البغدادى ، وبعد وزارته أصبح يعرف بأبى المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة ، وقد وضع له نسب خاص بعد أن تولى الوزارة . تفقه على مذهب أحمد بن حنبل وسمع الحديث ، وقرأ القرآن بقراءاته المختلفة ، وله كتب فى الحديث والنحو واللغة والمنطق والعبادات . تولى الوزارة للمقتفى حتى توفى سنة ٥٥٥ ، ثم للمستنجد حتى سنة ٥٦٠ . انظر الفخرى ، وكذلك وفيات الأعيان : ٢ : ٣٢٦ ـ ٣٣٣ .

فى أمر المصريين أن رأى إنسان من (١٥٣ ا) أهل بغـداد[١] فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، كأن قمرين أحدهما أنور من الآخر ، والأنور منهما مُسامت للقبلة وله لحية سوداء فيها طول ، ويهبّ أدنى نسيم فيحركها، وأثر حركتها وظلها فى الأرض ؛ وكان الرجل يتعجب من ذلك وكأنه سمع أصوات جماعة يقرءون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها ، وكأنه سأل بعض من حضر فقال ما هـذا ، فقالوا قد استبدل النّاس بإمامهم . قال وكان الرجل استَقْبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً برًّا تقيًّا ، واستيقظ الرّجل . و بلغ هذا المنـام ابن هبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد ، فعبر المنام بأنّ الإمام الذى بمصر يستبدل به وتـكون الدعوة لبنى العباس لمكان اللّحية السّوداء ، وقوى هذا عنده حتّى كاتَبَ نورالدين حين دخل أسد الدّين إلى مصر فى أوّل مرة بأنه يظفر بمصر وتـكون الخطبـة لبنى العباس بها على يده .

وقيلت فى ذلك الزّمان أشعار فى هذا ، منها قصيدة شمس المعالى أبى الفضائل الحسين ابن محمد بن تركان ، وكان صاحب[٢] ابن هبيرة ، قالها حين سمع تأويله المنام[٣] :

لتَهنك يامولى الأنام بشـــارة ... بها سيف دين الله بالحقّ مرهف
ضربت بها هام الأعادى بهمّـة ... تقـاصر عنهـا السمهرى المثقف
بعثت إلى شرق البـلاد وغربها ... بعوثا من الآراء تحيى وتتلف
فقامت مقام السيف والسيف قاطر ... ونابت مناب الرمح والرمح يرعف
وقُدت لها جيشا من الروع هائلا ... إلى كل قلب من عداتك يزحف
ملـكت به أقصى المغارب عنوة ... وكادت بمن فيها المشارق ترجف

(١) فى الأصل هنا تعليق بالهامش نصه : « حاشية . قال المؤلف : رأيت فى السيرة المذكورة أن الذى رأى هذا المنام هو الفقيه الزاهد أبو محمد عفيف بن المبارك بن محمود الأحمدى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة. والله أعلم » .

(٢) فى ل ١٥٥ ا : حاجب .

(٣) فى مقابل هذا بهامش الأصل تعليق نصه : « حاشية . قال المؤلف : أول هذه القصيدة :

لعل حداة الركب أن يتوقفوا ... ليشفى غليـلا بالمدامع مدنف

وبعد قوله : فشابهته . . . . :

كشفت بها عن آل هاشم سبة ... وعاراً أبى إلا بسيفك يكشف

ليهنـــك يامولاى فتحا تتابعت إليك به حوص الركائب توجف
أخذت به مصرا وقد حال دونها من الشرك ناس فى لهى الحق تقذف
وقد دنّست منهـا المنابر عصبة يعاف التّقى والدّين منهم و يأنف
فطهّرها من كل شرك و بدعة أغرّ غرير بالمـكارم يشغف
فعادت بحمـــد الله باسم إمامنا تتيه على كل البـــلاد وتشرف
ولاغرْو أن دانت ليوسف مصره وكانت إلى عليائه تتشوّف
تملـكها من قبضة الـكفر يوسف وخلصها من عصبة الرفض يوسف

قال يحيى بن أبى طىّ : يريد بيوسف الأول يوسف الصّديق النّبى صلى الله عليه وسلّم ، و بيوسف الثانى المستنجد بالله الخليفة يومئذ ، وقاله على سبيل الفأل ؛ ألا تراه قال بعد هذا البيت :

فشابهـــــه خلقـا وخلقـا وعفة وكل عن الرّحمن فى الأرض يخلف

وجرى الفأل فى البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبنى العباس ، وهذا من عجيب الاتفاق .

قلت : وذكر ابن المارستانى فى السيرة المذكورة (قال) [1] : وكان هذا المنام سببا إلى أن كاتب الوزيرُ ابن هبيرة نورَ الدين بن زنـكى يحثه على التعرض لمصر والبعث إليها؛ واتفق فى أثناء ذلك (١٥٣ ب) نوبة شاور وزير صاحب القصر وقدومه هاربا منه إلى نور الدين ، فحرك ذلك ما كان تخمر فى نفسه ممـا كان كاتبه به ابن هبيرة ، فاستطلع من شاور الأسباب التى يمكن بها الدخول على المصريين[2] ، فشرحها وأوضحها ، فسير إليها أسد الدين ، كما سبق ذكره .

قال : ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الاسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم ، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم ، وإذا وجد أحد من الأتراك مصريا [3] أخذ ثيابه ، وعظمت الأذية بذلك ؛ وجلا أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد ، وفرح الناس بذلك ، وكتبت الـكتب به إلى الأقطار وتحدث به السّمار .

(١) ساقطة من نسخة ل ١٥٥ ا .
(٢) يعنى الفاطميين .
(٣) أى اسماعيليا فاطميا .

ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالى المطهّر بن أبى عصرون ، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها يقول فيها : « أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه ، وأوضح لنا منهاجه ، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية ، بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية والإسكندرية ، ومصر والقاهرة ، وسائر الأطراف الدانية والقاصية والبادية والحاضرة ؛ وانتهت إلى القريب والبعيد ، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد ؛ وهذا شرف لزماننا هذا وأهله ، نفتخر به على الأزمنة التى مضت من قبله . وما برحت هممنا إلى مصر مصروفة ، وعلى افتتاحها موقوفة ، وعزائمنا فى إقامة الدعوة الهادية بها ماضية ، والأقدار فى الأزل بقضاء آرائنا و إنجاز مواعدنا قاضية ، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها ، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها . وطالما مرت عليها الحقب الخوالى ، وآبت دونها الأيام والليالى ، وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوّة بدعوة المبطلين ، مملوّة بحزب الشياطين ، سابغة ظلالها للضلال ، مقفرة المحل إلا من المحال ، مفتقرة إلى نصرة من الله تملكها ، ونظرة ستدركها ، رافعة يدها فى أشكائها ، متظلمة إليه ليتكفل بإعدائها على أعدائها ، حتى أذن الله لغمّتها بالانفراج ، ولعلّتها بالعلاج ؛ وسبّب قصد الفرنج لها ، وتوجّههم إليها طمعا فى الاستيلاء عليها . واجتمع داءان : الكفر والبدعة ، وكلاهما شديد الروعة ، فملكنا الله تلك البلاد ، ومكّن لنا فى الأرض ، وأقدرنا على ما كنا نؤمّله فى إزالة الإلحاد والرفض ، ومن إقامة الفرض ، وتقدّمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة ، ويستنجح مالنا من الإرادة ، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك ، ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك » .

وهو كتاب طويل اختصرت منه الغرض وهو هذا .

قال : وسار شهاب الدين بن أبى عصرون إلى جهة بغداد ولم يترك مدينة إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر ، وقرأ فيها هذا (١١٥٤) المنشور العظيم الخطر والذكر ، حتى وصل إلى بغداد ، فخرج الموكبُ إلى تلقيه وجميعُ أهل بغداد ، مكرمين لخطير وروده ، معظمين لجليل موروده . ونثرت عليه دنانير الإنعام ، وحُبى بكل إحسان وإكرام ، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين ، كما سيأتى ذكره .

وقال العماد : كان صلاح الدين لا يخرج عن أمر نور الدين ، و يعمل له عمل القوى الأمين ، و يرجع فى جميع مصالحه إلى رأيه المتين . وقد كان كاتبه نور الدين فى شوال سنة ست وستين بتغيير الخطبة ، وتذليل أمورها (هذه) (١) الصعبة ، وافتراع بكر هذه القصبة ، وفرع الرتبة ؛ وأيقن أن أمره متبوع ، وقوله مسموع ، وحكمه مشروع ، ونطقت بذلك قبل التمام ، ألسُن الخواص والعوام ، فسيَّر نورُ الدين شهابَ الدين أبا المعالى المطهر ، ابن الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون ، بهذه البشارة ، و إشاعة ما تقدم له بها من الإشاعة ، وأمرنى بإنشاء بشارة عامة تقرأ فى سائر بلاد الإسلام ، وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الإمام ، فى مدينة السلام ـ ثم ذكر نسخة الكتابين .

ثم قال : ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها :

قد خطبنا للمستضىء بمصرِ نائب المصطفى إمام العصر
وخذلنا لنُصْرةِ العضدِ العا ضدَ والقاصرَ الذى بالقصر

أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء (٢) .

قال العماد فى كتاب الخريدة : قصدت بالعضد والعاضد المجانسة ، ونصرة وزير الخليفة كنصرته . ثم قال :

وأشَعْنا بها شعار بنى العبّ (م) اس ، فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدّعى يدعو ثبورا وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخط بة للهاشمى فى أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم اللّ ه ، وجلّت عن كل عدٍّ وحصر

(١) ساقطة من ل ١٥٦ أ .

(٢) أبو الفرج عضد الدين محمد بن أبى الفتوح عبد الله بن رئيس الرؤساء الذى كان من قبل أستاذ الدار أيام المستنجد . وبعد وفاة المستنجد استولى عضد الدين على الوزارة وأخرج المستضىء من حبسه وأخذ البيعة له ؛ وقد عزله المستضىء وسجنه ، ثم أعاده إلى الوزارة . وفى أواخر أيامه كان فى طريق الحج فتقدم منه شخص ، وصاح : مظلوم ، ثم مد يده بشىء فظن عضد الدين أنه يتقدم بظلامة ، ولكنه لم يلبث أن تلقى طعنة بسكين كانت بيد هذا المتظلم ، وعاونه فى هذا الهجوم آخران ، وقيل : إنهم جميعاً كانوا من الباطنية ، فقتل عضد الدين . انظر الفخرى ٢٥٧ ـ ٢٥٩ ، وانظر كذلك النجوم الزاهرة : ٦ : ٨١ ـ ٨٢ .

ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالى المطهّر بن أبي عصرون ، وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمر بها يقول فيها :

« أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه ، وأوضح لنا منهاجه ، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية ، بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية والإسكندرية ، ومصر والقاهرة ، وسائر الأطراف الدانية والقاصية والبادية والحاضرة ؛ وانتهت إلى القريب والبعيد ، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد ؛ وهذا شرف لزماننا هـذا وأهله ، نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله . وما برحت هممنا إلى مصر مصروفة ، وعلى افتتاحها موقوفة ، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية ، والأقدار في الأزل بقضاء آرائنا وإنجاز مواعدنا قاضية ، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها ، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها . وطالما مرت عليها الحقب الخوالى ، وآبت دونها الأيام والليالى ، وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوّة بدعوة المبطلين ، مملوّة بحزب الشياطين ، سابغة ظلالها للضلال ، مقفرة المحل إلا من المحال ، مفتقرة إلى نصرة من الله تملكها ، ونظرة ستدركها ، رافعة يدها فى أشكائها ، متظلمة إليه ليتكفل بإعدائها على أعدائها ، حتى أذن الله لغمّتها بالانفراج ، ولعلتها بالعلاج ؛ وسبّب قصد الفرنج لها ، وتوجّههم إليها طمعا فى الاستيلاء عليها . واجتمع داءان : الكفر والبدعة ، وكلاهما شديد الروعة ، فملكنا الله تلك البلاد ، ومكّن لنا فى الأرض ، وأقدرنا على ما كنا نؤمّله فى إزالة الإلحاد والرفض ، ومن إقامة الفرض ، وتقدّمنا إلى من استنبناه أن يستفتح باب السعادة ، ويستنجح مالنا من الإرادة ، ويقيم الدعوة الهادية العباسية هنالك ، ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك » .

وهو كتاب طويل اختصرت منه الغرض وهو هذا .

قال : وسار شهاب الدين بن أبي عصرون إلى جهة بغداد ولم يترك مدينة إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر ، وقرأ فيها هذا (١٥٤ ا) المنشور العظيم الخطر والذكر ، حتى وصل إلى بغداد ، فخرج الموكبُ إلى تلقيه وجميعُ أهل بغداد ، مكرمين لخطير وروده ، معظمين لجليل مورروده . ونثرت عليه دنانير الإنعام ، وحُبى بكل إحسان وإكرام ، وأرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين ، كما سيأتى ذكره .

وقال العماد : كان صلاح الدين لا يخرج عن أمر نور الدين ، ويعمل له عمل القوى الأمين ، ويرجع فى جميع مصالحه إلى رأيه المتين . وقد كان كاتبه نور الدين فى شوال سنة ست وستين بتغيير الخطبة ، وتذليل أمورها (هذه) (١) الصعبة ، وافتراع بكر هذه القصبة ، وفرع الرتبة ؛ وأيقن أن أمره متبوع ، وقوله مسموع ، وحكمه مشروع ، ونطقت بذلك قبل التمام ، ألسُن الخواص والعوام ، فسيَّر نورُ الدين شهابَ الدين أبا المعالى المطهر ، ابن الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون ، بهذه البشارة ، وإشاعة ما تقدم له بها من الإشاعة ، وأمرنى بإنشاء بشارة عامة تقرأ فى سائر بلاد الإسلام ، وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الإمام ، فى مدينة السلام — ثم ذكر نسخة الكتابين .

ثم قال : ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها :

قد خطبنا للمستضىء بمصرِ نائب المصطفى إمام العصر
وخذلنا لنُصْرةِ العضدِ العا ضدَ والقاصرَ الذى بالقصر

أراد بالعضد وزير بغداد عضد الدين بن رئيس الرؤساء (٢) .

قال العماد فى كتاب الخريدة : قصدت بالعضد والعاضد المجانسة ، ونصرة وزير الخليفة كنصرته . ثم قال :

وأشَعْنا بها شعار بنى العبّ (م) اس ، فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدّعى يدعو ثبورا وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخط بة للهاشمى فى أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم اللّ ه ، وجلّت عن كل عدٍّ وحصر

(١) ساقطة من ل ١٥٦ أ .

(٢) أبو الفرج عضد الدين محمد بن أبى الفتوح عبد الله بن رئيس الرؤساء الذى كان من قبل أستاذ الدار أيام المستنجد . وبعد وفاة المستنجد استولى عضد الدين على الوزارة وأخرج المستضىء من حبسه وأخذ البيعة له ؛ وقد عزله المستضىء وسجنه ، ثم أعاده إلى الوزارة . وفى أواخر أيامه كان فى طريق الحج فتقدم منه شخص ، وصاح : مظلوم ، ثم مد يده بشىء فظن عضد الدين أنه يتقدم بظلامة، ولكنه لم يلبث أن تلقى طعنة بسكين كانت بيد هذا المتظلم ، وعاونه فى هذا الهجوم آخران ، وقيل : إنهم جميعاً كانوا من الباطنية ، فقتل عضد الدين . انظر الفخرى ٢٥٧ — ٢٥٩ ، وانظر كذلك النجوم الزاهرة : ٦ : ٨١ — ٨٢ .

فاغتدى الدين ثابت الرّكن فى مصـ ــر ، محوط الحمى ، مصون الثغر
واستنارت عزائم الملك العــا دل نور الدين الكريم الأغر
وبنو الأصفر القوامص منه بوجوه من المخافة صُفر
عرف الحقّ أهل مصر ، وكانوا قبله بين منكر ومقرّ
قل لداعى الدعىّ : حسبك ، فالله أقرّ الحقوق خير مقرّ
هو فتح بكر ، [و][1] دون البرايا خصنا الله بافتراع البكر
وحصلنا بالحمد ، والأجر ، والنصـ ــر ، وطيب الثنا ، وحسن الذكر
ونشرنا أعلامنا السود قهرا للعدا الزّرْق بالمنايا الحمر
واستعدنا من أدعياء حقوقا تدّعى بينهم لزيد وعَمْرو
والذى يدعى الإمامة بالقا هرة انحطّ فى حضيض القهر
(١٥٤ب) خانه الدهر فى مناه ، ولا يطـ ــمع ذو اللب فى وفاء الدهر
ما يقام الإمام إلا بحق ما تحاز الحسناء إلا بمهر
خلفاء الهدى سراة بنى العباس والطيبون أهل الطهر
بهمُ الدين ظافر ، مستقيم ظاهر قوة ، قوى الظهر
كشموس الضحى ، كمثل بدور التـ ــم ، كالسحب ، كالنجوم الزهر
قد بلغنا بالصبر كل مراد وبلوغ المراد عقبى الصبر
ليس مُثرى الرجال من مَلَكَ المـا ل ، ولكنما أخو اللب مثرى
ولهذا لم ينتفع صاحب القصـ ــر ، وقد شارف الدثور ، بدثر
دام نصر الهدى بملك بنى العبـ ــاس حتى يقوم يوم الحشر

قال العماد فى ديوانه ، ونقلته من خطه ، قال : ووصل الخبر [بأن الخطبة قامت] [2] فى الإسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان ، وفى مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشرى شهر رمضان لمولانا الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين ، و إقامة شعار بنى العباس بها.

---

(١) ساقطة من الأصل ، وكذلك من ل ١٥٦ أ ؛ ووجودها لازم لاستقامة الوزن .
(٢) أضيف ما بين الحاصرتين من ل ١٥٦ ب . وفى الأصل . وصل الخبر بالخطبة فى الإسكندرية .

فقلت ، ونحن نزول بجسر الخشب من دمشق فى عاشر شوال ، وكتبت بها إلى بغـداد ـ فذكر هذه القصيدة .

وقال فى البرق : ووصل من دار الخلافة فى جواب هذه البشارة عماد الدّين صندل (١) وهو من أكابر الخدم المقتفويّة ، من ذوى الروية والهمّة القوية . وتولى أستاذية الدار العزيزة بعد عزل كمال الدّين بن عضد الدين عنها ، فأكرم نور الدين بإرسال مثله إليه ، وعول فى هذا الأمر المهم عليه . وهو أكرم رسول وصل ، فأنجح الأمل، وجاء بالتشريف الشريف لنور الدين مكملا ، معظّما مجملا ، بأهبته السوداء العراقية ، وحلله الموشية ، وطوقه الثقيل ، ولوائه الجليل .

وعين يوم يحضر فيه الرسول ، ونصوا على من يحضر فى مجلس نور الدين وأغفلوا ذكر العماد ، فطلبه نور الدين لما حضروا ، وقام لقيام الرسل له لما حضر، وقصد أن يعرفهم منزلته عنده ، وناوله الكتاب ليقرأه . قال : فتناوله منى الموفق بن القيسرانى خالد ، وكان عنده فى مقام الوزير وله انبساط زائد ، فداريته وماريته ، وتركته يقرأ وأنا أرد عليه ، وأرشده فى التلاوة إلى ما لا يهتدى إليه ، حتى أنهاه ، وأنا على افتياته علىّ لا أنهاه . فأعجب نور الدين صمتى وسمتى ، وأحمد منى فضل التأنى والتأتى . واجتاب الأهبة ولبس الفرجية فوقها ، وتقلد مع تقلد السيفين طوقها ؛ وخرج وركب من داخل القلعة ، وهو حال بما عليه من الخلعة ؛ واللواء منشور ، والنضار منثور ، والمركبان الشريفان أحدهما مركوبه ، والآخر بحليته مجنوبه .

قال : وسألت عن معنى تقليده السيفين ، (١٥٥ ا) واشتماله بالنجادين ، فقيل لى هما للشام ومصر ، والجمع له بين البلادين .

وخرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى إلى منتهى الميـدان الأخضر ثم عاد شريف المفخر ، جميل المنظر ، جليل المحضر ، حميد المخبر ، سعيد المورد والمصدر ، لبيقاً بالأعظمين السرير والمنبر . وكان وزن الطوق مع أكرته ألف دينار من الذّهب الأحمر . وحملوا

---

(١) فى الأصل: سندل ، والمثبت هنا من ل ١٥٦ ب ، وهو كذلك فى النجوم الزاهرة : ٦ : ٦٤ ، ٧٦ ؛ واسمه هناك الحسن صندل ، وكان فى أواخر أيامه أستادار الخليفة المستضىء .

لصلاح الدين تشريفا فاضلا فائقاً ، رائعا رائقاً ، لجماله وكماله لائقاً ؛ لكن تشريف نور الدين أميز وأفضل ، وأجمل وأكمل ؛ فسير تشريفه برمّته إليه بمصر ليحتابه ، وسير أيضا بخلع من عنده يكرّم بها أصحابه . ووصلت تلك الخلعة إليه ولبسها ، وأنس من السعادة الدائمة قبسها ؛ وطاف بها في الحادى والعشرين من رجب . وهى أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية ؛ يعنى بعد استيلاء بنى عبيد عليها .

قال : وكانت وصلت مع الرسل أعلام وبنود ، ورايات سود ، وأُهَبٌ عباسية ، للخطباء في الديار المصرية ، فسُيّرت إلى صلاح الدين ففرقها على المساجد والجوامع والخطباء والقضاة والعلماء ؛ والحمد لله على ما أنعم وأولى ، ووهب وأعطى .

قال ابن أبى طىّ : ولما فرغ السلطان من أمر الخطبة أمر بالقبض على القُصور وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك ، فلم يوجد من المال كبير أمر ، لأن شاور كان قد ضيّعه في إعطائه الفرنج في المرات التى قدّمنا ذكرها ، ووجد فيها ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجواهر . ومن عجيب ما وجد فيه : قضيب زمرد طوله شبر وكسْر ، قطعة واحدة ، وكان سمت حجمه مقدار الإبهام ، ووجد فيه طبل للقولنج (١) ، ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المانع ، ووجد فيه سبعمائة يتيمة من الجوهر . فأما قضيب الزّمرد فإن السلطان أخذه وأحضر صانعاً ليقطعه ، فأبى الصّانع قطعه ، فرماه السلطان فانقطع ثلاث قطع ، وفرّقه السّلطان على نسائه . وأما طبل القولنج : فإنه وقع إلى بعض الأكراد فلم يَدْرِ ما هو فكسره ، لأنه ضرب به فحبق (٢) . وأما الإبريق فأنفذه السلطان إلى بغداد .

واحتاط السلطان على أهل العاضد وأولاده في موضع خارج القصر جعله برسمهم على الانفراد ، وقرر لهم ما يكفيهم ، وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم ، وفرّق بين النساء والرجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم . واستعرض من بالقصر من الجوارى والعبيد ، والعدّة والعديد ، والطّريف والتليد ، فأطلق مَنْ كان منهم حرّا ، وأعتق من رأى

---

(١) القولنج : مرض معوى يعسر معه خروج الثفل والريح . القاموس المحيط .

(٢) الحَبْق والحُباق : الضراط ، والفعل حَبَق يَحْبِق حَبْقاً وحِبقا وحُباقا . القاموس المحيط .

إعتاقه ، ووهب من أراد هبته . وفرق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيرا ، وحصل هو على اليتيمات (١٥٥ ب) وقطع البلخش والياقوت وقضيب الزمرد ، وأطلق البيع بعد ذلك فى كل جديد وعتيق ، فأقام البيع فى القصر مدة عشر سنين .

قال : ومن جملة ما باعوا: خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التى بالقاهرة فى القصر . ومن عجائبها : أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى ، ويقال إنها كانت تحتوى على ألفى ألف وستمائة ألف كتاب ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة[١] . وحصل للقاضى الفاضل قدر منها كبير حيث شغف بحبها ؛ وذلك أنه دخل إليها واعتبرها ، فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه فى بركة كانت هناك ، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التى ألقاها فى البركة على أنها مخرومات ثم جمعها بعد ذلك ، ومنها حصل ما حصل من الكتب ، كذا أخبرنى جماعة من المصريين منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد[٢] .

واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر ، وأعطى السلطان القصر الشمالى للأمراء فسكنوه وأسكن أباه نجم الدين فى اللؤلؤة[٣] ، وهو قصر عظيم على الخليج الذى فيه البستان الكافورى ؛ ونقل الملك العادل إلى مكان آخر منه ، وأخذ باقى الأمراء دور من كان ينتمى إليهم ، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحبها وسكنها . وانقضت تلك الدولة برمتها ، وذهبت تلك الأيام بجملتها ، بعد أن كانوا قد احتووا على البلاد ، واستخدموا العباد ، مائتين وثمانين سنة وكسورا .

قال : وحكى أن الشريف الجليس[٤] وهو رجل كان قريباً من العاضد يجلس معه ويحدثه ،

(١) فى ل ١٥٧ ب : شيئاً كبيرا ؛ وهو خطأ .

(٢) وفى مفرج الكروب : ١ : ٢٠٣ : « وكانت خزانة الكتب لهم تزيد على مائة وعشرين ألف مجلدة . . . فحمل من الكتب إلى الشام ثمانية أحمال ، وترك الباقى ، فبيع بعضه وأطلق البعض لمن يختص به » : وسيرد فى كلام العماد بعد قليل مايؤيد ماجاء فى مفرج الكروب .

(٣) منظرة اللؤلؤة أو قصر اللؤلؤة : من قصور الفاطميين ، يطل من شرقيه على البستان الكافورى الذى أنشأه محمد بن طغج الإخشيد ، واهتم به من بعده ولداه ثم عبده كافور الذى تولى أمور مصر بنفسه . المواعظ والاعتبار : ١ : ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٤٨٧ ؛ ٢ : ٤٢٧ .

(٤) القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحباب السعدى التميمى ، تولى ديوان الإنشاء للخليفة =

عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السلطان بعد القبض على القصور وأخذ ما فيها وانقراض دولتهم ، وغرم هـذا الشريف على هذه الدعوة مالا كثيراً ، وأحضرها أيضاً جماعة من أكابر الأمراء . فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدّولة لهـذا الشريف : حدّثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم . قال : نعم . طلبني العاضد يوماً وجماعة من النّدماء ، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم أقبية مثـل أقبيتكم وقلانس كقلانسكم وفى أوساطهم مناطق كمناطقكم ، فقلنا له : يا أمير المؤمنين ، ما هذا الزّىّ الذى ما رأيناه قط ؟ فقال : هـذه هيئة الذين يملكون ديارنا ويأخـذون أموالنا وذخائرنا .

قال العماد : وأخذت ذخائر القصر ، فقصها كما سبق . ثم قال : ومن جملتها الكتب فإنى أخذت منها جملة فى سنة اثنتين وسبعين ، وكانت خزائنها مشتملة على قريب (١١٥٦) مائة وعشرين ألف مجلدة ، مؤبدة من العهد القديم مخلدة ، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدى ، واقتطعه التعدّى ؛ وكانت كالميراث مع أمناء الأيتام ، يتصرف فيهـا بشره الانتهاب والالتهام ، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام . وتقاسم الخواص بدُورِ القصر وقُصورِه ، وشرع كل من سكن فى تخريب معموره ؛ وانتقل إليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه ، واستمرت سكناه فيه ؛ وخطب لإمامنا المستضىء فى قوص وأسوان والصعيد ، والقاصى والدّانى والقريب والبعيد . وشاعت البشائر ، وذاعت المفاخر ، وسار بها البادى والحاضر ؛ وتملك السلطان أملاك أشياعهم ، وضرب الألواح على دورهم ورباعهم ، ثم ملّكها أمراءه ، وخص بها أولياءه ؛ وباع أماكن ، ووهب مساكن ، وعفّى الآثار القديمة ، واستأنف السّنن الكريمة .

وقال ابن الأثير[1] : لمـا استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد ، ووهب أهله وأمراءه وباع منه كثيرا ؛ وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة

= الفائز الفاطمى (٥٤٩ ـ ٥٥٥) ؛ وسمى «الجليس» لأنه كان يجالس الخلفاء الفاطميين . وهو من نسل بنى الأغلب أصحاب إفريقية . انظر : النكت العصرية ، فوات الوفيات ، الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ .

(١) انظر الكامل : ١١ : ١٣٨ .

مالم يكن عند ملك من الملوك ، قد جمع على طول السنين ومر الدّهور ، فمنه القضيب الزمرّد طوله نحو قبضة ونصف ، والجبل الياقوت ، وغيرهما ؛ [و] من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد .

فصـــــل

ولما خطب بالديار المصرية لبنى العبّاس ومات العاضد انقرضت تلك الدولة ، وزالت عن الإسلام بمصر بانقراضها الذّلة . واستولى على مصر صلاح الدّين وأهله ونوابه ، وكلُّهم من قِبَل نور الدّين رحمه الله ، هم أمراؤه وخدمه وأصحابه (١) . وفيهم يقُول العرقلة (٢) :

أصبح الملك بعد آل علىّ ‏ ‏ مشرقا بالملوك من آل شاذى

وغدا الشرق يحسد الغرب للقو ‏ ‏ م ، ومصرٌ تزهو على بغداذ (٣)

ما حوَوْها إلاّ بحزم وعزم ‏ ‏ وصليل الفولاذ فى الفولاذ (٤)

لا كفرعون والعزيز ومن كا ‏ ‏ ن بها كالخصيب والأستاذ (٥)

يعنى بالأستاذ كافور الإخشيد . وقوله : بعد آل على ، يعنى بذلك بنى عبيد المستخلفين بها ، أظهروا للناس أنهم شرفاء فاطميون ، فملكوا البلاد ، وقهروا العباد . وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلا ولا نسبهم صحيحا ، بل المعروف أنهم بنو عبيد .

---

(١) يريد ابن الأثير أن يؤكد أن نور الدين صاحب السلطة العليا فوق أمراء البيت الأيوبى ، وذلك بسبب مايذكره بعض المؤرخين ، وعلى رأسهم ابن الأثير نفسه ، من محاولة صلاح الدين وأسرته التخلص من سيطرة نور الدين . ويؤكد ابن الأثير سخطه على الأسرة الأيوبية فى مناسبات مختلفة ، وبخاصة بعد أن يتولى الصالح اسماعيل سلطنة الشام عند وفاة والده نور الدين محمود .

(٢) انظر الخريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

(٣) بالذال المعجمة .

(٤) فى الخريدة : ‏ ‏ * من صليل الفولاذ فى الفولاذ *

(٥) الأستاذ : هو كافور الإخشيدى ؛ والخصيب هو الخصيب بن عبدالحميد والى خراج مصر زمن الرشيد وإليه تنسب منية ابن خصيب .

وكان والد عبيد هذا من نسل القدّاح الملحد المجوسى[1] ، وقيل كان والد عبيد هذا يهوديًا من أهل سَلَمْية[2] من بلاد الشّام ، وكان حدادا ؛ وعبيد هذا كان اسمه سعيداً ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله ، وزعم أنه علوىّ فاطمىّ ، وادّعى نسباً (١٥٦ ب) ليس بصحيح، لم يذكره أحد من مصنّفى الأنساب العلويّة ، بل ذكر جماعة من العلماء بالنّسب خلافه ، وهو ماقدمنا ذكره . ثم ترقّت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدى ، وبنى المهديّة بالمغرب ونسبت إليه . وكان زنديقاً خبيثاً عدوًّا للإسلام ، متظاهراً بالتشيع متستّراً به ، حريصاً على إزالة الملّة الإسلامية ؛ قتل من الفقهاء والمحدّثين والصالحين جماعة كثيرة ، وكان قصده إعدامهم من الوجود ، لتبقى العالم كالبهائم ، فيتمكّن من إفساد عقائدهم وضلالتهم ، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون . ونشأت ذرّيته على ذلك منطوين ، يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة وإلا أسرّوه ، والدعاة لهم منبثّون فى البلاد، يضلّون من أمكنهم إضلاله من العباد . وبقى هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها ، وذلك من ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى سنة سبع وستين وخمسمائة .

وفى أيامهم كثرت الرّافضة واستحكم أمرهم ، ووضعت المكوس على النّاس واقتدى بهم غيرهم ، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال السّاكنين بثغور الشام كالنصيْريّة والدّرَزيّة ؛ والحشيشية نوعٌ منهم . وتمكن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم مالم يتمكنوا من غيرهم . وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشّام والجزيرة ، إلى أن مَنّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكى وتقدّمه مثل صلاح الدين ، فاستردّوا البلاد ، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد .

وكانوا أربعة عشر مستخلفاً ، ثلاثة منهم بإفريقية ، وهم الملقّبون بالمهدى والقائم والمنصور ، وأحدعشر بمصر وهم الملقبون بالمعزّ ، والعزيز ، والحاكم ، والظّاهر ،والمستنصر،

(١) مما يفيد فى دراسة هذا الموضوع ، موضوع نسب الفاطميين ، الاطلاع على كتاب : The Origins of Isma'ilism للأستاذ برنارد لويس ، وقد ترجم إلى العربية باسم « أصول الاسماعيلية » .

(٢) بليدة من أعمال حماة ، وتعتبر من أعمال حمص أحيانا ، ولا يعرفها أهل الشام إلا باسم سلمية . اتخذها صالح بن على بن عبد الله بن عباس منزلاله ولولده : معجم البلدان : ٥ : ١١٢ ــ ١١٣ . ثم اتخذها الاسماعيلية مقرا لدعوتهم قبيل قيام الخلافة الفاطمية ، وهى لا تزال حتى الآن معقلا من المعاقل الاسماعيلية الرئيسية .

والمستعلى ، والآمر ، والحافظ ، والظافر ، والفائز ، والعاضد ؛ يدّعون الشرف ونسبتهم إلى مجوسيّ أو يهوديّ ، حتى اشتهر لهم ذلك بين العوامّ فصاروا يقولون الدولة الفاطميّة والدولة العلوية ، وإنّما هى الدّولة اليهودية أو المجوسية الباطنيّة الملحدة[1] . ومن قحتهم[2] أنهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر ، ويكتبونه على جدران المساجد وغيرها .

وخطب عبدهم جوهر ، الّذى أخذ لهم الديار المصرية وبنى لهم القاهرة المعزّية ، بنفسه خطبة طويلة قال فيها : « اللهم صلّ على عبدك ووليّك ، ثمرة النبوّة وسليل العترة الهادية المهديّة ، معدّ أبى تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين ، وسلفه المنتخبين الأئمة الراشدين » .

كذب عدوّ الله اللّعين ، فلا خير فيه ولا فى سلفه أجمعين ، ولا فى ذرّيته الباقين ، والعترة (١٥٧ ا) النبوية الطاهرة منهم بمعزل ، رحمة الله عليهم وعلى أمثالهم من الصدر الأول .

وقد بيّن نسبهم هذا ، وأوضح مِحالهم وما كانوا عليه من التّمويه وعداوة الإسلام جماعةُ مَنْ سلف[3] من الأئمة والعلماء ، وكل متورّع منهم لا يسميهم إلّا بنى عبيد الأدعياء ، أىْ يدّعون من النسب بما ليس لهم . ورحمة الله على القاضى أبى بكر محمد بن الطيب ، فإنه كشف فى أول كتابه ، المسمى بكشف أسرار الباطنية ، عن بطلان نسب هؤلاء إلى علىّ رضى الله عنه ، وأنّ القدّاح الذى انتسبوا إليه دَعىٌّ من الأدعياء ، ممخرق كذاب ، وهو أَضَلُّ دعاة القرامطة[4] لعنهم الله .

وأما القاضى عبد الجبار البصرى ، فإنه استقصى الكلام فى أصولها وبينها بيانًا شافيًا فى آخر كتاب تثبيت النبوّة له . وقد نقلت كلامهما فى ذلك وكلام غيرهما فى مختصر تاريخ دمشق[5] فى ترجمة عبد الرحيم بن إلياس ، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس الناس .

---

(١) فى ل ١٥٨ ب : وإنما هى الدولة المجوسية أو اليهودية الباطنية الملحدة .

(٢) فى ل ١٥٨ ب : ومن قباحتهم .

(٣) فى ل ١٥٩ ا : جماعة ممن سلف .

(٤) ل ١٥٩ ا : وهو أصل دعاة القرامطة .

(٥) الذى هذب به أبو شامة كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر .

وهذان إمامان كبيران من أئمة أصول دين الإسلام .

وأظهر عبد الجبار القاضى فى كتابه بعض مافعلوه من المنكرات والكفريات التى يقفّ الشّعر عند سماعها ، ولكن لابد من ذكر شئ من ذلك تنفيرا لِمَنْ لعلّه يعتقد إمامتهم ، وخفى عنه مخالمهم ، ولم يعلم قحتهم ومكابرتهم ، وليعذر من أزال دولتهم ، وأمات بدعتهم ، وقلل عدّتهم ، وأفنى أمّتهم ، وأطفأ جمرتهم .

ذكر عبدالجبار القاضى أنّ الملقّب بالمهدى[1] ، لعنه الله ، كان يتّخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل ؛ وكان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيذبحون فى فرُشهم ؛ وأرسل إلى الروم وسلطهم على المسلمين ؛ وأكثر من الجور واستصفاء الأموال وقتل الرجال . وكان له دعاة يضلّون الناس على قدر طبقاتهم ، فيقولون لبعضهم : « هو المهدى ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجة الله على خلقه » . ويقولون لآخرين : « هو رسول الله ، صلى الله عليه وسلم وحجة الله » . ويقولون لطائفة أخرى[2] : « هو الله الخالق الرازق . لا إله إلا الله وحده لا شريك له » تبارك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا[3] .

ولما هلك قام ابنه المسمّى بالقائم مقامه[4] ، وزاد شرّه على شرّ أبيه أضعافاً مضاعفة ، وجاهر بشتم الأنبياء ، فكان ينادى فى أسواق المهدية وغيرها : « ألْعنوا عائشة وبَعْلَها ، ألْعنوا الغار ومن حوىٰ » [5] . اللهم صل على نبيّك وأصحابه وأزواجه الطاهرين ، والْعَن هؤلاء الكفرة الفجرة الملحدين ، وارحم من أزالهم وكان سبب قَلْعهم ، ومن جرىٰ على يديه تفريق جمعهم ؛ وأَصْلِهِمْ سعيراً ، ولَقِّهِم ثبوراً ، وأسكنهم النّار جميعاً ، واجعلهم ممن قلت فيهم : « ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً » [6] .

---

(١) هو عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين بإفريقية ، ٢٩٧ ـ ٣٢٢ هـ .

(٢) فى ل ١٥٩ ا ويقولون لأخرى .

(٣) راجع المراحل التسع للدعوة الاسماعلية ، الفاطمية ، فى المواعظ والاعتبار : ٢ ؛ وكذلك فى كتاب الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية .

(٤) وهو أبو القاسم محمد وخلافته بين سنتى : ٣٢٢ ـ ٣٣٤ هـ ؛

(٥) فى ل ١٥٩ ا : وما حوى . والمقصود غار حراء حيث كان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يتعبد فيه قبيل بعثته على ملة إبراهيم عليه السلام . أو غار ثور ، وهو الذى اختفى فيه مع أبى بكر فى أول مراحل الهجرة .

(٦) سورة الكهف : آية : ١٠٤ .

(١٥٧ ب) و بعث إلى أبى طاهر القرمطى المقيم بالبحرين ، وحثه على قتل المسلمين وإحراق المساجد والمصاحف .

وقام بعده ابنه المسمّى بالمنصور [١] فقتل أبا يزيد مخلداً الذى خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدم ذكره ، وسلخه وصلبه ، واشتغل بأهل الجبال يقتلهم و يشرّدهم ، خوفاً من أن يثور عليه ثائر مثل أبى يزيد .

وقام بعده ابنه الملقب بالمعز [٢] ، فبثّ دعاته فكانوا يقولون : هو المهدى الذى يملك الأرض ، وهو الشمس التى تطلع من مغربها . وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الرّوم بلادهم ، واحتجب عن الناس أياماً ثم ظهر وأوهم أن الله رفعه إليه، وأنه كان غائباً فى السماء ، وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له ، فامتلأت قلوب العامّة والجهّال منه . وهذا أول خلفائهم بمصر ، وهو الذى تنسب إليه القاهرة المعزّية . واستدعى بفقيه الشّام أبى بكر محمد بن أحمد بن سهل الرّملى ، ويعرف بابن النابلسى ؛ فَحُمل إليه فى قفص خشب ، فأمر بسلخه ، فسلخ حياً ، وحشى جلده تبناً وصلب ، رحمه الله تعالى . قال أبو ذر الهروى سمعت أبا الحسن الدار قطنى يذكره ويبكى ، ويقول : كان يقول وهو يُسلخ : « كَانَ ذَلِكَ فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُوراً » [٣] .

قلت : وفى أيام الملقّب بالحاكم [٤] منهم أمر بكتب سبّ الصحابة رضى الله عنهم على حيطان الجوامع ، والقياسر والشوارع ، والطرقات ؛ وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسبّ ، ثم أمر بقلع ذلك ؛ وأنا رأيته مقلوعاً فى بعض أبواب دمشق فى الأمكنة العليا منقوراً فى الحجر ، ودلّنى أول الكلام وآخره على ذلك ، ثم جدّد ذلك الباب وأزيل الحجر . وفى أيّامه طُوّف بدمشق برجل مغربى ونودى عليه : هذا جزاء من يحبّ أبا بكر

---

(١) أبو طاهر اسماعيل ، الخليفة بين سنتى ٣٣٤ ـ ٣٤١ :
(٢) أبو تميم معدّ ، تولى بين سنتى ٣٤١ ـ ٣٦٥ .
(٣) سورة الإسراء : ٥٨ .
(٤) أبو على منصور خليفة الفاطميين بين سنتى : ٣٨٦ ـ ٤١١ ؛ وقبله العزيز أبو منصور نزار الذى استخلف بين سنتى ٣٦٥ ـ ٣٨٦ .

وعمر ، ثم ضربت عنقه . وكان يجرى فى أيامهم من نحوهذا أشياء مثل قطع لسان أبى القاسم الواسطى ، أحد الصالحين ، وكان أذّن ببيت المقدس وقال فى أذانه « حىّ على الفلاح » فأُخذ وقطع لسانه . ذكر ذلك وما قبله من قتل المغربى وأبى بكر النابلسى الحافظُ أبو القاسم فى تاريخه . وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلّا محنة من الله تعالى ، ولهذا طالت مدتهم مع قلة عِدّتهم ، فإن عدّتهم عدة خلفاء بنى أمية أربعة عشر ، وأولئك بقوا نيّفاً وتسعين سنة وهؤلاء بقوا مائتى سنة وثمانياً وستين سنة ؛ فالحمد لله على ما يسّر من هُلكهم وإبادة ملكهم ، ورضى الله عمّن سعى فى ذلك وأزالهم ، ورحم مَنْ بيّن مَخْرقتهم ، وكذبهم ومِحالهم .

وقد كشف أيضاً حالهم الإمام أبو القاسم عبد الرّحمن بن على بن نصر الشاشى فى كتاب الرّدّ على الباطنية ، وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش فى أيام نزار وما بعده [1] . ووصل الأمر إلى أن وصف بعضهم ما كانوا فيه فى قصيدة سماها : الإيضاح عن دعوة القدّاح ، أوّلها :

حىّ على مصر إلى خلع الرّسَنْ فثمّ تعطيـــل فروض وسنن

(١٥٨ ا) وقال لو وُفّق ملوك الإسلام لصرفوا أعنّة الخيل إلى مصر لغزو الباطنيّة الملاعين ، فإنهم من شر أعداء دين الإسلام ، وقد خرجَت من حدّ المنافقين إلى حدّ المجاهرين ، لما ظهر فى ممالك الإسلام من كفرها وفسادها ، وتعيّن على الكافة فرض جهادها . وضرر هؤلاء أشدّ على الإسلام وأهله من ضرر الكفار ؛ إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية ، مع العلم بعظيم ضررها وفسادها فى الأرض .

قلت : ثم إنّى لم يقنعنى هذا من بيان أحوالهم ، فأفردت كتاباً لذلك سميته « كشف ما كان عليه بنو عبيد [2] ، من الكفر والكذب والمكر والكيد » ، فمن أراد

---

(١) عندما توفى المستنصر بالله الفاطمى ، سنة ٤٨٧ تولى بعده المستعلى بالله أحمد الذى كان الوزير قد حصل له على ولاية العهد من الخليفة المستنصر قبل وفاته . فثار نزار بالإسكندرية وأعلن نفسه خليفة وتلقب المصطفى لدين الله ، ولكنه قتل آخر الأمر مخلفاً جماعة من الاسماعيلية عرفت بالنزارية .

(٢) فى الأصل ، وكذلك فى ل ١٦٠ ا : ما كانوا عليه بنو عبيد . ولم أعثر لهذا الكتاب على أثر .

الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به ، فإنى بتوفيق الله تعالى جمعت فيه ما ذكره هؤلاء الأئمة المصنفون وغيرهم . ووقفت على كتاب كبير صنّفه الشريف الهاشمى رحمه الله [1] ، وكان فى أيام الملقب بالعزيز ثانى خلفاء مصر ، فبيّن فيه أصولهم أتم بيان ، وأوضح كيفية ظهورهم وغلبتهم على البلاد ، وتتبع ذكر فضائحهم وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق والمخرقة ، فنقلت منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة ، وبالله التوفيق .

وما أحسن ماقال فيهم بعض من مدح بنى أيوب بقصيدة منها :

أبَنْتم مزيلى دولة الكفر من بنى ... عبيد بمصر ، إن هذا هو الفضل

زنادقة ، شيعيّة ، باطنيّة ... مجوسٌ ،ومافى الصّالحين لهم أصل

يُسرُّون كفراً ، يُظهرون تشيُّعاً ... ليستتروا شيئاً ، وعمّهم الجهل

أمّا مافعله هؤلاء من الانتساب إلى علىّ رضوان الله عليه والتستر بالتشيع فقد فعله جماعة القرامطة[2] ، وصاحب الزنج[3] الخارج بالبصرة ، وغيرهم من المفسدين فى الأرض على ماعرَف مِنْ سيرهم مَنْ وقف على أخبار الناس، وكلّهم كذبة فى ذلك وإنما غرضهم التقرب إلى العوام والجهال ، واستتباعهم لهم ، واستجلابهم إلى دعوتهم بذلك البلاء ، ويفعل الله مايشاء . ولا يُغتر بأبيات الشريف الرضىّ[4] فى ذلك، فقد حصل الجواب عنها فى كتاب

(١) أبو القاسم على المرتضى نقيب الطالبيين ؛ عاش بين سنتى ٣٥٥ ـ ٤٣٦ . وفيات الأعيان .

(٢) بدأ ظهورها كجماعة حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى وقضى على تجمعها فى منتصف القرن الخامس أيام المستنصر بالله الفاطمى . انظر : الخلافة والدولة فى العصر العباسى ، للمحقق ، ففيه تعريف مختصر مركز بهذه الجماعة .

(٣) ثائر ظهر بالبصرة ، واشتد أمره أيام الخليفة المعتمد وزعم أنه من نسل آل علىّ وتسمى باسم على بن محمد بن احمد ... بن زيد . وكثر أتباعه من عبيد الأرض الذين كانوا يعملون فى حل المخصبات (السباخ) وغيرها لأهل البصرة واستمرت ثورته الخطيرة التى شملت جنوبى العراق بين سنتى ٢٥٥ـ٢٧٠، ثم انهارت أمام جيوش الموفق أخى الخليفة المعتمد .

(٤) أبو الحسن محمد ، أخو الشريف المرتضى الذى سبق ذكره ؛ عاش بين سنتى ٣٥٥ ـ ٤٠٦ . وفيات الأعيان . والأبيات المقصودة هى التى مطلعها :

ما مقامى على الهوان وعندى ... مِقْوَل صارم وأنف حمىّ

وفيها ما يثبت صحة نسب الفاطميين إلى على ، ومن ذلك :

أحملُ الضيمَ فى بلاد الأعادى ... وبمصر الخليفة العلوىّ

من أبوه أبى ، ومولاه مولا ... ى إذا ضامنى البعيد القصىّ

لفّ عرقى بعرقه سيدا النّا ... س جميعاً : محمدٌ وعلىّ

الكشف بوجوه حسنة ، وبالله التوفيق .

وقد صنّف الشريف العابد الدمشقى ، رحمه الله ، كتاباً فى إبطال نسبهم إلى على بن أبى‌طالب رضى الله عنه ، وفصّل ذلك تفصيلا حسناً ، وأطنب فى ذكر أخبار إخوانهم من القرامطة ، لعنهم الله تعالى .

فصـــــل

فى ذكر غزو الفرنج فى هـــــذه السّنة

قال ابن شداد : [1] واستمرت القواعد على الاستقامة ، وصلاح الدين كلّما استولى على خزانة مال وهبها ، وكلّما فتح له خزائن ملك أنهبها ، ولا يُبقى لنفسه شيئاً . وشرع فى التأهّب للغَزاة ، وقصد بلاد العدو ، وتعبئة الأمر لذلك ، وتقرير قواعده .

وأما نور الدين فإنه عزم على الغزاة ، واستدعى صاحب (١٥٨ب) الموصل ابن أخيه ، فوصل بالعساكر إلى خدمته . وكانت غزوة « عرقة » فأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه فى المحرم سنة سبع وستين .

وقال ابن أبى طى : جمع نور الدين عساكره وخرج إلى « عرقة » ونازلها ، وقاتلها ، أياماً حتى فتحها ، واحتوى على جميع ما فيها ، وغنم الناس غنيمة عظيمة .

قال ابن الأثير [2] : خرجت مراكب من مصر إلى الشام فأخذ الفرنج فى اللاّذقية مركبين منها مملوءتين من الأمتعة والتجار ، وغدروا بالمسلمين ، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا . فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه ، وراسل الفرنج فى ذلك ، وأمرهم بإعادة ما أخذوه ، فغالطوه ، واحتجّوا بأمور منها : أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسر فيهما ؛ وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء ، وكانوا كاذبين ، فلم يقبل مغالطتهم . وكان رضى الله عنه لا يهمل أمراً من أمور رعيته ؛ فلم يردوا شيئا ، فجمع العساكر من

---

(١) فى النوادر السلطانية : ٣٥ ؛ وهو اقتباس حرفى .

(٢) فى الأتابكة : ٢٧٩ ــ ٢٨٢ ؛ وهو اقتباس حرفى .

الشام والموصل والجزيرة ، وبث السرايا فى بلادهم ، بعضهم نحو أنطاكية ، وبعضهم نحو طرابلس ، وحصر هو حصن عرقة وأخرب ربضه ، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصنى صافيثا والعريمة ، فأخذهما عنوة وكذلك غيرهما ؛ ونهب وخرّب ، وغنم المسلمون الكثير ، وعادوا إليه وهو بعرقة فسار فى العساكر جميعها إلى قريب طرابلس يخرب ويحرق وينهب . وأما الذين ساروا إلى أنطاكية فإنهم فعلوا فى ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس ، فراسله الفرنج وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبين ، ويجدّد معهم الهدنة ؛ فأجابهم . وكانوا فى ذلك كما يقال : اليهودى لايعطى الجزية حتى يُلطم ، فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتى هى أحسن ، فلمّا نُهبت بلادهم وخربت أعادوها .

قال (١) : وكان لوالدى فى المركبين تجارة مع شخصين ، فلما أعادوا إلى الناس أموالهم لم يصل إلى كل إنسان إلاّ اليسير . وكان يُحمل المتاع فكل من كان اسمه عليه أو على ثوب أخذه . وكان فى النّاس من يأخذ ما ليس له ، وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانة ، وكان نصرانياً ، فلم يأخذ إلا ما عليه اسمه وعلامته ، فذهب من ماله ومالنا شىء كثير بهذا السبب . وكان الذى حصل من مالنا أكثر من الذى حصل له ، فلما عاد إلينا سلّم الذى لنا إلى والدى ، فامتنع من أخذه وقال : خذ أنت الجميع فإنك أحوج إليه وأنا فى غنى عنه ؛ فلم يفعل ؛ فقال خذ النّصف وأنا النّصف ، واجتهد به (٢) والدى فلم يفعل . فلما كان بعض الأيام وإذا قد جاء الغلام ومعه عدّة من الأثواب السوسيّة (٣) وغيرها ؛ وقال : هذا من قماشنا قد حضر اليوم . وسبب حضوره أن إنساناً فقاعياً من أهل تبريز كان معنا فى المركب وقد أعادوا عليه ماله ، فرأى هذه الأثواب واسمى عليها فلم يسهل (١٥٩ ا) عليه أن يردها ، يعنى عليهم ، وسأل عنى وقد قصدنى ، وهى معى ، وحضر عندى الساعة وسلمها إلىّ ، وقال : قد تركت طريقى لتبرأ ذمّتى . فأخذنا نحن ما عليه اسمنا بعد الجهد ، وطلب والدى الرجل ، وسأله أن يقيم عندنا

---

(١) القائل : ابن الأثير فى نفس المصدر ومن نفس الصفحات .
(٢) فى الأصل : فاجتهد ؛ والمثبت هنا من ل ١٦١ ا .
(٣) فى الأصل السوسى ؛ والمثبت هنا من ل ١٦١ ا .

لنسلم إليه مالاً يتجر فيه ، فلم يفعل ، وعاد إلى بلده . قال : وهـذان الرجلان نادران في هـذا الزمان .

فصـــل

في عزم نور الدّين على الدّخول إلى مصر

قال العماد : وكان صلاح الدين واعده نورُ الدين أن يجتمعا[1] على الـكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك ، فخرج من القاهرة في الثاني والعشرين من المحرم ، بالعزم الأجزم ، والرأى الأحزم ؛ فاتفق للاجتماع عائق ، ولم يقدر للانفاق قدر موافق ؛ فلقى في تلك السفرة شدة ، وعـدم خيلا وظهرا وعُدّة ؛ وعاد إلى القاهرة في النّصف من ربيع الأول .

قال ابن الأثير[2] : وفي سنة سبع وستين أيضاً جرى ما أوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين .

وكان الحـادث أن نور الدين أرسـل إلى صلاح الدين يأمره بجمـع العساكر المصرية والمسير بهـا إلى بلاد الفرنج والنزول على الـكرك ومحاصرته ، ليجمـع هو أيضاً عساكره ويسير إليـه ، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيـلاء على بلادهم . فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم ، وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر؛ وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو . فلمـــا أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الـكرك ، فوصل إليه ، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البـلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها[3] فعـــاد إليها ؛ فلم يقبـــل نور الدين عذره .

(١) في ل ١٦١ ا أن يجتمعوا .

(٢) في الأتابكة : ٢٨٦–٢٩٠ ؛ وهو اقتباس حرفي . وفيه يحاول ابن الأثير أن يثبت خيانة صلاح الدين مولاه نور الدين جحوداً وخروجه عن طاعته .

(٣) كذا في الأصل ، وكذلك في ل ١٦١ ا . ولعلها : يخاف عليها من البعد عنها .

وكان سبب تقاعده أنّ أصحابه وخواصه خوّفوه من الاجتماع بنور الدّين . فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شقّ ذلك عليه ، وعظم عنده ، وعزم على الدّخول إلى مصر و إخراج صلاح الدّين عنها . فبلغ الخبر صلاح الدّين[1] فجمع أهله ، وفيهم والده نجم الدين ، وخاله شهاب الدين الحارمى ، ومعهم سائر الأمراء ، وأعلمهم مابلغه من عزم نور الدّين على قصده وأخذ مصر منه ؛ واستشارهم ، فلم يجبه أحد منهم بشىء . فقام ابن أخيه تقىّ الدين عمر وقال : إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد : ووافقه غيره من أهله . فشتمهم نجم الدّين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه ، وكان ذا رأى ومكر ، وكيد وعقل ، وقال لتقىّ الدّين : اقعد ، وسبّه ؛ وقال لصلاح الدّين : أنا أبوك وهـذا شهاب الدّين خالك ، أتظنّ فى هؤلاء كلّهم مَنْ يحبّك و يريد لك الخير مثلنا ؟ فقال : لا . فقال : والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدّين لم يمكنّا إلّا أن نترجّل إليه ونقبّل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا بضرب عنقك (١٥٩ ب) بالسّيف لفعلنا ؛ فإذا كنّا نحن هكذا كيف يكون غيرنا ، وكلّ من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدّين وحده لم يتجاسر على الثّبات على سرجه ، ولا وسعه إلّا النزول وتقبيل الأرض بين يديه ؛ وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها ، فإن أراد عزلك فأىّ حاجة به إلى المجىء ؟ يأمرك بكتاب مع نجّاب حتّى تقصد خدمته و يولّى بلاده من يريد ! وقال للجماعة كلّهم : قوموا عنا فنحن مماليك نور الدّين وعبيده ، و يفعل بنا مايريد . فتفرّقوا على هذا ، وكتب أكثرهم إلى نور الدّين بالخبر .

ولما خلا نجم الدّين أيوب بابنه صلاح الدين قال : أنت جاهل قليل المعرفة ؛ تجمع هذا الجمع الكبير وتُطلِعُهم على مافى نفسك ، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهمّ الأمور إليه وأولاها بالقصد ، ولو قصدك لم تر معك من هـذا العسكر أحـدا ، وكانوا أسلموك إليه ؛ وأمّا الآن بعد هذا المجلس ، فسيكتبون إليه و يعرفونه قولى ، وتكتب أنت إليه وترسل فى هذا المعنى وتقول : أىّ حاجة إلى قصدى ؟ يجئ نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنقى ؛ فهو إذا سمع هـذا عـدل عن قصدك واشتغل بما هو أهمّ عنده ، والأيام تندرج ، والله كل وقت فى شأن .

---

(٢) فى ل ١٦١ ب : إلى صلاح الدين .

ففعل صلاح الدين ما أشار به والده . فلما رأى نور الدين رحمه الله تعالى الأمر هكذا عدل عن قصده ، وكان الأمر كما قال نجم الدين ؛ توفى نور الدين ولم يقصده ولا أزاله ، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها .

فصـــل

فى الحمـــام

قال ابن الأثير(١) : وفى سنة سبع وستين أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادى ، وهى المناسيب التى تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها ، فاتخذت فى سائر بلاده .

وكان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده وطالت مملكته ، فكانت من حد النوبة إلى باب همذان ، لا يتخللها سوى بلاد الفرنج . وكان الفرنج ، لعنهم الله ، ربما نازلوا بعض الثغور ، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض ؛ فحينئذ أمر بذلك وكتب به إلى سائر بلاده ، وأجرى الجرايات لها ولمربيها ؛ فوجد بها راحة كبيرة . وكانت الأخبار تأتيه لوقتها ، لأنه كان له فى كل ثغر رجال مرتبون ، ومعهم من حمام المدينة التى تجاورهم ، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر ، وسرحوه إلى المدينة التى هو منها فى ساعته ، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذى يجاورهم فى الجهة التى فيها نور الدين ؛ وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه . فانحفظت الثغور بذلك حتى إن طائفة من الفرنج نازلوا ثغراً له فأتاه الخبر ليومه ، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير (١١٦٠) بسرعة وكبس العدو ، ففعلوا ذلك ، فظفروا والفرنج قد أمنوا لبعد نور ... عنهم : فرحم الله نور الدين ورضى عنه ، فما كان أحسن نظره للرعايا وللبلاد .

وقال العماد : وكان نور الدين لا يقيم فى المدينة أيام الربيع والصيف محافظة على

---

(١) فى الأتابكة ، وهو استمرار للاقتباس السابق من الصفحات نفسها .

الثغر ، وصوناً من الحيف ، ليحمى البلاد من العدوّ بالسّيف ، وهو متشوّف إلى أخبار مصر وأحوالها ، وتحقيق اعتدالها بتمحيق اعتلالها . فرأى اتّخاذ الحمام المناسيب وتدريجها على الطيران ، لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان[1] ؛ وتقدّم إلىّ بكتب منشور لأربابها ، وإعْزاز أصحابها ، وهو حينئذ بظاهر دمشق ، مخيّم بوادى اللّوان [2] ، ونحن مستظهرون فى ذلك الأوان ، عادُون على أهل العدوان ؛ وذلك فى سابع عشر ذى القعدة من السّنة .

ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام ، فقال : « هى برائد الأنباء ، المخصوصة[3] بفضيلة الإلهام والإيحاء ، وهى فيوج الرسائل المأمونة الإبطـاء ، والسابقات الْهُوج فى الاهتداء ؛ والحاملات مُلطّفات الأسرار فى أقرب مدّة إلى أبعد غاية ، والموصّلات مهمّات الأخبار فى وقتها من أقاصى الأمصار بأكمل هداية ، والقاطعات فى ساعتها إلى البـلاد أجواز القفار والموامى ، والنّافذات بنُجح المرام بعود السّهـام إلى المرامى ؛ وهى تطوى الفراسخ البعيدة والأشواط فى ساعة ، وتنتهى إلى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعة . وقد عمّ بها نفع المرابطين للغزاة والمجاهدين فى سبيل الله ، فى إهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها ، دالّة على مكايدها ومكامنها ، طائرة بكتبهم إلى من وراءهم من الطـلائع والسّرايا ، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا ؛ وإنها لميمونة المطار ، مأمونة العثار ، سالمة على الأخطار ، مَهْدِيّة فى الأسفار ، أمينة على الأسرار ، سابقة إلى الأوكار ، صادرة بالأوطار ، سائرة الى المؤمنين بنبأ الكفار » .

قلت : وكل هذه أوصاف حسنة وعبارات مستحسنة [4] . وقد بلغنى عن القاضى الفاضل رحمه الله تعالى أنه وصفها بألطف من هذه الأوصاف وأخصر فقـال : « الطّيور ملائكة الملوك » ؛ يشير إلى أن نزولها على الملوك من جوّ الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من السماء ، مع فرط ما فيهـا من الأمانة ، لا يتوهّم من جهتها

---

(١) فى الأصل بالأخبار البلدان ؛ والتصحيح من ل ١٦٢ ا وهو يتفق مع ما جاء فى ق .

(٢) من ضواحى دمشق النزهة : خريدة القصر : قسم شعراء الشام : ١ : ٢٠٧ .

(٣) فى ل ١٦٢ ا ، وكذلك فى ق : المخصوصات .

(٤) فى ك : وكل هذه من أوصاف حسنة . . . الخ . بزيادة (من) ولا لزوم لها ، وهى غير موجودة فى ل ١٦٢ ب ولا فى ق .

خيانه . فلقد أحسن فيما وصف ، وأبدع فيما استنبط وأنصف ، وهو بذلك أولى وأعرف . رحم الله الجميع .

فصـــل

فى باقى حوادث هذه السنة

قرأت نسخة سجل بإسقاط المكوس (١٦٠ ب) بمصر ، قرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمسمائة ، عن السّلطان الملك النّاصر فى أيام نور الدّين رحمه الله ، فهو كان الآمر وذاك المباشر (١) ، يقول فيه :

« أمّا بعد ؛ فإنا نحمد الله سبحانه على ما مكّن لنا فى الأرض ، وحسّنه عندنا من أداء كل نافلة وفرض ، ونصَبنا له من إزالة النّصب عن عباده ، واختارنا له من الجهاد فى الله حق جهاده ، وزهّدنا فيه من متاع الدّنيا القليل ، وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النّقير والفتيل ، وأولانا من شجاعة السماحة ، فيوماً نهبُ ما اشتملت عليه الدّواوين ، ويوماً نقطع ما سقاه النّيل ؛ فالبشائر فى أيّامنا تترى ، شفعاً ووترا ، والمسارّ كنظام الجوهر تتبع الواحدة منها الأخرى ، والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع ، وأسخطت الخيمة والصنائع (٢) ، وأرضت المنبر والجامع . ولما تقلّدنا أمور الرّعية رأينا المكوس الدّيوانيّة بالقاهرة ومصر (٣) ، أولى ما نقلناها من أن تكون لنا فى الدّنيا إلى أن تكون لنا فى الآخرة ، وأن نتجرد منها للبس أثواب الأجر الفاخرة ، ونطهّر منها مكاسبنا ، ونصون عنها مطالبنا ، ونكفى الرّعيّة ضرّهم الّذى يتوجه إليهم ، « وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ » (٤) ، ونعيدها اليوم كأمس الذاهب ، ونضعها فلا ترفعها من بعدُ يد حاسب ، ولا قلم كاتب . فاستخرنا الله وعجلّنا إليه ليرضى ، ورأينا فرصة أجر

---

(١) فى عيون الروضتين ٣٤ ا (وهو مخطوط بالمتحف البريطانى) تفصيل لبعض هذه المكوس الملغاة نقلا عن ابن أبى طىّ .

(٢) فى ك ، وكذلك فى ل ١٦٢ ب : والصناعة . وقد صححت بما أثبت بالمتن لتنسجم مع الأسلوب المسجوع ومع المعنى .

(٣) فى ل ١٦٢ ب : بمصر والقاهرة . وهى كذلك فى ق .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٧ .

لا تغض عليها بصائر الأبصار ولا يُغضى ؛ وخرج أمرنا بكَتْب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المتردّدين إليهما ، و إلى ساحل المقسم (١) ، والمنية ، بأبواب المكوس صادرها وواردها ، فَيَرِدُ التّاجر ويُسفر ، و يغيب عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتّجر برًّا و بحرًا ، مركبا وظهرا ، سرًّا وجهرًا ، لا يحلّ ما شدّه ، ولا يُحاول ما عنده ، ولا يكشف ماستره ، ولا يسأل عمّا أورده وأصدره ، ولا يُستوقف فى طريقه ، ولا يَشْرق بريقه ، ولا يُؤخذ منه طعمه ، ولا يستباح له حرمه . والذى اشتملت عليه المسامحة فى السنة من العَيْن مائة ألف دينار ، مسامحـة لا يتعقّبها تأويل ، ولا يتخوّنها تحويل ، ولا يعْتريها زوال ، ولا يعْتورها انتقال ؛ دائمة بدوام الـكلمة ، قائمة ما قام دين القَيِّمَة ؛ مَنْ عارضها ردّت أحكامه ، ومن ناقضها نقض إبرامه ، ومن أزالها زلّت قدمه ، ومن أحالها حلّ دمه ، ومن تعقّبها خلدت اللّعنة فيه وفى عقبه ، ومن احتاط لدنياه فيهـا أحاط به الجحيم الّذى هو من خطبه . فمن قرأه ، أوْ قُرِئ عليـه من كافّة ولاة الأمر مِنْ صاحب سيف وقلم ، ومشارف (٢) أو ناظر ، فليمتثل ما مثل من الأمر ، وليُمْضِه على ممرّ الدّهر (٣) (١٦١ ا) مُرضياً لربّه ، ممضيا لما أمر به » .

وفى هذه السنة توفى الشيخ أبو بكر (٤) يحيى بن سعـدون القرطبى المقرى النحوى ، وهو نزيل الموصل رحمه الله تعالى .

وفيها ولد العزيز والظّاهر ابنا صلاح الدّين ، والمنصور محمد (٥) بن تقى الدين .

وفيها فى ثالث شوال توفى أبو الفتوح نصر بن عبد الله الإسكندرى (٦) ، المعروف بابن

---

(١) وهى المقس أيضا : الميناء النهرى للقاهرة الفاطمية ، وهى تقرب من موضع حديقة الأزبكية الحالية . المواعظ والاعتبار : ٢ : ١٢١ ، ١٣٠ .

(٢) الإشراف مراقبة الأمور المالية عامة فى جهة معينة ، ويسمى متوليها المشرف والمشارف : صبح الأعشى : ٤ : ٢٥ - ٢٧ ، ٦٤ - ٦٦ .

(٣) فى الأصل وفى ل ١٦٣ ا : الدهور ، وهى لا تتفق مع الأسـلوب المسجوع الذى كتب به المنشور .

(٤) فى الأصل وكذلك فى ل وفى ق : أبى بكر .

(٥) فى ل ١٦٣ ا : والمنصور ومحمد ، بزيادة الواو خطأ .

(٦) فى الخريدة : قسم شعراء مصر : ٢ : أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن بن اسماعيل ... الإسكندرى انظر كذلك : النجوم الزاهرة : ٦ : ٥٩ حاشية : ١ :

قلاقس الشاعر ، بعيذاب ، ومولده بالإسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، فيكون عمره نحواً من خمس وثلاثين سنة .

ثم دخلت سنة ثمان وستين [وخمسمائة]

ففيها توفى ملك البجاة الحسن بن صافى .

وفيها ترتب العماد الكاتب مشرفا بديوان نور الدين مضافا إلى كتابة الإنشاء .

قال : وكان نور الدين ذكيا ألمعيا ، فطنا لوذعيا ، لا تشتبه عليه الأحوال ، ولا يتبهرج عليه الرجال ، ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الإفضال .

قال : ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد خزائنه ، واستخرج دفائنه ، سير منها عدة من الأمتعة المستحسنة ، والآلات المثمنة ، وقطع البلور واليشم ، والأوانى التى لا يتصور وجودها فى الوهم ، ومعها ثلاث قطع من البلخش ، أكبرها نيف وثلاثون مثقالا ، والثانية ثمانية عشر ، والأخرى دونها ، وقرن بها من اللآلئ مصونها ومكنونها ؛ وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار ، ووصلت من غرائب المصنوعات بما لا يجتمع مثله فى أعصار وأعمار ، ومن الطّيب والعطر ما لم يخطر ببال عطار . فشكر نور الدّين همته وذكر بالكرم شيمتَه ، ووصف فضيلته ، وفضّل صفته ، وقال : ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ، ولا نسد به خلّة الإقلال ، فهو يعلم أنا ما أنفقنا [1] الذهب فى ملك مصر وبنا إلى الذهب فقر ، وما لهذا المحمول فى مقابلة ما جُدْنا به قدر . وتمثل بقول أبى تمام :

لم يُنفق الذّهب المُرْبى بكثرته   على الحصا وبه فقْر إلى الذهب

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى السداد ، ووفور الأعداد من الأجناد ، وقد عم بالفرنج بلاء البلاد ؛ فيجب أن يقع التّعاقد على الإمداد بالمعونة ، والمعونة بالإمداد [2] .

(١) فى ك : نفقنا ، والتصحيح من ل ١٦٣ ا .

(٢) فى ل ١٦٣ ب : على الإمداد بالمعونة بالإمداد .

فاستنزره وما استغزره ، واستقل المحمول فى جنب ما حرّره ، وتروى فيما يدبّره ، وأفكر فيما يقدّمه من هذا المهم ويؤخره .

قال ابن أبى طىّ : لم تقع هـذه الهدية من نور الدين بموقـع ، وجرّد الموفق بن القيسرانى وزيره إلى مصر وأمره بعمل حساب البلاد واستعـلام أخبارها وارتفاعها ، وأين صرفت أموالها ؛ فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة[1] يحملها فى كل سنة . وعظُم على نور الدين أمر مصر ، وأخذه من إستيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعِد ، وأكثر فى مراسلته فى حمل الأموال .

حدثنى أبى[2] قال : لم تخف حال نور الدين فى كراهية الملك النّاصر ؛ ولقد علم (١٦١ ب) ذلك جميع الأجناد والأمراء وتحدثت به العوامّ ، ولا سيما حين أنفذ هذه الهدية . واشتد بعد ذلك فى مراسلته ، وأنفَذ ابن القيسرانى لكشف الأحوال ؛ ولو طال عمره لم يكن له بدٌّ من الدخول إلى مصر[3] .

قال العماد : وكان نور الدين مذ مُلكت مصر ، وتوجه له فيها النّصر ، يؤثر أن يقر له فيها مال للحمل ، يستعين به على كلف الجهاد وتخفيف ماله من الثقل ، والأيام تماطله ، والأعوام تطاوله ، وهو ينتظر أن صلاح الدين يبتدئ من نفسه بما يريده ، وهو لا يستدعى منه ولا يستزيده . فلمّا حمل من أخائر الذخائر والمال الحاضر ما حمله ، وعرف مجمله ومفصله ، تقدم إلى الموفق خالد بن القيسرانىّ أنْ يمضى ، ويطالب ويقتضى ، ويعمل أيضا بالأعمال المصرية جزازة ، ولا يبقى فى نفوس ديوانه من أمرها حزازة ؛ وأرسل معه الهدايا ، والتحف السنايا ، وأقام العماد مقامه فى ديوان الاستيفاء[4] ، فجمع بين الإشراف والاستيفاء ، ومنصب الإنشاء . ثم كان من أمره ما سيأتى ذكره .

قال العماد : وخرج صلاح الدّين فى النّصف من شوال ومعه الفيـل ، والحمارة العتابية ، والذخائر النفيسة التى كان انتَخَبها من خزائن القصر ، وهى معدودة من محاسن

---

(١) ضريبة .
(٢) المحدث والد ابن أبى طى .
(٣) فى ل ١٦٣ ب : دخول مصر .
(٤) المستوفى من كتاب الأموال ، وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على مافيه المصلحة .

العصر ، وقد سبق ذكر تسييرها إلى نور الدّين ، وقُوبلت بالإحسان والتّحسين . ووصلت الحمارة وكثرت لها النظارة ؛ وأما الفيل فإنه وصل إلينا فى سنة تسع وستين ونحن بحلب فى الميدان الأخضر ، وأهداه نور الدين إلى ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل مع شىء من تُحفة الثياب والعود والعنبر . ثم سيّره سيف الدين إلى بغداد هدية للخليفة ، مع ما سيّره معه من التّحف اللطيفة ؛ وسير نور الدين الحمارة العتابية إلى بغداد مع هدايا ، وتحف سنايا .

فصل

فى جهاد السلطانَين للفرنج فى هذه السنة

قال العماد : ونزل صلاح الدين على الكرك[1] والشوبك[2] وغيرهما من الحصون فبرح بها ، وفرق عنها عربها ، وخرب عماراتها ، وشنّت على أعمالها سراياه بغاراته .

ووصل منه كتاب بالمثال الفاضلىّ : « سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل ، أعز الله سلطانه ومدّ أبداً إحسانه ، ومكن بالنصر إمكانه ، وشيد بالتأييد مكانه ، ونصر أنصاره ، وأعان أعوانه . علم المملوك بما يؤثرهُ المولى بأنْ يقصد الكفار بما يقُصّ أجنحتهم ويفلل أسلحتهم ، ويقطع موادهم ، ويخرب بلادهم ؛ وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومُه من هذه المصلحة ألاّ يبقى فى بلادهم أحدٌ من العربان ، وأن ينتقلوا مِنْ ذل الكفر إلى عز الإيمان . ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد ، وعده من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم ،

---

(١) قلعة على مرتفع تحيط بها أودية إلا من جهة الربض . وقد حصنها Fulk صاحب بيت المقدس حوالى سنة ١١٤٢ م شرق البحر الميت لتكون قوة لبيت المقدس . وقد حاصر نور الدين هذه القلعة بعد وصول نجم الدين أيوب إلى مصر متوقعا تأييد صلاح الدين فى هذا الحصار ولكنه لم يبادر إلى هذا التأييد . وحاصرها صلاح الدين فى هذه السنة (١١٧٣ م) وكذلك فى سنتى ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ثم استسلمت للعادل سنة ١١٨٩ قبيل صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد . انظر معجم البلدان : ٧ : ٢٤٠ ؛ وكذلك Saladin, pp. 249—250 تأليف S. Lane-Pole . انظر أيضاً كتاب ستيفنسون : The Crusaders in the East .

(٢) بناها الملك بلدوين الأول Baldwin I ، صاحب بيت المقدس ، سنة ١١١٥ م جنوب البحر الميت على منطقة عالية ليسهل عليه مهاجمة القوافل المارة بهذه الطريق إلى مصر أو منها وسمى الجبل الذى بنيت عليه Mont Royal . انظر معجم البلدان : ٥ : ٢٠٥ ، وكذلك : The Crusaders in the East, p . 65 .

والحرص فى تبديل دارهم ، إلى أن صار العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً ، ولا يستطيع حيلة ، ولا يهتدى سبيلا » .

ثم ذكر باقى الكتاب .

قال ابن شداد [1] : وهذه أول غزوة غزاها صلاح الدين (١١٦٢) من الديار المصرية . وإنما بدأ ببلاد الكرك والشوبك لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو ؛ فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض ، وتسهل على السابلة. فخرج قاصداً لها فى أثناء سنة ثمان وستين ، فحاصرها ، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات ، وعاد عنها ولم يظفر منها بشىء فى تلك الدفعة ؛ وحصل ثواب القصد .

وأما نور الدين فإنه فتح مرعش [2] فى ذى القعدة من هذه السنة وأخذ بهسنى [3] فى ذى الحجة منها .

وقال العماد : حضرت عند الملك العادل نور الدين بدمشق ، فى العشرين من صفر ، ووجهُه بنُور البِشْر قد سَفَر ، والحديث يجرى فى طيب دمشق وحسن آلائها ، ورقة هوائها ، وبهجة بهائها ، وإزهار أرضها كزهر سمائها ، وكلّ منا يمدحها ، ويحبّه يمنحها ، وكلّ منا يطريها ؛ فقال نور الدين : أنا حُبّ الجهاد يسليني عنها ، فما أرغب فيها. فارتجلت هذا المعنى فى الحال ، فقلت :

ليس فى الدنيا جميعاً بلدةٌ مثل دمشق
ويسلّينيَ عنها فى سبيل الله عشق
والتقى الأصل ، ومن يتـ ركها يَشقَى ويُشقى

---

(١) فى النوادر السلطانية ٤ ٣٦ ، وهو اقتباس حرفى . والعبارة : « وهذه أول غزوة ... الديار المصرية » عنوان هذا الحديث فى النوادر .

(٢) من بلاد الثغور ، لها سوران وخندق ، وفى وسطها حصن عرف باسم المروانى نسبة إلى بانيه مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية بدمشق ، ثم أنشأ الرشيد المدينة كلها بعد ذلك : معجم البلدان : ٨ : ٢٥ ـ ٢٦ .

(٣) فى معجم البلدان : ٢ : ٣١٥ : بهسنا ، بالألف ، قلعة قرب سميساط ومرعش ، وكانت من أعمال حلب .

كم رشيقٍ شاغــــل عنــه بِسَهْم الغزْوِ رَشْق
وامتشاق البيض يغنى عنـــــه بالأقلام مشق

قال : وسألنى نور الدين أن أعمل دو بيتيات فى معنى الجهاد على لسانه ، فقلت :

للغزو نشاطى وإليـــــه طربى مالى فى العيش غــيره من أرب
بالجــــد وبالجهاد نجح الطلب والراحـــة مستودعة فى التّعب

وقلت أيضا :

لاراحة فى العيش سوى أن أغزو سيفى طربا إلى الطـــلى يهتز
فى ذلّ ذوى الـكفر يكون العزّ والقـدرة فى غــــير جهادٍ عجز

وقلت أيضا :

أقسمت سوى الجهاد مالى أرب والرّاحة فى سواه عنـدى تعب
إلّا بالجــــدّ لا يُنال الطلب والعيش بلا جدِّ جهادٍ لعب

قال : واتفّق خروج كلب الرّوم اللّعين [1] ، فى جنود الشياطين ، يقصد الغارة على زُرّا [2] من ناحية حوران ، وهم فى جمع غلبت كثرته الخبر والعيان ؛ ونزلوا فى قرية تعرف بسمكين [3] . فركب نور الدين وهو نازل بالـكسوة [4] إليهم ، وأقدم بعساكره عليهم؛ فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفوار ثم إلى السواد [5] ثم نزلوا بالشلالة ، ونزل نور الدين عشترا ، وقد سَرّه ماجرى ؛ فأنفذ سرّية إلى أعمال طبريّة ، واغتنم خلوّها ، فأدلجت تلك اللّيلة وجمدت فى شنّ الغارة غدوّها. (١٦٢ ب) فلما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة فوقف الشجعان ، وثبت من ثبته الإيمان ، حتى عبرت السرية ، وانفصلت تلك القضيّة . ورحل نور الدين من عشترا فنزل بظاهر زُرّا .

---

(١) امبراطور الروم فى هـذه الفترة هو : Manuel Comnenus الذى حكم بين سنتى ١١٤٣ — ١١٨٠ م .

(٢) وأصبح اسمها فى القرن السادس الهجرى : زرع ،من أعمال حوران . معجم البلدان : ٤ : ٣٨١ . وقد وردت فى ل ١٦٤ ب زوار .

(٣) من أعمال دمشق من ناحية حوران : معجم البلدان : ٥ : ١٢٧ .

(٤) أول منزل تنزله القوافل التى تخرج من دمشق فى اتجاه مصر . نفس المصدر : ٧ : ٢٥٢ .

(٥) قرب البلقاء ، سميت بذلك لسواد حجارتها . معجم البلدان : ٥ : ١٥٩ .

قال العماد : وكنت راكباً فى لقائهم مع الملك العادل وهو يقول : كيف تصف ماجرى، فمدحته بقصيدة منها :

عُقِــدت بنصْرِكَ رايةُ الإيمانِ ... وبَدَتْ لعصرِك آيةُ الإحسانِ
ياغالبَ الغُلْبِ الملوك ، وصائد الصِّ (م) يد اللُّيوث ، وفارس الفرسان
ياسالب التّيجان من أربابهــا ... حُزْتَ الفخار على ذوى التّيجان
محمودٌ المحمودُ مابيْن الوَرى ... فى كل إقليم بــكل لسان
ياواحدا فى الفضل غــير مُشارَك ... أقسمت : مالك فى البسيطة ثانى
أحْــلى أمانيك الجهادُ وإنّه ... لك مؤذنٌ أبداً بــكل أمان
كم بِــكْر فتح ولَّدته ظُباك من ... حرب لقمع المشركين عَوان
كم وقعةٍ لك بالفرنج ، حديثُها ... قدْ سار فى الآفاق والبُــلدان
قمّصت قومصهم رداء من ردًى ... وقرنت رأس بِرِنْسهم بسنان
وملــكْتَ رِقّ مُلوكهم، وتركتهم ... بالذل فى الأقيــاد والأسْجان
وجعلت فى أعناقهم أغْـــلالهم ... وسحبتهم هُونًا على الأذقان
إذْ فى السّوابغ تحطم السمرُ القنا ... والبيض تخْضَب بالنّجيع القانى
وعلى غناء المشرفيّـــة فى الطلى ... والهام رقص عوالى المرّان
وكأنّ بين النّقع لمع حــديدها ... نارٌ تألّقُ من خـــلال دخان
فى مأزقٍ ورد الوريد مكفّل ... فيـــه برىّ الصّارم الظمـــآن
غطّى العجـــاج به نجومَ سمائه ... لتنوب عنهـا أنجم الخرصـان[1]
أوَ ما كفاهم ذاك حتى عاودوا ... طرُق الضلال ومركب الطغيان
ياخيبة الإفرنج حين تجمّعوا ... فى حــيْرة وأتوْا إلى حوْرَان

ومنها :

وجلوْتَ نور الدين ظلْمة كفرهم[2] ... لما أتيت بواضح الـــــبرْهان

(١) الخرص ، بتثليث الخاء ، ما على الجبة من السنان ، أو الحلقــة تطيف بأسفله ، أو الرمح نفسه ؛ والجمع خرصان؛ وجبة السنان مادخل فيه من الرمح . لسان العرب.
(٢) فى ك : ظلمهم ؛ ثم شطبت وكتب فوقها : كفرهم .

وهزمتهم بالرأى قبل لقائهم … والرأى قبل شجاعة الشّجعان

أصبحت للإسلام رُكناً ثابتاً … والكفر منك مضعْضَع الأركان

قوّضْت آساس الضلال بعزْمك الْ … ماضى ، وشدْت مبانىَ الإيمان

قُل أين مثلك فى الملوك مجاهد … لله فى سِرٍّ وفى إعلان

لم تَلْقهم ثقةً بقُوّة شوْكةٍ … لكن وثِقْت بنُصرة الرّحمن

مازال عزمك مستقلا بالّذى … لا يستقل بثقْله الثقّلان

وبلغْت بالتّأييد أقصى مبلغ … ما كان فى وُسْع ولا إمكان

دانت لك الدّنْيا ، فقاصيها إذا … حقّقته — لنفاذ أمرك — دانى

فمن العراق ، إلى الشآم ، إلى ذُرا … مصرٍ ، إلى قوصٍ ، إلى أسْوان

لم تَلْهُ عن باقى البلاد ، وإنما … ألهاك فرضُ الغزو عن همذان

للرّوم والإفرنج منْك مصائب … بالترّك ، والأكراد ، والعُربان

أذْعنْت لله المهيْمن إذْ عَنَتْ … لك أوجه الأملاك بالإذعان

أنت الّذى دون الملوك وجدتُه … ملآن من عَرْف ومن عِرْفان

(١٦٦٣) فى بأس عمرو ، فى بسالة حيْدرٍ … فى نطق قُسٍّ ، فى تُقَى سَلْمان

سِيَرٌ ، لوأن(١) الوحى ينْزل أنزلت … فى شأنها سُوَرٌ مِنَ القرآن

فاسلمْ ، طويل العُمْر ، ممتدّ المدى … صافى الحياة ، مخلّدَ السلطان

وهى قصيدة طويلة ، وصف فيها أمراءه الحاضرين الجهادَ معه ومدحهم .

فصل

فى فتح بلاد النّوبة

قال العماد : وفى جمادى الأولى غزا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، أخو صلاح الدّين ،

---

(١) بتحريك واو « لو » وتسهيل همزة أن كى يستقيم وزن البيت .

بلاد النّوبة ، وأراهم سُطاه المرهوبة وفتح حصناً لهم يعرف بإبريم[1] ، وآلى ألاّ يريم ؛ وهى بلادٌ عديمة الجدوى ، عظيمة البلوى . ثم جمع السّبى[2] وعاد به إلى أسْوان ، وفرّق على أصحابه فى الغنائم السّودان .

وقال ابن أبى طىّ الحلبى : وفى هذه السنة اجتمع السّودان والعبيد من بلاد النّوبة وخرجوا فى أمرٍ عظيمة قاصدين ملك بلاد مصْر ، وصاروا إلى أعمال الصّعيد ، وصمّموا على قصد أسوان وحصارها ، ونهب قراها . وكان بها الأمير كنز الدّولة ، [3] فأنفذ يُعلم الملك النّاصر وطلب منه نجدة ، فأنفذ قطْعة من جيشه مع الشجاع البعلبكى. فلما وصل إلى أسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخرّبوا أرضها ؛ فاتّبعهم الشجاع والكنز ، فجرت حربٌ عظيمة قُتل فيها من الفريقين عالم عظيم .

ورجع الشجاع إلى القاهرة وأخبر بفعال العبيد ، وتمكّنهم من بلاد الصّعيد ، فأنفذ الملك النّاصر أخاه شمس الدّولة فى عسكر كثيف ، فوجدهم قَدْ دخلوا بلاد النّوبة ، فسار قاصداً بلادهم وشحن مراكب كثيرة فى البحر بالرجال والميرَة ، وأمرها بإلحاقه إلى بلاد النّوبة . وسار إليها ونزل على قلْعة إبريم ، وافتتحها بعد ثلاثة أيّام ، وغنم جميع ما كان فيها من المال والكُراع والميرة ، وخلّص جماعة من الأسرى ، وأسَرَ مَنْ وجده فيها ، وهرب صاحبها .

وكتب إلى السّلطان بذلك فأنشد السّلطانَ أبُو الحسن بن الذروى[4] يهنّئه بفتح إبريم قصيدة ، منها :

---

(١) بلدة قديمة تقع على الضفة الشرقية للنيل فى منطقة النوبة المصرية التى عرفت فى العصر الرومانى باسم Naballa وفى المراجع العربية القديمة باسم مريس . انظر الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى الدكتور مصطفى مسعد : ٢٧ ، ٩٣ ، ٩٦ .

(٢) فى ل ١٦٥ ا : رجم السى .

(٣) لقب منح لأول مرة أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى لأمير أسوان أبى المكارم هبة الله بعد انتصاره على ثورة أبى ركوة . وأصبح هذا اللقب وراثيا فى أسرة أبى المكارم بعد اندماجها مع النوبيين . وكان هذا الخارج أيام صلاح الدين آخر من حمل هذا اللقب ، وقد قتله العادل ، أخو صلاح الدين سنة ٥٧٠ . انظر مفرج الكروب : ٢ : ١٦ حاشية : ٢ .

(٤) انظر فوات الوفيات ٢ : ٩٤ وكذلك حسن المحاضرة ١ : ٣٢٦ .

فقدّم العزْمَ فذا مُبتَــــدَاه يقصر ملك الأرض عن منتهاه
واسْحَبْ ذيول الجيش حتى أرى أنْجمَه طالعــة عَنْ دُجاه
سواكَ من ألقى عصاه بهـا قناعةً لّما استقرت نواه
عليك بالروم وَدَعْ صاحب الْ باج[1] إذا شئت وتُورا نشاه
فقدْ غدَت إبريمُ فى ملكه تُبرم أمراً فيه كَبْتُ العِداه
لابُد للنّوبة من نوْبة تُرضى لسُخط الكفر دينَ الإله
تظل من نوبة منسوبة لعَزمة كامنــة فى أناه
تكسو الغزاة القاطِنِى أرضها ما نسجَتْ للحرْب أيدى الغُزاه
سودٌ وتحمرّ الظُّبا حولها كأعيُن الرُّمد بدَت للأساه
(١٦٣ ب) أوْلَا ، فسُمرٌ[2] يحتميها القَنا مثل دِنَان بزّلتهــا السُّقاه
لله جَيْش منك لا ينْثنى إلّا بنصل دميت شفرتاه
ما بين عقبان ولكنهــا خيل وفرسان كمثل البزاه
آساد حرب فوق أيديهم أساود الطعن ، فهم كالحـواه
تقلّدوا الأنهار[3] واستلأموا الْ غُدران ، فالنيران تجرى مياه

قال : ثم رجع شمس الدّولة إلى أسوان ثم إلى قوص ، وكان فى صحبته أمير يقال له إبراهيم الكردى ، فطلب من شمس الدّولة قلعة إبريم فأقطعه إياها وأنفذ معه جماعة من الأكراد البطالين[4] ، فلما حصلوا فيها تفرّقوا فرقا . وكانوا يشنّون الغارات[5] على بلاد النّوبة حتى برّحوا بهم ، واكتسبوا أموالًا كثيرة حتى عفت أرزاقهم وكثرت مواشيهم. واتّفق أنهم عدّوا إلى جزيرة من بلاد النوبة تعرف بجزيرة دندان[6] فغرق أميرهم إبراهيم

(١) يعنى البجاة . وفى ل ١٦٥ ب : التاج . وقد تكون صحيحة .
(٢) فى ل ١٦٥ ب : فر .
(٣) فى ل ١٦٥ ب : آلاتها .
(٤) البطالون من الأجناد والأمراء هم العاطلون من إقطاعات الدولة ووظائفها لكبر السن ، أو لغضب السلطان ، أو لغير ذلك : السلوك : ١ : ٧٣ : حاشية : ٤ .
(٥) فى ل ١٦٥ ب ، وكذلك فى ق : الغارة .
(٦) فى ل ١٦٥ ب : ذبدان ؛ ولم أهتد إليها .

وجماعة من أصحابه ورجع من بقى منهم إلى قلعة إبريم وأخذوا جميع ما كان فيها وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين ، فعاد النوبة إليها وملكوها .

وأنفذ ملك النّوبة رسولا إلى شمس الدولة وهو مقيم بقوص ومعه كتاب فيه طلب الصلح ومع الرسول هديّة ، عبد وجارية . فكتب له جواب كتابه وأعطاه زوجىْ نشاب ، وقال مالك عندى جواب إلّا هذا . وجهّز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبى وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها ؛ فسار الحلبى مع الرّسول حتى وصل دنقله ، وهى مدينة الملك . قال مسعود فوجدت بلادا ضيّقة ليس لهم زرع إلا الذرة ، وعندهم نخل صغار منه إدامهم . ووصف مَلِكهم بأوصاف منها [أنْ] [1] قال : خرج علينا يوماً وهو عريان قد ركب فرسا عريا وقد التفّ فى ثوب أطلس وهو أقرع ليس على رأسه شعر ؛ قال فأتيت فسلمت عليه فضحك وتغاشى وأمر بى أن تكوى يدى ، فكوى عليها هيئة صليب ، وأمر لى بقدر خمسين رطلا من الدقيق ، ثم صرفنى . قال : وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط وباقيها أخصاص .

فصـــــل

فى وفاة نجم الدّين أيُّوب ، والد صَلاح الدّين ، وطرف من أخباره

قال العماد : وركب نجم الدّين أيوب فشب به فرسه بالقاهرة عند باب النصر وسط المحجّة ، يوم الاثنين الثامن عشر من ذى الحجة ، وحمل إلى منزله ، وعاش ثمانية أيام ، ثم توفّى فى يوم الثلاثاء السّابع والعشرين من ذى الحجة .

وكان كريما رحيما ، عطوفا حليما ، وبابه مزدحم الوفود ، وهو متلف الموجود ، يبذل الجود ؛ وكان ولده صلاح الدّين عنه غائبا ، وفى بلاد الكرك والشوبك على الغزاة مواظبا ، (١٦٤ ا) فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدّين فى بيت فى الدّار السلطانيّة ، ثم نقلا بعد سنتين إلى المدينة الشّريفة النبويّة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسّلام ، والتحية والإكرام ، والإجلال والإعظام ، وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٦٥ ب .

قلت : وقبرهما فى تربة الوزير جمال الدّين الأصفهانى وزير الموصل المقدّم ذكره[1]، رحمهم الله تعالى .

وقال القاضى ابن شدّاد[2] : ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدّين فشقّ ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته . وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس : وكان ، رحمه الله تعالى[3] ، شديد الرّكض وَلِعاً بلعب الكرة[4] بحيث من رآه يلعب بها يقول مايموت إلّا من وقوعه عن ظهر الفرس .

ومن كتاب فاضلىّ عن السّلطان إلى عز الدّين فرّخشاه[5] بمصر يقول فيه : « صحّ من المصاب بالمولى الدارج ، غفر الله له ذنبه ، وسقى بالرحمة تربه ، ماعظمت به اللّوعة ، واشتدت الرّوعة ، وتضاعفت لغيبتنا عن مشهده الحسرة ، فاستنجدنا بالصّبر فأبى وانحدرت العبرة ، فياله فقيداً فقد عليه العزاء ، وهانت بعده الأرزاء ، وانتثر شمل البركة بفقده فهى بعد الاجتماع أجزاء .

وتخطفتــــه يد الردى[6] فى غيبتى هبْنى حضرت ، فكنت ماذا أصنع ؟! » .

قال ابن أبى طى الحلبى : وهو الأمير نجم الدّين أيّوب بن شاذى ، ولايُعرف فى نسبه أكثر من والده شاذى . وحدّثنى أبى رحمه الله قال : كان تقى الدين عمر يزيد فيقول : شاذى بن مروان . قلت : وسمعت أنا من يقول شاذى بن مروان بن يعقوب .

قال ابن أبى طىّ : وقد ادّعى ابنُ سيف الإسلام لمّا ملك اليمن أنّهم من بنى مروان ابن محمد الجعدى المعروف بالحمار ، يعنى آخر خلفاء بنى أميّة . قال : وقد نقّبت عن ذلك فأجمع الجماعة من آل أيّوب أنّ هذا كذب ، وأنّ جميع آل أيّوب لا يعرفون جدًّا فوق

(١) انظر ما تقدم فى هذا الكتاب : ص ٣٤٣ وما بعدها .

(٢) فى النوادر : ٣٦ ؛ وهو اقتباس حرفى .

(٣) فى ل ١٦٦ ا وكذلك فى ق : وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس ، رحمه الله ، وكان شديد الركض . . . الخ .

(٤) لعبة الكرة من ألعاب الفروسية ، وكان يقام لها احتفال خاص أحياناً يخرج إليه السلطان فى موكب رسمى ، ويشترك فيهـا الأمراء . ومن أدواتها الكوجان أو الصولجان ، وهو المحجن الذى تضرب به الكرة ، وهو عصا مدهونة برأسها خشبة معقوفة . صبح الأعشى : ٤ : ٤٧ ؛ ٥ : ٤٥٨ .

(٥) هو ابن شاهنشاه بن أيوب ، تولى بعلبك وناب مدة بدمشق عن عمه صلاح الدين . توفى سنة ٥٧٨ ودفن فى قبته التى بمدرسته . انظر شذرات الذهب : ٤ : ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(٦) فى ل ١٦٦ ا : أيدى الردى ؛ ولا يستقيم الوزن به.

شاذى . وكذلك أخبرنى السلطان الملك النّاصر رحمه الله .

قلت : ودليل صحة ذلك أنى وقفت على كتاب وقف الرّباط النّجمى بدمشق ولم يزد فيه على نجم الدّين أبو سعيد أيوب بن شاذى العادلى . وابن سيف الإسلام هذا هو أبو الفداء اسماعيل ، بن طغتكين بن أيوب بن شاذى ، ابن أخى السلطان صلاح الدين ؛ ملك اليمن بعد أبيه وتماظم إلى أنْ ولّى نفسه الخلافة وادّعى أنّه من بنى أميّة ، وعزم على إعادة الخلافة من بنى هاشم إلى بنى أمية ؛ وله فى ذلك أشعار كثيرة ؛ وتلقّب بالإمام الهادى بنور الله المعزّ لدين الله أمير المؤمنين ، ومدحه كثير من الشّعراء بذلك وزيّنُوا له فعله وما هو فيه . فمن شعره :

وإنّى أنا الهادى الخليفـــــة والّذى أدوس رقاب الغُلب بالضُّمّر الْجُرد

(١٦٤ب) ولا بدّ مِنْ بغداد أطوى ربوعها وأنشرها نشر السّماسر للبرد

وأنصب أعلامى على شرفاتهــــــا وأحيى بها ما كان أسسه جـــــدّى

ويُخطب لى فيهـــــا على كل منبر وأظهر دين الله فى الغور والنّجــــد

ثم قال ابن أبى طىّ : وكان نجم الدينْ أيوب عدلا مرضيا كثير الصّلاة والصّلات ، غزير الصدقات والخيرات ، يحبّ العلماء ، ويميل إلى الفضلاء ؛ وكان مُمَدّحا ، مدحه العماد الـكاتب بجملة قصائد .

قال : وكان مولد نجم الدين أيوب ببلد شبختان ، كذا حكاه مؤيد الدين ابن منقذ . وحدّثنى جماعة أنّ مولد نجم الدين كان بجبل جور [1] ، وربى فى بلد الموصل . ونشأشجاعا باسلاً ، وخدم السلطان محمد بن ملـكشاه [2] فرأى منه أمانة وعقلاً ، وسداداً وشهامة ؛ فولّاه قلعة تـكريت [3] ، فقام فى ولايتها أحسن قيام وضَبَطَها أكرم ضبط ، وأجْلى مِن

(١) يعرفها ياقوت بأنها كورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحى أرمينية ، وفيها قلاع وقرى ، وأهلها نصارى . معجم البلدان : ٣ : ٤٩

(٢) غياث الدين أبو شجاع ؛ تولى السلطنة السلجوقية بعد وفاة أخيه بركياروق ، وكانت بينهما حرب قبيل ذلك ، وبقى فى السلطنة حتى توفى سنة ٥١١ . انظر كتاب السلجوقية للعماد الـكاتب ، وكذلك كتاب : Muhammadan Dynasties.

(٣) تـكريت بفتح التاء وكسرها : غربى دجلة بين بغداد والموصل وهى إلى بغداد أقرب وتبعد عنها ثلاثين فرسخا . معجم البلدان : ٢ : ٣٩٩-٤٠١ .

أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العيث ، حتى عمرت أرضها ، وحسن حال أهلها ، وأمنت سبلها .

فلما ولى السلطان مسعود[1] الملك أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدّين بهروز الخادم شحنة بغداد ومُتولّى العراق ؛ وكان هذا بهروز أميراً ينفذ أمره فى جميع العراق إلى الموصل إلى أصفهان ، وكانت خيله خمسة آلاف فارس ؛ فأقر الأمير نجم الدّين فى ولاية تكريت ، وأضاف إليه النظر فى جميع الولاية المتاخمة له ، وقرّر أمره عند السلطان مسعود وجعل بهروز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله ، وجعل جميع ذلك منوطا بالأمير نجم الدّين ومَعْذُوقاً بهمّته .

وكان نجم الدين عظيما فى أنفس النّاس بالدين والخير وحسن السياسة ؛ وكان لا يمرّ أحد من أهل العلم والدين به إلّا حمل إليه المال والضيافة الجليلة ، وكان لا يسمع بأحد من من أهل الدين فى مدينة إلّا أنفذ إليه .

وقد ذكر العماد الكاتب فى سيرة السلجوقية[2] الأمير نجم الدّين وقرّظه وأثنى عليه ، وذكر من دينه وعفته ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء حسنة ؛ وحكى قضية عمّه [3] العزيز حين حبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدركزينى[4] وأمره بقتله ، فأبى نجم الدين إلى أن قتله بهروز بنفسه بأمر الدّركزينى .

ثم إن السلطان مسعوداً حشد وخرج فى أخذ السّلطنة وطمع هو وأتابك زنكى بن آق سنقر فى بغداد ، وجردَا[5] عسكراً ضخما وسارا[5] إلى تكريت طامعيْن فى بغداد ، واتصل

(١) غياث الملك من سلاجقة العراق ، تولى السلطنة بين سنتى ٥٢٧ ــ ٥٤٧ . انظر : Muhammadan Dynasties

(٢) ١٥٢ ــ ١٥٣ (٣) عم العماد الأصفهانى ،

(٤) أبو القاسم الأنساباذى الدركزينى . تولى الوزارة للسلطان طى بن محمد بن ملكشاه سنة ٥١٨ ، ثم لأخيه السلطان طغرل ، وقد قتله طغرل سنة ٥٢٧ . يقول العماد : وأنساباذ ضيعة من إقليم الأعلم قريبة من دركزين فنسب نفسه إليها لأنها أكبر . ويتهمه العماد بأنه كان من الملحدين ، من جماعة المزدكية الخرمية ؛ ويذكر أنه نكل فى أثناء وزارته بكثير من أعلام الدولة ، وفيهم العزيز عم العماد . انظر السلجوقية ، فى مواضع مختلفة ، وانظر كذلك : معجم البلدان ، ١ : ٣٥١ ؛ ٤ : ٥٤

(٥) الفعلان مسندان ، خطأ ، إلى ضمير المفرد فى ل ١٦٧ ا .

هـذا الخبر بقراجه السّاقى ، وهو أتابك ابن السلطان محمود ، فجرد ألف فارس للقـاء زنـكى ، ثم أردفهم بعسكرٍ ضخم ، فانهزم زنـكى وقُتل جماعة من أصحابه ونهب جميع ما كان فى عسكره ، ولجأ إلى سور تـكريت وبه عدة جراحات . وعلم مكانه الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه فتحاه إلى القلعة بحبال وداوَياَ جراحاته ، وخدماه أحسن خدمة (١٦٥ ا) وتقربا إليه؛ فأقام عندهما بتكويت خمسة عشر يوماً . ثم سار إلى الموصل ، وأعوزه الظّهر ، فأعطياه جميع ما كان عندها من الظّهر حتى إنّهما أعطياه جملة من البقر حمل عليها ماسلم معه مِنْ أمتعته . فـكان زنـكى يرى لأيوب هـذه اليد ويعرف له هـذه الصّنيعة ، ويواصله بالهدايا والألطاف مدة مُقامه فى تـكريت . فلما انفصل [نجم الدين][1] عنها ، على ماسنذكره ، تلقّاه زنـكى بالرحب والسّمة ، واحترمه احتراماً عظيماً وأقطعه عدة قطائع .

وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة حتى ملك بذلك حبّات قلوبهم . وكان أخوه شيركوه معه فى القلعة ، وكان شجاعاً باسلا ، ينزل من القلعة ويصعد إليهـا فى أسبابه وحاجاته . وكان نجم الدين لا يفارق القلعة ولا ينزل منها . فاتّفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه ثم عاد إليها ، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارض ، وكان رجلاً نصرانياً ، فاتّفق فى ذلك اليوم أن النّصرانى صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة فعبث به بكلمة مُمِضّة ، فجرد أسد الدين سيفه وقتل النّصرانى وصعد إلى القلعة ، وكان مهيبا ، فلم يتجاسر أحدٌ على معارضته فى أمر النّصرانى بشىء[2] ، وأخذ النّصرانى برجله فألقى من القلعة .

وبلغ بهروز صاحب قلعة تـكريت ماجرى ، وحضر عنـده مَنْ خوفه جُرأة أسد الدين وأنه ذو عشيرة كبيرة ، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا ، وأنه ربما كان منهما أمرٌ تخشى عاقبته ويصعب استدراكه . فـكتب إلى نجم الدين يُنكر

---

(١) أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

(٢) ساقطة من ل ١٦٧ ا ، وكذلك من ق .

عليه ماجرى من أخيه ويأمره بتسليم القلعة إلى نائبٍ سيّره صُحبة الكتاب ؛ فأجاب نجم الدين [إلى][1] ذلك بالسمع والطاعة ، وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهلٍ ومال ، واجتمع هو وأخوه أسد الدين وصمّما على قصد عماد الدين زنكى بالموصل .

وقيل إن أسد الدين كان خرج إلى الموصل قبل نجم الدين .

وأعْظم أهلُ تكريت خروج نجم الدين مِنْ بين أظهرهم ، ولم يبق أحدٌ إلا خرج لتوديعه وأظهر البكاء والأسف على مفارقته .

ولمّا اتصل بأتابك زنكى قُدومُهما أفرحه ذلك وأمر الموكب بلقائهما وأكرمهما إكراما عظيماً ، وأقْطعهما فى بلد شهرزور إقطاعا سنّيا ؛ وقيل إنه أقطع أسد الدين بالمؤْزّر[2] .

وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير مودة عظيمة حتى حلف كل واحد منهما للآخر أنه يقوم بأمره فى حياته وبعد وفاته . وتجرد جمال الدين فى أمر أسد الدين وأمرِ أخيه نجم الدين حتى قربهما من قلب أتابك [زنكى][3] وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة . وخرجا معه إلى الشام وشهدا معه حروب الكفّار وقتال الفرنج ، لعنهم الله تعالى ، وكان لأسد الدين فى تلك الوقائع اليد البيضاء والفَعْلَةُ الغراء .

وحدثنى أبى رحمه الله قال: حدّثنى سعد الدولة أبو اليامن المؤملى ، وكان أحد أصحاب نجم الدّين أيوب ، (١٦٥ ب) قال : وحدّثنى أيضا بهذه الحكاية مجد الدين بن داية الملك الصالح قال : حدّثنى حسام الدّين سنقر غلام الأمير نجم الدين أبى طالب ، وكان سنقر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذى ، قال : كنت فى صحابة الأمير نجم الدين لما أنفذه نور الدين بن زنكى إلى ابنه السلطان الملك الناصر إلى مصر مِنْ أجل قطع خطبة المصريين وإقامة دعوى بنى العباس ، فى أوّل سنة سبع وستين وخمسمائة ؛ واتّفق أنّى كنت حاضراً وقد اجتمع السلطان الملك الناصر ووالده الأمير نجم الدين فى دار الوزارة وقد

---

(١) مابين الحاصرتين من ل ١٦٧ ب .
(٢) كورة بالجزيرة بها مدينة نصيبين . معجم البلدان : ٨ : ١٩٣
(٣) أضيف مابين الحاصرتين للايضاح .

قعدا على طُرّاحة [1] واحدة ، والمجلس خاصٌّ بأرباب الدولتين ، وعنـد الناس من الفرح والسرور ماقد أذهل العقول . فبينْا الناس كذلك إذ تقدّم كاتب نصرانىّ كان فى خدمة الأمير نجم الدين فقبّل الأرض بين يدى السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين ، والتفت إلى نجم الدين وقال له : يامولاى هذا تأويل مقالتى لك بالأمس حين وُلد هذا السلطان . فضحك نجم الدين وقال : صدقت والله. ثم أخذ فى حمد الله وشكره والثناء عليه ، والتفت إلى الجماعة الّذين حوله ، من أكابر العلماء [2] ، والقضاة والأمراء ، وقال : لـكلام هذا النّصرانىّ حكايةٌ عجيبة ، وذلك أنّنى ليلة رُزقت هذا الولد ، يعنى السلطان الملك الناصر ، أمرنى صاحب قلعة تـكريت [3] بالرّحلة عنهـا بسبب الفعْلة الّتى كانت من أخى أسد الدّين شيركوه رحمه الله وقتْله النّصرانى ؛ وكنت قد أَلِفْتُ القلعة وصارت لى كالوطن، فثقُل علىّ الخروج منها والتّحوُّل عنها إلى غيرها ، واغتمَمْت لذلك . وفى ذلك الوقت جاءنى البشير بولادته فتشاءمت به وتطيّرت لِماَ جرى علىّ ، ولم أفرح به ولم أستبشر . وخرجنا من القَلعة وأنا على طِيَرتى به لا أكاد أذكره ولا أسمّيه . وكان هذا النّصرانىّ معى كاتباً؛ فلما رأى مانزل بى من كراهيةِ الطفل والتشاؤم به استدعى منّى أن آذن له فى الـكلام ، فأذنت له ، فقال لى : يامولاى قد رأيت ماقد حدث عندك من الطّيَرَة بهذا الصبى وأىّ شىء له من الذنب ، وبما استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضرّ ولا يُغْنى شيئاً ! وهذا الذى جرى عليك قضاء من الله تعالى سبحانه وقدر ، ثم مايُدريك أنّ هذا الطفل يكون ملِـكاً عظيم الصيت جليل المقدار . فعطفنى كلامه عليه ؛ وهاهو [ذا] [4] قد أوقفنى على ما كان قاله . فتعجّب الجماعة من هـذا الاتّفاق وحمـد السلطـان ووالده الله سبحانه وشـكراه .

قلت : ولُمارة فى نجم الدين مدائح ومراثٍ . منْها قوله [5] :

(١) الطراحة : مرتبة تفرش للسلطان إذا أراد الجلوس : Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٢) ما بين الفاصلتين ساقط من ل ١٦٧ ب ، وكذلك من ق .

(٣) فى ك هنا زيادة لا لزوم لها ، ونصها : فى تلك الليلة .

(٤) أضيف مابين الحاصرتين للتصحيح ، إذ أن الرأى المشهور يقضى بضرورة ذكر اسم الإشارة المناسب فى مثل هذا التركيب كما فى قوله تعالى : « هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونـكم » وما ورد بغير اسم الإشارة شعرا فهو خلاف المشهور .

(٥) فى النـكت العصرية : ٣٥٥ ـ ٣٥٦ مقتبسات أخرى من هذه القصيدة .

ثغــر الزمان بنجم الدين مبتسم ووجهــه بـدوام العزّ متّسم

يقول فيها :

أضحى بك النّيل محجوجا ومُعْتَمرا كأنّما حلّ فيــه الحلّ والحرم
جاءت بَنُوك وشمـل الدين منتثر فقارعوا عنـه ، فهو اليوم مُنْتظم
وما درى أحدٌ من قبل رؤيتهم أنّ الحظوظ بلثم الأرض تقْتَسم
نامت عيون الورى فى عدل سيرتهم كأنّ يقْظتنـا فى عصرهم حـلُم
والناصر ابنُك كافى كلّ معضلة إذا الحوادثُ لم يُكشف لها غمم
أعزّ بالبأس والإحسان حوْزَتَنا فلم يُلِمّ بنـا خوف ولا عـدم
تبسم الدّست مِنْ أيوب عن ملكٍ تَنْحطّ عن قَدره الأقْدار والهمم

وقال فى مرثية [1] :

هى الصدمةُ الأولى فمن بان صبره على هول ملقاها تَضاعف أجره
أذمُّ صبـاح الأربعاء ، فإنّه تَبَسّم عن ثغر المنيّـة فجره
أصاب الهـدى فى نجمه بمصيبة تداعى سماك الجوّ منها [2] ونسره
فلا تعذلونا ، واعذرونا ، فمن بكى على فقـد أيوب فقد بان عُذره
أقام بأعمال الغزاة ، وخيــلُه يُراعُ بهـا نِيل العزيز ومصره
إلى أنْ رماها من أخيـه بضيغم فرى نابُه أهـل الصّليب وظفره
فلمـا قضى نحبى حيـاة ودولة بأمرك فى إدراكهـا تمّ أمره
تعاقَبتما مصراً تَعاقُب وابـلٍ يبيت بقُطر النّيل ينهـلُّ قَطره
نزلْتَ بدارٍ حلّها فخلتهـا فمَغْناك مغْناه ، وقطرك قطــره
وآخيتــه [3] فى البرّ حيّا وميّتا فقــبرك فى دار القرار وقبره
وقد شخصت أهل البقيع إليكما وإلّا فسكّان الحجون وحجره
هنيئاً لملك ماتَ والعزّ عزه وقُدْرته فوق الرّجال وقدره

---

(١) تجد بعض أبيات هذه القصيدة فى النكت العصرية : ٢٦٠ ـ ٢٦١ ؛ وهى هنا أكمل . راجع كذلك مفرج الكروب : ١ : ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

(٢) فى مفرج الكروب : فيه .

(١) فى الأصل : وواخيته .

وأدركَ من طول الحيــاة مراده ... وما طال إلّا فى رضا الله عمره
وأسعد خلق الله مَنْ مات بعدما ... رأى فى بنى أبْنائه مايسرّه
شهيـــد تلقّى ربّه وهو صائم ... فـكان على أجر الشّهادة فطره
مضى وهو راضٍ عنك لم ترم صدره ... لضيق، ولاجاشت من الغيظ قِدره
حمى حوزة الإسلام والدين بعده ... ثمانيـــة من أجلهم عزّ نَصره
فكيف بخيس[1] آل أيوب أسده ... لقد بان خوف الدهر منه وذعره
رعى الله نجماً تعرف الشّمس أنّه ... أبوها ، ونورُ البدر منها ، وزهره
وأبقى المقـــام النّاصرىّ ، فإنّه ... لدولتــكم كنز الرّجاء وذخره

وقال أيضا :

صفو الحياة و إنْ طال المدى كدر ... وحادث الموت لايبقى ولا يذر[2]
ومايزال لسان الدهر[3] ينـــذرنا ... لو أثّرت عندنا الآيات والنــــذر
فلا تقُل غرت الدنيا مطامعنـــا ... فما مَعَ الموت لا غشّ ولا كدر
كأسٌ إذا ما الردى حيا الحياة بها ... لم ينجُ مِنْ سكرها أنثى ولا ذكر
كمْ شامخ العزّ لاقى الذل من يدها ... ماأضعف القَدْر إنْ ألوى به القَدَر
فى كل جيلٍ وعصْر مِنْ وقائعها ... شعواء يقطر منهــا النّاب والظّفر
(١٦٦ب)أودى علىّ وعثمان بمخلبها ... ولم[4] يُفْتهـا أبو بـكر ولا عُمر
ومَنْ أراد التّأسّى فى مصيبتـــه ... فلِلْورى برسول الله معتـــبر
نجمٌ هوى من سماء الدين منكدرا ... والنّجم من أفْقه يهوى و ينـكدر
منظومة أنجم الجوزاء من جزع ... له ، وعِقــد الثّريا منـــه منْتَثِر
وكيف يُنسى محياه الـكريمُ، ومِنْ ... نُعماه فى كلّ عيش صالح أثر

---

(١) فى ل ١٦٨ ب : بخيس . والخيس : الشجر الـكثير الملتف وموضـع الأسد كالخيسة . القاموس المحيط .

(٢) يتبادل هذا البيت وما بعده مكانيهما فى ك . والترتيب الموجود هنا من ل ١٦٨ ب ، وهو مطابق لمـا جاء فى ق أيضا ، وهو أكثر مناسبة .

(٣) فى ل ١٦٨ ب : لسانى . وهو خطأ .

(٤) فى ك : ولا . والتصحيح من ل .

جدّدت من أسد الدين الشهيد لنا حُزْناً ، به يتساوى الصبر والصبر
قد كان للدين والدنيا بعزمكما ذكر يعبر عنه الصارم الذكر
إن فاح نشر كلام تُمدحان به مِسكاً فعترة أيوب هى العتر
تخفى ذبالُ مصابيح إذا طلعوا صُبحاً وتنسى ملوك الأرض إنْ ذكروا
كأنما صوّر الله الكمال بهم شخصاً ، ويوسفُ منه السمع والبصر
لا «شوبك» منه معصوم ولا «كرك» ولا «جليل» ولا «قدس» ولا «زغر»[1]
لم يرتحل قافلاً إلّا وساكنها إما مباحٌ حماه ، أو دمٌ هدر
مامات أيوبُ إلا بعد معجزة فى المجد لم يؤتها من جنسه بشر
مضى سعيدا من الدنيا وليس له فى رتبة أرَبٌ باقٍ ولا وطر
وطوّل الله منه باع أربعة منها : النّدى ، والتقى ، والملك ، والعُمُر
وأشرفُ الملكِ ما امتدّت مسافته فى صحّة أخواها العقل والكبر
ومن سعادته أنْ مات لا سأمٌ يشكوه منه مُعانيه ولا ضجر

فصــل

قال العماد : وسار نور الدين [قاصداً جانب الشّمال لتسديد ما اختلّ هناك من الأحوال . فسار إلى بعلبك ومنها[2]] إلى حمص ثمّ حلب ، وفعل فى كلٍّ منها من المصالح ماوجب ؛ وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم[3] ففتح مرعش فى العشرين من ذى القعدة ثم فتح بَهَسْنَى ، واتّبع فى كل منهما [الطريقة][2] الحسنى .

(١) فى طرف البحر الميت بينها و بين القدس ثلاثة أيام بتقدير ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٣٩٣ - ٣٩٤ .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من صميم ك ومضاف بهـا مثبها ، وهو فى ل ، وكذلك فى ق ، فى صميم المتن .

(٣) من سلاجقة الروم ، وهو عز الدين بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش . تولى بين سنتى ٥٥١ ، ٥٨٤ ، وقسم المملكة بين أولاده ، وتوفى سنة ٥٨٨ . انظر كتاب ستانلى لين پول : Muhammadan Dynasties, p. 155 وانظر كذلك معجم الأنساب لزمباور : ٢١٥ ، ترجمة زكى حسن وحسن أحمد محمود . ويلاحظ أن ما جاء فى شجرة النسب التى أعدها لين پول مقابل ص : ١٥٢ فى كتابه يدل على أن قليج أرسلان (الثانى) هذا ابن ملك شاه (الثانى) لا ابن مسعود ؛ وهذا يخالف ماسيجىء هنا بعد قليل . أما زامباور فيوافق ما جاء هنا .

وكتب العماد إلى صديقٍ له بدمشق ، وكان سافر عنها مع نور الدين فى أطيب فصولها وهو زمن المشمش :

كتابى ، فديتُك ، من مَرعش وخوفُ نوائبهـــا مُرْعشى
وما مرَّ فى طرفهـــا مُبصرٌ صحيحُ النـــواظر إلّا غُشى
وما حلَّ فى أرضهـــا آمنٌ من الضّيم والضّر إلّا خشى
تُرنّحُنى نشَواتُ الغَرام كأنّىَ من كأســـه منْتشى
أُسِرُّ وأُعلن برْحَ الجـــوى فقلبى يُسِرُّ ودمعى يَشى
بذلت لكم مهجتى رشوةً فـــاكم حبّكمُ مرتشى
وكيف يَلَذّ الكرى مغرم بنـــار الغرام حشـــاه حشى
بمرعش أبقى وبلّوطهـــا مضاهاة جِلّق والمشمش

قال العماد فى الخريدة : فسارت هذه القطعة ونُمى حديثها إلى نُور الدّين ، فاستنشدنيها، فأنشدتُها إيّاه ونحن سائرون فى وادٍ كثير الأشجار مع بيتين بدهت بهمـا فى الحال ، وهما .

وبالملك العـادل استأنست نجاحاً مُنى كلّ مستوحش
وما فى الأنام كريمٌ سواه فإن كنتَ تنكر ذا فتش

قال ابن الأثير (١) : وفى سنة ثمان وستين سار نور الدّين رحمه الله نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقى ، وهى ملطية وسيواس وقونية وأقصرا ، عازما على حربه وأخذ بلاده منه .

وكان سبب ذلك أنّ ذا النّون بن دانشمند(٢) صاحب ملطية وسيواس وغيرهما

(١) فى الأتابكة : ٢٩٠ ـ ٢٩٢ ؛ وهو اقتباس حرفى .

(٢) دانشمند ، هو الأمير التركى الذى كون لنفسه إمارة مستقلة عن السلاجقة فى مدن ملطية وسيواس وقيسارية ، وذلك فى أثناء تقدم السلاجقة نحو آسيا الصغرى . وقد لعب أفراد أسرته دورا هاما فى تاريخ الحروب الصليبية ؛ ولم تلبث دولتهم أن بدأت فى الانهيار بعد سنة ٥٦٠ . وقد حكم « ذو النون » هذا فى مناسبتين ، أولاهما بين سنتى ٥٣٧ ـ ٥٥٠ ؛ وثانيتهما ، التى يدور الحديث عنها هنا ، بين سنتى ٥٦٤ ـ ٥٦٩ وتوفى فى نهاية هـذه الفترة الثانية . انظر : Muhammaden Dynasties; p. 156 وكذلك : معجم الأنساب : ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

من تلك البلاد قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً فريداً ، فسار إلى نور الدّين مستجيراً وملتجئا إلى ظلّه ، فأكرم نُزله وأحسن إليه ، وحمل له مايليق أن يُحمل للملوك ، ووعده النّصر والسّعى فى ردّ ملكه إليه . وكانت عادة نور الدّين أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلّا ضرورةً ، إمّا ليستعين بها على قتال الفرنج أو للخوف عليها منهم ، كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما . فلمّا قصده ذو النّون راسل قليج أرسلان وشفع إليه فى إعادة ماغلبه عليه من بلاده فلم يجبه إلى ذلك ، فسار نور الدين نحوه فابتدأ بكيسون[1] وبهسنى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها من الحصون ، وسيّر طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها .

وكان قليج أرسلان لمّا بلغه قصد نور الدّين بلاده قد سار من أطرافها التّى تلى الشّام إلى وسطها خوفاً وفرَقا ، وراسل نور الدّين يستعطفه ويسأله الصّلح والصّفح عنه ؛ فتوقّف نور الدّين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب ، فأتاه من الفرنج ماأزعجه فأجابه إلى الصّلح .

وكان فى جملة رسالة نور الدّين إليه : « إننى أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء : أحدها أنْ تجدّد إسلامك على يد رسولى حتّى يحلّ لى إقرارك على بلاد الإسلام ، فإنّى لا أعتقدك مؤمناً — وكان قليج أرسلان يتّهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة — والثّانى إذا طلبت عسكرك للغزاة تسيّره فإنّك قد ملكت طُرفا كبيرا من بلاد الإسلام وتركت الرّوم وجهادهم وهادنتهم ، فإمّا أن تكون تُنجدنى بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج وإمّا أن تجاهد مَنْ يجاورك من الرّوم وتبذل الوسع والجهد فى جهادهم . والثالث أنْ تزوّج ابنتك لسيف الدين غازى ولد أخى » . وذكر أموراً غيرها .

فلمّا سمع قليج أرسلان الرّسالة قال : ماقصد نور الدّين إلّا الشّناعة علىّ بالزندقة ، وقد أجبتُه إلى ماطلب ، أنا أجدّد إسلامى على يد رسوله . واستقرّ الصّلح وعاد نور الدين وترك عسكره فى سيواس مع فخر الدّين عبد المسيح فى خدمة ذى النّون ، فبقى العسكر

(١) لعل المقصود بها كيسوم التى يعرفها ياقوت بأنها قرية من أعمال سميساط ، وتسمى أيضا روضة أكسوم ويكسوم . ويؤيد هذا حديثه عن بهسنى (بهسنا) إذ يقول إنهـا قلعة عجيبـة قرب مرعش وسميساط ورستاقها هو رستاق كيسوم معجم البلدان : ٢ : ٣١٥ ؛ ٧ : ٣٠٦ .

بهـا إلى أنْ مات نور الدين رحمـه الله تعـالى ، فرحـل العسكر عنهـا وعاد قليج أرسلان وملـكها .

قال العماد : وفى هـذه السنة وصل الفقيه الإمام الـكبير (١٦٧ ب) قطب الدّين النّيسابورى ، وهو فقيه عصره ونسيج وحـده ، فسر نور الدين به وأنزله بحلب بمـدرسة باب العراق ، ثم أطلعه إلى دمشق ، فدرس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدسى رحمه الله ، ونزل بمدرسة الجاروق [١] . وشرع نور الدين فى إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية لفضله ، وأدركه الأجل دون إدراك عملها لأجله .

قلت : هى المدرسة العادليّة الآن التى بناها بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين وفيها تربته [٢] ، وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين ومَنْ بعده منها وهو موضع المسجد والمحراب الآن . ثم لمّا بناها الملك العادل أزال تلك العمارة و بناها هذا البناء المتقن المحـكم الذى لا نظير له فى بنيان المدارس ، وهى المأوى وبها المثوى ، وفيها قدر الله تعالى جمع هذا الـكتاب فلا أُقفر ذلك المنزل ولا أقوى [٣] .

وبقى قطب الدين إلى أن توفى فى الأيام الناصرية فى سنة ثمان وسبعين . وقد وقف كتبه على طلبة العلم ، ونقلت بعد بناء هذه المدرسة إليها ، فما فاتها ثمرته إذ فاتهـا مباشرته رحمه الله تعالى .

قال العماد : وكان وفد فى سـنة أربع وستين شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن على بن محمـد بن حمويه ، فأقبل عليه نور الدين وأمرنى بإنشاء منشور له بمشيخة الصوفية ، ورغبه فى المقام بالإحسان إليه بالشام . ومن جملة ما أتحفه به عمامة بأعمدة ذهبيّة أنفذها صلاح الدين من مصر ، فبـذل فيها ألف دينـار بزنة ذهبها فلم يجب من سامها إلى طلبها .

---

(١) هى الجاروخية ، وكانت داخل بابى الفرج والفراديس شمال الجامع الأموى ، بناها سيف الدين جاروخ التركمانى . انظر . الدارس فى تاريخ المدارس : ١ : ٢٢٥ وما بعدها ، وكذلك : ٣٦١ .

(٢) وهى المدرسة العادلية الـكبرى التى أنشأها العادل داخل دمشق شمالى الجامع . انظر : الدارس : ٢ : ١٥٩ وما بعدها ، وانظر كذلك : خطط الشام : ٦ : ٨٣ .

(٣) أقام أبو شامة بالمدرسة العادلية ، مع أسرته ، مدة طويلة . انظر الدراسة التى تقدمت أول هـذا الـكتاب (ص : ٦ـ٧) .

قلت وقد سبق ذكر هـذه العامة فى أخبار نور الدين أول الكتاب من كلام ابن الأثير[1] ، وابن المعطى إياها وهو الشيخ تاج الدين عبد الله ، رحمهم الله تعالى .

ثم ذكر العماد نسخة المنشور وفيه : « فلينظر فى رباط السميساطى وقبّة الطواويس ورباط الطّاحونة وغيرها من ربط الصوفية[2] بدمشق المعمورة وبعلبك » .

ثم ذكر العماد أنه فى آخر شعبان من هـذه السنة قبل الرحيل من دمشق كان أهدى إلى صديقه الفاضل الأديب علم الدين الحسن بن سعيد الشاتانى[3] قطائف وكتب إليه :

ما راقدات فى صحون ... مستوطنات فى سكون
يجلين أمثال العرا ... ئس بين أبكار وعون
أو كالعقائل فى الخدو ... رِ قد اعتقلن على ديون
هن اللذيذات اللوا ... ئذ بالسهول من الحزون
أو كالنّمائم للصحا ... ف ، وما نسبن إلى جنون
السّكريات الغـريـ ... ـقات الغلائل والشئون
صرعى وما دارت لها ... يوما رحى الحرب الزّبون
لُقّفن فى أكفانهـ ... ـن (م) على المنى لا للمنون
يحيين بالتغريق بـ ... ـل يَسْمنّ فى ضيق السجون
المستطابات الظهـو ... ر المستلذات البطون
(١٦٨ ا) نضدن بالترصيع فى الـ ... ـجامات كالدرّ المصون

---

(١) انظر ص : ١٣ من هذا الكتاب .

(٢) فى ل ١٧٠ ا : من الربط الذى للصوفية .

(٣) هو الحسن بن سعيد بن عبد الله الشاتانى من شعراء الموصل ؛ وفد إلى مصر سنة ٥٧٢ ، وقربه الأمير فرخشاه منه . انظر شذرات الذهب ؛ البداية والنهاية ، وكذلك وفيات الأعيان : ١ : ١٤٠ ؛ والنجوم الزاهرة : ٦ : ٤٨ .

المستقـــيات الصفـو ف وقفن كالخيل الصّفون
وقد اشتملن من اللّطـــا ئف والصفات على فنون
اسمـع حديثى فى ا نبسا طى فالحديث أخو شجون

وهى أكثر من هذا .

فصل

قال العماد : قد سبق ذكر مليح بن لاون مقدم بلاد الأرمن والتجائه إلى نور الدين وتطاوله بقوته على الروم والأرمن . وكانت الدروب : أذنه ، والمصيصة ، وسيواس ، يحميها كلب الروم ويضبطها بجنده ، حتى استولى عليها مليح بن لاون فكسرهم وقتل وأسر ، وساق لنور الدين من مقدمى الروم ثلاثين أسيرا . فأرسل نور الدين القاضى كمال الدين الشهرزورى بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضىء بأمر الله ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد و يقول فيه : .

« وقسطنطينية والقدس يجريان إلى أمـد الفتوح فى مضمار المنافسة ، وكلاهما فى وحشة ليـل الظلام المدلهمّ على انتظار صباح المؤانسة ، والله تعـالى بكرمه يدنى قطاف الفتحين لأهل الإسلام، و يوفق الخادم لحيازة مراضى الأمام » .

وفى آخره [1] : « ومن جملة حسنات هذه الأيام الزاهرة ما تَسنّى فى هذه النّوبة ، من افتتاح بعض بلاد النّوبة والوصول إلى مواضع منها لم تطرقها سنابك الخيل الإسلامية فى العصور الخالية . وكذلك استولت عساكر مصر أيضا على برقة وحصونها ، وتحكموا فى محكم معاقلها ومصونها ، حتى بلغوا إلى حـدود المغرب ، فظفروا من السّؤال بعنقاء مُغرب » .

قلت : كان اتّفق فى هذه السنة وصول قراقوش غلام تقىّ الدين من الديار المصرية

(١) يسبق هـذا فى مفرج الكروب عنوان : فصل فى فتح بلاد النوبة والمغرب ـ انظر مفرج الكروب : ١ : ٢٣٥ .

مع طائفة من الترك وانضم إليهم جماعة من العرب فاستولى على طرابلس وكثير من بلاد إفريقية ما خلا المهدية (١) وسَفَاقُس (٢) وقَفْصة (٣) وتُونس (٤) .

وفى آخر ذلك الكتاب : « ونسأل الله التوفيق لا ستدناء قواصى المنى، وإقصاء عبدة الصليب الأنجاس من المسجد الأقصى ، وأن يجعل فتح البيت المقدس مفتتح مراده ، ومقتدح زناده ، ومُقترحه فى جهاده ، وأن يملكه الساحل بجميع بلاده » .

وسير العماد معه قصيدة منها :

بالمستضىء أبى محمد الحسن ... رجعت أمور المسلمين إلى السنن

فى أرض مصر دعا له خطباؤها ... وأتت لتخطب بكر خطبته عدن

فالمغرب الأقصى بذلك(٥) مشرق ... وبنصر مصر محقق يمْن اليمن

ورأى الإله المستضىء لشرعه ... وعباده نعم الأمين المؤتمن

سر النبوة كامن فيه وَمِنْ ... فطرِ الإمامة مشرق نور الفطن

تقوى أبى بكر، ومن عمر الهدى ... وحياء عثمان ، وعلم أبى الحسن

وبجده عرفت مقالة حيدر ... لامن دَدٍ أنا،لا،ولامنى الددن(٦)

(١٦٨ ب) (كم من عدوٍّ ميت فى جلدِه ... رعبا وخوفا، فهو حى فى كفن) (٧)

---

(١) أنشأها عبيدالله المهدى الفاطمى بقرب القيروان لتكون عاصمة لدولته ، وبدأ إنشاءها سنة ٣٠٠ وانتقل إليها سنة ٣٠٨ معجم البلدان : ٨ : ٢٠٥ - ٢٠٨ .

(٢) على مقربة من المهدية وسوس وقابس ، على ضفة الساحل فى وسط غابة للزيتون . وكان لها سور عظيم : نفس المصدر : ٥ : ٨٧ - ٨٨ .

(٣) فى طرف مقاطعة إفريقية من ناحية المغرب ،فى أرض سبخة ، ولها سور: نفس المصدر :٧: ١٣٨ .

(٤) كان تقى الدين عمر طموحا غيورا ؛ وقد رأى تورانشاه يستولى لنفسه على اليمن ، فطمع فى أن يؤسس هو أيضا ملكا له بالمغرب.وكان صلاح الدين يترضاه كثيرا،فنحه مدينةعزاز إقطاعا لهسنة ٥٧١؛ وجعله نائبا عنه فى مصر سنة ٥٧٩ وأرسل معه القاضى الفاضل ؛ وانصرف تقىّ الدين بجنوده عن عكا، سنة ٥٨٧ ، إلى إقطاعه فيما وراء الفرات طامعا فى توسيع ممتلكاته ، وهناك توفى . وسيأتى تفصيل هذا كله فى مناسباته .

(٥) فى ك : لذاك : والتصحيح من ل ١٧٠ ب .

(٦) الدد ، والددن : اللهو واللعب : القاموس المحيط .

(٧) هذا البيت ساقط من ل ١٧٠ ب وكذلك من ق .

ومنها فى مدح نور الدين رحمه الله :

هل مثل محمود بن زنكى مخلص ... متوحّد يبغى رضاك بكل فن
ورعٌ لدى المحراب أروع محرب ... فى حالتيه إن أقام وإن ظعن
يمسى ويصبح فى الجهاد ، وغيره ... يضحى رضيع سلافة وضجيع دَنّ
وبعزّة الإسلام منتصراً حَرٍ ... وبذلة الإشراك منتقماً قمن

قال ابن أبى طى وفيها وصل شهاب الدين بن أبى عصرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصريفين (١) وخمسين دينارا من دنانير النّثار التى نثرت يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة بالخطبة فى مصر ، وزن كل دينار عشرة دنانير .

قال العماد : وكانت ناحيتا درب هارون وصريفين من أعمال العراق لزنكى والد نور الدين قديما من إنعام أمير المؤمنين ، فسأل نور الدين إحياء ذلك الرسم فى حقّه ، فأنعم بهما الخليفة عليه ووجه بهما مثالَهُ الشريف إليه . وكان من مراده أن يستوهب ببغداد على شاطئ دجلة أرضا يبنيها مدرسة للشافعية ويقف عليها الناحيتين طلبا للأجر ، والذكر الباقى على ممر الدهر ، فقيل له ما ثمّ موضع يصلح لهذا إلا دار التمر ، فعاقه أمر القدر عن قدرته على الأمر .

ثم دخلت سنة تسع وستين [وخمسمائة]

ونور الدين قد فتح من حصون الرّوم مرعش وغيرها ، ومليح بن لاون متملك الأرمن فى خدمته . ووصل إلى خدمته أيضا ضياء الدين مسعود بن قفجاق صاحب ملطية (٢) ؛ وكان فى خدمته أيضا الأمراء من المِجْدَل (٣) ، فسرّحهم بالعطاء الأجزل ،

---

(١) كلتاهما من أعمال بغداد وصريفون (صريفين) على ضفة نهر دجيل ، قرية كبيرة غناء . معجم البلدان : ٥ : ٣٥٣ ـ ٣٥٤ .

(٢) شمالى أعالى الفرات من بلاد الثغور . معجم البلدان : ٨ : ١٥٠ ـ ١٥١ .

(٣) وبفتح الميم أيضا : بلد من إقليم الخابور إلى جانبه تل عليه قصر . نفس المصدر : ٧ : ٣٨٧ . والخابور اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات ، ويطلق على الإقليم كله بتغليب اسمه عليه . نفس المصدر : ٣ : ٣٨٣ ـ ٣٨٤ .

والسمت الأجمل ؛ وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم على الغزاة ، فتقبله مستخلف الأرض بالبراة ، وحمل خمسين ألف دينار ، على سبيل الجزية مصانعة بذلّ وصغار ؛ وعاد إلى حلب وقد نجح فى كل ما طلب .

وأراد أن يسرع إلى دمشق فالتاثت سريرته لالتياث سريّته [1] ، وحظى بمرض القلب لمرض جسم حظيته ،وجرّت شكايته شكايةُ جاريته ، فتصدّق عنها بألوف ، والتزم لله فى شفائها بنذور ووقوف ؛ ثم سيرها فى محفة ، تحمل على أيدى الرجال فى خفة ؛ وسارت على الطريق المهيع مع العسكر ، يحملها من الخدم والخواص المعشر بعد المعشر ؛ فما تُقرِّب إليه بمثل حملها والمشى معها ، وتقدّم بحقّ لازم من بخدمته شيعها . وتأخر نور الدين جريدة مع عدّة من مماليكه وأمرائه الماحضين فى ولايته ، وتقدّم إلىّ أنْ أسايره فى طريقه وأحاوره ، وأحاضره فى منازله وأسامره .

وسرنا على طريق قبة ملاعب والمشهد وسلمية ، فجاءه الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران ، (١٦٩ ا) فثنى إلى الجهاد العنان ؛ وسمع الفرنج فتفرّقوا ، وقلقوا بعد ما كانوا أقلقوا ؛ ودخلنا دمشق .

قلت : وفى جمادى الأولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الأتبان ، ورأيت منشوره بذلك ، وعلامته عليه بخطه « الحمد لله » ؛ يقول فيه :

وبعد فإنّ من سنتنا العادلة ، وسير أيامنا الزاهرة ، وعوائد دولتنا القاهرة ، إشاعة المعروف وإغاثة الملهوف ، وإنصاف المظلوم ، وإعفاء رسم ماسنّه الظالمون من جائرات الرسوم . ومانزال نجدد للرعية رسما من الإحسان يرتعون فى رياضه ، ويرتوون من حياضه ، ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة ، ونصفّيها من الشبه والشوائب ، ونُلحق مايعثر عليه من بواقى رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضرائب ، تقربا إلى الله تعالى الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب . وقد أطلقنا جميع ماجرت العادة بأخذه من فريضه الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة ، وضياع الغوطة ، والمرج ، وجبل

(١) فى الأصل : فالتاث سره لالتياث سيرته ؛ والتصحيح من ل١٧١ . والالتياث الاختلاط الذهنى . القاموس المحيط .

سَنِير[١] ، وقصر حجاج[٢] ، والشاغور[٣] ، والعقيبة[٤] ، ومزارعها الجارية فى الأملاك ، وجميع مايقسط بعد المقاسمة من الأثبان على الضياع الخواص والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة ، وفّرناه على أربابه ، طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه ، وهربا من انتقامه وأليم عقابه . وسبيل النواب إطلاق ذلك على الدوام ، وتعفية آثاره ، والاستعفاء من أوزاره ، والاحتراز من التدنس بأوضاره ، وإبطال رسمه من الدواوين ، لاستقبال سنة تسع وستين ، وما بعدها على تعاقُب الأيام والسنين » .

فصـــــل

فى فتح اليمن

قال العماد : وفى رجب توجه تورانشاه ، أكبر إخوة صلاح الدين ، إلى اليمن فملكها . وكان يحثه على المسير إليها عُمارة اليمنى شاعر القصر ، وكان كثير المدح لتورانشاه ، فتجهّز وسار إلى مكة ثم إلى زَبيد[٥] فملكها وقبض على الخارجى بها[٦] ، وأهلكه نائبه سيف الدين مبارك بن منقذ . ومضى إلى عدن فأخذها واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلى ، وفتح حصن تعزّ وغيره من القلاع ، ففتح إقليما ومنح ملكا عظيما ، وافترع بكرا وأشيع[٧] ذكرا .

---

(١) جبل سنير : بين حمص وبعلبك على الطريق وعلى رأسه قلعة . ويمتد غربا إلى بعلبك وشرقا إلى سلمية والقريتين ، وجبل الجليل مقابله من جهة الساحل وبينهما الوادى الذى فيه حمص وحماة وغيرهما . معجم البلدان : ٥ : ١٥٥ .

(٢) محلة كبيرة فى ظاهر باب الجابية من دمشق ، قيل إنه ينسب إلى حجاج بن عبد الملك بن مروان . معجم البلدان : ٧ : ١٠٠ .

(٣) محلة بالباب الصغير من دمشق بظاهر المدينة : نفس المصدر : ٥ : ٢١٥ .

(٤) قرية من ضواحى دمشق : السلوك : ١ : ٢٥٧ : حاشية : ١ .

(٥) مدينة باليمن أحدثت أيام المأمون بإزاء ساحل باب المندب . ويطلق هذا الاسم أيضاً على الوادى الذى به المدينة . انظر : النكت العصرية : ٢١ وما بعدها ؛ معجم البلدان : ٤ : ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .

(٦) وهو عبد النبى بن على بن مهدى ، ثالث حكام الأسرة المهدية وآخرهم ، حكم بين سنتى ٥٥٨ ـ ٥٦٩ ، وكان حكم الأسرة قد بدأ سنة ٥٥٤ ، وشمل نفوذها منطقة تهامة حيث كان لزعيمها مشايعون عرفوا باسم الأنصار والمهاجرين : انظر Muhammadan Dynasties, p. 96

(٧) فى ل ١٧١ ب ، وكذلك فى ق : وشيع .

وقال ابن شداد(١) : ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره وكثرة عدد إخوته وقوّة بأسهم . وكان بلغه أن باليمن إنسانا استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه ، يسمى عبد النبي بن مهدى ، ويزعم أنه ينتشر ملكه إلى الأرض كلها، واستتب أمره ؛ فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر الملك المعظم تورانشاه ، وكان كريما أريحيا حسن الأخلاق ؛ سمعت منه ، يعنى من صلاح الدين رحمه الله ، الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه ، وترجيحه إياه على نفسه ؛ فمضى إليها (١٦٩ ب) وفتح الله على يديه ، وقتل الخارجى الذى كان بها .

قلت : وكان أخو هذ الخارجى قد خرج باليمن قبله . ذكر عمارة اليمنى فى أول كتابه فى وزراء مصر فى أثناء كلام له قال(٢) : وكان جماعة من أماثل الناس مثل بركات المقرئ وعلى بن محمد النيلى والفقيه أبى الحسن على بن مهدى القائم الذى قام باليمن وأزال دولة أهل زبيد وغيرهم قد سبقونى ، يعنى إلى صاحب عدن ، فذكر كلاماً يتعلق به .

وقال العماد فى الخريدة : على بن مهدى ملك اليمن فى زماننا هذا ، وسفك الدماء وسبى المسلمين ، وأقبل على شرب الخمر ، وادّعى الملك والإمامة ودعا إلى نفسه ؛ وكان يحدّث نفسه بالمسير إلى مكة ، فمات سنة ستين ، وتولى بعده أخوه ؛ وله شعر حسن يدل على عُلوّ همته .

قال ابن أبى طىّ : كان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريما جوادا ، وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بفتوّته ، ولا ينهض بمروّته(٣) ؛ وكان قد انتظم فى سلكه عُمارة الشاعر ، وكان من أهل اليمن ، وكان ورد إلى مصر ومدح أصحابها ونفق عليهم ، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحه . وكان إذا خلا به يصف له بلاد اليمن ، وكثرة أموالها وخيرها ، وضعف من فيها ، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها .

قلت : فمن جملة شعره فى ذلك قوله فى القصيدة التى أولها(٤) :

---

(١) فى النوادر السلطانية : ٣٦ ـ ٣٧ ؛ وهو اقتباس حرفى .

(٢) النكت العصرية : ٢٩ وما بعدها .

(٣) بمروءته بتسهيل الهمزة وتشديد الواو لتناسب ماقبلها .

(٤) انظر النكت العصرية : ٣٥٢ـ٣٥٥ ، وبه بعض الأبيات التى لا تجدها هنا ، كما تجد هنا أبياتا ساقطة من النكت . انظر أيضا مفرج الكروب : ١ : ٢٣٨ ـ ٢٤٠ ، وفيه زيادات .

العلم مذ كان محتاج (١) إلى العلم ... وشفرة السيف تستغنى عن القلم
كم تترك البيض فى الأجفان ظامئة ... إلى الموارد فى الأعناق والقمم
أمامك الفتح من شام ومن يمن ... فلا تردّ رءوس الخيل باللجم
فعمُّك الملك المنصور (٢) سوّمها ... من الفرات إلى مصر بلا سأم
فاخلق لنفسك ملكا لا تضاف به ... إلى سواك ، وأوْرِ النار فى العلم
هذا ابن تومرت (٣) قد كانت بدايته ... كما يقول الورى ، لحماً على وضم
وقد ترقّى (٤) إلى أن أمسكت يده ... من الكواكب بالأنفاس والكظم
حاسب ضميرك عن رأى أتاك وقل ... نصيحة وردت من غير متّهم

وله من أخرى :

أفاتح أرض النّيل، وهى عظيمة (٥) ... على كلّ راجٍ فتحها ومؤمّل
متى توقد النار التى أنت قادح ... بغمدان مشبوبا سناها بمندل
وتفتح مابين الحصين وأبْين ... وصنعاء من حصنٍ حصين ومعقل
وتملك من مخلاف طرف وجعفر ... نقيضين من حَزْنٍ خصيبٍ ومُسهل
وتخلق ملكا لا تُحيل بفخره ... على أحد إلّا على عزمك العلِى

وله من قصيدة أخرى :

قالوا : إلى اليمن الميمون رحلته ... فقُلت مادونه شىء سوى السفر
سيْرٌ يَسُرُّ بنى الدنيا ، وطيب ثنا ... وطول عمر ، كذا يحكى عن الخضر
(١٧٠ا) لا توقدنّ لها النار التى خمدت (٦) ... خفّض عليك تَنلْ ماشئت بالشرر

---

(١) فى الأصل وكذلك فى ل ١٧٢ ا : محتاجا .
(٢) أسد الدين شيركوه .
(٣) أبو عبد الله محمد بن تومرت ، بربرى من مصمودة ، تلقب بالمهدى وظهر فى شمالى إفريقية داعيا إلى مذهب جديد يدور حول مفهوم كلمة « التوحيد » ؛ وتوفى سنة ٥٢٢ تاركا تلميذه عبد المؤمن فى زعامة قومه فنجح هذا الزعيم فى تأسيس دولة الموحدين التى امتد سلطانها إلى الأندلس .
(٤) فى الأصل : ترامى وكذلك فى ل ١٧٢ ا . والتصحيح من النكت العصرية .
(٥) فى ل ١٧٢ ا : منيعه .
(٦) يشير إلى حادثة الأخدود التى أحرق فيها صاحب اليمن نصارى نجران ، وهى التى ورد ذكرها فى سورة البروج : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . . . ﴾ الآيات .

المال ملء يدٍ ، والقوم ملكُ يدِ ولا أطيل ، وهذا جملة الخبر

قال ابن أبى طىّ : ووافق ذلك أنه كاتبَه رجل من أهل اليمن شريف يقال له هاشم ابن غانم وأطمعه فى المعاونة لأن صاحب اليمن عبد النبى كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم ؛ فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن فأجابوه ، فتجهز (١) ، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه فى دخول اليمن ، فأذن له ، وأطلق له مُغَلّ قوص سنة ، وزوّده فوق ما كان فى نفسه ، وأصحبه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجا عمّن سيره من حلقته (٢) . وسار فى البرّ والبحر ، فى البر العساكر وفى البحر الأسطول يحمل الأزواد والعدد والآلات . فوصل إلى مكة ، شرفها الله تعالى ، فدخلها زائراً ، ثم خرج متوجهاً منها إلى اليمن ؛ فوصل زبيد فى أوائل شوال ، فنزل عليها ، ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسنى وجميع الأشراف بنو سليمان فى جمع جم وعدد كثير ، فهجم زبيد وتسلمها ، واحتوى على ما فيها ، وقبض على صاحب اليمن عبد النبىّ أخى على بن مهدى .

ثم رحل إلى عدن وفى صحبته ابن مهدى ففتحها عنوة وولاها عز الدين الزنجيلى . ثم سار إلى المخلاف وتسلّم الحصون التى كانت فى يد ابن مهدى ، كتعزّ وغيرها ؛ وسار إلى صنعاء بعد فتح مدينة الجند وغيرها ، فأحرقت صنعاء ، فدخلها شمس الدّولة فلم يجد بها إلّا شيخا وامرأة عجوزا ؛ فأقام بها ثمانية أيام ، ثم لم يستطع المقام لقلّة الميرة ، فرجع إلى زبيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النّبى بن مهدى . وكان شمس الدّولة قد استناب بزبيد [الأمير] (٣) سيف الدّولة المبارك ابن منقذ وأمره بحمله ؛ فلما بعُد شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره فرأى المصلحة فى قتله ، فقتله ابن منقذ بزبيد ؛ فلما بلغ شمس الدّولة قتله استصوبه .

ولما حصل شمس الدّولة فى زبيد أنفذ إليه صاحب طمار وصالحه هو وباقى الملوك على أداء

(١) فى الأصل : وتجهز .

(٢) جند الحلقة هم مماليك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم ، يحترفون الجندية وتكون لهم أنصبتهم فى ديوان الجيش . صبح الأعشى : ٤ .

(٣) مابين الحاصرتين من ل ١٧٢ ب .

المال . ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها ، وكتب بذلك إلى أخيه الملك النّاصر ، فأرسل إلى نور الدّين يخبره بما أفاض الله عليه من الإحسان ، وخوّله من ملك البلدان . فأرسل نور الدين مهذب الدين أبا الحسن علىّ بن عيسى النّقّاش بالبشارة بذلك إلى بغداد .

فصـــــل

ذكر العماد ههنا الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ المستناب بزبيد ووصفه بأنه من الكفاة الكرماء ، والدّهاة ذوى الآراء . وهو فاضل من أهل بيت فضل كتب العماد من شعره :

لمـا نزلت الدّير قلتّ لصاحبي　　قم فاخطب الصهباء من شمّاسه

(١٧٠ب) فأتى وفى يمناه كأس خلتهـا　　مقبوسةً فى اللّيل من نبراسه

وكأنّ مافى كأسه من خدّه　　وكأنّ مافى خـــدّه من كاسه

وكأن لذّة طعمها من ريقـه　　وأريجها الفيّاح من أنفاسه

لم أنس ليلة شربها بفنائه　　إذ بات يجلوها على جُلّاسه

إذ قام يسقينا المدام ، وكلما　　عابَثْتُهُ (١) ردّ الجواب براسه (٢)

قلت : ومدحه أبو الحسن [بن] (٣) الذروى المصرى بقصيدة غراء ذاليّة ما أظن أنه نظم على قافية الذال أرق منها لفظا وأدقّ معنى . أوّلها :

لك الخير ، عرّج بى على ربعهم، فذى　　ربوع يفوح المسك من عَرفها الشّذى

يقول فيها :

مَبَارِكُ عِيسِ الوفــــد بابُ مباركٍ　　وهل منقذ القُصّاد غـــيرُ ابن منقذ

قال العماد : ثم سيّر نور الدّين إلى بغداد بشارة بأمرين ، أحدها فتح اليمن ، والآخر

(١) فى ل ١٧٢ ب ، وفى ق : عاتبته .

(٢) بتسهيل الهمزة .

(٣) ما بين الحاصرتين من ل ١٧٢ ب . وهو الوجيه على بن يحيى من شعراء مصر . توفى سنة ٥٧٧ فى نحو الأربعين من عمره . انظر : الخريدة : شعراء مصر : ١ : ١٨٧ - ١٨٨ .

كسر الرّوم مرة ثانية ومقدّمهم الدوقس كلمان ، وكان قديما أسيرا عند نور الدين من نوبة حارم [1] ، وفداه بخمسة وخمسين ألف دينار وخمسمائة وخمسين ثوبا أطلسا ، وسيّر معه أسرى من الروم ؛ وذلك فى شعبان هذه السنة .

ومما تضمنه كتاب البشارة : « ولم ينج من عشرة آلاف غير عشرة حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » .

وقبل ذلك بشهرين سيّرت قصيدة للعماد فى جمادى الآخرة على لسان نور الدّين إلى بغداد ، أوّلها :

أطاع دمعى وصبرى فى الغرام عَصَى … والقلب جرّع من كأس الهوى غصصا
وإنّ صفو حيـــاتى ما يكدره … إلّا اشتياقى إلى أحبـــابىَ الخلصا
ما أطيب العيش بالأحباب لو وصلوا … وأسعد القلب من بلواه لو خلصا

ومنها :

من ذا الّذى سارسيرى فى ولائكم … غداة قال العدا : لا سير عند عصا
قد نال عبدك محمودٌ بهـا ظفرا … مازال يرقُبه من قبــل مرتَبصا
مِنْ خوف سطوته أنّ العدوّ إذا … أمّ الثغور على أعقابه نــكصا

قال العماد : وكلّف نور الدين فى هذه السنة بإفادة الألطاف ، والزيادة فى الأوقاف ، وتكثير الصـدقات ، وتوفير النفقات ، وكسوة النسوة الأيامى فى أيامها ، وإغناء فقراء الرّعية وإنجادها بعد إعدامها ، وصون الأيتام والأرامل ببذله ، وعوْن الضعفاء وتقوية المقوين بعدله .

ثم ذكر ماقدّمنا ذكره فى أوّل الـكتاب من مناقب نور الدين وأفعاله الـكريمة [2] .

قال العماد : وفى يوم الاثنين رابع شهر رمضان ركب نور الدين على العادة ، وجاسنا

(١) واسم هذا الدوك قسطنطين كولمان ، وكان يحكم قليقيا البيزنطية للامبراطور ما نويل كومنين . وكان نور الدين قد أسره مع بوهمند الثالث صاحب أنطاكية وريموند الثالث صاحب طرابلس وتوروس الثانى ابن حوسلين صاحب أرمينية ، وذلك سنة ٥٥٩ (١١٦٤ م) عندما التقى بهم عند حارم . انظر ماتقدم فى هــذا الـكتاب : ٣٣٩ ؛ وكذلك : The Crusaders in the Eart ; p. 189 ؛ وانظر أيضــا : A Hirtory of the Crusades, vol. 11 ; p. 369 .

(٢) انظر ماتقدم فى الصفحات : ٩ ــ ٤٤ .

نحن فى ديوانه ، حافلين فى إيوانه ، لبسط عدله وإحسانه ، وتنفيذ أوامر سلطانه . فجاءنى من أخبرنى أنّ نور الدين نزل إلى المدرسة التى (١٧١ ا) أتولاها [١] ، وبسط سجادته فى قبلتها لسُنّة الضحى وصلّاها ؛ فقمت فى الحال ، ومضيت على الاستعجال ، فلقيته فى الدهليز خارجا ، فى أجر العبادة ناجحا ولنهج العادة ناهجا ؛ فلما رآنى توقّف ، ولقولى تشوف فقلت له : إنّ الموضع قد تشرف ؛ أما ترى أنه من أيام الزلزلة قد تشعث ؟ فلما رأى حاله تلبّث ، وقال : نعيده إلى العمارة ، ونكسوه حلل النّضارة . ثم حملت له وجوه سكر ، وشيئا من ثياب وطيب وعنبر ، وكتبت معها هذه الأبيات :

عند سليمان على قدره ‍ ‍ ‍ ‍ هدية النمـــــلة مقبوله
ويصغر الملوك عن نملة ‍ ‍ ‍ ‍ عندك ، والرحمة مأموله
رقّى لمولانا ، وملكى له ‍ ‍ ‍ ‍ وذمّتى بالشكر مشغوله
وكيف يقضى الحق ذومُنّة ‍ ‍ ‍ ‍ ضعيفة بالعجز معلوله !
وإنما شيمة مولى الورى ‍ ‍ ‍ ‍ طاهرة بالخير مجبوله

قال : وكان رأى قبلة المدرسة غير مُفصصة ، وبالترخيم والتذهيب [والتهذيب] [٢] غير مخصصه ؛ فأنفذ [٣] لى لعمارتها فصوصا مذهبة وذهبا . ثم حم مقدور حمامه ، وعاق القدر عن إتمامه ؛ ودفعت إلى الموصل فرأيته فى المنام ، وهو يجارينى فى الكلام ، ويقول ما يعود إلى المدرسة معناه ، وقال الصلاة الصلاة ؛ فعرفت أنه أشار إلى المحراب ، وأنه الآن على هيئة الخراب ؛ فكتبت إلى الفقيه الذى كان عنده الذهب أن يشرع فى عمارته ؛ ودخلت دمشق يوم فراغ الصانع منه .

---

(١) المدرسة العمادية ، وكانت داخل بابى الفرج والفراديس ، تولى العماد التدريس بهـا ، والإقامة ، سنة ٥٦٧ . الدارس : ١ : ٤٠٦ — ٤١٣ .

(٢) مابين الحاصرتين من ل ١٧٣ ا .

(٣) فى الأصل وفى ل ١٧٣ ا . فنفذ .

فصــــل

قال ابن أبى طىّ : وفى هــذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق بن القيسرانى إلى الديار المصرّية ، واجتمــع بالسلطان الملك الناصر ، وأنهى إليــه رسالة نور الدّين ، وطالبه بحساب جميع ما حصله وارتفع إليه من ارتفاع البلاد . فصعب ذلك على السلطان وأراد شق العصا لولا ما ثاب إليه من السكينة . ثم أمر بعمل الحساب ، وعرضه على ابن القيسرانى ، وأراه جرائـد الأجنـاد بمبالـغ إقطاعهم وتعيين جامـكياتهم [1] ورواتب نفقاتهم . فلمّا حصل عنده جميع ذلك أرسل معه هدّية إلى نور الدّين على يد الفقيه عيسى .

قال : ووقفت على برنامج شرحها بخط الموفق بن القيسرانى وهى خمس ختمات ؛ إحداها ختمة ثلاثون جزءاً مغشّاة بأطلس أزرق ، مضببة بصفائح ذهب ، وعليها أقفال ذهب ، مكتوبة بذهب ، بخط يانس ؛ وختمة بخط راشد مغشاة بديباج فُسْتُقى عشرة أجزاء ؛ وختمة بخطّ ابن البواب ، مجلّد واحد بقفل ذهب ؛ وختمة بخطّ مهلهل ، جزء واحـد ؛ وختمة بخطّ الحـاكم البغدادى ؛ ثلاثة أحجار بلخش ، حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالا ، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالا ، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف ؛ ست قصبات زمرد ، قصبة (١٧١ ب) وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلث وربع ، وقصبة وزنهـا ثلاثة مثاقيل ، وقصبة وزنها مثقالان ونصف ، وقصبة وزنها مثقالان ور بع وسدس ، وقصبة وزنها مثقالان وثلث [2] ؛ وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل ؛ وحجر أزرق وزنه ستـة مثاقيل وسدس ؛ مائة عقد جوهر مختومة وزنهـا جميعها ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا ؛ خمسون قارورة دهن بلسان ؛ عشرون قطعة بلور ؛ أربعَ عشرة [3] قطعة جزع ، وذكر تفصيلها ؛ إبريق يشم [4] ، طشت يشم سقرق ميناء وذهب ؛ صحون صينى وزبادى

(١) الجامكية : رواتب الجند بصفة عامة . انظر : Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٢) وأين القصبة السادسة ؟ لم أجدها ذكرا ؟

(٣) فى الأصل : أربعة قطعة جزع ، وفى ل ١٧٣ ب ، وكذلك فى ق أربعة عشر قطعة جزع .

(٤) اليشم ، واليشب ، حجر ثمين قريب من الزبرجد منه الأبيض والأصفر والزيتى . مفرج الكروب : ١ ــ ٢٢٤ حاشية : ٣ .

وسكارج[1] ؛ أربعون قطعة عود طيب قطعتين كبار ؛ كرتان وزن إحـداهما ثلاثون رطلا بالمصرى والأخرى [و]احد وعشرون رطلا ؛ مائة ثوب أطلس ؛ أربعة وعشرون بقيارا[2] مذهبة ؛ أربعة وعشرون ثوبا حريرى ؛ أربعة وعشرون ثوبا من الوشى حريرية بيض ؛ حلة فلفلى مذهبة ؛ حلة مرايش صفراء مذهبة . وذكر غير ذلك أنواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية ، وعدّة من الخيل والغلمان والجوارى ، وشيئاً كثيرا من السّلاح على اختلاف ضروبه[3] .

قال : وخرجوا بهذه الهديّة فلم تصل إلى نور الدّين لأنّهم اتصل بهم وفاته ، فمنهـا ما أعيد ومنها ما استهلك ، لأن الفقيه عيسى وابن القيسرانى وضعا عليها من نهبها واستبدّا بأكثرها[4] . وقيل إنها وصلت جميعا إلى السلطان لأنه اتصل به خبر موت نور الدين فأنفذ من ردّها .

قال : وحـدّثنى من شاهـد هـذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالاً لم يعلم مقداره .

وقال العماد : ولما وصل إلى صلاح الدّين رسول نور الدين ، وهو الموفق خالد ، أطلعه على كل ماهو فيه وأحصى له الطريف والتالد ، وقال هؤلاء الأجنـاد فاعرضهم وأثبت أخبارهم ، وما يضبط مثل هـذا الإقليم إلاّ بالمـال العظيم ؛ ثم أنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها ، وأنهم اعتادوا من السّعة والدّعة على نعمائها ، وقد تصرفوا فى مواضع لا يمكن انتزاعها ، ولا يسمحون بأن ينقضى ارتفاعهـا ؛ فالموارد مشفوهة ، والشدائد مكروهـة ، والمقاصـد بردعها مجبوهة ، والهمم بهـا مشـدوهة . وشرع فى جمع مال يسيّره ويحمـله ،

---

(١) جمع سكرجة وهى الصحفة . والزبادى جمع زبدية وهى وعاء الشراب . السـلوك : ١ : ٥٥ حاشية : ١ .

(٢) السجادة السوداء من وبر الجمل ؛ وهى أيضاً نوع من العمائم الكبار للوزراء ورجال العلم . السلوك : ١ : ٥٥ حاشية : ٤ .

(٣) يلاحظ ما فى الأسلوب الذى صيغت به هذه الوثيقة من لهجة دارجة ، ويبدو أن النقل أمين عن الأصل ؛ وهذا ، إن صح ، يدل على جانب من الاستعمال العامى للغة فى الوثائق الإحصائية الحكومية . انظر المثال الذى تقدم فى ص : ٤٣٩ ، وهو يؤكد نفس الفكرة .

(٤) فى الأصل ، وفى ل ١٧٣ ب ، وكذلك فى ق : لأن الفقيه عيسى وابن القيسرانى وضعوا عليهم من نهبهم واستبدوا بأكثرها . وهو خطأ نحوى .

بجهد يبذله ، وبخطر يحتمله ؛ وحصل لخالد منه مالم يكن فى خلده ، وجاء مطرف غناه أضعاف متلده .

فصـــــــل

فى صلب[1] عمـــارة الشاعر اليمنى وأصحابه

قال العماد : واجتمع جماعة من دعاة الدّولة المصرية المتعصبة المتصعبة ، المتشدّدة المتصلّبة ، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخفية ، واعتقدوا أمنيّة ، عادت بالمقبى عليهم منيّة ، وعينوا الخليفة والوزير ، وأحكموا الرّأى والتّدبير ، وبيّتوا أمرهم بليل ، وستروا عليه بذيل ؛ وكان عمارة اليمنى الشاعر عقيدهم ، ودعا (١٧٢ ا) الدّعوة قريبهم و بعيدهم .

وكانوا قد أودعوا سرّهم عند من أذاعه ، واستحفظوا من أضاعه ، وأدخلوا عدّة من أنصار الدولة الناصرية فى جملتهم ، وعرفوهم بجهلتهم .

وكان الفقيه الواعظ زين الدين على بن نجا[2] يُناجيهم فيما زين لهم من سوء أعمالهم ، و يداخلهم فى عزم خروجهم مطلعا على أحوالهم ؛ وتقاسموا الدّور والأملاك، وكادت آمالهم تدنو من الإدراك . فجـاء زين الدين الواعظ وأطلع صلاح الدين على فسادهم ، وما سوّلوه من مراد مرادهم ، وطلب ما لابن كامل الداعى[3] من العقار والدور ، وكلّ ماله من الموجود والمذخور ؛ فبذل له السّلطان كل ماطلبه ، وأمره بمخالطتهم ورغّبه .

ثم أمر السّلطان بإحضار مقدميهم ، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم ، وصلب يوم السّبت ثانى شهر رمضان جماعة منهم بين القصرين ، منهم عمارة ، وأفنى بعد ذلك من بقى منهم ، ومات بموتهم الخبر عنهم .

---

(١) فى ل ١٧٤ ا : طلب . وكذلك فى ق .

(٢) تقدم شىء من التعريف به . انظر ص : ٣١٢ من هذا الكتاب ، حاشية : ٣ .

(٣) أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل ، وكان يلقب فخر الأمناء ، وهو أول من نفذ فيـه حكم الصلب . الخريدة : شعراء مصر : ١ : ١٨٦ ــ ١٨٧ .

وكان منهم داعى الدعاة ابن عبد القوى ، وكان عارفا بخبايا القصر وكنوزه ، فباد ولم يسمح بإبدائها ، وبقيت تلك الخزائن مدفونة ، وتلك الدفائن مخزونة ، قد دفن دافنها ، وخزن تحت الثرى خازنها ، إلى أن يأذن الله فى الوصول إليهـا ، والاطلاع عليها ؛ وجمع من أموال هؤلاء ما يحمل إلى الشام ، للاستعانة به على حماية ثغور الإسلام .

قال ابن أبى طىّ : وفى هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين والعوام وتآمروا فيما بينهم خفية ، وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا إليه من الذل والفقر ، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيرا ، وتجمعوا هم وجماعة عينوهم من الأمراء وغيرهم ، [وقرّروا] أن يكاتبوا الفرنج ، [وأنْ][1] يثبوا بالملك النـاصر . وأدخلوا معهم فى هـذا الأمر ابن مصال ، وأعدوا جماعة من شيعة المصريين ليلة عينوها ، وكاتبوا الفرنج بذلك ، وقرروا معهم الوصول إليهم فى ذلك الزمان المقرر . فخانهم ابن مصال فيما عاهـدهم عليه ، ونـكث فى اليمين وكفّر عنها ، وصار إلى الملك النّاصر وعرفه بجلية ماجرى .

فأحضرهم واحدا واحدا وقررهم على هذه الحالة ، فأقروا واعترفوا ، واعتذروا بكونهم قطعت أرزاقهم ، وأخذت أموالهم . فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم فى أمرهم ، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم ، فأمر بصلبهم .

وقيل إن الذى أذاع سرّهم زين الدين على الواعظ ، وطلب جميع ما لابن الداعى من العقار والمال ، فأعطاه جميع ذلك .

وكان الذين صلبوا منهم المفضل بن كامل القاضى ، وابن عبد القوى الداعى ، والعويرس وكان [قد][2] تولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك ، وشبرما كاتب السر ، وعبد الصمد القشة أحـد أمراء المصريين ، ونجاح الحمامى ، ورجل منجم نصرانى أرمنى كان قال لهم إن أمرهم يتم بطريق علـم (١٧٢ ب) النجوم ، وعُمارة اليمنى الشاعر .

---

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٧٤ ب .
(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٧٤ ب .

قلت : وبلغنى أنّ عُمارة إنمـا كان تحريضه لشمس الدولة على المسير إلى اليمن ليتم هذا الأمر ، لأنّ فيه تقْليلا لعسكر صلاح الدين وإبعاداً لأخيه وناصريه عنه .

قال العماد فى الخريدة : ووقعت اتفّاقات عجيبة من جملتهـا أنه نسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له ، يعنى فى القصيدة التى حرض فيهـا شمس الدولة على المسير إلى اليمن أوّلها :

* العلم مذ كان محتاج إلى العلم *

وقد تقدم ذكرها(1) ؛ وأما البيت فهو هذا :

قد كان أوّل هذا الدين من رجل   سعى إلى أن دعوه سيّد الأمم

قال العماد : ويجوز أن يكون هـذا البيت معمولا عليه ، فأفتى فقهاء مصر بقتله ، وحرضوا السلطان على المثلة بمثله .

قال : ولعمارة فى مصلوب بمصر يقال له طرخان وكان خرج على الصالح بن رزيك فظفر به الصالح وصلبه ، وكان يستحسن أبيات عُمارة فيه ، وهى (2) :

أراد علوّ مرتبة وقدر   فأصبح فوق جذع وهو عالى
ومُد على صليب الجذع منه   يمين(3) لا تطول على الشمال
ونكس رأسه لعتاب قلب   دعاه إلى الغواية والضّلال

قال العماد : فـكأنه وصف حاله وما آل إليه أمره .

وقال فى البرق : ووصـل من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية وهو بخط ابن قريش ، يعنى المرتضى .

وقال بن أبى طىّ : وقد كتب القاضى الفاضل إلى نور الدّين كتابا شرح فيه قضية

---

(1) انظر ما تقدم فى هذا الـكتاب : ٥٥٣ .
(2) انظر النـكت العصرية : ٤٦ ـ ٤٧ .
(3) فى النـكت : يمينا .

المصلّبين ، فقال بعد مطلع الـكتاب [1] : « قصر هذه الخدمة على متجددٍ سار للإسلام وأهله ، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله فى إظهاره على الدين كله ، بعد أن كانت لها مقدّمات عظيمة إلا أنها أسفرت عن النُّجح ، وأوائل كالليلة البهيمة إلا أنها انفرجت عن الصبح ؛ فالإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطنا بعد أن كان غريبا ، وضرب فى البلاد بجرانه بعد أن كان الـكفر يتم عليه تخيلا عجيبا ؛ إلا أنّ الله سبحانه أطلع عَلَى أمرها من أوّله ، وأظهر على سرها من مستقبله ؛ والمملوك يأخذ فى ذكر الخبر ويعرض عن ذكر الأثر » .

« لم يزل يُتوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعد ما أزال الله من بدعتهم ، ونقض من عُرى دولتهم ، وخفض من مرفوع كلمتهم ، أنهم أعداء وإن تعدّت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الإسلام . وكان لا يحتقر منهم حقيرا ولا يستبعد منهم شرا كبيرا ، وعيونه لمقاصدهم موكلة ، وخطراته فى التحرز منهم مستعملة ، لا تخلو سنة تمر ، ولا شهر يكرّ ، من مكر يجتمعون عليه ، وفساد يتسرعون إليه ، وحيلة يبرمونها ، ومكيدة يتممونها . وكان أكثر ما يتعللون به (١١٧٣) ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة ، والمراسلات المتقاطرة ، إلى الفرنج خذلهم الله تعالى ، التى يوسعون لهم فيها سبل المطامع ، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع ، ويزينون لهم الإقدام والقدوم ، ويخلعون فيها ربقة الإسلام خلع المرتد المخصوم ؛ ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم ، إلا أنهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم . وكان ملك الفرنج كلما سوّلت له نفسه الاستثار فى مراسلتهم ، والتحيل فى مفاوضتهم ، سير « جرج » كاتبه رسولا إلينا ظاهراً وإليهم باطناً ، عارضا علينا الجميل الذى ما قبلته قط أنفسنا ، وعاقداً معهم القبيح الذى يشتمل عليه فى وقته علمنا . ولأهل القصر والمصريين فى أثناء هذه المدد رسل تتردّد ، وكتب إلى الفرنج تتجدّد » .

---

(١) هو نفس الـكتاب الذى ذكر العماد فى الفقرة السابقة أنه كان بخط ابن قريش ، يعنى المرتضى . انظر أيضاً مفرج الـكروب : ١ : ٢٤٨ .

ثم قال « والمولى عالم أنّ عادة أوليائه المستفادة من أدبه ألاّ يبسطوا عقابا مؤلما ، ولا يعذّبوا عذابا[1] محكما ؛ وإذا طال لهم الاعتقال ، ولم ينجع السؤال ، أطلق سراحهم ، وخلى سبيلهم ، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة ، ولا الرقة عليهم إلا قساوة . وعند وصول جرج فى هـذه الدفعة الأخيرة رسولا إلينا بزعمه ، ورد إلينا كتاب ممن لا نرتاب به من قومه ، يذكرون أنه رسول مخاتلة ، لا رسول مجـاملة ، وحامل بليّة ، لا حامل هدية ؛ فأوهمناه الإغفال عن التيقظ لـكل ما يصدر منه وإليه ، فتوصل مرة بالخروج ليـلاً ، ومرة بالركوب إلى الـكنيسة وغيرها نهارا ، إلى الاجتماع بحاشية القصر وخدّامـه ، وبأمراء المصريين وأسبابهم ، وجماعـة من النصارى واليهود وكلابهم وكتابهم . فدسسنا إليهم من طائفتهم مَن داخلهم ، فصار ينقل إلينا أخبارهم ، ويرفع الينا أحوالهم . ولما تـكاثرت الأقوال ، وكاد يشتهر علمنا بهذه الأحوال ، استخرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسدة ، وطائفة من هذا الجنس متمردة ، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة ، والسرائر المنافقة ، فـكلاًّ أخذ الله بذنبه ، فمنهم من أقرّ طائعا عند إحضاره ، ومنهم من أقرّ بعد ضربه ، فانكشفت أمور أخر كانت مكتومة ، ونوب غير التى كانت عندنا معلومة ، وتقريرات مختلفة فى المراد ، متفقة فى الفساد » .

ثم ذكر تفصيلا حاصله أنهم عينوا خليفة ووزيرا مختلفين فى ذلك ، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بنى عم العاضد ، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضـد وإن كان صغيرا ؛ واختلف هؤلاء فى تعيين واحـد من ولدين له . وأما بنو رزّيك وأهـل شـاور فـكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غـير أن يـكون لهم غرض فى تعيين الخليفة .

ثم قال : وكانوا فيما تقدم ، والمملوك على الـكرك والشوبك بالعسكر ، قد كاتبوهم وقالوا لهم إنه بعيد والفرصة قد أمكنت ، فإذا وصل الملك الفرنجى إلى صَدْر (١٧٣ ب) أو إلى أيلة ثارت حاشية القصر وكافة الجند وطائفة السودان وجموع الأرمن وعامة الاسماعيلية وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة .

(١) ساقطة من صميم المتن فى الأصل مستدركة بهامشها .

ثم قال : « ولما وصل « جرج » كتبوا إلى الملك الفرنجى أن العساكر متباعدة فى نواحى[1] إقطاعاتهم ، وعلى قرب من موسم غلاتهم ، وأنه لم يبق فى القاهرة إلا بعضهم وإذا بعثت أسطولا إلى بعض الثغور أنهض فلانا من عنده وبقى فى البلد وحده ، ففعلنا ما تقدّم ذكره من الثورة » .

ثم قال : « وفى أثناء هذه المدة كاتبوا سنانا صاحب الحشيشيّة[2] بأن الدّعوة واحدة والكلمة جامعة ، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود عن نصرة ؛ واستدعوْا منه من يتَمّم على المملوك غيلة ، أو يبيت له مكيدة وحيلة ، وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ[3] وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قرجلة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج » .

« ولمّا صح الخبر وكان حكم الله أولى ماأخذ به ، وأدب الله أمضى فيمن خرج عن أدبه ، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى ، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى ، قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة ، الدعاة إلى النّار ، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجّار ؛ وشنقوا على باب قصورهم ، وصلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم ؛ ووقع التتبع لأتباعهم ، وشردت طائفة الاسماعيلية ونفوا ، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد . فأما مَنْ فى القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وجه رأى يمضى فيهم ، ولا رأى فوق رأى المولى ، والله سبحانه مستخار[4] ، وهو المستشار ، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده ، وتمضى الحدود بتحديده . ورأى المملوك إخراجهم من القصر فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادّة لا تنحسر الأطماع عنها ، فإنه حبالة للضلال منصوبة ، وبيعة للبدع محجوجة » . قال المؤلف لعلّها محجوبة[5] .

(١) مستدركة فى هامش الأصل .

(٢) وكان يلقب بشيخ الجبل . ومقر الحشيشية عندئذ مصياف وقد ظلوا بها نحو قرن ، بين سنتى ٥٥٧ ـ ٦٦٠ . وسنان ، راشد الدين أبو الحسن سنان بن سليمان تولى زعامة الحشيشية سنة ٥٥٧ ، ثم سنة ٥٦٠ . انظر معجم الأنساب : ١٦١ .

(٣) سورة البروج ، آية : ٢٠ .

(٤) فى الأصل : مستجار ؛ وما هنا من ل ١٧٥ ب وهو يناسب الجملة التالية .

(٥) لتناسب الأسلوب المسجوع .

« ومما يطرف [1] به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة فيه ، أَطْلَعَ البحث أن فيه داعية خبيثا أمره ، محتقرا شخصه ، عظيما كفره ، يسمى قديد القفاص ، وأن المذكور مع خموله فى الديار المصرية ، قد فشت فى الشام دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فتنته ، وأن أرباب المعايش فيه يحملون إليه جزءا من كسبهم ، والنسوان يبعثن إليه شطرا وافيا من أموالهنّ ؛ ووجدت فى منزله بالإسكندرية عندالقبض له، والهجوم [2] عليه، كُتُب مجرّرة فيها خلع العذار ، وصريح الكفر الذى ما عنه اعتذار ، ورقاع يخاطب بهـا فيها ما تقشعرّ منه الجلود (وكان يدعى النسب إلى أهل القصر ، وأنه خرج منه صغيرا ونشأ على الضلالة كبيرا [3] .) وبالجملة فقـد (١١٧٤) كفى الإسلام أمره ، وحاق به مكره ، وصرعه كفره » .

قلت : وفى قضية عُمارة هـذه يقول العلّامة تاج الدين الكندى رحمه الله تعالى [4] ، ونقلته من خطّه [5] :

عُمارة فى الإسلام أبدى جنـاية وبايع فيهـا بيعة وصليبا
وأمسى شريكَ الشرك فى بُغض أحمد فأصبح فى حب الصليب صليبـا
وكان خبيث الملتقى إن عجمتـه تجد منـه عودا فى النفاق صليبا
سيلقى غـدا ما كان يسعى لأجله ويسقى صديدا فى لظى وصليبا

قلت الصليب الأول النصارى والثانى بمعنى مصلوب والثالث من الصلابة والرابع ودك العظام ، وقيل هو الصديد أى يسقى مايسيل من أهل النار نعوذ بالله منها .

وكان عُمارة مستشعراً من الغُزّ وهم أيضا منه ، لأنه كان من أتباع الدولة المصرية وممن

(١) فى ل ١٧٦ ا : طارف .

(٢) فى ل ١٧٦ ا : والهجم .

(٣) هذه الفقرة ساقطة من ل ، وكذلك من ق .

(٤) أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد ، الكندى ، البغدادى المولد والمنشأ ، الدمشقى الدار والوفاة ، المقرئ النحوى الأديب . ولد سنة ٥٢٠ وتوفى سنة ٦١٣ . انظر وفيات الأعيان : ١ : ١٩٦-١٩٧ والمذيل على الروضتين لأبى شامة .

(٥) انظر النكت العصرية : ٣٩٧ . وقد اختلف ترتيب هذه القصيدة فى نسخة الأصل ، فتبادل البيتان الثانى والثالث مكانيهما خطأ بدليل تعليق أبى شامة على معنى كلمة « صليبا » . والترتيب المذكور هنا من ل ، ومن النكت ، وتتفق معهما النسخة ق .

انتفع بها واختل أمره بعدها ، فلم تصفُ القلوب بعضها لبعض ، وصار يظهر فى فلتات لسانه، فى نظمه ونثره ، مايقتضى التحرّز منه و إبعاده ، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فسادا فى نيته ، و إن مدحهم تـكلّف ذلك ، وصرّح وعرّض فيه بما فى ضميره .

وقد قال فى كتاب الوزراء المصرية : ذكر الله أيّامهم بحمد لا يكلّ نشاطه ، ولا يطوى بساطه ، فقد وجدت فقدهم ، وهنت بعدهم .

وقال من قصيدة مدح بها نجم الدين أيوب [1] :

وكان لى فى ملوك النّيـل قبلـكمُ مكانة عرفتها العرب والعجم
وكان بينى وبين القوم ملحمة فى حربها ألسُن الأديان تختصم
وما تزال إلى دارى عوارفهم يسعى إلىّ بهـا الإنعام والـكرم
تركت قصـدك لمّا قيل إنك لا تجود إلّا على من مسّه العـدم
ولست بالرّجل المجهول موضعه ولا لنزر من الإحسان أغتنم
ولا إلى صدقات المال أطلبهـا ولا عمًى نال أعضائى ولا صمم
وإنما أنا ضيف للملوك ، ولى دون الضيوف لسان ناطق وفم

وقال من قصيدة مدح بها صلاح الدين رحمه الله :

قرّرت لى أبنـاء رزّيك زرقا كان فى عصرهم مسنًّى مهنّا
وأتت بعـدهم ملوك فسنّوا فىّ ما كان صالحُ القوم سنّا [2]
ورعونى ، إمّا اقتـداء بماض أو لمعنًى ، فكلّهم بىَ يُعنى

وله فيه من أخرى :

فقد صارت الدنيا إليكم بأسرها فلا تشبعوا منهـا ونحن جياع
إذا لم تزيدونا [3] فكونوا كمن مضى ففى النّاس أخبـار لهم وسماع
وليس على مُرِّ العظـام إقامة فهل فى ضروع المكرمات رضاع

(١) تجد بعض هذه الأبيات فى النكت العصرية : ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .
(٢) هو الصالح طلائع بن رزيك وزير الفاطميين .
(٣) فى ل ١٧٦ ب : تريدونا .

وقال فى قصيدة مدح بها تقىّ الدين :

هل تأذنون لمن أراد عتابكم | أم ليس فى إعتابكم من مطمع
(١٧٤ب) ضيّعتم من حق ضيفكم الذى | مازال قبل اليوم غير مضيّع
وتغافل السّلطان عنّى حين لم | أكشف قناع مذلة وتضرّع
ورجوت نفعك بالشفاعة عنده | فسمحت لى بشفاعة لم تنفع
وإذا نطاق الرّزق ضاق مجاله | أمسى مجال النطق غير موسع

وقال أيضا [١] :

تيممت [٢] مصراً أطلب الجاه والغنى | فنلتهما فى ظل عيش ممنع
وزرت ملوك النيل أرتاد [٣] نيلهم | فأحمد مرتادى وأخصب مربعى
وفزت بألف من عطية فائز | مواهبه للصُّنع لا للتصنع
وجاد ابن رزّيك من الجاه والغنى | بما زاد عن مرمى رجائى ومطمعى
وأوحى إلى سمعى ودائع شعره | فخبّرته منى بأكرم مودع
وليست أيادى شاور بذميمة | ولا عهدها عندى بعهد مضيع
ملوكٌ رعَوْا لى حرمة صار نبتها | هشيما رعته النائبات وما رعى
مذاهبهم فى الجود مذهب سنّة | وإن خالفونى باعتقاد [٤] التشيع
فقل لصلاح الدّين، والعدل شأنه | من الحاكم [٥] المصغى إلىّ فأدعى
أقمت لكم ضيفا ثلاثة أشهر | أقول لصدرى كلما ضاق : وسع
وكم فى ضيوف الباب ممّن لسانه | إذا قطعوه لا يقوم بأصبعى
فيا راعى الإسلام، كيف تركتنا [٦] | فريقَىْ ضياع من عرايا وجوّع

(١) فى النكت العصرية بعض هذه القصيدة (ص : ٢٨٧ ــ ٢٩١) ، وعنوانها هناك : شكاية المتظلم ونكاية المتألم ، وقد كتب بها عمارة إلى صلاح الدين ولم ينشدها .

(٢) فى النكت : فيممت . وهو أولى ، لأن هذا البيت ورد هناك بعد خمسة أخرى فيه حديث متألم عن ماضيه باليمن واضطراره إلى الخروج منها .

(٣) فى النكت : إذ زاد نيلهم . والمذكور هنا أكثر مناسبة .

(٤) فى النكت : فى اعتقاد . (٥) فى النكت : من الحكم .

(٦) فى النكت . تركتها . وهو خطأ .

دعوناك من قرب و بعدٍ ، فهب لنا جوابك ، فالبارى[1] يجيب إذا دعى

وقال أيضا[2] :

أسفى على زمن الإمام العاضد أسف العقيم على فراق الواحد

جالست من وزرائه وصحبت من[3] أمرائه أهل الثناء الخـــــالد

لهفى على حجرات قصرك إذ خلت يابن النبى من ازدحام الوافـــد

وعلى انفرادك من عساكرك الذى كانوا كأمواج الخضم الراكـــد

قلدت مؤتمن الخلافة أمرهم فـكبا وقصّر عن صلاح الفاسد

فعسى الليـالى أن ترد إليـكم ماعوّدتـكم من جميل عوائد

وقال أيضا :

قست رأفة الدنيا، فلا الدهر عاطف علىّ ، ولا عـبد الرحيم رحيم

عفا الله عن آرائه كل فـترة كلام العدا فيها علىّ كُلُوم

وسامحه فى قطع رزق بفضله وصلت إليـــه ، والزمان ذميم

ألا هل له عطف علىّ ، فإننى فقير إلى ما اعتدت منه عــديم

عبد الرحيم هو القاضى الفاضل رحمه الله .

وبلغنى أن عُمارة لما مروا به ليُصْلب عبروا به على جهة دار الفاضل ، فطلب الاجتماع به ، فقيل ليس إليه طريق . فقال :

عبـد الرحيم قد احتجب إن الخـلاص هو العجب

قال : وهـذه القصيدة تحقق ما رُمى به من الاجتماع على مكاتبة الفرنج والخوض فى فساد الدولة بل الملة ، وتوضح عذر السلطان فى قتله وقتـل من شاركه فى ذلك ، وهى :

---

(٤) فى النكت : فالبازى . وهو خطأ .

(٥) فى النكت المصرية : ٢١٤ أربعة أبيات فقط منها البيتان الأولان الواردان هنا .

(٦) فى النكت : فى .

رميت يادهر كيف المجد بالشلل ... وجيده بعد حلى الحسن بالعطل
سعيت فى منهج الرأى العثور، فإن[1] ... قدرت من عثرات البغى فاستقل
جدعت مارنك الأقنى، فأنفُك لا ... ينفك ما بين نقص الشين والخجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل ... سُقيت مُهلاً، أما تمشى على مَهَل!
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة ... على فجيعتنا فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفها ... من المكارم ما أربى على الأمل
قوم عرفت بهم كسب الألوف، ومن ... كما لها أنها جاءت ولم أسل
وكنت من وزراء الدست حيث سما ... رأس الحصان بهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش تكرمة ... وخلّة حرست من عارض الخلل
يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة ... لك الملامة إن قصَّرت فى عذلى
بالله زُرْ ساحة القصرين، وابك معى ... عليهما، لا على صفّين والجمل
وقل لأهلهما: والله ما التحمت ... فيكم قروحى، ولا جُرحى بمندمل
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة ... فى نسل آل أمير المؤمنين على
هل كان فى الأمر شىء غير قسمة ما ... مُلِّكتم بين حكم السّبى والنّفل
وقد حصلتم عليها واسم جدكم ... محمد، وأبيكم، غير منتقل
مررت بالقصر والأركان خالية ... من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد ... من الأعادى، ووجه الودّ لم يمل
أسبلت من أسف دمعى غداة خلت ... رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكى على مأثرات من مكارمكم ... حال الزمان عليها وهى لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم ... واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم ... تشكو من الدّهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست ... ورثّ منها جديد عنهم وبلى
وموسم كان فى كسر الخليج لكم ... يأتى تجمّلكم فيه على الجمل

(١) فى ل ١٧٧ ا، وكذلك فى ق: فمن.

وأول العام والعيدان كان لكم : فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز فى عيد الغدير لما يهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض من وشي ومن شية مثل العرائس فى حَلْيٍ وفى حلل
ولا حملتم قرى الإضياف من سعة الأ طباق إلاّ على الأعناق والعجَل
وما خصصتم ببرٍّ أهل ملتكم حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللضـ(م) يف المقيم وللطارى من الرسل
وللجوامع من أحباسكم نعم لمن تصدّر فى علم وفى عمـــل
ور بمــــا عادت الدنيا لمعقلها منكم، وأضحت بكم محلولة العقل

وقال العماد فى الخريدة(1) : أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل كان داعى الدعاة بمصر للأدعياء ، وقاضى القضاة لأولئك الأشقياء ، يلقبونه بفخر الأمناء ، وهو عندهم فى المحلة العليا (١٧٥ ب) والمرتبة الشماء ، والمنزلة التى فى السماء ، حتى انكدرت نجومهم ، وتغيرت رسومهم ، وأقيم قاعدهم ، وعضد عاضدهم ، وأخليت منهم مصرهم ، وأجلى عنهم قصرهم ؛ فحرّك ابن كامـل ناقص الذب عنهم ، والشدّ منهم ، فـالأ قوما على البيعة لبعض أولاد العاضد ، ليبلغوا به ما تخيّلوه من المقاصد ، وسوّلوه من المكايد ؛ فأثمرت بجثثهم الجذوع ، وأقفرت من جسومهم الرّبوع ، وأحكمت فى حلومهم النسوع ، وهذا أوّل من ضمه حبل الصّلب ، وأمه فاقرة الصلب ؛ وهذا صنع الله فيمن ألحد ، وكفر النعمة وجحد ؛ وذلك غرة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة . سمعت الملك الناصر صلاح الدين يذكره ، وقد ذكروه عنده بالفضل والأدب ، ونسبوا إليه هذين البيتين فى غلام رفاء ، وأنشدها الملك الناصر وذكر أنه كان ينكرها :

يارافيا خرق كلّ ثوب ويا رشاً حبّه اعتقادى
عسى بكف الوصال ترفو ما مزّق الهجر من فؤادى

---

(1) قسم شعراء مصر : ١ : ١٨٦ ــ ١٨٧ .

فصل

فى التعريف بحال عمـارة ونسبه وشعره

قال العماد : وقد أوردت شعر عمارة بن أبى الحسن اليمنى فى كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، ونقلت إلى هذا الـكتاب ، يعنى كتاب البرق الشامى ، لمعاً من ذلك . فمن ذلك ما أنشدنيه نجم الدين أبو محمد بن مصال [1] :

لو أن قلبى يوم كاظمة معى ... لملـكته وكظمت غيظ الأدمـع

قال العماد : إنما أنشدنى فيض الأدمع فرأيت غيظ الأدمع أليق بالـكظم .

قلب كفاك من الصبابة أنه ... لبى نداء الظاعـــنين وما دعى

ومن الظنون الفاسدات توهمى ... بعـــد اليقين بقاءه فى أضلعى

ما القلب أول غادر فألومـــه ... هى شيمة الأيام، مُذْ خلقت، معى [2]

قال : وأنشدنى لعمارة أيضا :

ملك إذا قابلت بشر جبينه ... فارقته والبشر فوق جبينى

وإذا لثمت يمينه وخرجت من ... أبوابه لثم الملوك يمينى

قال : وأنشدنى له عضد الدين أبو الفوارس مرهف بن أسامة بن منقذ يقول [3] :

لى فى هوى [4] الرشأ العذرى أعذار ... لم يبق لى مذ أقر الدمع إنـكار

لى فى القدود، وفى لثم الخدود ، وفى ... ضم النهود ، لبانات وأوطـــار

هذا اختيارى فوافق إن رضيت به ... أولا ، فدعنى وما أهوى وأختار

لُمنى جزافا وسامحنى مصـــارفة ... فالناس فى درجات الحب أطوار

وخلِّ عذلى ، فنى دارى ودائرتى ... من المها دُرَّة قلبى لهـــا دار

---

(١) انظر أيضا كتاب النـكت العصرية : ٣٩٧ ــ ٣٩٨ .

(٢) يتبادل هذا البيت مع السابق له مكانيهما فى النـكت العصرية .

(٣) فى قصيدة يمـدح بها شمس الدولة أخا النـاصر صلاح الدين ، وهى طويلة . انظر النـكت : ٢٦٤ ــ ٢٦٧ .

(٤) فى النـكت : ماعن هوى ...

قلت و يُروى :

* وغرّ غيرى فى أسرى ودائرتى *

والأبيات العينية من قصيدة فى مدح تقىّ الدين ، والنونيّة فى مدح نجم الدين أيوب ، والرائيّة فى مدح شمس الدولة بن أيوب .

(١٧٦ ا) وكان عمارة هذا عربيا فقيها أديبا ، وله كتاب صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن ثم بمصر [١] ، فذكر أنه أقام بزبيد ثلاث سنين يقرأ عليه مذهب الشافعى رضى الله عنه . قال [٢] : ولى فى الفرائض مصنف يقرأ باليمن .

وفى [٣] سنة تسع وثلاثين زارنى والدى ، وخمسة من إخوتى ، فى زبيد ، فأنشدته شيئا من شعرى فاستحسنه ، ثم قال تعلَّم والله أن الأدب نعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بذم الناس ؛ واستحلفنى ألاّ أهجو مسلماً ببيت شعر ، فحلفت له على ذلك ، ولطف الله بى فلم أهج أحدا ما عدا إنساناً هجانى بحضرة الملك الصالح ، يعنى ابن رزيك ، ببيتى شعر فأقسم الصالح علىّ أن أجيبه ففعلت متأوّلا قول الله عز وجل : « وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ [٤] » ، وقوله تعالى : « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ » [٥] . قال ولم يكن شىء غير هذا .

وحججت [٦] مع الملكة أم فاتك ملك زبيد ، وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع ما يتناوله من حاجّ اليمن برا وبحرا ، وبجميع خفارات الطريق ، فذكر أنه حصل له وجاهة عندها فانتفع بها حتى أثرى وكثر ماله وجاهه . ثم طرأت أمورٌ اقتضت أنْ هرب من اليمن وحج سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

قال [٧] : وفى موسم هذه السنة توفى أمير الحرمين هاشم بن فليتة [٨] ، وولى الحرمين

(١) هو كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية .
(٢) فى النكت : ٢٣ .
(٣) النكت : ٢١ .
(٤) سورة الشورى : آية : ٤١ .
(٥) سورة : البقرة : آية : ١٩٤ .
(٦) النكت : ٢٧
(٧) فى النكت : ٣١ ــ ٣٢ .
(٨) وكان قد تولى أمرها سنة ٥٢٧ ، وتولاه ابنه بعده حتى سنة ٥٥٦ . وقد بدأ حكم هذه الأسرة سنة ٣٥٦ واستمر إلى سنة ٥٩٣ . انظر معجم الأنساب : ٣٠ــ٣١ .

ولده قاسم بن هاشم ، فألزمنى السّفارة عنه والرسالة منه إلى الدولة المصرية ، فقدمتها فى شهر ربيع الأول سنة خمسين ، والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر ، والوزير له الملك الصالح طلائع ابن رزّيك . فلما حضرت للسلام عليهما فى قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما[1] :

الحمد للعيس[2] بعد العزم والهمم ... حمدا يقوم بما أولت من النّعم
لا أجحد الحقّ ، عندى للركاب يد ... تمنت اللجم فيها رتبة الخطم
قرّبن بعد مزار العز من نظرى ... حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورُحن من كعبة البطحاء والحرم ... وفداً إلى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت أنى بعد زَوْرته ... ما سرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها ... بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللإمامة أنوارٌ مقدّسة ... تجلو البغيضين من ظُلْم ومن ظُلَم
وللنبوّة آيات تضىء لنا ... على الخفيّين من حكم ومن حكم
وللمكارم أعلام تعلّمنا ... مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلا ألسنٌ تثنى محامدها ... على الحميدين من فعل ومن شيم
وراية الشرف البذّاخ ترفعها ... يد الرفيعين من مجد ومن همم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا ... فوز النجاة وأجر البرّ فى القسم
لقد حمى الدّين والدّنيا وأهلهما ... وزيره الصالح الفرّاج للغمم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله ... إلا يد الصنعتين[3] السيف والقلم
وجُوده أوجد الأيام ما اقترحت ... وَجُوده أعدم الشاكين للعدم
(١٧٦ب) قد ملكته العوالى رقّ مملكة ... تعير أنف الثريا عزّة الشمم
أرى مقاما عظيم الشأن أوهمنى ... فى يقظتى أنها من جملة الحُلم
يوم من العمر لم يخطر على أمل ... ولا ترقت إليه رغبة الهمم

(١) انظر النكت : ٣٢-٣٤ .
(٢) فى الأصل : « للعيش » ، وهو خطأ .
(٣) فى النكت : الصنعين .

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمى
ترى الوزارة فيه وهى باذلة عند الخلافة نصحا غير متهم
عواطف أعلمتنا أن بينهما قرابة من جميل الرأى لا الرحم
خليفة ووزير مدّ عدلهما ظلاًّ على مفرق الإسلام والأمم
زيادة النيل نقص عند فيضهما فما عسى يتعاطى منة الديم

قال[1] : وعهدى بالصالح وهو يستعيدها فى حال النشيد مرارا ، والأستاذون والأمراء والكبراء يذهبون فى الاستحسان كل مذهب . ثم أفيضت علىّ خلع من ثياب الخلافة مذهبة ، ودفع إلىّ الصالح خمسمائة دينار ؛ وإذا بعض الأستاذين قد خرج لى من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى ، وحمل المال معى إلى منزلى وأطلق[2] لى من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد قبلى ، وتهادتنى أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم ، واستحضرنى الصالح للمجالسة ، ونظمنى فى سلك أهل المؤانسة ، وانثالت علىّ صلاته ، وغمرنى برّه .

ووجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالى بن الحباب[3] ، والموفق أبا الحجاج يوسف بن الخلال[4] صاحب ديوان الإنشاء ، وأبا الفتح محمود بن قادوس[5] ، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير[6] ، وغيرهم . وما من هذه الحلبة أحد إلا ويضرب فى الفضائل النفسانية ، والرياسة الإنسانية ، بأوفر نصيب . وما زلت أحذو على طرائقهم حتى نظمونى فى سلك فرائدهم . وقلت :

(١) فى النكت العصرية : ٣٤ .
(٢) فى ل ١٧٨ ب ، وفى ق : وأطلقت .
(٣) عبد العزيز بن الحسين الأغلبى السعدى التيمى ، كان متعاونا مع يوسف بن الخلال فى ديوان الإنشاء . فوات الوفيات ؛ الخريدة : شعراء مصر : أول : .
(٤) أستاذ القاضى الفاضل ، وهو صاحب ديوان الإنشاء فى مصر أواخر العهد الفاطمى . توفى سنة ٥٦٦ . وفيات الأعيان : ج : ٢ ؛ شذرات الذهب : ٤ : ٢١٩ .
(٥) من كتاب الإنشاء ؛ توفى سنة ٥٥١ ؛ وكان يسمى ذا البلاغتين . الخريدة : شعراء مصر : ١ : ٢٢٦ ، ٢٣٤ .
(٦) كان كأخيه ، الرشيد أحمد بن على ، شاعراً مصرياً ؛ توفى قبل أخيه بسنة ، وكان أشعر من الرشيد ؛ بينما كان الرشيد أعلم منه . وفيات الأعيان : ح : ١ ؛ الخريدة : شعراء مصر : ١ .

ليالىّ بالفسطاط من شاطئ مصر سقى عهدك الماضى عهاد من القطر

ليالٍ هى العمر السعيد ، وكلّ ما مضى فى سواها لا يمدّ من العمر

أفادتنىَ الأقدار فيها مواليـاً صفت بهم الأيام من كدر الغدر

تواصَوْا على ألاّ تُردّ إرادتى ولو سمتهم نثر الكواكب فى حجرى

وله فى الصالح من قصيدة :

ولو لم يكن[1] أدرى بما جهل الورى من الفضل لم تنفق لديه الفضـائل

لئن كان منا قابَ قوسٍ فبيننـا فراسخ من إجلاله ومراحـل

قال[2] وأنشدت الصّالح وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدة منها :

دعُوا كل برق شمتم غـير بارق يلوح على الفسطـاط صادق بشره

وزوروا المقام الصّالحىّ فـكل من على الأرض ينسى ذكره عند ذكره

ولا تجعلوا مقصودكم طلب الغنى فتجنُوا على مجد المقـام وفخره

ولـكن سلوا منه العلا تظفروا بها فـكل امرئ يرجى على قدر قدره

قال[3] : ولما جلس شاور فى دار الذّهب قام الشّعراء والخطباء ولفيف النّاس إلاّ الأقل يتالون من بنى رزيك وضرغام نائب البـاب ويحيى بن الخيّاط الأسفهسلار ، فأنشدته[4] :

صحّت بدَوْلتك الأيام من سقم وزال مايشتكيه الدهر من ألم

ومنها :

زالت ليالى بنى رزيك وانصرمت والحمد والذمّ فيها غـير منصرم

كأنّ صالحهم يوما وعاد لهم[5] فى صدر ذا الدست لم يقعد ولم يقم

---

(١) فى الأصل : ولو لم أكن .. والمثبت هنا من ل ١٧٩ ا .

(٢) فى النكت : ٣٥ . (٣) فى النكت : ٦٩ .

(٤) انظر النكت العصرية : ٦٦ ــ ٧٠ .

(٥) المقصود الصالح طلائع بن رزيك وابنه العادل وقد وليا الوزارة للفاطميين .

كنّا نظنّ ، و بعض الظنّ مأثمة بأن ذلك جمع غـــــير منهزم
فمذ وقعت وقوع النّسر خانهم من كان مجتمعا من ذلك الرّخم
ولم يكونوا عدوّا ذلّ جانبه وإنمـــا غرقوا فى سيلك العرم
وماقصدت بتعظيمى عداك[1] سوى تعظيم شأنك ، فاعـذرنى ولا تلُم
ولو شكرت ليـاليهم محـافظـةً لعهدها لم يكن بالعهد من قدم
ولو فتحت فمى يوماً بذمّهم لم يرض فضلك إلّا أن يسدّ فمى
والله يأمر بالإحسـان عارفة منه، و ينهى عن الفحشاءفى الـكلم

قال : فشكرنى شاور وأبناؤه على الوفاء لبنى رزيك .

قلت : وشعر عمارة كثير حسن ، وعندى منْ قوله : « الحمد للعيس » ، وإن كانت القصيدة فائقة ، نفرة عظيمة ، فإنه أقام ذلك مقام قولنا « الحمد لله » ؛ ولا ينبغى أن يفعل ذلك مع غير الله تعالى عزّ وجلّ ، فله الحمد وله الشكر ، فهذا اللفظ كالمتعين لجهة الرّبوبيّة المقدّسة ، وعلى ذلك اطرد[2] استعمال السلف والخلف رضى الله عنهم .

فصـــــل

فى وفاة نور الدين رحمـه الله تعـالى

قال العماد : وأمر نور الدّين رحمه الله تعالى بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر ، واحتفلنا لهذا الأمر وغلقت محال دمشق أيّاما .

قال : ونظمت للهناء بالعيد والطهور قصيدة منها :

عيدان : فطر وطهر فتح قريب ونصر
كلاهما لك فيـه حقـا هنـاء وأجر
وفيهما بالتهـــانى رسم لنــــا مستمر

(١) فى الأصل : علاك . والمثبت هنا من ل ١٧٩ ا ومس النكت .
(٢) فى ل ١٧٩ ا ، وفى ق . اطراد .

طهارة طاب منها أصل وفرع وذكر
تجل على الطهر نام زكا له منك نجر
بجود الملك العادل الكريم الأغرّ
وبابنه الملك الصالح العيون تقر
مولى به اشتد للدين والشريعة أزر
نور تجلى عيانا ما دونه اليوم ستر
أضحت مساعيك غرا كما أياديك غزر
وكل قصدك رشد وكل فعلك بر
وإن حبك دين وإن بغضك كفر
لنا بيمناك يمن كما بيسراك يسر
والموالين نفع وللمعادين ضر
وللسماء سحاب وسحب كفيك عشر
ناديك بالرفد رحب نداك للوفد بحر
للبحر مدّ وجزر وما لجودك جزر
عدل عميم وجود غمر ويسر وبشر
وفى العطية حلو وفى الحمية مر
قد استوى منك تقوى الإله سرّ وجهر
(١٧٧ ب) تقاك والملك عند المقياس عقد ونحر
يا أعظم الناس قدرا وهل لغيرك قدر
وساهرا حين ناموا وقائما حين قروا
ما اعتدت إلا وفاء وعادة القوم غدر
وفعلك الدهر غزو للمشركين وقهر
وفعل غيرك ظلم للمسلمين وقسر
يفتر من كل ثغر إلى ابتسامك ثغر

روم به وفـــرنج في شفعـهم لك وتر
حرب عوان وفتح على مرادك بـكر
بنوالأصافر[1] من خشـ ية انتقامـك صـفر
لم يبق للـكفر ظفر لا كان للـكفر ظفر
وما دجى ليل خطب إلا وعزمك فجر
أصبحت بالغزو صبا وعنــه مالك صبر
لـكسر كل يتـيم إسعاف برك جـبر
في كل قلب حسود من حر بأسك جمر
تملّ تطهـير مَلْكٍ له المـلوك تخر
يزهى سرير وتاج به ودست وصدر
وكيف يعمـل للطا هر المطهر طهر
هـذا الطهور ظهور على الزمان وأمر
وذا الختان ختـام بمسكه طاب نشر
رزقت عمـرا طويلا ما طـال الدهر عمر

قال : وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرسم المعتاد ، محفوفا من الله بالإسعاد ، مكنوفا من السماء والأرض بالأجناد ، والقدر يقول له هـذا آخر الأعياد . ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق ، ورمى القبـق[2] ، وكان قد ضرب خيمته[3] في الميدان القبلي الأخضر ، وأمر بوضع المنبر ؛ وخطب له القاضي شمس الدين محمد بن الفزاش قاضي العسكر ، بعد أن صلى به وذكّر ، وعاد إلى القلعة ، طالع البهجة

---

(١) جم الفرنج .

(٢) لعبة القبق نوع من التدريب على الرماية ، وهي من ألعاب الفروسية ، وطريقتها نصب صار طويل من الخشب في رأسه شكل قرعة (وهو أصل معنى قبق) بمثابة الهدف ويوضع به حمام ، ثم يأتي اللاعبون على ظهور الخيل يرمون القبق ، القرعة ، بالنشاب ، وفائزهم من يطير الحمام . وقد يستبدل بالقرعة حلقة من الخشب . انظر المواعظ والاعتبار : ٢ : ١١١ ؛ وكذلك : .Dozy : Supp. Dict. Ar

(٣) في ل ، وكذلك في ق : وكان مسجد صلاته .

بهيج الطلعة وأنهب سماطه [العام] (١) على رسم الأتراك ، وأكابر الأملاك . ثم حضرنا على خوانه الخاص،وله عقد كال مصون من الانتقاض والانتقاص؛وما أوضح بشره،وأضوع نشره ، وأضحك سنه ، وأبرك يمنه .

وفى يوم الاثنين ثانى العيد بكر وركب وجمل الموكب ، وكأن الفلك بنيره جار ، والطود الثابت يمر ّمر ّ(٢) السحاب فى وقار ؛ وكأنه القمر فى هالته ، والقدر فى جلالته ، والبدر فى دائرته ، سائرين سيارته ؛ ودخل الميدان والعظماء يسايرونه ، والفهماء يحاورونه ، وفيهم همام الدّين مودود ، وهو فى الأكابر معدود ، وكان قديما فى أوّل دولته والى حلب ، وقد جرّب الدهر بحنكته ولأشطره حلب ، فقال لنور الدّين فى كلامه ، عظة لمن يغتر بأيامه ، هل نكون ههنا فى مثل هذا اليوم فى العام القابل ؟ فقال نور الدّين قل هل نكون بعد شهر ، فإنّ السنة بعيدة ! فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السّابق ، فإنّ نور الدّين لم يصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى العام .

ثم شرع نور الدين فى اللعب بالكرة (١٧٨ ا) مع خواصه البررة ، فاعترضه فى حاله أمير آخر [اسمه] (٣) برتقش وقال له باش ، فأحدث له الغيظ والاستيحاش ، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم ، وخلقه الحليم ، فزجره وزبره ، ونهاه ونهره ، وساق ودخل القلعة ونزل ، واحتجب واعتزل ؛ فبقى أسبوعا فى منزله ، مشغولا بنازله ، مغلوبا عن عاجله بحديث آجله ، والناس من الختان ، لاهون بأوطارهم فى الأوطان ، فهذا يروح بجوده ، وذاك يجود بروحه ؛ فما انتهت تلك الأفراح إلاّ بالأتراح وما صلح الملك بعده إلا بملك الصلاح .

قال : واتصل مرض نور الدّين وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع ، وكان مهيبا فما روجع ؛ وانتقل حادى عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء ، إلى مرتع البقاء. ولقد كان من أولياء الله المؤمنين ، وعباده الصالحين ، وصار إلى جنات عدن أعدت للمتقين .

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٨٠ ا .
(٢) فى ل ١٨٠ ا ، وكذلك فى ق : يمرور .
(٣) مابين الحاصرتين من ل ١٨٠ ا .

وكانت له صُفَّة فى الدار التى على النهر الداخل إلى القلعة من الشّمال ، وكان جلوسه عليها فى جميع الأحوال ؛ فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بإزاء تلك الصفّة بيتا من الأخشاب ، مأمون الاضطراب ، فهو يبيت فيه و يصبح ، ويخـلو بعبادته ولا يبرح ؛ فدفن فى ذلك البيت الذى اتخذه حِمًى من الحمام ، وأذن بناؤه لبانيه بالانهدام .

قال العماد : وقلت فى ذلك :

عجبت من الموت ، كيف اهتدى [1] إلى مَلِك فى سجـــايا مَلَك !
وكيــف ثوى الفلك المستديـ رُ فى الأرض ، والأرض وسط الفلك !

وله فيه رحمهما الله تعالى :

يا ملكا أيامــه لم تزل بفضـله فاضـلة فاخرة
غاضت بحار الجود مذ غيبت أملك الفائضـة الزاخرة
ملكت دنياك وخلفتها وسرت حتى تملك الآخرة

قال ابن شداد [2] . وكانت وفاة نور الدّين رحمه الله تعـالى بسبب خوانيق اعترته عجز الأطباء عن علاجها . ولقـد حكى لى صلاح الدّين قال : كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربمـا قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نـكاشف ونخالف ونشقّ عصاه ، ونلقى عسكره بمصاف يرده ، إذا تحقق قصده ؛ قال : وكنت وحدى أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شئ من ذلك . ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته رحمه الله تعالى ، ورضى عنه .

قال ابن الأثير [3] : وكان نور الدّين قد شرع بتجهيز السـير إلى مصر لأخذها من صلاح الدّين لأنه رأى منه فتورا فى غزو الفرنج من ناحيته ، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر . يطلب العساكر ليتركها بالشّام لمنعه من الفرنج ، ليسير هو بعساكره إلى مصر . وكان المانع لصـلاح الدّين من الغزو ، (١٧٨ ب) الخوف من نور الدّين ،

(١) ساقطة من ل ١٨٠ ا .
(٢) فى النوادر السلطانية : ٣٧ ؛ وهو اقتباس حرفى .
(٣) فى الأتابكة : ٢٩٢ ــ ٢٩٤ ؛ وهو اقتباس حرفى .

فإنه كان يعتقد أن نور الدّين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه ؛ فكان يحتمى بهم عليه ، ولا يؤثر استئصالهم ، وكان نور الدّين لا يرى إلا الجدّ فى غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى إخلال صلاح الدّين بالغزو ، وعلم غرضه تجهز بالمسير إليه ، فأتاه أمر الله الذى لا يرد .

قلت : ولو علم نور الدّين ماذا ذخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يدى صلاح الدّين من بعده لقرّت عينه ، فإنه بنى على ما أسسه نور الدّين من جهاد المشركين ، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها ، رحمهما الله تعالى[1] .

قال : وحكى لى طبيب بدمشق ، يعرف بالرحبى ، وهو من حذّاق الأطباء ، قال : استدعانى نور الدّين فى مرضه الّذى توفى فيه مع غيرى من الأطباء ، فدخلنا عليه وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق ، وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك ، فلا يكاد يسمع صوته ، وكان يخلو فيه للتعبد فى أكثر أوقاته ، فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه . فلما دخلنا عليه ورأينا ما به قلت : كان ينبغى أن لا يؤخّر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض إلى هذا الحد ، فالآن ينبغى أن تنتقل إلى مكان فسيح فله أثر فى هذا المرض . وشرعنا فى علاجه فلم ينفع فيه الدّواء ، وعظم الداء ، ومات عن قريب رضى الله عنه :

قال ابن الأثير[2] : وكان أسمر طويل القامة ، ليس له لحية إلّا فى حنكه . وكان واسع الجبهة ، حسن الصورة ، حلو العينين . وكان قد اتسع ملكه جدا فملك الموصل وديار الجزيرة ، وأطاعه أصحاب ديار بكر ، وملك الشام والديار المصرية واليمن ، وخُطب له بالحرمين الشريفين مكة والمدينة ، وطبّق الأرض ذكره لحسن سيرته وعدله . ولم يكن مثله إلا الشاذ النادر . رحمة الله تعالى عليه .

قال الحافظ أبو القاسم ، بعد ما ذكر أوصاف نور الدّين الجليلة المتقدمة مفرقة ومجموعة فى هذا الكتاب : هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين ، والرأى الثاقب الرصين،

(١) وهذا القول من أبى شامة محاولة للدفاع عن مواقف صلاح الدين ، ذلك أن ابن الأثير لا يرضى عن مثل هذه المواقف التى وقفها من نور الدين ثم من بعده ، من ولده الملك الصالح اسماعيل، ويعتبر صلاح الدين وأسرته خارجين على بيت نور الدين جاحدين لفضله .

(٢) الاقتباس من نفس المصدر والصفحات .

والاقتداء بسيرة السلف الماضين ، والتشبّه بالعلماء والصالحين ؛ والاقتداء بسيرة من سلف منهم [1] فى حسن سمتهم ، والاتباع لهم فى حفظ حالهم ووقتهم ، حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وأسمعه ؛ وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه ، حرصا منه على الخير فى نشر السنة بالأداء والتحديث ، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء فى الحديث . فمن رآه شاهد من خلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره ، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيّره ؛ يحب الصالحين ويؤاخيهم ، ويزور مساكنهم لحسن ظنّه فيهم . وإذا احتلم مماليكه أعتقهم ، وزوّج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم؛ ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد من ولاته ، أمره بالكفّ عن أذى من تظلم بشكاته ، فمن لم يرجع منهم إلى العدل ، قابله بإسقاط المنْزلة والعزل . فلما جمع الله له من شريف الخصال ، تيسر (١٧٩ ا) له جميع ما يقصده من الأعمال ، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع ، ومُكّن له فى البلدان والبقاع .

ثم قال بعد كلام كثير : ومناقبه خطيرة ، وممادحه كثيرة ؛ ومدحه جماعة من الشعراء فأكثروا ، ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصروا ؛ وهو قليل الابتهاج بالشعر ، زيادة فى تواضعه لعلوّ القدر .

ومولده على ما ذكر لى كاتبه أبو اليسر شاكر بن عبد الله ، وقت طلوع الشمس من يوم الأحد سابع عشر شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وتوفى يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ، ودفن بقلعة دمشق ، ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التى بناها لأصحاب أبى حنيفة رضى الله عنه جوار الخواصين فى الشارع الغربى رحمه الله .

قلت : وفى هذه المدرسة يقول العرقلة [2] :

ومدرسة سيدرس كل شئ ... وتبقى فى حمى علم ونسك
تضوّع ذكرها شرقا وغربا ... بنور الدين محمود بن زنكى

(١) فى ل ١٨١ ا ، وفى ق : والاقتفاء لسيرة من سلف .

(٢) انظر الخريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ٢١٨ ؛ حيث تجد البيتين الأولين فقط .

يقول ، وقوله حقٌّ وصدق بغير كناية وبغير شكّ

دمشق فى المدائن بيت مُلكى وهذى فى المدارس بيت مِلكى

ولما اشتهر (به)[1] من قلة ابتهاجه بالمدح لما علم من تزايد الشعراء ، وهى طريقة عمر بن عبد العزيز زاهد الخلفاء ، قال يحيى بن محمد الوهرانى فى مقامة له ، وقد سئل فى بغداد عن نور الدين : « هو سهم للدّولة سديد ، وركن للخلافة شديد ، وأمير زاهد ، وملك مجاهد ، تساعده الأفلاك ، وتعضده الجيوش والأملاك ، غير أنه عرف بالمرعى الوبيل ، لابن السبيل ، وبالمحْل الجديب ، للشاعر الأديب ، فما يُرزى ولا يعزّى ، ولا لشاعر عنده من نعمة تجزى » .

وإيّاه عنى أسامة ابن منقذ بقوله[2] :

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا له ، فكلٌّ على الخيرات منكمش

أيّامه مثل شهر الصوم : طاهرة من المعاصى ، وفيها الجوع والعطش

قلت : رحمه الله ، ما كان يبذل أموال المسلمين إلّا فى الجهاد ، وما يعود نفعه على العباد ؛ وكان كما قيل فى حق عبد الله بن محيريز ، وهو من سادات التابعين بالشام ، قال يعقوب بن سفيان الحافظ ، حدّثنا ضمرة الشيبانى ، قال : كان ابن الديلمى من أنصر الناس لأخوانه ، فذكر ابن محيْريز فى مجلسه ، فقال : رجل كان بخيلا . فغضب ابن الدّيلمى وقال : كان جوادا حيث يحب الله وبخيلا حيث تحبون .

وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به فهو القائل فى ليلة الميلاد يمدح نور الدين رحمه الله تعالى :

فى كل عام للبرية ليلة فيها تشب النار بالإيقاد

لكن لنور الدّين من دون الورى ناران نار قرى ونار جهاد

أبداً يصرّفها نداه وبأسه فالعام أجمع ليلة الميلاد

ملك له فى كل جيد منّة أبهى من الأطواق فى الأجياد

---

(١) ساقطة من ل ١٨١ أ ، وكذلك من ق .

(٢) الخريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ٥١٦ .

أعلى الملوك يدا ، وأمنعهم حمى   وأمدهم كفًا ببــــذل تلاد
يعطى الجزيل من النوال تبرعا   من غير مسألة ولا ميعـــاد
(١٧٩ب) لا زال فى سعد وملك دائم   ما دامت الدنيا بغـير نفاد

وقد تقدّم من شعر ابن منير وابن القَيسرانى والعماد الـكاتب وغـيرهم من مـدح نور الدّين بالـكرم والجود ماقليل منه يردّ قول الوهرانى وابن منقذ[١] . على أنّ ابن منقذ قد رددنا شعره لشعره كما تراه ، وإنّما الشعراء وأكثر النّاس كما قال الله تعالى فى وصف قوم « فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ » [٢]

وما كلّ وقت ينفق العطاء ويفعل الله مايشاء .

فصـــل

قال ابن الأثير[٣] : لمـا توفى نور الدّين جلس ابنه الملك الصالح اسماعيل فى الملك وحُلِف له ولم يبلغ الُحلم ، وحلف له الأمراء والمقدمُون بدمشق ، وأقام بها ، وأطاعه النّاس فى سائر بلاد الشام ، وصلاحُ الدّين بمصر ، وخَطَب له بها ، وضرب السكة باسمه فيهـــا . وتولّى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدم[٤] .

قال العماد : وأخرجوا يوم وفاة نور الدّين ولده الملك الصالح اسماعيل ، وقد أبدى الحزن والعويل ، وهو مجزوز الذوائب مشقوق الجيب ، حاسر ، حافٍ مما لجأه ولجمه من الرّيب ، وأجلسوه فى الإيوان الشمالى من الدّست[٥] والتخت[٦] البـاقى من عهد تاج

---

(١) انظر ما تقدم فى الصفحات : ٤٤ ــ ٥٨ .
(٢) سورة التوبة : آية : ٥٨ .
(٣) فى الأتابكة : ٢٩٤ ؛ وهو اقتباس حرفى .
(٤) من أكابر أمراء نور الدين ، تولى الوصاية على ابنه الملك الصالح اسماعيـل ، وقتل فى معركة بين حجاج الشام وحجاج العراق ، سنة ٥٨٣ ، عند عرفات عند دق الطبل له باعتباره أميراً للحج الشامى مما أغضب أمير الحاج العراقيين . وسيأتى تفصيل هذا فى مواضعه . انظر أيضاً : النجوم الزاهرة : ٦ : ١٠٥ .
(٥) الدست : صدر المجلس ، وهى تعريب لـكلمة دشت الفـارسية ، بمعنى الصحراء فى الأصل ، ولها معان أخرى . انظر : Dozy : Supp. Dict. Ar.
(٦) سرير الملك .

الدولة تتش[1] ، فاستوحى كل قلب حزنه واستوحش ، فوقف النّاس يضطربون ويضطربون ، ويلتهفون ويتلهّبون[2] . ولما كفّن بحلّة الكرامة ، ودفن فى روضة بابها إلى باب رضوان من دار المقامة ، وقضوا الجزع ، وقوضوا الفزع ، وغيبوا الدمعة ، وأحضروا الرّبعة ، حضر القاضى كال الدّين ، وشمس الدين بن المقدم ، وجمال الدّولة ريحان ، وهو أكبر الخدم ، والعدل[3] أبو صالح بن العجمى أمين الأعمال ، والشيخ اسماعيل خازن بيت المال ، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة ، وعزائمهم متعاقدة ، وأن ابن المقدم مقدم العسكر ، وإليه المرجع والمصدر .

قال : وأنشأت فى ذلك اليوم كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين فى تعزيته بنور الدّين ، ترجمته : « اسماعيل بن محمود » وفيه :

« أطال الله بقاء سيدنا الملك النّاصر وعظم أجرنا وأجره فى والدنا الملك العادل ندب الشام ، بل الإسلام ، حافظ ثغوره ، وملاحظ أموره ، ومقدام الجهاد مقتنى فضيلته ، ومؤدى فريضته ، ومحيى سنته ؛ وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره ، على أنّه يعزّ أنْ يرى الزمان نظيره . وما ههنا ما يشغل السر ، ويقسم الفكر ، إلا أمر الفرنج خذلهم الله ؛ وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحادث الجلل ، والصرف الكارث المذهل ؛ فقد ادخره لكفايات النّوائب ، وأعده لحسم أدواء المعضلات اللوازب ، وأمّله ليومه ولغده ، ورجاه لنفسه ولولده ، ومكّنه قوة لعضده . فما فقد رحمه الله تعالى إلاّ صُورة والمعنى باق ، والله تعالى حافظ لبيته واق ؛ وهل غيره ، دام سموه ، من مؤازر ، وهل سوى السّيد (١١٨٠ ا) الأجل النّاصر من ناصر ؛ وقد عرفناه المقترح ، ليروض برأيه من الأمر ما جمح . والأهم شغل الكفار ، عن هذه الديار ، بما كان عازما عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار ؛ ويجرى على العادة الحسنى فى إحياء ذكر الوالد (هناك)[4] بتجديد ذكرنا ، راغبا فى اغتنام ثنائنا وشكرنا » .

(١) تقدم شىء من التعريف به فى ص : ٦٠ فى المتن وفى التعليقات .
(٢) فى ل ١٨٢ ا : يلتهبون ، وهى كذلك فى ق .
(٣) العدل اصطلاح يلقب به من يثق به القاضى ويطمئن إلى شهادته فيعينه لمعاونته فى أعماله ومنها تسجيل الأحكام . صبح الأعشى .
(٤) ساقطة من ل ١٨٢ ا .

قلت : وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدّين فأرسل كتابا بالمثال الفاضل فيه :

« ورد خبر من جانب العدوّ اللعين ، عن المولى نور الدّين ، أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه ، ونوّر بعافيته القلوب والوجوه ؛ فاشتدّ [1] به الأمر ، وضاق به الصدر ، وانقصم بحادثه الظهر ، وعزّ فيه التثبت وأعوز الصبر . فإن كان والعياذ بالله قد تم ، وخصّه الحكم الذى عم ، فللحوادث تدخر النصال ، وللأيام تصطنع الرّجال ؛ وما رتب الملوك ممالكها إلاّ لأولادها ، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلاّ لتؤدى حقها يوم حصادها ؛ فالله الله أن تختلف القلوب والأيدى ، فتبلغ الأعداء مرادها ، وتعدم الآراء رشادها ، وتنتقل النعم التى تعبت الأيام فيها ، إلى أن أعطت قيادها . فكونوا يداً واحدة ، وأعضاداً متساعدة ، وقلوبا يجمعها ودّ ، وسيوفا يضمها غمد ؛ ولا تختلفوا فتنكاوا ، وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلوا ، وقوموا على أمشاط الأرجل ، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل ؛ فالعداوة محدقة بكم من كل مكان ، والكفر مجتمع على الإيمان . ولهذا البيت منّا ناصر لا نخذله ، وقائم لا نسلمه . وقد كانت وصيته إلينا سبقت ، ورسالته عندنا تحققت ، بأنّ ولده القائم بالأمر وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه ؛ فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت ، والطاعة فى الغيبة والحضور أديت وفعلت ، وإلاّ فنحن لهذا الولد يدٌ على من ناواه [2] ، وسيف على من عاداه . وإن أسفر الخبر عن معافاة فهو الغرض المطلوب ، والنذر الذى يحل على الأيدى والقلوب » .

قال العماد : وورد كتاب صلاح الدّين بالمثال الفاضل معزيا لابن نور الدّين وفى آخره : « وأما العدو خذله الله تعالى فوراءه من الخادم من يطلبه طلب ليلٍ لنهار ، وسيل لقرار ، إلى أن يزعجه من مجاثمه ، ويستوقفه عن مواقف مغانمه ؛ وذلك من أقلّ فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه . أصدر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذى القعدة ، وهو اليوم الذى أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم ، وصرح فيه بذكره فى الموقف العظيم ، والجمع الذى لا لغو فيه ولا تأثيم ؛ وأشبه يوم الخادم أمسه فى الخدمة ووفى مالزمه من حقوق النعمة

---

(١) فى الأصل ، وكذلك فى ل ١٨٢ ب : واشتد .

(٢) ناوأه ، بتسهيل الهمزة لتنسجم مع الأسلوب المسجوع .

وجمع كلمة الإسلام عالماً أنّ الجماعة رحمة . والله تعالى يخلد ملك المولى الملك الصالح ، ويصلح به وعلى يديه ، ويؤكد عهود النّعْماء الراهنة لديه ، ويجعل للإسلام واقية باقية عليه ، ويوفق الخادم لما ينويه من توثيق (١٨٠ ب) سلطانه وتشييده ، ومضاعفة ملكه ومزيده ، ويُيسر منال كل أملٍ صالح وتقريب بعيده ، إن شاء الله تعالى » .

ومن كتاب آخر : « الخادم مستمر على بدأته من الاستشراف لأوامرها ، والتعرض لمراسمها ، والرفع لكلماتها ، والإيالة لعسكرها ، والتحقق بخدمتها ، فى بواطن الأحوال وظواهرها ، والترقّب لأن يُؤمر فيمتثل ، ويكلّف فيحتمل ، وأن يُرمى به فى نحر عدوه فيتسدّد بجهده ، ويوفى أيام الدولة العالية يوما يكشف الله فيه للمولى ضمير عبده » .

قال العماد : ولما توفى نور الدين اختل أمرى ، واعتلّ سرّى ، وعلت حسادى ، وبلغ مرادهم أضدادى . وكان الملك الصالح صغيرا ، فصار العدل ابن العجمى له وزيرا ؛ وتصرف المتحالفون فى الخزانة والدولة كما أرادوا ، وولّوْا وصرفوا ونقصوا وزادوا ؛ واقتصروا لى على الكتابة ، محروم الدعوة من الإجابة .

ومما نظمته فى مرثية نور الدين قصيدة منها .

لفقد الملك العادل يبكى الملك والعدل
وقد أظلمت الآفاق : لا شمس ولا ظل
ولما غاب نور الدين عنا أظلم الحفل
وزال الخصب والخير وزاد الشر والمحْل
ومات البأس والجود وعاش اليأس والبخل
وعز النقص لمّا هان أهل الفضل والفضلُ
وهل ينفق ذو علم[1] إذا ما نفق الجهل
وما كان لنور الدين ، لولا نجلُه ، مثل

(١) فى ل ١٨٣ أ : ذو العلم .

فصل

قال العماد : واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين رحمه الله تعالى على الثغر وقصدهم بانياس ، ورجوا أن يتم لهم الأمر ثم ظهرت خيبتهم و بان الياس . وذلك أن شمس الدّين ابن المقدم خرج وراسل الفرنج وخوّفهم بقصد صلاح الدّين لبلادهم ، وأنه قد عزم على جهادهم ؛ وتكلموا فى الهدنة ، وقطع مواد الحرب والفتنة ، وحصلوا بقطيعة استعجلوها ، وعدة من أساراهم استطلقوها ؛ وتمّت المصالحة .

و بلغ ذلك صلاح الدّين فأنكره ولم يعجبه ، وكتب إلى جماعة الأعيان كتبًا دالّة على التو بيخ والملام . ومن جملتها كتاب بالمثال الفاضلى إلى الشيخ شرف الدّين بن أبى عصرون يخبره فيه أنه لما أتاه كتاب الملك الصالح بقصد الفرنج تجهّز وخرج وسار أربع مراحل ، ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذُلّ الإسلام من دفع القطيعة و إطلاق الأسارى ؛ وسيدنا الشيخ أول من جرّد لسانه[1] الذى تُغمد له السيوف وتُجرّد ، وقام فى سبيل الله قيام من يَقظ عادية من تعدّى وتمرّد .

وفى آخره : « وكتب من المنزل بفاقوس والفجر قَدْ هَمّ أنْ يشقّ ثوب الصباح ، لولا أنّ الثّريا تعرضت تعرض أثناء الوشاح . وهذه اللّيلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثانى عشر ذى الحجة ، بلّغه الله فيه أمله ، وقبل عمله ، بالغًا أسنى المراد (١٨١ ا) وأفضله » .

وقال ابن الأثير[2] : لما توفى نور الدّين قال الأمراء ، منهم شمس الدين بن المقدّم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحى ، وغيرهما من أكابر الأمراء : قد علمتم أن صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوّابه ، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله ولا نخرجه من بيننا ، فيخرج عن طاعة الملك الصالح ، و يجعل ذلك حجة علينا ؛ وهو أقوى منا لأنّ له مثل مصر ، ور بما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصالح . فلم يوافق أغراضهم هذا القول ، وخافوا أن يدخل صلاح الدين و يخرجوا .

---

(١) فى ل ١٨٣ ا ، وفى ق كذلك : أطلق .

(٢) فى الأتابكة : ٢٩٤–٢٩٦ ؛ وهو اقتباس حرفى .

قال : فلم يمض غير قليل حتى وصلت كتب صلاح الدين إلى الملك الصّالح ، يهنيه بالملك و يعزيه بأبيه ، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ، و يعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لوالده . فلمّا سار سيف الدّين غازى [1] ، ابن عمه قطب الدين ، وملك الديار الجزرية ، ولم يرسل مَنْ مع الملك الصّالح من الأمراء إلى صلاح الدين ولا أعلموه الحال ، كتب إلى الملك الصالح يعتبه حيث لم يُعْلِمه قصد سيف الدين بلاده ليحضر فى خدمته و يمنعه . وكتب إلى الأمراء يقول إنّ الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته بى ، لسَلَّمَ إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته سواى . وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاى وابن مولاى دونى ، فسوف أصلُ إلى خدمته وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأقابل كلاً منكم على سوء صنيعه ، وإهمال أمر الملك الصالح ومصالحه ، حتى أخذت بلاده .

فأقام الصّالح بدمشق ومعه جماعة من الأمراء لم يمكنوه من المسير إلى حلب لئلا يغلبهم عليه شمس الدّين على بن الدّاية فإنه كان أكبر الأمراء النُّورية ، وإنما تأخر عن خدمة الملك الصالح بعد وفاة نور الدين لمرض لحقه ؛ وكان هو وإخوته بحلب وأمرها إليهم ، وعسكرها معهم فى حياة نور الدين وبعده . ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه ؛ وأرسل إلى الأمراء يقول لهم : إن سيف الدين قد ملك إلى الفرات ولئن لم ترسلوا الملك الصالح إلى حلب حتى يجمع العساكر ويَسْتَرِد ما أخذ منهم ، وإلّا عبر سيف الدين الفرات إلى حلب ولا نقوى على منعه . فلم يرسلوه ولا مكّنوه من قصد حلب [2] .

قال [3] : وكان نور الدين قبل أن يمرض قد أرسل إلى البلاد الشرقية كالموصل

---

(١) صاحب الموصل بين سنتى ٥٦٥–٥٧٦ . وقد تقدم أن نورالدين أقره على الموصل ، سنة ٥٦٥ ، بعد وفاة قطب الدين مودود ؛ وإن كان قد أخرج عنها وزيره فخر الدين عبد المسيح . انظر ماتقدم ص : ٤٧٥ وما بعدها .

(٢) نهاية هذا الاقتباس من الأتابكة ، فى ص : ٢٩٦ .

(٣) فى الأتابكة : ٣١٨–٣٢١ . وبين هذا وماقبله فى الأتابكة نحو عشرين صفحة لجمع أبو شامة بينهما فى اقتباسه لاتفاق الموضوع . انظر أيضا مفرج الكروب : ٥:٢ .

وغيرها،واستدعى[1] العساكر منها ،فسار سيف الدين [غازى بن أتابك قطب الدين صاحب الموصل[2]] فى عساكره ، فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبر بموت عمّه نور الدين ، فعاد إلى نصيبين فملكها ، وأرسل الشحن إلى الخابور فاستولَوْا عليها ، وسار هو إلى حرّان فحصرها عدة أيام ثم أخذها ، وملك الرّها والرّقة وسَرُوج واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى (١٨١ ب) قلعة جعبر[3] . فقال له فخر الدين عبد المسيح - وكان قد فارق سيواس بعد وفاة نور الدّين وقصد سيف الدين ، ظنًّا منه أن سيف الدّين يرعى له خدمته ، وقيامه فى أخذ الملك له من والده قطب الدين ، على ماذكرناه أولا[4] ، فلم يجن ثمرة ماغرس ، وكان عنده كبعض الأمراء - ليس بالشّام من يمنعك فاعْبر الفرات واملك البلاد . فأشار أمير آخر معه وهو أكبر أمرائه : قد ملكْتَ أكثر من والدك ، والمصلحة أن تعود ؛ فرجع إلى الموصل .

فصل

قال ابن الأثير[5] : قد سبق أن نور الدّين كان قد جعل بقلعة الموصل لمّا ملكها دُزْداراً له وهو سعد الدين كُمشْتكين بعض خدمه الخصيان ؛ فلما سار سيف الدين إلى الشام كان فى مقدّمته على مرحلة . فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب ، وأرسل سيف الدين فى أثره فلم يدركْهُ ، فنهب بَرْكه[6] ودوابّه وسار إلى حلب ، وتمسك بخدمة شمس الدين بن الداية وإخوته ، واستقر بينهم وبَيْنَه أنْ يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصالح . فسار إلى دمشق ، فأخرج ابن المقدم عسكراً لينهبوا فعاد مُنْهزما إلى حلب ؛ فأخلف عليه شمس الدين بن الدّاية ما أُخذ منه وجهزه وسيره إلى دمشق ، وعلى نفسها تجنى

---

(١) فى الأتابكة : يستدعى .
(٢) مابين الحاصرتين من الأتابكة ، وهو ساقط من الأصل ومن ل ١٨٣ ب .
(٣) حذف أبو شامة هنا فقرة كبيرة من الأتابكة .
(٤) انظر ماتقدم ص : ٤٧٢ فى حوادث سنة ٥٦٥ .
(٥) استمرار للاقتباس السابق من نفس الصفحات .
(٦) البرك : المتاع الخاص .

براقش . فلما وصلها سعد الدين دخلها واجتمع بالملك الصالح والأمراء ، وأعلمهم مافى قصد الملك الصالح إلى حلب من المصالح ، فأجابوا إلى تسييره، فسار إليها . فلما وصلها وصعد إلى قلعتها قبض الخادم سعد الدين على شمس الدين بن الداية و إخوته وعلى ابن الخشاب رئيس حلب .

قال ابن الأثير : ولولا مرض شمس الدين لم يُتمكن منه ولا جرى من ذلك الخلف والوهن شيء . وكان أمر الله قدراً مقدُوراً .

واستبد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح ، فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الدين بدمشق ، فكاتبوا سيف الدين ليسلموا إليه دمشق ، فلم يفعل وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات و يسير إلى دمشق فيمنع عنها ، و يقصده ابن عمه من وراء ظهره ، فلا يمكنه الثبات . فراسل الملك الصالح وصالحه على إقرار ما أخذه بيده ، و بقى الملك الصالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبّر أمره ، وتمكّن منه تمكنا عظيما يقارب الحجر عليه .

وقال العماد : كان كمشتكين الخادم النائب بالموصل قد سمع بمرض نور الدين فأخفاه ، واستأذن فى الوصول إلى الشام ، فطلب سيف الدين غازى رضاه ؛ فخرج وسار مرحلتين وسمع النّعى ، فأغذ السير والسّعى ، ونجا بماله و بحاله ، وندم صاحب الموصل على الرّضا بترحاله . وكانت عنده بوفاة عمه بشارة ، وظهرت على صفحاته منها أمارة ، فإنه لم يزل من كمشتكين متشكّيا فإنه كان لحجر الأمر عليه مُذْكيا . وكان المرحوم قد أمر بإراقة الخمور ، و إزالة المحظور ، و إسقاط المكوس ، و إعدام أقساط البوس[1] ؛ فنودى فى الموصل يوم ورود الخبر بالفسحة فى الشرب جهاراً ، ليلا (١٨٢ ا) ونهاراً ، وزال العرف ، وعاد النكر ؛ وأنشد قول ابن هانى :

* ولا تسقنى سرا فقد أمكن الجهر *

وقيل : أخذ المنادى على يده دنًّا وعليه قدح وزَمْر ، وزعم أنّه خرج بهذا أَمْر ، فلا حرج على من يغنّى و يشرب ؛ وعادت الضرائب وضر بت العوائد .

(١) البؤس ، بتسهيل الهمزة لمناسبة السجع .

فأما كمشتكين فإنه وصل إلى حلب بعد عبور القرى ، وتمثل عند الصباح بحمد القوم السّرى ، واجتمع هناك بالأمير شمس الدين علىّ بن الدّاية و إخوته ، إخوة مجد الدين ، وأظهر أنه لهم من المخلصين .

وكان مجد الدين أبو بكر أخوهم رضيع نور الدين وقد تربّى معه ، ولزمه وتبعه إلى أن ملك الشام بعد والده ، ففوّض إلى مجد الدين جميع مقاصده ، من طريفه وتالده ، وحكّمه فى الملك ، ونظمه فى السلك ، فلا يُحلّ ولا يُعقد إلّا برأيه . وكانت حصونه محصّنة ، وهو يسكن عنده فى قلعة حلب ، والحاضر عنده صباحا ومساء إذا طُلب ؛ وشيزر مع أخيه شمس الدين على ، وقلعة جعبر وتلّ باشر مع سابق الدين عثمان ، وحارم مع بدر الدين حسن ، وعين تاب وعزاز وغيرهما نوّابه فيها ، وهو يصونها ويحميها .

ولمّا توفّى جرت إخوته فى القرب والانبساط على عادته ، وهم أعيان الدولة وأعضادها ، وأبدال أرضها وأوتادها ، وأمجادها وأجوادها . فلما توفى نور الدين لم يشكّوا فى أنهم يكفلون ولده ويربّونه ، ويحبهم لأجل سابقتهم ويحبونه ؛ فأقام شمس الدين علىّ ، وهو أكبرهم وأوجههم ، ودخل قلعة حلب ، وبها واليا شاذ بخت ، وسكنها ، وأسرّ مصلحة الدولة وأعلنها . وعرف ماجرى بدمشق من الاجتماع ، واتّفاق ذوى الأطماع ، فكاتبهم وأمرهم بالوصول إليه فى خدمة الملك الصالح . وأنفذ أخاه سابق الدين عثمان ، وكان قليل الخبرة بعيدا من (التحرّز) [1] والدّهاء ، فاستقرّ الأمر على أن يحملوا الملك الصالح إليه ، ويقدموا به عليه ، وهو يتسلم ممالكه ، ويكون أتابكه .

ووصل كمشتكين إلى دمشق فى تلك الأيام ، فوافقهم على مادبروه من المرام ، وسار الصالح ومعه كمشتكين ، والعدل ابن العجمى ، واسماعيل الخازن ، فبغتوا إخوة مجدالدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم ؛ وجاء ابن الخشاب أبو الفضل ، مقدّم الشّيعة ، فسفكوا دمه . وأقام شمس الدّين بن المقدّم بدمشق على عساكرها مقدما، وفى مصالحها محكّما ؛ وجمال الدين ريحان والى القلعة والشّحن من قِبله ، والأمر إليه بتفصيله وجُمَله ، والقاضى كمال الدين الشّهرزورى الحاكم [2] النافذ حكمه ، الصائب سهمه ، الثاقب نجمه .

(١) ساقطة من ل ١٨٤ ب .
(٢) يعنى القاضى .

وكان مسير الملك الصالح من دمشق فى الثالث والعشرين من ذى الحجة ؛ وغاظ صلاح الدّين ما فُعل بأخوة مجد الدين .

وقال (١٨٢ ب) ابن أبى طىّ [الحلبى[١]] : لما مات نُور الدين اجتمع أمراء دولته واتّفقوا على أن يكونوا فى خدمة الملك الصالح ، ابن نور الدين ، وكان يومئذ صبيا ، وحلفوا له على منابذة الملك الناصر وقبض أصحابه الذين بالشام ، ومصالحة الفرنج وجعلوا ابن المقدم شمس الدين مقدم العساكر ؛ وتم ذلك واستقر ، وركب الملك الصالح بدمشق وخطب له .

وكانت الفرنج قد تحركت إلى قصد دمشق فخرج ابن المقدم ونزل على بانياس فى عساكر نور الدين ، وراسل الفرنج فى الهدنة ، فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين ، فعجل حملها (إليهم[٢]) . وتم أمر الصلح وعادت الفرنج إلى بلادها وابن المقدم إلى دمشق[٣] .

واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر ، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل ، فأعظم أمرها وأكبره ، واستصغر أمر أهل الشام وعلم ضعفهم . فراسل ابن المقدم وغيره من الأمراء بإنكار ذلك والتوبيخ عليه ، وقال فى كتابه إلى ابن أبى عصرون : « ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين ، وبقيةُ بلاد المسلمين ما دخلت فى العقد ، ولا انتظمت فى سلك هذا القصد ، والعدو لها واحد ؛ وصرف مال الله الذى أعد لمغنم الطّاعة ، ومصلحة الجماعة ، فى هذه المعصية المغضبة لله ولرسوله ولصالحى الأمة ، وكان مذخوراً لكشف الغمة ، فصارعَوْنا ؛ وأن أسارى من طبرية وفرسانها كانت وطأتهم شديدة ، وشوكتهم حديدة ، دُفعوا فى القطيعة ، وجعلوا إلى السلم السبب والذريعة . فلما بلغنا هذا الخبر ، وقفنا به بين الورود والصدر ، وإن أتممنا[٤] ظُنَّ بنا غير ما نريد ، وإن قعدنا فالعدوّ من بقيّة الثغور

---

(١) مابين الحاصرتين من ل ١٨٥ ا

(٢) ساقطة من ل ١٨٥ ا .

(٣) وكان قائد هذه الحملة الفرنجية أمورى الأول Amalric I صاحب بيت المقدس عندئذ ، ولم يلبث أمورى أن مات بعد قليل . The Crusaders in the East, p. 213 .

(٤) يعنى : أتممنا الزحف ؛ لأنه كان قد خرج من مصر أربع مراحل ، كما تقدم .

التى لم تدخل فى المدينة غير بعيد ، و إن فرّقنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد . فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبى الحسن على و إخوته من يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك ، وأنه ربما عُجز عن الاستدراك ، وأن العدوّ طالب لا يغفل ، وجادّ لا يتكل ، وليث لا يضيع الفرصة ، مجدّ لا يميل إلى الرخصة . فإن كانت الجماعة ساخطين فيظهر أمارات السخط والتغيير ، ولا يمسك فى الأول فيُعجز عن الأخير ، لا سيما ونحن نغار لله ونُغير ، ونقصد للمسلمين ما نجمع به صلاح الرأى و صواب التدبير . وقد منعنا عساكرنا أن تفترق خوفا أن يقصد العدو ناحية حارم بالمال الذى قويت به قوته ، وثرت به ثروته ، وانبسطت به خطوته ؛ فإنه ما دام يعلم أنا مجتمعون ، وعلى طلبه مجمعون ، لا يمكنه أن يزايل مراكزه ، ولا يبادر مناهزه »

قال : وكان متولى قلعة حلب شاذ بخت الخادم النّورى ، وكان شمس الدين على ، أخو مجد الدين بن الداية ، إليه أمور الجيش والديوان ، و إلى أخيه بدر الدين حسن الشحنكية ؛ وكان بيده و يد إخوته جميع المعاقل التى حول حلب . فلما بلغ عليا موت نور الدين صعد إلى القلعة ، وكان مُقْعَداً ، واضطرب البلد ، ثمّ سكنه ابن الخشاب ، (وكوتب ابن الخشاب من دمشق بحفظ البلد ، وعول أولاد الداية على (١٨٣ ا) الاستيلاء على حلب ، وحلف لهم جماعة من القلعيين والحلبيين وأنفذوا خلف أبى الفضل بن الخشاب)[1] ، فامتنع من الصعود إليهم وترددت بينهم الرسالة ؛ وتحزب الناس بحلب ، السنة مع بنى الداية والشيعة مع ابن الخشاب ؛ وجرت أسباب اقتضت أن أنزل حسن بن الداية جماعة من القلعيين وأهل الحاضرة وزحفوا إلى دار ابن الخشاب فملكوها ونهبوها ، واختفى ابن الخشاب .

واتّصلت هذه الأخبار بمن فى دمشق فأخذوا الملك الصالح وساروا إلى حلب ، فى الثّالث والعشرين من ذى الحجّة ، وسار مع الملك الصّالح سعد الدين كمشتكين ،

---

(١) ما بين القوسين ساقط من نسخة ل ، وكذلك من ق ١٨٧ ا .

وجُرد يك ، و إسماعيل الخازن ، وسابق الدّين عثمان بن الدّاية ، وقد وكلت الجماعة به وهو لا يعلم . وساروا إلى حلب وخرج النّاس إلى لقائهم .

وكان حسن قد رتّب فى تلك الليلة جماعة من الحلبيّين ليصبح و يصلبهم ؛ فلمّا خرج إلى لقاء الملك الصّالح ووقعت عينه عليه ترجّل ليخدم هو وجماعة من أصحابه ، فتقدّم جرديك وأخذ بيده ، وشتمه وجذبه ، فأركبه خلفه رديفاً ، وقُبض سابق الدّين أخوه فى الحال ، وتُخُطِّفت أصحابهم جميعهم ، واحتيط عليهم وساروا مجدّين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة وصعدوا إليها ، وقبضوا على شمس الدّين على ابن الداية من فراشه ، وحمل إلى بين يدى الملك الصالح ؛ فاستقبله أحد مماليك نور الدّين المعروف بالجفنية ، فركله برجله ركلة دحاه بها على وجهه ، فانشقت جبهته . ثم صفّدوا جميعا وحبسوا فى جُبّ القلعة ، وقبضوا على جميع الأجناد الذين حلفوا لأولاد الداية ، وأخرجوا جميعاً من القلعة .

قلت : وفى آخر هذه السنة توفى مرّى الفرنجى الملك الّذى كان حاصر القاهرة وأشرف على أخذ الديّار المصرّية .

وفى كتاب فاضلى : « ورد كتاب من الدّاروم يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذى الحجة هلك مرّى ملك الفرنج ، لعنه الله ، ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقا وأقدمه على نارٍ تَلَظَّى ، لَا يَصْلَاهَا إِلَّا ٱلْأَشْقَى »(١) .

ثم دخلت سنة سبعين [وخمسمائة] :

قال ابن أبى طىّ : ففى أوّلها ضمن القطب ابن العجمى وأبو صالح (٢) وابن أمين الدّولة لجرديك إن قتل ابن الخشاب ردّوا عليه جميع ما نهب له فى دار ابن أمين الدولة . فدخل على الملك الصالح وتحدّث معه وأخذ خاتمه أماناً لابن الخشاب ، ونودى عليه ، فحضر وركب إلى القلعة ، فقتل وعلّق رأسه على أحد أبراج القلعة .

و بقى الملك الصالح فى قلعة حلب ومضى العماد الكاتب إلى الموصل . قال : وعزمت

(١) سورة الليل : آية : ١٥ .

(٢) الواو ساقطة من ل ١٨٦ ا .

على خدمة سيف الدّين صاحبها وقد أُخذ من بلاد الجزيرة إلى حدّ الفرات ، ومضى إليه ابن العجمى للإصلاح فأصلح بين ابنى العمّ [1] وعاق رهن إخوة مجد الدّين فى الاعتقال ، وضيّقوا عليهم فى القيود والأغلال ، وألزموهم [2] بتسليم الحصون ، (١٨٣ ب) وتقديم الرهون ، إلى أن غصبوا دورهم ، وخربوا معمورهم .

قال : وكان الموّفق خالد بن القيسرانى قد وصل ، ونحن بدمشق ، من مصر فلزم داره ولم يدخل مع القوم [3] .

فأمّا صلاح الدّين فإنه اعتقد أن ولد نور الدّين يتولّاهُ بعده إخوة مجد الدّين ، فلما جرى ما جرى ساءه ذلك وقال : أنا أحقّ برعى العهود ، والسّمى المحمود ، فإنه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة ، وضاقت المناهج المتّسعة ، وانفردت مصر عن الشام ، وطمع أهل الكفر فى بلاد الإسلام . وكتب إلى ابن المقدّم ينكر ما أقدموا عليه من تفْريق الكلمة ، وكيف اجترءوا على أعضاء الدّولة وأركانها ، بل أهلها وإخوانها ، وأنه يلزمه أمرهم وأمرها ، ويضره ضرهم وضرها . فكتب ابن المقدّم إليه يردعه عن هذه العزيمة ، ويقبح له استحسان هذه الشيمة ، ويقول له :

« لا يقال عنك إنك طمعت فى بيت مَنْ غرسك ، وربّاك وأسّسك ، وأصْفَى مشربك ، وأضفى ملبسك ، وأجلى سكونك لملك مصر وفى دسته أجلسك ، فما يليق بمالك ، ومحاسن أخلاقك وخلالك [4] ، غير فضلك وأفضالك » .

فكتب إليه صلاح الدّين بالإنشاء الفاضلى : « إنّا لا نؤثر للإسلام وأهله إلّا ما جمع شملهم وألّف كلمتهم ، وللبيْت الأتابكىّ أعلاه الله تعالى إلّا ما حفظ أصله وفرعه ، ودفع ضرّه وجلب نفعه ؛ فالوفاء إنّما يكون بعد الوفاة ، والمحبّة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة . وبالجملة إنا فى واد ، والظّانّون بناظنّ السّوء فى واد ، ولنا من الصلّاح

(١) فى ل ١٨٦ ا ، وكذلك فى ق : ابنى العجمى ، والمقصود ابنا العم ، صاحبا الموصل وحلب .
(٢) فى الأصل : فألزموهم ؛ والمثبت هنا من ل ١٨٦ ا .
(٣) وكان قد ذهب إليها فى السنة السابقة ، موفداً من نور الدين محمود ، لمحاسبة صلاح الدين . وقد تقدم تفصيل هذه البعثة ونتيجتها .
(٤) المثبت هنا من ل ١٨٦ ا ، وفى الأصل وجلالك .

مراد ، ولمن يبعدنا عنه مراد ، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح ، ولمن ألقى السلاح إنك جارح » .

فصل

قال العماد : ثم عزم السلطان على أن يسارع إلى تلافى الأمر ، فاعترضه أمران : أحدهما وصول أسطول صقلية[1] إلى الإسكندرية وإدراكه ، والثانى نوبة الكنز ونفاقه وهلاكه . أما وصول الأسطول فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين ، وانهزم فى أول المحرم سنة سبعين .

ثم ذكر كتابا وصل من صلاح الدّين إلى بعض الأمراء بالشام يشرح الحال ، وحاصله أنّ أول الأسطول وصل وقت الظهر ، ولم يزل متواصلا متكاملا إلى وقت العصر ، وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر ، لا على حين خفاء من الخبر ، فأمر ذلك الأسطول كان قد اشتهر ؛ ورُوّع به ابن عبد المؤمن فى البلاد المغربيّة ، وهدد به فى الجزائر الروميّة صاحب قسطنطينية[2] . فشوهد فى الثغر من وفور عُدّته ، وكثرة عِدّته ، وعظيم الهمّة به ، وفرط الاستكثار منه ، ما ملأ البحر ، واشتد به الأمر ، فحمى أهل الثغر عليهم البرّ ؛ ثم أشير عليهم أن يقربوا من السّور ، فأمكن الأسطول النزول ، فاستنزلوا خيولهم من الطرائد[3] ، ورواجلهم من المراكب ، (١٨٤ ا) فكانت الخيل ألفا وخمسمائة رأس ، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل ، مابين فارس وراجل . وكانت عدة الطرائد ستة وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا شينى[4] فى كل شينى مائة وخمسون

(١) وهو أسطول William II . وقد تقدم أسطول صقلية تنفيذاً للمؤامرة التى اشترك فيها عمارة ؛ وكان من المقرر أن يشترك مع الأسطول جيش برى من القدس بقيادة أمورى ؛ وبانكشاف المؤامرة فى مصر توقف جيش أمورى واستمرت الحملة البحرية فى التقدم لعدم تكامل الأخبار عند قائدها وليم الثانى . انظر : S. Lane - Poole ; Saladin , pp. 126—127 ؛ وانظر كذلك مفرج الكروب : ٢ : ١٢ — ١٤ .

(٢) انظر : Saladin ; pp. 126—127

(٣) جمع طريدة أو طراد ؛ وهى سفينة مخصصة لحمل الخيل وفرسانها ، وتحمل نحو أربعين فارساً بأفراسهم . انظر : السلوك : ١ : ٥٦ : حاشية : ٤ ؛ وانظر كذلك : Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٤) والجمع شوانى ؛ وهى سفينة حربية كانت تعتبر فى تاريخ الإسلام ، أكبر سفن الأسطول ، وكانت تقام فيها الأبراج والقلاع للدفاع ، وكانت تنزلق على الماء بمساعدة مائة وأربعين مجدافاً . انظر : السلوك : ١ : ٥٦ : حاشية : ٧ ، وكذلك : Dozy : Supp. Dict. Ar. .

راجلا . وكانت عدة السّفن التى تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، وكانت عدة المراكب الحمالة برسم الأزواد والرجال أربعين مركبا ؛ وفيها من الراجل المتفرق ، وغلمان الخيّالة ، وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته المنجنيقية ، مايتمم خمسين ألف رجل .

ولما تكاملوا نازلين على البر ، خارجين من البحر ، حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور ، وفقد من أهل الثغر فى وقت الحملة ما يناهز سبعة أنفس . واستشهد محمود بن البصار وكان بسهم جرح ، وجدفت مراكب الفرنج داخلة إلى الميناء وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة ، فسبقهم أصحابنا إليها فخسفوها وغرقوها ، وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها . واتّصل القتال إلى المساء ، فضربوا خيامهم بالبر وكان عدتها[1] ثلثمائة خيمة .

فلمّا أصبحوا زحفوا وضايقوا وحاصروا ، ونصبوا ثلاث دبابات[2] بكباشها ، وثلاثة مجانيق كبار المقادير ، تضرب بحجارة سود استصحبوها من صقلية ، وتعجّب أصحابنا من شدّة أثرها وعظم حجرها . وأما الدبابات فإنها تشبه الأبراج فى جفاء أخشابها ، وارتفاعها ، وكثرة مقاتلتها واتساعها ، وزحفوا بها إلى أن قاربت السّور ، ولجّوا فى القتال عامة النهار المذكور .

وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدوّ على جناح الطائر ، فاستنهضنا العساكر إلى الثغرين اسكندرية ودمياط ، احترازا عليهما ، واحتياطا فى أمرهما ، وخوفا من مخالفة العدوّ إليهما . واستمر القتال[3] ، وقدمت الدبّابات وضربت المنجنيقات وزاحمت[4] السّور ، إلى أن صارت منه بمقدار [أماج البحر وأهاج الدُّور][5] .

---

(١) فى الأصل ، وكذلك فى ل وفى ن : عدبهم .

(٢) جمع دبابة ، وهى برج متحرك ذو أدوار قد تصل إلى أربعة ، أولها من خشب وثانيها من رصاص وثالثها من حديد ورابعها من النحاس الأصفر ، وتتحرك على عجلات وتستخدم فى مهاجمة الحصون والأسوار بمساعدة الكباش [أو الأكبش أو الكبوش] ، جمع كبش ، وهى الآلة التى تتصل بالدبابة ، ولها رأس ضخم وقرنان ، تدفع نحو الأسوار لهدمها . انظر : السلوك : ١ : ٥٦ : حاشية : ٨ .

(٣) فى الأصل : واستمرار القتال ؛ والمثبت هنا من ل ١٨٧ ا ، وهو أولى وإن كان الأول صحيحاً أيضاً .

(٤) فى الأصل : وراجت ؛ والمثبت هنا من ل ١٨٧ ا .

(٥) ما بين الحاصرتين من ل ١٨٧ ا .

فاتفق أصحابنا على أن يفتحوا أبواباً قبالتها من السّور ويتركوها معلقة بالقشور ؛ ثم فتحوا الأبواب وتكاثرصالح أهل الثغر من كلّ الجهات ، فأحرقوا الدبابات المنصوبة وصدقوا عندها من القتال ، وأنزل الله على المسلمين النّصر ، وعلى الكفار الخذلان والقهر .

واتّصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء وقد ظهر فشل الفرنج ورعبهم ، وقصرت عزائمهم ، وفتر حزبهم ، وأحرقت آلات قتالهم ، واستمر القتل والجراح فى رجالهم ؛ ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة ، وأخذ مابه قوام [1] الحياة ، وهم على نيّة المباكرة ، والعدوّ على نيّة الهرب والمبادرة . ثم كر المسلمون عليهم بغتة وقد كاد يختلط الظّلام ، فهاجموهم فى الخيام ، فتسلّموها بما فيها ، وفتكوا فى الرّجّالة أعظم (١٨٤ ب) فتك ، وتسلّموا الخيّالة ولم يسلم منهم إلّا من نزع لبسه ، ورمى فى البحر نفسه . وتقحّم أصحابنا فى البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها ، فولت بقيّة المراكب هاربة ، وجاءتها أحكام الله الغالبة . وبقى العدوّ بين قتل وغرق ، وأسر وفرَق ، واحتمى ثلثمائة فارس فى رأس تلّ ، فأخذت خيولهم ثم قتلوا وأسروا ، وأخذ من المتاع والآلات والأسلحة مالا يملك مثله . وأقلع هذا الأسطول عن الثغر يوم الخميس .

وذكر ابن شداد [2] أن نزول هذا العدو كان فى شهر صفر وكانوا ثلاثين ألفا فى ستمائة قطعة مابين شينى وطرادة وبطشة وغير ذلك .

فصـــــل

وأما نوبة الكنز ، فقال ابن شداد [3] : الكنز إنسان مقدم من المصريّين كان قد انتزح إلى أسوان فأقام بها ، ولم يزل يدبّر أمره ويجمع السودان عليه ويُخيّل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة المصرية [4] . وكان فى قلوب القوم من المهاواة للمصريين مااستصغر

---

(١) فى ل ١٨٧ ا ، وفى ن كذلك : قيام الحياة .

(٢) فى النوادر ٣٨ .

(٣) فى النوادر : ٣٧ . وفى مقابل هذا الفصل فى هامش الأصل تعليق نصه : « حاشية ؛ قال المؤلف: هو كنز الدولة متوج ، كذا سماه الأسعد بن مماتى فى كتابه الذى جمع فيه السيرة الصلاحية ؛ والله أعلم » .

(٤) فى ل ١٨٧ ا ، وفى ن كذلك : مصرية دون أداة التعريف .

هذه الأفعال عنده،فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر من السّودان ، وقصد قوص وأعمالها. فانتهى خبره إلى صلاح الدين ، فجرد له عسكرا عظيما شاكين فى السلاح من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية وخافوا على فوت ذلك منهم ، وقدّم عليهم أخاه سيف الدين وسار بهم حتى أتى القوم ، فلقيهم بمصاف فكسرهم ، وقتل منهم خلقا عظيما ، واستأصل شأفتهم ، وأخمد ثائرتهم ؛ وذلك فى السّابع من صفر سنة سبعين ، واستقرت قواعد الملك .

قال العماد : وفى أول سنة سبعين ، مستهلّها ، قام المعروف بالكنز فى الصعيد ، وجمع [1] من كان فى البلاد من السودان والعبيد ، وعدا ودعا القريب والبعيد [2] . وكان عنده من الأمراء أخ لحسام الدين (بن) [3] أبى الهيجاء السّمين، ففتك به وبمن هناك من المقطّعين [4] ، فغارت حمية أخيه وثارت للثأر ، وساعده أخو السلطان سيف الدين وعز الدين موسك ابن خاله، وعدة من أمرائه ورجاله ، وجاءوا إلى مدينة طود [5] فاحتمت عليهم ، وامتنعت ، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت ، وأتى السيف على أهلها ، وباءت بعد عزها بذلّها .

ثم قصد الكنز وهو فى طغيانه وعدوانه ، وسوئه وسودائه ، فسُفك دمه ، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه ، وارتقب دماء سوده ، وهجم غابه على أسوده ؛ ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز ، وطلّ دمه ولم ينتطح فيه عنز . وارتدع المارقون فما رقوا بعده سلم نفاق ، والله لناصرى [6] دينه ناصر وواق .

وقال ابن أبى طىّ : واتّفق أيضا أن خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود [رجل] [7] يعرف بعباس بن شاذى ، وثار فى بلاد قوص ونهبها وخرّبها ، وأخذ أموال

(١) فى الأصل : وجيع ؛ والمثبت هنا من ل ١٨٧ ا .
(٢) فى الأصل : ودعا من القريب والبعيد .
(٣) ساقطة من ل ١٨٧ ب .
(٤) فى ل ١٨٧ ب ، وفى ق كذلك : المنقطعين .
(٥) أنشأها الأمير درباس الكردى المعروف بالأحول أيام صلاح الدين . معجم البلدان : ٦ : ٦٧ .
(٦) هكذا فى ل ١٨٧ ب . وفى الأصل : لناصر دينه .
(٧) ما بين الحاصرتين من ل ١٨٧ ب .

الناس ؛ واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، وكان السلطان قد استنابه بمصر ، فجمع له العساكر وأوقع به ، و بدّد شمله ، (١٨٥ ا) وفض جموعه وقتله ، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالى بأسوان وكان قصد بلد طود ، فقتل أكثر عسكره وهرب فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله .

فصـــــل

فى توجّه صلاح الدين إلى دمشق ودخوله إليها فى يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأول .

قال العماد: لمّا خلا باله مما تقدم ذكره تجهّز لقصد الشام ، فخرج إلى البركة مستهل صفر ، وأقام حتى اجتمع العسكر ؛ ثم رحل إلى بلبيس ثالث عشر ربيع الأول . وكانت رسل شمس الدّين صاحب بصرى صديق ابن جاولى وشمس الدّين بن المقدّم عنده ، تَسْتَوْرى فى الحث والبعث زنده ، وتستقدمه وجنده ؛ وسار على صَدْرَ وأيلة ووصل السّير بالسُّرى، حتى أناخ على بصرى ، بصيراً بالعلا نصيرا للهدى ، فاستقبله صاحب بصرى وشد أزره ، وسددّ أمره ؛ واستضاف إلى بصرى صرخد ، وتفرد بالسبق إلى الخدْمة وتوحّد .

وسار فى الخدمة معه إلى الكسوة[1]، و بكر صلاح الدّين يوم الاثنين انسلاخ الشهر وسار فى موكب قوى بالعدد والعدد ، وحسب أن يمتنع عليه البلد ، وأن الأطراف تُوثق ، والأبواب تغلق ، فأقبل وهو يسوق ، و إقباله يشوق ، حتى دخل دمشق وخرقها ، وكأن الله تعالى له خلقها ؛ ودخل إلى دار العقيقى مسكن أبيه ، و بقى جمال الدّين ريحان الخادم فى القلعة على تَأبيِّه ، فراسله حتى استماله ، وأغزر له نواله ، وتملّك المدينة والقلعة . ونزل بالقلعة سيف الإسلام أخو السّلطان صلاح الدّين ، وملك ابن المقدّم داره وكل ماحواليها، و بذل له طلبته التى أشار إليها ونص عليها ؛ وأظهر [صلاح الدين][2] أنه جاء لتربية الملك الصالح ، وحِفْظ مآله من المصالح ، وتدبير ملكه ، فهو أحقّ بصيانة حقّه .

(١) قرية قريبة من دمشق ، وهى أول منزل تنزله القوافل الخارجة من دمشق فى الطريق إلى مصر - معجم البلدان . ٧ : ٢٥٢ .

(٢) ما بين الحاصرتين أضيف للتوضيح .

واجتمع به أعيانهـا ، وخلص لولاية إسرارها و إعلانهـا ، وأصبح وهو سلطانها . وزاره القـاضى كمال الدين بن الشهرزورى فوفاه حقّه من الاحـترام ، ووفر له حظ التبجيل والإعظام .

ونفذت الـكتب بالأمثلة الفـاضلية إلى مصر ، بهـذا الفتح والنصر ، وفى بعضهـا : « يوم وصولنـا إلى بصرى وقبله وفـدت وهاجرت ، وتزاحمت وتـكاثرت ، وتوافت ، الأمراء ، والأجناد الأتراك ، والأكراد ، والعربان ، ورجال الأعمال ، وأعيان الرجال . وورد كتاب من دمشق بعد كتاب ، وكلٌّ مخبر وذاكر ، وهو غائب بكتـابه حاضر ، يذكر أنّ البلاد ممكنة القياد ، مذعنة إلى المراد . وأمّا الفرنج ، خذلهم الله ، فإنّا فى هذه السفرة المباركة نزلنا فى بلادهم نزول المتحكم ، وأقمنا بها إقامة الحاضر المتخير ، (وأدلجنا)[1] وعيونهم متناومة ، وحُزْنا وأنوفهم راغمة ، ووطئنا ورقابهم صغر ، ومررنا وعيشهم مر ؛ والله يزيدهم ذلاً ، ويجعل عداوة الإسلام فى صدورهم غِلاً ، وفى أعناقهم غُلاً » .

وفى كتاب آخر : « وكان رحيلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول ، وقد (١٨٥ ب) توجه صاحبها بين أيدينا قائما بشروط الخدمة ولوازمها . ثم لقينا الأجل ناصر الدين ، ابن المولى أسد الدين [شيركوه][2] رحمة الله عليـه وأدام نعمته ، والأمير سعد الدين ابن أنر ، فى [يوم][3] السبت السّابع والعشرين . ونزلنا يوم الأحـد بجسر الخشب والأجناد الدمشقية إلينا متوافية ، والوجوه على أبوابنا مترامية ، ولم يتأخر إلا من أبقى وجهه وراقب صاحبـه ، ومن اعتقد بالقعود أنه قد نظر لنفسه فى العافية . ولمـا كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى ، وعرض دون الدخول عدد من الرجال فدعستهم[4] عساكرنا المنصورة وصدمتهم ، وعرفتهم كيف يكون اللقـاء وعلمتهم . ودخلنا البلد واستقرت بنادار والدنا رحمة الله عليـه

(١) ساقطة من ل ١٨٨ ا وكذلك من ق .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح .

(٣) ما بين الحاصرتين من ل ١٨٨ ا ، وهو ساقط من الأصل .

(٤) الدَّعسُ : الطعن كالتدعيس ، والمدعس : الرمح يدعس به أى يطعن . وفى نسخة ق : فدعثتهم عساكرنا المنصورة ؛ ودعث : دقق التراب على وجه الأرض بالقدم أو باليد . القاموس المحيط .

قريرة عيوننـا ، مستقرا سكون الرعيـة وسكوننا ، وأذعنـا في أرجاء البلد النـداء بإطابة النفوس و إزالة المكوس . وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت ، واليد المتعدية قد امتدت إلى أحوالهم وأجحفت ، فشرعنا في امتثال أمر الشرع برفعها ، و إعفاء الأمة منها بوضعها » .

قال ابن الأثير[1] : لمـا خاف مَن بدمشق من الأمراء أن يقصدهم كمشتكين والملك الصالح من حلب فيعاملهم بما عامل به بنى الداية راسلوا سيف الدين غازى ليسلموها إليه فلم يجبهم ، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر ؛ وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقـدم ، ومن أشبه أباه فما ظلم . فلما أتته الرسل لم يتوقف وسار إلى الشام ، فلما وصل دمشق سلمها إليه من بها من الأمراء ، ودخلها واستقرّ بها ، ولم يقطع خطبة الملك الصالح ، و إنمـا أظهر « أنى إنما جئت لأخدمه واسترد له بلاده التى أخذها ابن عمه » . وجرت أمور آخرها أنه اصطلح هو وسيف الدّين والملك الصالح على ما بيده .

وقال القاضى ابن شـداد[2] : لمـا تحقق صلاح الدّين وفاة نور الدّين وكون ولده طفلا لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد ، تجهّز للخروج إلى الشام ، إذ هو أصل بلاد الإسلام ؛ فتجهّز بجمع كثير من العساكر ، وخلّف بالديار المصرية مَن يستقلّ بحفظها وحراستها ، ونظم أمورها وسياستها ؛ وخرج هو سائرا مع جمع من أهله وأقاربه وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها . واختلفت كلمة اصحاب الملك الصالح واختلّت تدبيراتهم ، وخاف بعضهم من بعض ، وقبض البعض على جماعة منهم ، وكان ذلك سبب خوف الباقين ممن فعل ذلك وسببا لتنفير قلوب النّاس عن الصبى . فاقتضى الحال أن كاتب ابنُ المقدم صلاحَ الدّين ، فوصل إلى البلاد مطالبا بالملك الصّالح ليكون هو الذى يتولى أمره ويربّ حاله . فدخل دمشق يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر ، (١٨٦ ا) وكان أوّل دخوله إلى دار أبيه . واجتمع الناس إليـه ، وفرحوا به ، وأنفق في ذلك اليوم في النّاس مالا طائلا ، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين وأظهروا[3] الفرحَ به . وصعد القلعة

(١) في الأتابكة : ٣٢١ ـ ٣٢٢ ؛ وهو اقتباس حرفي .
(٢) في النوادر : ٣٨ ـ ٣٩ ؛ وهو اقتباس حرفي .
(٣) في الأصل : فأظهروا ، والمثبت هنا أولى ، وهو من ل ١٨٨ ب .

واستقرّ قدمه فى ملكها ، فلم يلبث أن سار فى طلب حلب ، فنازل حمص وأخذ مدينتها فى جمادى الأولى ، ولم يشتغل بقلعتها ، وسار حتى أتى حلب ونازلها سلخ جمادى المذكور وهى الدفعة الأولى .

وقال ابن أبى طىّ : بلغ السلطان أن ابن المقدم نقض عهد الملك الصّالح وهو كان السبب فى خروج سيف الدّين صاحب الموصل واستيلائه على البلاد الشرقيّة ومضايقته للملك الصالح فى ممالكه . وقيل إن ابن المقدّم كاتب السّلطان ودعاه إلى الخروج . وقيل إنما خرج إلى الشام خوفا من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام وشغل بعضهم ببعض ، وبجواب مُمضّ ورد من ابن المقدّم إليه . ولما تيقّن ابن المقدم خروج السّلطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك واستدرك ما بدا منه ، وتذلل له ، ووعده تسليم دمشق إليه .

قال : ولما حصل على دمشق وقلعتها ، واستوطن بُقعتها ، نشر علم العدل والإحسان ، وعفّى آثار الظلم والعدوان ، وأبطل ما كان الولاة استجدّوه بعد موت نور الدّين من القبائح والمنكرات ، والمؤن والضرائب المحرمات .

قلت : وكان قد كتب إليه أسامة بن منقذ قصيدة بعد مصاف عسقلان أولها :

تهنّ يا أطول الملوك يداً ... فى بسط عدلٍ وسطوةٍ وندى
أجراً وذكراً من ذلك الشكرُ فى الدّ (م) نيا ، ومن ذلك الجنانُ غدا
لا تستقلّ الذى صنعت ، فقد ... قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وجُست أرض العدا ، وأفنيت من ... أبطالهم ما يجاوز العددا
وما رأينا غزا الفرنج من الـ ... ملوك فى عقر دارهم أحدا
فسر إلى الشام فالملائكة الـ ... أبرارُ تلقاك جمعُهم مددا
فهو فقير إليك ، يأمُل أن ... تُصلح بالعدل منه ما فسدا
والله يعطيك فيه عاقبة النّ (م) صر كما فى كتابه وعدا
فما حباك الورى ، وألهمك الـ ... عدل ، وأعطاك ما ملكت سدى

ومدح وحيش الأسدى[1] صلاح الدّين عند أخذه دمشق بقصيدة أولها[2] :

قد جاءك النصر[3] والتوفيق فاصطحبا ... فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد ... أدنى فريسته الأيام إن وثبا
رأيت « جلّق » ثغراً لا نظير له ... فجئتها عامراً منها الذى خربا
نادتك بالذل لما قلّ ناصرها ... وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر ، فقد ... أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا
هذا الذى نصر الإسلام فاتضحت ... سبيله ، وأهان الكفر والصُّلُبا
(١٨٦ب) ويوم شاور ، والإيمانُ قد هزمت ... جيوشه ، كان فيه الجحفل اللّجبا
أبت له الضيم نفس مرّة ويد ... فعالة ، وفؤاد قطّ ماوَجَبا[4]
يستكثر[5] المدح يتلى فى مكارمه ... زهدا ، ويستصغر الدّنيا إذا وهبا
ويوم « دمياط » و« الإسكندرية » قد ... أصارهم مثلاً فى الأرض قد ضربا[6]
والشام لو لم يدارك أهله اندرست ... آثاره وعفت آياته حقبا

---

(١) أبو الوحش سبع بن خلف بن محمد بن عبد الله المرار الأسدى . ولد سنة ٥٠٤ . خريدة القصر : قسم شعراء الشام : ١ : ٢٤٢ ــ ٢٤٦ .

(٢) الخريدة : شعراء الشام : ١ : ٢٤٢ ــ ٢٤٤ .

(٣) فى الخريدة : السعد .

(٤) أى ما اضطربا .

(٥) فى الخريدة : يستكبر .

(٦) يشير إلى منازلة الفرنج دمياط بعد تولى صلاح الدين وزارة مصر سنة ٥٦٤ ، إذ انهزمت جيوشهم وأساطيلهم فارتدوا عنها فى سنة ٥٦٥ . أما عن الإسكندرية فالإشارة إلى الحصار الذى ضربه الفرنج عليها سنة ٥٦٢ وصلاح الدين يدافع عنها ، وقد انتهى هذا الحصار بصلح اضطر إليه الفرنج لما بلغهم من تعرض ممتلكاتهم بالشام لخطر هجوم نور الدين محمود . انظر ما تقدم فى هذا الكتاب عن هاتين الحادثتين .

فصـــــل

فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماة وحصار حلب

قال ابن أبي طيّ : لما اتصل بمن فى حلب حصول دمشق للملك الناصر وميل الناس إليه ، وانعكافهم عليه ، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته ، فحمّلوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا ، وقالوا له : هذه السيوف التى ملّكتك مصر بأيدينا ، والرماح التى حويت بها قصور المصريين على أكتافنا ، والرّجال التى ردّت عنك تلك العساكر هى تردّك ، وعمّا تصديت له تصدّك ؛ وأنت فقد تعدّيت طورك ، وتجاوزت حدك ، وأنت أحد غلمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه فى ولده .

قال : ولما بلغ السلطان وُرُود ابن حسان عليه رسولاً تلقّاه بموكبه وبنفسه ، وبالغ فى إكرامه والإحسان إليه ؛ ثم أحضره بعد ثالثة لسماع الرسالة منه . فلما فاه ابن حسان بتلك الشّقاشِق الباطلة ، وقعقع بتلك التمويهات العاطلة ، لم يُعِره السّلطان رحمه الله طرفاً ولا سمعا ، ولا رد عليه خفضاً ولا رفعا ، بل ضرب عنه صفحا وتغاضيا ، وترك جوابه إحسانا وتجافيا ، وجرى فى ميدان أريحيته ، واستنّ فى سنن مروءته ، وخاطبه بكلام لطيف رقيق ، وقال له : ياهذا ، اعلم أننى وصلت إلى الشام ، لجمع كلمة الإسلام ، وتهذيب الأمور ، وحياطة الجمهور ، وسدّ الثّغور ، وتربية ولد نور الدين ، وكف عادية المعتدين . فقال له ابن حسان : إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك ، ونحن لا نطاوعك على ذلك ، ودون ماترومه خرط القتاد ، وفتّ الأكباد ، وإيتام الأولاد . فتبسم السلطان لمقاله ، وتزايد فى احتماله ، وَأَوْمَىٰ إلى رجاله بإقامته من بين يديه ، بعد أن كاد يسطو عليه .

ونادى فى عساكره بالاستعداد لقصد الشّام الأسفل ، ورحل متوجّها إلى حمص فتسلّم البلد ، وقاتل القلعة ولم ير تضييع الزمان عليها ، فوكل بها من يحصرها ؛ ورحل إلى جهة حماة ، فلما وصل إلى الرَّسْتَن (١) خرج صاحبها عز الدين جرديك ، وأمر من فيها من

---

(١) بليدة قديمة على نهر العاصى فى منتصف الطريق بين حمص وحماة . معجم البلدان : ٤ : ٢٤٩ .

العسكر بطاعة أخيه شمس الدّين على و إتباع أمره . وسار جرديك حتى لقى السّلطان واجتمع به بالرّسْتَن وأقام عنده يوما وليلة ؛ وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سلم إليه حماة وسأله أن يكون السّفير بينه و بين من بحلب ، فأجابه السلطان (١٨٧ ا) إلى مراده ؛ وسار إلى حلب و بقى أخو جرديك بقلعة حماة .

قال : وسار جرديك إلى حلب وهو ظانّ أنه قد فعل شيئا وحصّل عند من بحلب يدا، فاجتمع بالأمراء والملك الصالح ، وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر ؛ فاتّهمه الأمراء بالمخامرة، وردّوا مشورته ، وأشاروا بقبضه ؛ فامتنع الملك الصالح . ولجّ سعد الدين كمشتكين فى القبض عليه ، فقبض وثقّل بالحديد ، وأخذ بالعذاب الشديد ، وحمل إلى الجب الذى فيه أولاد الداية .

قال : ولما قدم جرديك وشدّ فى وسطه الحبل وأدلى إلى الجبّ وأحس به أولاد الداية قام إليه منهم حسن وشتمه أقبح شتم ، وسبه ألأم سب ، وحلف بالله إن أنزل إليهم ليقتُلنّه فامتنعوا من تدليته ، فأعلم سعد الدين كمشتكين فحضر إلى الجبّ وصاح على حسن وشتمه وتوعّده ، فسكن حسن وأمسك ، وأنزل جرديك الجبّ ، فكان عند أولاد الداية ، وأسمعه حسن كل مكروه .

قال : وكتب أبى إلى حلب حين اتصل به قبض أولاد الداية وجرديك ، وكانوا تعصّبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب [1] ، قصيدة منها :

بنُو فلانة أعوان الضّلالة قد   قضى بذلّهم الأفلاك والقدر
وأصبحوا بعد عزّ الملك فى صفد   وقعر مظلمة يغشى لها البصر
وجرّد الدهر فى جرديك عَزمته   والدهر لا ملجأ منه ولا وزر

قال : ولم يزل السلطان مقيما على الرّسْتَن ، ثم طال عليه الأمر ، فسار إلى جباب التركمان، فلقيه أحد غلمان جرديك وأخبره بما جرى على جرديك من الاعتقال والقهر ، فرحل السلطان من ساعته عائداً إلى حماة ، وطلب من أخى جرديك تسليم حماة إليه ، وأخبره بما جرى على أخيه ، ففعل ؛ وصعد السلطان إلى قلعة حماة واعتبر أحوالها ، وولّاها

(١) وكان من زعماء الشيعة بها ؛ وفى آخر هذا الفصل دليل على ذلك .

مبارز الدين علىّ بن أبي الفوارس ، وذلك مستهل جمادى الآخر .

وسار السلطان إلى حلب ونزل على أنف جبل جوشن [1] فوق مشهد الدكة ثالث جمادى [2] وامتدت عساكره إلى الخناقية وإلى السعدي . وكان من بحلب يظنون أن السلطان لا يقدم عليهم ، فلم يرعهم إلّا وعساكره قد نازلت حلب ، وخيمته تضرب على جبل جوشن ، وأعلامه قد نشرت ؛ فخافوا من الحلبيين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق ، فأرادوا تطييب قلوب العامة ، فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم فى الميدان ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بلسانه [3] أنّهم الوَزَرُ والملجأ . فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق ، فاجتمعوا حتى غصّ الميدان بالناس ، فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق ، ووقف فى رأس الميدان من الشمال وقال لهم : ياأهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم ، واللاجئ إليكم ، كبيركم عندى بمنزلة الأب ، وشابّكم عندى (١٨٧ ب) بمنزلة الأخ ، وصغيركم عندى يحل محل الولد . قال : وخنقته العبرة ، وسبقته الدمعة ، وعلا نشيجه ؛ فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة ، ورمَوْا بعمائمهم ، وضجوا بالبكاء والعويل ، وقالوا : نحن عبيدك وعبيد أبيك ، نقاتل بين يديك ، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك ؛ وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه .

وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح أنه يعيد إليهم شرقية الجامع يصلّون فيها على قاعدتهم القديمة وأن يُجهر بحىّ على خير العمل والأذان والتذكير فى الأسواق ؛ وقدّام الجنائز بأسماء الأئمة الاثنى عشر [4] ، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات ، وأن تكون عقود الأنكحة إلى الشريف الطاهر أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسنى ، وأن تكون العصبيّة مرتفعة ، والناموس وازع لمن أراد الفتنة ؛ وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان قد أبطله نور الدّين رحمه الله . فأجيبوا إلى ذلك .

---

(١) مطل على حلب فى غربيها ، كان يحمل منه الناس النحاس الأحمر ، وفى سفحه مقابر الشيعة . معجم البلدان : ٣ : ١٧٢ — ١٧٣ .

(٢) فى ل ١٩٠ ا ، وكذلك فى ق : ثالث الشهر .

(٣) فى ق ، وكذلك فى ل ١٩٠ ا : بنفسه .

(٤) فى الأصل : الاثنا عشر . وما هنا من ل ١٩٠ ا .

قال ابن أبي طيّ : فأذن المؤذنون (1) في منارة الجامع وغيره بحيّ على خير العمل وصلى أبي في الشرقية مسبلًا ، وصلى وجوه الحلبيين خلفه ، وذكروا في الأسواق وقدّام الجنائز بأسماء الأئمة ، وصلوا على الأموات خمس تكبيرات ، وأذن للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الإمامية إليه ، وفعلوا جميع ماوقعت الأيمان عليه (2) .

فصل

قال ابن أبي طيّ : وكانت هذه السنة شديدة البرد كثيرة الثلوج عظيمة الأمطار هائجة الأهوية ؛ وكان السلطان قد جعل أولاد الداية عُلالة له وسببا يقطع به ألسنة من ينكر عليه الخروج إلى الشام وقصْد الملك الصالح ، ويقول : أنا إنّما أتيت لاستخلاص أولاد الداية وإصلاح شأنهم .

وأرسل السلطان إلى حلب رسولا يعرّض بطلب الصلح ، فامتنع كمشتكين ، فاشتد حينئذ السلطان في قتال البلد .

وكانت ليالي الجماعة عند الملك الصالح لا تنقضي إلا بنصب الحبائل للسلطان والفكرة في مخاتلته وإرسال المكروه إليه . فأجمعوا آراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشيّة في إرصاد المتالف للسلطان وإرسال من يفتك به ، وضمنوا له على ذلك أموالا جمة وعدة من القرى . فأرسل سنان جماعة من فتاك أصحابه لاغتيال السلطان ، فجاءوا إلى جبل جوشن واختلطوا بالعسكر ، فعرفهم صاحب بوقبيس (3) لأنه كان مثاغراً لهم ، فقال لهم : يا ويلكم : كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلي فيه ! فخافوا غائلته فوثبوا عليه فقتلوه في موضعه ، وجاء قوم للدفع عنه فجرحوا بعضهم وقتلوا البعض . وبدر من

---

(1) في الأصل : المؤذن . وما هنا من ل ١٩٠ ب .

(2) وكانت حلب دائماً مركزاً من مراكز النشاط الاسماعيلي وقد تقدم هنا ، وفي حوادث سنة ٥٥١ وسنة ٥٥٤ أدلة على ذلك . وفي أيام رضوان بن تتش التف الشيعة حوله وأيدوه في نضاله ضد دمشق التي كانت لأخيه دقاق مشترطين إقامة الشعائر الدينية طبقاً لتعاليمهم . وقد وافقهم على ذلك وزاد فدعا للخليفة الفاطمي على منبر حلب بضعة أسابيع . انظر تفصيل هذا في ذيل تاريخ دمشق لأبي يعلى بن القلانسي .

(3) وأبو قبيس : حصن يقابل شيزر : معجم البلدان : ١ : ٩٥ .

الحشيشيّة أحدهم و بيده سكينة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه ، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه (١١٨٨) طغريل أمير جاندار[1]، فقتـله ، وطُلب الباقون فقتلوا بعد أن قتـلوا جماعة .

قال : ولمـا فات من يجلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشيّة كاتبوا قمص طرابلس وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحّل السلطان عن حلب . وكان لعنه الله فى أسر نور الدّين منـذ كسرة حارم [2] ، وكان قد بذل فى نفسه الأموال العظيمـة فلم يقبلها نور الدّين . فلمـا كان قبل موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزّعفرانى حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار وفـكاك ألف أسير .

واتفق فى أول هذه السنة موت ملك الفرنج صاحب القدس وطبرية وغـيرها [3] ، فتكفل هذا القمص بأمر ولده المجذوم[4] فعظم شأنه وزاد خطره . فأرسل إلى السلطان فى أمر الحلبيّين ، وأخبره الرّسول أنّ الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يدا واحدة ، فقال السلطان : لست ممن يرهب بتألّب الفرنج وها أنا [ذا] سائر إليهم . ثم أنهـد قطعة من جيشه وأمرهم بقصد أنطاكية ، فغنموا غنيمة حسنة وعادوا ؛ فقصد القمص جهـة حمص فرحل السلطان من حلب إليها ، فسمع الملعون فنكص راجعا إلى بلاده ، وحصـل الغرض من رحيل السلطان عن حلب ، ووصل إلى حمص فتسلم القلعة ورتب فيها واليا من قبله .

قال : وفى فتح قلعة حمص يقول العماد الـكاتب من قصيدة ، وستأتى :

---

(١) الجاندارية : فئة من المماليك الملحقة بخدمة السلطان أو الأمير ، ومثلها الخاصكية ؛ وجان‌دار فارسية تتركب من كلمتين : جان بمعنى سلاح ، ودار بمعنى ممسك . انظر : السلوك : ١ : ١٣٣ : حاشية : ١ نقلا عن صبح الأعشى وكذلك عن : Encyclopaedia of Islam .

(٢) وهو Raymond III ، وأسر معه عندئذ Bohemond II صاحب أنطاكيـة ، وكانت معركة حارم هذه فى سنة ٥٥٩ واشترك فيها جنود الامبراطور البيزنطى Manuel Comnenus . انظر ما تقدم ص: ٣٣٩ ، وانظر كذلك : The Crusaders in the East, p. 189 .

(٣) وهو Amalric I .

(٤) Boldwin III ، وكان طفلا فى الثانية عشرة من عمره . وقد تولى الوصاية عليه عندئذ Raymond III صاحب طرابلس بعد مقتل الوصى الأول : Milo of Plancy . انظر : The Crusaders in the East, p. 213—214 .

إياب ابن أيوب نحو الشآم ... على كلّ ما يرتجيه ظهور
بيوسف مصر وأيامـــه ... تقرّ العيون وتشفى الصّدور
رأت منك حمص لهـا كافيا ... فواتاك منها القوىّ العسير

ومن كتاب فاضلىّ عن السلطان إلى زين الدين بن نجا الواعظ [1] يقول فى وصف قلعة حمص : « والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به من كونها نجما فى سحاب ، وعُقابا فى عقاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قلامة ، عاقدة حبوة صالحها الدهر على ألا يحلها بقرعه ، عاهـدة عصمة صالحهـا الزمن على ألاّ يروعها بخلعه . فاكتنفت بها عقارب منجنيقات لا تطبع طبـع حمص فى العقارب ، وضربت حجارة بها الحجارة فأظهرت فيها العـداوة المعلومة بين الأقارب ؛ فلم يـكن غير ثالثة من الحد إلاّ وقد أثرت فيها جدريا بضربها ، ولم تصل السابع إلا والبحران منذرٌ بنَقْبها . واتّسع الخرق على الراقع ، وسقط سعدهـا عن الطالع ، إلى مولد من [2] هو إليها الطالع ؛ وفُتحت الأبراج فـكانت أبوابا ، وسُيِّرت الجبال بها فـكانت سرابا . فهنالك بدت نقُوب يرى القائم [3] مِن دونهـا ما وراءها ، وحُشيت فيها النّار فـلولا الشّعاع من الشّماع أضاءها » .

ومن كتاب آخر فاضلىّ عن السّلطان إلى أخيه العادل [4] : « قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس (١٨٨ ب) ، وتـكاثفت الجموع إلى الحدّ الذى يخرج عن العَدّ . و بَعْد أن نُرَتِّب أحوال حمص ، حرسها الله تعالى ، نتوجه إلى حمـــاة ؛ والله المعين على ما ننويه من الرّشاد ، وننظّفه من طرق الجهاد » .

وقال العماد : لما سمع المدبّرون للملك الصالح بإقبال صلاح الدّين المؤذن بإدبارهم ، سُقط

---

(١) تقدم شىء من التعريف به فى ص : ٣١٢ حاشية : ٣ من هذا الـكتاب .
(٢) فى ل ١٩١ ا : مو . !!
(٣) فى الأصل : قائم ؛ وكذلك فى ل وفى ق . والمثبت أولى .
(٤) وكان عندئذ نائباً عن السلطان فى مصر .

فى أيديهم ، وراسلوا المواصلة [1] وكاتبوهم ، وأرسلوا إلى صلاح [الدّين] [2] بالإغلاظ والإحفاظ . وكان الواصل منهم قطب الدّين ينـال بن حسان ، (وقد تجنب فى قوله الإحسان) [3] ، وقال له هذه السّيوف التى ملـكتك مصر ، وأشار إلى سيفه ، إليها تردُّك ، وعمّا تصدّيت له تصدّك . فحلم عنه السّلطان واحتمله ، وتغافل كرَمًا وأغفله ، وخاطبه بما أبى أن يقبله ، وذكر أنه وصل لترتيب الأمور ، وتهذيب الجمهور ، وسدّ الثغور ، وتربية ولد نور الدّين ، واستنقاذ إخوة مجـد الدّين . فقـال له : أنت تريد الملك لنفسك ، ونحن لا ننزِع فى قوسك ، ولا نأنس بأنسك ، ولا نرتاع لجرسك ، ولا نبـنى على أسّك ؛ فارجع حيث جئت ، أو اجهد واصنع ما شئت ؛ ولا تطمع فيما ليس فيه مطمع ، ولا تطلع حيث مالسعودك فيه مطلع . ونال من تقطيب القطب ينال ، كلّ ما أحال الحـال ، وأبلى البال ، وأبدى له التبسم وأخفى الاحتمال .

ثم إنه استناب أخاه سيف الإسلام طغتـكين بدمشق ، وسار بالعسكر ونزل على حمص ، فأخذها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى ، وامتنعت القلعة فأقام عليهـا من يحصرها . ورحل إلى حماة ، فأخذها مستهلّ جمادى الآخرة .

ثم مضى ونزل على حلب ، فحصرها ثالث الشّهر ؛ فلمّا اشتد على الحلبيين الحصار ، وأعوزهم الانتصار ، استغاثوا بالاسماعيلية [4] وعيّنوا لهم ضيـاعا ، وبذلوا لهم من المبذول أنواعا ، فجاء منهم فى يوم بارد شات ، من فُتّا كهم كل عات ؛ فعرفهم الأمير ناصح الدّين خمارتـكين صاحب بوقبيس ، وكان مشاغرا للاسماعيليّة ، فقـال لهم : لأىّ شىء جئتم ، وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم ! فقتلوه ، وجاء من يدفع عنـه فأثخنوه ، وعدا أحدهم ليهجم على السّلطان فى مقامه ، وقد شهر سكين انتقامه ، وطغريل أمير جاندار واقف

---

(١) يعنى أهل الموصل ؛ وأميرهم عندئذ سيف الدين غازى الثانى بن مودود بن زنـكى ، وهو ابن عم الملك الصالح اسماعيل ، حكم بين سنتى ٥٦٥ — ٥٧٦ .

(٢) ما بين الحاصرتين من ل ١٩١ ا .

(٣) ساقطة من ل ١٩١ ا ، وكذلك من ق .

(٤) المقصود بهم الحشيشية أصحاب مصياف ، وهى حصن الاسماعيلية بساحل الشام قرب طرابلس : معجم البلدان : ٤ : ٥٥٦ .

ثابت ؛ ساكن ساكت ، حتى وصل إليه ، فشمل بالسيف رأسه ، وما قتل الباقون حتى قتلوا عدة ، ولاقى من لاقاهم شدة .

وعصم الله حشاشته فى تلك النوبة من سكاكين الحشيشية ، فأقام إلى مستهل رجب ، ثم رحل إلى حمص بسبب أن الحلبيين كاتبوا قومص طرابلس ، وقد كان فى أسر نور الدين مذ كسرة حارم ، وبقى فى الأسر أكثر من عشر سنين ، ثم فدى نفسه بمبلغ مائة ألف وخمسين ألف دينار ، وفكاك ألف أسير ، فتوجه فى الإفرنجية إلى حمص ، فلما سمع بالسلطان رجع ناكصا على عقبيه ، خوفا مما يقع فيه ويتم عليه .

ومن كتاب فاضلى (١٨٩ ا) عن السلطان إلى العادل : « قد أعلمنا المجلس أن العدو ، خذله الله، كان الحلبيون قد استنجدوا بصلبانهم، واستطالوا[1] على الإسلام بعدوانهم، وأنه خرج إلى بلد حمص ؛ فوردنا حماة ، وأخذنا فى ترتيب الأطلاب[2] لطلبه ولقاه . فسار إلى حصن الأكراد متعلقا بحبله مفتضحاً بحيله . وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب ، وظفر وإن كان قد كفى الله [تعالى] فيه القتال المحسوب ، فإن العدو قد سقطت حشمته ، وانحطت فيه همته ، وولى ظهراً كان صدره يصونه ، ونكس صليبا كانت ترفعه شياطينه » .

وقال العماد فى الخريدة : لما خيم السلطان بظاهر حمص قصده المهذب بن أسعد[3] بقصيدة أولها :

ما نام بعد البين يستحلى الكرى   إلا ليطرقه الخيال إذا سرى
كَلِف بقربكم ، فلما عاقه   بعد المدى سلك الطريق الأخضرا
ومودّع أمر التفرّقُ دمعه   ونهته رُقبة كاشح فتحيّرا

ومنها فى المديح :

(١) فى ل : ١٩١ ب واستصالوا .

(٢) جمع طُلب : وهو الكتيبة فى الجيش . ومعناه الأصلى الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ، وأطلق أيضاً على قائد المائة أو السبعين . انظر السلوك : ١ : ٢٤٨ : حاشية : ٢ .

(٣) عبد الله بن أسعد الموصلى الشافعى . يقول العماد فى الخريدة : قسم شعراء الموصل ، ونقله ناشرو قسم شعراء مصر : ١ : ١٧٤ : حاشية ٤ : « هو الفقيه المدرس بحمص ، وقد سارت كافيته بين فضلاء الزمان كافة ، فشهدت بكفايته ، وسجلت أن أهل العصر لم يبلغوا إلى غايته » .

تُردى الـكتائب كتْبُه ، فإذا غدت   لم يُدْرَ : أنقْد أسْطراً أم عسكرا !
لم يحســن الإتراب فوق سطورها   إلَّا لأن الجيش يعقد عِثْــيرا [1]

فقال القاضى الفاضل لصلاح الدّين : هذا الذى يقول :

* والشعر مازال عنـد الترك متروكا *

فعجّل جائزته لتـكذيب قوله وتصديق ظنِّه ، فشرّفه وجمع له بين الخلعة والضّيْعة :

وعنى الفاضل ماقاله فى قصيدته فى مدح الصالح بن رزيك التى أولها :

* أما كفـاك تلافى فى تلافيـكا *

يقول فيها :

يا كعبة الجود ، إنّ الفقر أقْعـدنى   ورقّةَ الحال عن مفروض حجِّيـكا
من أرتجى ، يا كريم الدّهر ، ينعشنى   جدواه ، إن خاب سعْيى فى رجائيـكا
أأمدح التُّرك أبغى الفضل عنـدهم   والشِّعر ما زال عند الـتُّرك متروكا !
أم أمدح السُّوقة النَّوكى لرفدهم   وَاضَيْعَتَا إن تخطتنى أياديـكا !
لا تتركَنّى ، وما أمّلت فى سفرى   سواك ، أُقفـل نحو الأهل صعلوكا

قلت : وقد مضي ذكر ابن أسعد هذا فى أخبار سنة ثمان وخمسين [2] ، وسيأتى من شعره أيضا فى أخبار سنة ست وسبعين ، وثمان وسبعين .

وما أحسن ما خرج ابن الدّهان [3] من الغزل إلى مدح ابن رُزِّيك فى قوله من قصيدة أوَّلها :

إذا لاح برق من جنابك لامع   أضاء لِوَاشٍ ما تُجنّ الأضالِع

[يقول فيها][4] :

تمادى بنا فى جاهليّة بخلهـا   وقد قام بالمعروف فى الناس شارع
وتحسب ليل الشّح يمتدّ بعـدما   بدا طالعـا شمس السخاء طلائع

(١) فى الأصل : عسيراً ، وفى ل ١٩٢ ا : عشيراً ، والمثبت هنا هو الصحيح .
(٢) انظر ص : ٣٢٠ ــ ٣٢٢ من هذا الـكتاب .
(٣) وهو ابن أسعد الموصلى الذى يدور الحديث عنه هنا .
(٤) ما بين الحاصرتين من ل ١٩٢ ا .

فصــــل

ثم أرسل السلطان الخطيب شمس الدّين بن الوزير أبي المضاء[1] إلى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضي الفاضل كتابا (١٨٩ب) طويلا رائقا فائقا ، يشتمل على تعداد ما للسلطان من الأيادي من جهاد الإفرنج في حياة نور الدين ، ثم فتح مصر واليمن ، و بلادٍ جمة من أطراف المغرب ، و إقامة الخطبة العباسية بها . يقول في أوله للرسول :

« فإذا قضى التسليم حق اللقاء ، واستدعى الإخلاص جهد الدعاء ، فليُعدْ وليعدّ حوادث ما كانت حديثاً يفترى ، وجواريَ أمور إن قال فيها كثيرا فأ كثرُ منه ماقــد جرى ؛ وليشرح صدْرا منها لعلّه يشرح منا صدرا ، وليوضح الأحوال المستسرة فإن الله لا يُعبد سرا :

ومن الغرائب أن تسير عرائب في الأرضْ لم يعلم بهـا المـأمول
كالعيس : أقتل مايكون لها الصدى والمـاء فوق ظهورها محـمول

فإنا كنا نقْتبس النار بأ كفنا وغيرنا يستنير ، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير ؛ و نَلْقى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير ، ونصافح الصفاح بصدورنا وغيرنا يدعى التصدير . ولا بد أن نسترد بضاعتنا بموقف العدل الذى تُرد به الغُصوب ، وتظهر طاعتنا فنأخــذ بحظ الألسن كما أخــذنا بحظ القلوب . وما كان العائق إلّا أنا كنّا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنّعمة ، يضاهى ابتداءنا بالخدمة ، و إنجاباً للحق ، يشاكل إنجابنا للسبق . كان أول أمرنا أنا كنا فى الشام نفتتح[2] الفتوح مباشرين بأنفسنا ، ونجاهــد الـكفار مُتقدمين لعساكرنا ، نحن ووالدنا وعمنا . فأى مدينة فُتحت ، أو مَعْقل مُلك ، أو عسكر للعــدو كُسر ، أو مصاف[3] للإسـلام معه ضرب (ولم نـكن فيه)[4] . فما يجهل أحد

(١) محمد بن الحسين بن أبي المضاء البعلبكى وهو الذى خطب على منبر مصر سنة ٥٦٧ للعباسيين وأسقط اسم الفاطميين من الخطبة .

(٢) فى ل ١٩٢ ب : نفتح .

(٣) المصاف : جمع مصف ، وهو الموقف فى الحرب والاصطفاف للقتال .

(٤) ساقط من ل ١٩٢ ب وكذلك من ق .

صنعنا ، ولا يجحد عدونا أنا نصطلى الجمرة ونملك الكرة ، ونتقدم الجماعة ، ونُرتب المقاتلة ، وندبر التعبئة ، إلى أن ظهرت فى الشام الآثار التى لنا أجرُها ، ولا يضرنا أنْ يكون لغيرنا ذكرُها » .

«وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير ، و بما دَوْلتها عليه من غلبة صغير على كبير ، وأن النّظام بها قد فسد ، والإسلام بها قد ضعف عن إقامته كل من قام وقعد . والفرنج قد احتاج من يدبرها[1] إلى أن يقاطعهم بأموال كثيرة ، لها مقادير خطيرة ؛ وأنّ كلمة السنة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة ، وأحكام الشّريعة وإن كانت مسماة فإنها متحاماة . وتلك البدع بها على مايعلم ، وتلك الضلالات فيها على مايفتى فيه بفراق الإسلام و يحكم ؛ وذلك المذهب قد خالط من أهله اللّحم والدم ، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تُعبد من دون الله وتعظم وتفخم ؛ فتعالى الله عن شَبه العباد ، وويل لمن غرّه تَقَلُّبُ الّذِينَ كَفَرُوا فِى الْبِلَادِ . فسمت همّتنا دون همِ أهل الأرض إلى أن[2] نستفتح مُقفلها ، ونسترجع للإسلام شاردها ، ونعيد على الدين ضالته منها . فسرنا إليها فى عساكر ضخمة ، وجموع جمّة (١١٩٠) ، و بأموال انتهكت الموجود ، و بلغت منا المجهود ، أنفقْناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا ، وثمن أسارى الفِرنج الواقعين فى قبضتنا ؛ فعرضت عوارض منعت ، وتوجّهت للمصريّين رسل باستنجاد الفرنج قطعت ، ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، ولكلّ أمل باب . وكان فى تقدير الله تعالى أنّا نملكها على الوجه الأحسن ، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمْكن ، فغدر الفرنج بالمصريين غدرة فى هدنة عظم خطبها وخبطها ، وعلم أن استئصال كلمة الإسلام محطّها . فكاتبَنا المسلمون من مصر فى ذلك الزّمان ، كما كاتبنا المسلمون فى الشام فى هذا الأوان ، بأنّا إنْ لم ندرك الأمر وإلّا خرج عن اليّد ، و إنْ لم ندفع غريم اليوم لم نمْهَل إلى الغد . فسرنا بالعساكر المجموعة ، والأمراء الأهل[3] المعروفة ، إلى بلاد قد تمهّد لنا بها أمران ، وتقرّر لنا فى القلوب وُدّان : الأول ماعلموه من إيثارنا للمذهب الأقوم ، وإحياء الحقّ الأقدم ؛ والآخر مايرجونه من فكّ أسارهم ؛

---

(١) فى الأصل : تدبرها ، وماهنا من ل ١٩٢ ب .
(٢) فى الأصل : التى نستفتح .. الخ ، والمثبت هنا من ل ١٩٢ ب .
(٣) المثبت هنا من ل ١٩٣ ا وفى الأصل : وأمراء الأهل .

وإقالة عثارهم . ففعل الله ماهو أهله ، وجاء الخبر إلى العدوّ فانقطع حبله ، وضاقت به سُبله، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها[1] ، وبلادها وأقاليمها ، قد نفذت فيها أوامره ، وخفقت عليها صلبانه ، ونصبت بها أوثانه ، وأيس من أنْ يُسترجع ما كان بأيديهم حاصلا ، وأن يُستنقذ ماصار فى ملكهم داخلا . ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير ، وسوادهم كبير ، وأموالهم واسعة ، وكلمتهم جامعة ، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر ، والحيلة فى السّرّ فيهم أنفذ من العزيمة فى الجهر ؛ وبها راجل من السّودان يزيد على مائة ألف ، كلهم أغنام أعجام ، إنْ هُمْ إلّا كالأنْعام ، لا يعرفون ربًّا إلّا ساكن قصره ، ولا قبلةً إلّا مايتوجهون إليه من ركنه ، وامتثال أمره ؛ وبها عسكر من الأرمن باقُون على النّصرانية ، موضوعة عنهم الجزية ، كانت لهم شوكة وشكة ، وحمة وحمية ؛ ولهم حواشٍ لقصورهم من بين داعٍ[2] تتلطف فى الضلال مداخله ، وتصيب القلوب مخاتله ، ومن بين كُتّاب تفعل أقلامهم أفعال الأسل ، وخُدّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل ؛ ودولة قد كبر نملها الصغير ، ولم يعرف غيرها[3] الكبير ، ومهابة تمنع من خطرات الضمير[4] ، فكيف بخطوات التدبير . هذا إلى استباحةٍ للمحارم ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادةٍ جاريةٍ جائرة ، وتحريفٍ للشريعة بالتأويل ، وعدول إلى غير مُراد الله بالتنزيل ، وكفرٍ سُمى بغير اسمه ، وشرعٍ يتستر به ويحكم بغير حكمه . فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار ، ونتحيّفهم تحيُّف الليل والنهار ، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير ، وغرائب تقدير لا (١٩٠ ب) تحملها الأساطير ، ولطيف توصّلٍ ما كان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير . وفى أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج ، دفعة إلى بلبيس ودَفْعة إلى دمياط ، وفى كلّ دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهر ، والحشد الأوقر ، وخصوصا فى نوبة

---

(١) جمع رستاق : لفظ فارسى معناه القرية أو محلة العسكر أو البلد التجارى . وتعريبها : الرزداق وجمعها الرزداقات والرزاديق . انظر : السلوك : ١ : ١٣٠ : حاشية : ٢.

(٢) يقصد به الداعى إلى المذهب الفاطمى أو الاسماعيلى .

(٣) فى الأصل : غرها ، وأمامها فى الهامش تعليقة نصها : قال المؤلف : لعله يعرف غيرها . والمثبت هنا من ل ١٩٣ ا .

(٤) فى ل ١٩٣ ا : تمنع ما يكنه الضمير ، وهى كذلك فى ق .

دمياط ، فإنهم نزلوها بحراً فى ألف مركب ، مقاتل وحامل ، وبرًّا فى مائتى ألف فارس وراجل ، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ، ويماسونها ويصابحونها ، القتالَ الذى يصلبه الصليب ، والقراع الذى ينادى به الموت من (كلّ)[1] مكان قريب.
ونحنُ نقاتل العدوين[2] الباطن والظاهر ، ونصابر الضَّرّرين[3] المنافق والكافر ، حتى أتى الله بأمره ، وأيدنا بنصره ، وخابت المطامع من المصريين والفرنج ، وشرعنا فى تلك الطوائف من الأرمن والسودان والأجناد ، فأخرجناهم من القاهرة ، تارةً بالأوامر المرهقة لهم ، و[تارةً][4] بالأمور القاضحة منهم ، و[طوراً][4] بالسيوف المجردة ، وبالنار المحرقة ، حتى بقى القصر ومن به من خدم ومن ذرّية قد تفرّقت شيعه ، وتمزقت بدعه ، وخفتَت دعوته ، وخفِيَت ضلالته ؛ فهنالك تم لنا إقامة الكلمة ، والجهر بالخطبة ، والرفع للواء الأسود المعظم[5] ، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه [وفنائه][6] ، وبرأنا من عُهدة يمين كان إثم حنثها أيسر من إثم إبقائه ، لأنه عوجل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته . ولما خلا درعنا ، ورحب وسعنا ، نظرنا فى الغزوات إلى بلاد الكفار ، فلم تخرج سنة إلا عن سنة أقيمت فيها برا وبحرا ، مركبا وظهرا ، إلى أن أوسعناهم قتلا وأسرا ، وملكنا رقابهم قهرا وقسرا ، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها منذ أُخذت من أيديهم ، ولا أُوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها أعاديهم . فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ، ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدوّ قد بناها فى بحر الهند ، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن ، وغزا ساحل الحرم ، فسباء منه خلقا ، وخرق الكفر فى هذا الجانب خرقا ، فكادت القبلة أن يستولى على أصلها ، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام الخليل عليه السلام ؛ أن يقوم به من نارُه غيرُ بَرْدٍ وسلام ، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطرقه من لا يدين بما جاء به من

---

(١) ساقطة من ل ١٩٣ ب .
(٢) فى الأصل : فى العدوين ؛ ولا لزوم لحرف الجر ، فأسقطناه طبقا لما جاء فى ل ١٩٣ ب .
(٣) فى ل ١٩٣ ب : الضدين ، وكذلك فى ق .
(٤) ساقطة من الأصل وكذلك من ل ١٩٣ ب ، وكذلك من نسخة ق ، والسياق يقتضيها .
(٥) فى ل ١٩٣ ب : الأعظم .
(٦) ساقطة من الأصل ومن ل ١٩٣ ب .



الإسلام . فأخذت هذه القلعة وصارت معقلا للجهاد ، وموئلا لسُفّار البلاد ، وغيرهم من عبّاد العباد » .

ثم قال : « وكان باليمن ما علم من ابن مهدى الضال الملحد ، المبدع المتمرّد ، وله آثار فى الإسلام ، وثأر طالبه النبىّ عليه الصلاة والسلام ، لأنه سبى الشرائف الصالحات ، و باعهن بالثمن البخس ، واستباح منهنّ (١٩١ ا) كل مالا يقر لمسلم عليه نفس ؛ ودان ببدعة ، ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة ، وأخذ أموال الرّعايا المعصومة وأجاحها، وأحلّ الفروج المحرّمة وأباحها . فأنهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلّفنا نفقات واسعة، وأسلحة رائعة؛وسار فأخذناه ولله الحمد ، وأنجح الله فيه القَصْد ؛ والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند سامية ، و إلى ما يفتَضّ الإسلام عذرته متمادية » .

« ولنا فى الغرب أثر أغرب ، وفى أعماله أعمال دون مطلبها مهالك كما يكون المهلك دون المطلب ؛ وذلك أن بنى عبد المؤمن قد اشتهر أنّ أمرَهم قد أَمِر ، وملكهم قد عُمِر[1] ، وجيوشهم لا تطاق ، وأمرهم لا يشاقّ ، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلادا تزيد مسافتها على شهر ، وسيرنا إليها عسكرا بعد عسكر ، فرجع بنصر بعد نصر . ومن البلاد المشاهير ، والأقاليم الجماهير : برقة[2] ، قَفْصة[3] ، قسطيلية[4] ، تَوْزَر[5] ؛ كلّ هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضئ بأمر الله ، أمير المؤمنين ، سلام الله عليه ؛ ولا عهد للإسلام بإقامتها ، وينفذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها » .

« وفى هذه السنة كان عندنا وفْدٌ قد شاهده وفود الأمصار ، ورموه بأسماع وأبصار ،

---

(١) الضبط من نسخة الأصل .

(٢) يعرفها ياقوت بأنها إقليم ومدينة ، بين الاسكندرية وإفريقية : معجم البلدان : ٢ : ١٣٣ـ ١٣٤ .

(٣) فى طرف إفريقية من ناحية المغرب : نفس المصدر : ٧ : ١٣٨ .

(٤) أكثر بلاد إفريقية إنتاجاً للتمر : نفس المصدر : ٢ : ٤٢٨ ؛ ٧ : ٨٨ .

(٥) فى أقصى إقليم إفريقية بينها وبين نفطة عشرة فراسخ ، وهى من إقليم قسطيلة . نفس المصدر : ٢ : ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

مقداره سبعون راكبا ، كلّهم يطلب لسلطان بلده تقليدا ، ويرجو منا وعدا ويخاف وعيدا ؛ وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها ، وألقيت إلينا مقاليدها ، وسيّرنا الخلع والمناشير والألوية ، بما فيها من الأوامر والأقضية . فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد ، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشّداد ، فمنهم صاحب قسطنطينية ، وهو الطاغية الأكبر ، والجالوت الأكفر ، وصاحب المملكة التى أكلت على الدّهر وشربت ، وقائم النصرانية الذّى حكمت دولته على ممالكها وغلبت ، جرَت لنا معه غزوات بحرية ، ومناقلات ظاهرة وسرّية ، ولم نخرج من مصر إلى أنْ وصلتنا رسله فى جمعة واحدة نَوْبتين ، بكتابين ، كلّ واحدٍ منهما يظهر فيه خفض الجناح ، وإلقاء السلاح ، والانتقال من معاداة إلى مهاداة ، ومن مفاضحة إلى مناصحة، حتى إنه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله التى تردّد ذكرها ، وعساكره التى لم يخف أمرها » .

« ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية ، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا فى نوبة دمياط فغلبا وقُسرا ، وهزما وكُسرا ، أراد أن يظهر قوته المستقلة ، فعمر أسطولا استوعب فيه [1] ماله وزمانه ، فله الآن خمس سنين تكثُر عدّته ، وتنتخب عُدّته ، إلى أن وصل منها فى السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع ، وخطب هائل ، ما أثقل ظهر البحر مثل (١٩١ ب) حمله ، ولا ملأ صدره مثل خيله ورَجْله ؛ وما هو إلا إقليم ، بل أقاليم ، نقله ، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله » .

« ومن هؤلاء الجيوش البنادقة ، والبياشنة ، والجنوية [2] كلّ هؤلاء تارةً يكونون [3] غزاةً لا تُطاق ضراوة ضرّهم ، ولا تُطفأ شرارة شرّهم ، وتارةً يكونون [4] سُفّاراً يحتكمون على الإسلام فى الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة ،

(١) فى الأصل : استوعب فنه ؛ والمثبت هنا من ل ١٩٤ ا .

(٢) البنادقة : أهل مدينة البندقية ، أو ڤينيسيا ؛ والبياشنة من مدينة پيزا ، والجنوية أهل جنوة ؛ وكلها من المدن الإيطالية التى اشتهرت بنشاطها التجارى البحرى ، ومن ثم بنشاطها فى ميدانى الحرب والسياسة أيضاً ، فى العصور الوسطى .

(٣) فى الأصل : تكون ؛ والمثبت هنا من ل ١٩٤ ا .

(٤) فى الأصل : يكونوا ؛ والمثبت هنا من ل ١٩٤ ا .

وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده ؛ وكلهم قد قُرّرت معهم المواصلة ، وانتظمت معهم المسالمة ، على ما نريد ويكرهون ، وعلى ما نؤثرُ وَهُمْ لا يؤثرون » .

« ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية ، وكنا فى تلك السنة على نيّـة الغزاة ، والعساكر قد تجهزت، والمضارب قد برزت ، ونزل الفرنج [على][1] بانياس ، وأشرفوا على اجتيازها ورأوها فرصة مدّوا يَدَ انتهازها ، استصرخ بنا صاحبها ، فسرنا مراحل اتصل بالعدوّ أمرها ، وعوجل بالهدنة الدمشقية التى لولا مسيرنا ما انتظم حكمها» .

« ثم عدنا إلى البلاد وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعّب الآراء وتوزعها، وتشتُّت الأمور وتقطعها ، وأن كلّ قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكلّ جانب قد طمح إليه طالب ، والفرنج قد بنوا قلاعا يتحيّفون بها الأطراف الإسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم ، وعُوقبوا وصودروا ، والمماليك الأعداد الذين خدموا الأطراف لا الصدور[2] ، وجعلوا للقيام لا للقعود فى المجلس المحضور ، قد مدّوا الأيدى والأعين والسيوف ، وسارت سيرتهم فى الأمر بالمنكر والنّهى عن المعروف ، وكلّ واحد يتخذ عند الفرنج يداً ، ويجعلهم لظهره سندا . وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسّر الأسباب لفتحه ، وأمرَ الكُفر إنْ لم يُجرد العزم فى قلعه ، وإلا نبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خُروقه ؛ وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادرين بالقعود آثمة . وإنّا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التى بها على الجهاد القوة ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة الجموع ، والأوقات مساعدة . وأصلحنا ما فى الشام من عقائد معتّلة ، وأمور مختّلة ، وآراء فاسدة ، وأمراء متحاسدة ؛ وأطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا

---

(١) ما بين الحاصرتين من ل ١٩٤ ب .

(٢) فى ل ١٩٤ ب : الذين خلقوا للأطراف لا للصدور .

الولد القائم بعـد أبيه ، فإنّا به أولى من قوم يأكلون الدّنيا باسمه ، ويُظهرون الوفاء فى خدمته ، وهم عاملون بظلمه » .

والمراد الآن هو كلّ ما يقوّى الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمـع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البـلاد (١٩٢ ا) ؛ وأن يطبق بالاسم العبـاسى كل ما[1] تطيقه العهاد[2] ، وهو تقليد جامع بمصر ، واليمن ، والمغرب ، والشام ، وكل ما[1] تشتمل عليه الولاية النورية ، وكلّ ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا ، ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا ، تقليدا يضمن للنعمة تخليدا ، وللدعوة تجديدا ، مع ما ينعم به من السّمات التى فيها الملك . وبالجملة فالشام لا ينتظم أموره بمن فيه ، والبيت المقدس ليس له قِرْن يقوم به ويكفيه ، والفرنج فهم يعرفون منا خصما لا يملّ الشر حتى يملّوا ، وقرناً لا يزال محرم السيف حتى يحلوا . وإذا شد رأينا حسن الرأى ضربنا بسيف يقطع فى غمده ، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ويَدُ كلّ مؤمن تحت برده ، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذى أسرى الله إليه بعبده » .

ومن كتاب آخر فاضلىّ عن السلطان إلى الدّيوان فى تعداد ماله من الأيادى ؛ قال : « والذى أجراه الله على يد المملوك من الممالك التى دوخها ، وسنن الضلال التى نسخها ، وعقود الإلحاد التى فسخها ، ومنابر الباطل التى رَحَضَها ، وحجج الزّندقة التى دحضها ؛ فلله عليه المنة فيه إذْ أهّله لشرف مشهده ، وما فعله إلا لوجهه ، ويدُ الله كانت عون يده ؛ وإلا فقـد مضت[3] الليالى والأيام على تلك الأمور وما تحركت للفلك[4] فى قلعها نابضة ، وغبرت الأحوال على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضة . فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده منها ، أن يجتهد فى أخرى مثلها فى الـكفّار ، وقد عاد الإسلام إلى وطنه ، وصوّحت[5] من الـكفر خضراء دمنه » .

---

(١) فى الأصل ، وفى ل ، وكذلك فى ق : كلما .
(٢) فى الأصل : العباد . والمثبت هنا من ل ١٩٤ ب .
(٣) فى ل ١٩٥ ا : قبضت .
(٤) المثبت هنا من ل ١٩٥ ا وفى الأصل : ما تحركت الفلك .
(٥) صوّحت : ذبلت . القاموس المحيط .

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه إعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية يقول فيه : « حتى أتى الدنيا ابن بجدتها ، فقضى من الأمر ما قضى ، وأسخط مَنْ لله فى سُخطه رضا ، وجعل وجه لابس السواد مُبيضا ، فأدرك لهم بثأر نامت عنه الهمم ، ودوّخت عليه الأمم ، وشفى الصدور ، وجاء بالحق إلى من غره بالله الغَرور ، واستبضع إلى الله تعالى تجارة لن تبور » .

ومن كتاب آخر : « قد بورك للخادم فى الطاعة التى لبس الأولياء شعارها ، وأمضى فى الأعداء شفارها ، وجمع عليها الدين وكان أديانا ، واستقامت بها القلوب على صبغة التكلف وكانت ألوانا » .

ومن كتاب آخر : « لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلا وعد كان انعقد بينه و بين نور الدين رحمه الله تعالى فى أن يتجاذبا طرفى الغزاة من مصر والشام ، المملوك بعسكرَى برّه وبحره ، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره . فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما ، وحدثت بعد الأمور أمور ، اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور ، وتحكمت الآراء الفاسدة ، (١٩٢ ب) وفُورقت المحاج القاصدة ، وصارت الباطنيّة بطانة من دون المؤمنين ، والكفار محمولة إليها جزى المسلمين ؛ والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد ، وكانت سيوفهم للنصر موارد ، يشكون ضيق حلقات الأسار ، وتطرق الكفار بالبناء فى الحدود الإسلامية . ولا خفاء أنّ الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا ، واستنجدوا أنصار النصرانية فى الأقطار ، وسيروا الصليب ومن كسى مذابحهم بقمامة ، وهددوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة ، وأنفذوا البطارقة والقسيسين ، برسائل صور من يصوّرونه ممن يسمُّونهم القدّيسين ؛ وقالوا إن الغفلة إن وقعت أوقعت فيما لا يُستدرك فارطه . وإن كلا من صاحب قسطنطينية ، وصاحب صقلّية ، وملك الألمان ، وملوك ما وراء البحر ، وأصحاب الجزائر، كالبندقيّة، والبيشانية ، والجنوية ، وغيرهم ، قد تأهبوا بالعمائر البحرية ، والأساطيل القوية . وللإسلام بأمير المؤمنين أعزّ ناصر ، لا سيا وهم ينصرون باطلا وهو ينصر حقا ، وهو يعبد خالقاً وهم يعبدون خلقا » .

فصل

قال العماد : وكنت بالموصل فسئلت نظم مرثية فى نور الدّين ، فنظمت بعد عودى إلى دمشق فى رجب :

الدّين فى ظُلَمٍ لغيبة نوره | والدهر فى غُمم لفقد أميره
فليندُب الإسلامُ حامى أهله | والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المقدار فى أخطاره | إذْ كان هذا الخطب فى مقدوره !!
ما أكثر المتأسفين لفقدِ مَنْ | قَرّتْ نواظرهم بفقد نظيره
ما أعوص [1] الإنسانِ فى نسيانه | أوَ ما كفاه الموت فى تذكيره ؟
مَن للمساجد والمدارس بانيا | لله طوعا عن خلوص ضميره
من ينصر الإسلام فى غزواته | فلقد أصيب برُكنه وظهيره
مَنْ للفرنج ، ومن لأسر ملوكها | من للهُدى يبغى فكاك أسيره
من للخُطوب مذلّلاً لجماحها | من للزّمان مُسَهّلا لوعوره
من كاشفٌ للمعضلات برأيه | من مشرقٌ فى الداجيات بنوره
من للكريم ،(و)[2] من لنعش عثاره | منْ لليتيم ، ومن لجبْر كسيره
من للبلاد ،(و)[2] من لنصر جيوشها | من للجهاد ، ومن لحفظ أموره
منْ للفتوح محاولا أبكارها | برَواحِه فى غزوه و بُكوره
منْ للعلا وعُهودها ، منْ للندى | ووفوده ، منْ لِلْحِجا ووفوره
ماكنت أحسب نور دين محمد | يخبو وليْل الشّركِ فى ديجوره
أعْزِزْ علىّ بليْث غابٍ للهدى | يخلو الشرى [3] من زوره وزئيره
أعْزِزْ علىّ بأنْ أراه مُغيّبا | عنْ محفل متشرّف بحضوره

(١) فى ل ١٩٥ ب : ما أغوص .
(٢) ساقطة من ل ١٩٥ ب .
(٣) الشرى : مكان تكثر فيه الأسد . القاموس المحيط .

لهفى على تلك الأنامل ، إنّهـــا — مُذْ غيّبت غاض النّدى ببحوره
ولقدْ أتى منْ كنت تُجرى رسمه — فضع العلامة [1] منْك فى منشوره
ولقدْ أتى منْ كنت تكشف كربه — فارفع ظُلامتـــه بنصْر عشيره
ولقدْ أتى منْ كنت تؤمن سربه — وقّع له بالأمن مِنْ محـــذوره
ولقدْ أتى منْ كنت تؤثر قربه — فأدم له التّقريب فى تقريره
والجيش قد ركب الغداة لعرضه — فاركب لتُبْصِرَه أوَانَ عبوره
أنت الّذى أحييْت شرع محمد — وقضيت بعـــد وفاته بنُشوره
كم قـد أقمت من الشريعة مَعْلما — هو مُنْذ غبتَ معرّضٌ [2] لِدُثوره
كم قد أمرتَ بحفر خندق معقلٍ — حتى سكنت اللّحـــد فى محفوره .
كم قيصرٍ للرُّوم رُمْت بقسره — إرْواء بيض الهند من تاموره [3]
أوتيتَ فتح حصونه ، ومَلَكْتَ عُقْـ — ـرَ بلاده ، وسبيْت أهل قصوره
أزَهِدْتَ فى دار الفَنـاء وأهلها — ورَغِبت فى الخلْد المقيم وحُوره
أوَ ما وعدْت القدس أنك منجزٌ — ميعاده فى فتحـــه وظهوره
فمتى تجير القدْسَ من دنَس العِدا — وتقـــدّس الرّحمٰن فى تطهيره
ياحاملينَ سريره : مهلًا ، فمِنْ — عجبٍ نهوضُكم بحمْل ثبيره [4] ؟
ياعابرينَ بنَعشـــه : أَنشقتمُ — من صالح الأعمال نشر عبيره ؟
نزلت ملائكة السّماء لدفنـــه — مستجمعين على شفير حفـــيره
ومِنَ الجفاء له مُقامى بعـــده — هلّا وفيت وسرت عنـد مسيره .
حيّاك معتبـــل الصّبا بنسيمه — وسقاك مُنْهـــلُّ الحيَا بدُرُوره
ولبسْت رضوان المهيمن ساحبًا — أذيال سُنْدس خزّه وحريره

---

(٢) العلامة السلطانية : التوقيع الذى يوقع به السلطان على المنشورات والمراسلات والكتب ، وكانت فى العادة اصطلاحا ، آية قرآنيـة أو قولا مأثورا ، وقد تـكون اسم السلطان . وكانت علامة السلطان صلاح الدين فى كثير من المناسبات : « وما توفيقى إلا بالله » ، يضعها فى أعلى المكاتبات .

(٣) فى ل ١٩٥ ب معرضا .

(١) التامور : النفس وحياتها ، والقلب وحبته وحياته ودمه . القاموس المحيط .

(٢) ثبير : من أعظم جبال مكة ، بينها وبين عرفة . معجم البلدان : ٣ : ٦ـ٨ .

وسكنْت علِّيين فى فردوسه   خلْف المسرّة ظافرا بأجوره

قال العماد : وجاء نجّاب إلى الموصل وذكر أنه فارق صلاح الدّين بقرب دمشق بالكسوة وهو الآن يستكمل من ملك دمشق الحُظوة ؛ فهاجنى الطّرب لقصده ، لسابق معرفته وقديم ودّه ؛ فقدمت دمشق على طريق البرية ، والسلطان على حلب .

وكان العماد فى عقابيل [ألم] [1] ، فلمّا شُفى وعاد السّلطان إلى حمص قصده فيها وقد تسلم قلعتها فى شعبان ، فى الحادى والعشرين منه .

قال : وكنْت نظمت قصيدة فى الشّوق إلى دمشق والتأسّف عليها ، ثم جعلت مدح السّلطان مخلصها ، وهى طويلة ، أولها :

أجيران « جَيْرون » مالى مجير   سوى عطفكم ، فاعدلوا أوْ فجُورا
ومالى سوى طيفكم زائر   فلا تمنعوه إذا لمْ تزوروا
يعزّ على بأنّ الفؤادَ   لديْكم أسيرٌ وعنكم أسير
وما كنت أعلم أنّى أعيشُ   بعد الأحبّة ، إنّى صَبُور!
وفَتْ أدْمعى ، غير أنّ الكرى   وقلبى ، وصبرىَ ، كلٌّ غَدُور
إلى ناس « بَانَاس » لى صبوةٌ   لها الوجد داعٍ وذكرى مشير
يزيد اشتياقى وينمُو ، كما   «يزيد»[2] يزيد،و«ثَوْرا»[3] يثور
ومن«بَرَدى»[4] بَرْدُقلبىالمشوق   فها أنا من حرّه مستجير
و « بالمرج » مرْجُوُّ عيْشى الذى   على ذكره العذْب عيْشى مرير

---

(١) مابين الحاصرتين من ل ١٩٦ ا .

(٢) نهر بدمشق ينسب إلى يزيد بن معاوية السفيانى . معجم البلدان : ٨ : ٣٤٧ . ويقع فى لحف جبل قاسيون : نفس المصدر : ٢ : ١١٨ (مادة بردى) .

(٣) نهر بدمشق ويسمى أيضاً ثورة ؛ شمالى بردى . ويفترق ماء بردى عند قرية دمر ثلاثة أقسام ، أخذها فى ثورا ، والثانى لباناس ، وثالثها لبردى نفسه . ثم تمتزج الثلاثة بالوادى والغوطة ثم يظاهرها حتى يصب بردى فى بحيرة المرج شرقى دمشق ، ويجاوره من الشمال نهر ثورا . معجم البلدان: ٢:١١٨-١١٩ (مادة بردى) ؛ ٣ : ٢٦ .

(٤) معجم البلدان : ٢ : ١١٨-١١٩ .

فقدتكمْ ففقدت الحياة ... ويوم اللقاء يكون النّشور
تطاول لسؤلى عند «القُصَيْر»[1] ... فعن نيله اليوم باعى قصير
(١٩٣ب) وكن لى بريداً «بباب البريد»[2] ... فأنت بأخبار شوقى خبير
متى تجد الرى «بالقريتَين»[3] ... خوامص[4] أثر فيها الهجير
ونحو «الجليجِل»[5] أُزْجى المطىّ ... لقد جلّ هذا المرام الخطير
ترانى أُنيخ بأدنى «ضُمير»[6] ... مطايا براها الوجا والضمور
وعند «القطيّفة»[7] المشتهاة ... قُطوف بها للأمانى سفور
ومنها بُكورىَ نحو «القُصَير» ... ومنية عمرى ذاك البكور
ويَاطِيب بُشْراى من «جلّق»[8] ... إذا جاءنى بالنّجاح البشير
ويستبشر الأصدقاء الكرامُ ... هنالك بى ، وتُوفّى النذور
ترى بالسلامة يوما يكون ... «بباب السلامة»[9] منّى عبور
وإن جوازى «بباب الصغير» ... لَعَمْرى من العُمر حظّ كبير
وما جنة الخلد إلّا دمشق ... وفى القلب شوق إليها سعير
ميادينها الخضر فيح الرّحاب ... وساسالها العذب صافٍ نمير

---

(١) هى أول منزل لمن يخرج من دمشق فى طريقه إلى حمص . وهناك قصير بغور الأردن ، وثالثة على البحر الأحمر من أرض مصر كانت مرفأ لسفن القادمة من اليمن والذاهبة إليها . معجم البلدان : ٧ : ١١٥ .
(٢) من أبواب جامع دمشق وكان من أنزه المواضع بها . نفس المصدر : ٢ : ١٤ .
(٣) من أعمال حمص فى طريق البرية : نفس المصدر : ٧ : ٧٠ .
(٤) فى ل ١٩٦ ا : خوامس .
(٥) فى ل ١٩٦ ا : الجليجيل . فى طريق البرية من دمشق على مرحلتين منها لمن يريد الشرق : معجم البلدان : ٣ : ١٣١ .
(٦) حصن وقرية فى آخر حدود دمشق مما يلى السماوة : نفس المصدر : ٥ : ٤٤١-٤٤٢ .
(٧) قرية دون ثنية العقاب للقاصد إلى دمشق فى طرف البرية من ناحية حمص : نفس المصدر : ٧ : ١٣١ .
(٨) تطلق على الغوطة كلها ، وعلى دمشق ؛ وهى موضع بقرية من قرى دمشق . نفس المصدر : ٣ : ١٢٦ - ١٢٨ .
(٩) شمالى دمشق ، سمى بذلك لصعوبة القتال عنده لما دونه من الأشجار والأنهار . تهذيب تاريخ دمشق : ١ : ٢٦٢ .

وجامعها الرّحب والقُبّة الْ مُنيفة والفلك المستـــــدير

وفى قبّة النسر لى ســـادة بهم للمـــكارم أفق منـــير

«و بابالفراديس »[1] فرْدوسها وسُـكانهـا أحسن النّاس حور

والارزةفالسّهم «فالنيربان »[2] فجنات «مزّتها »[3] «فالـكفور»

كأن الجواسق مأهولةً بروجٌ تَطلّعُ منهـا البدور

« بنيربها » تَسْتبير الهموم بربوتهـا يترقّى السّرور

وما غرّ فى الرّبوة العـاشقيـ ن بالحسن إلاّ الرّبيب الغرير

وعند « المغـارة » يوم الخميس أغار على القلب منّى مغير

وعند « المنيْبع »[4] عين الحياة مدى الدهر نابعـة ماتغور

«بجسرابْنشواش»[5]ثمّ السكون لنفس ، بنفْسىَ تلك الجسور

وما أنْسَ لا أنْس أنْس العبور على جسر«جسرين»[6] إلى جسور

وكمْ بتّ ألهو بقرب الحبيـ ـب فى« بيت لِهْيا»[7] ونامالغيور

فأين اغتباطىَ « بالغُوطتين » وتلك الليالى وتلك العصور

وأشجار«سطرا»[8] بدتكالسطو رِ ، نمقهُنّ البليغ البصـــــــير

وأيْن تأمّلْت فُلكٌ يدور وعينٌ تفُور ، وبحرٌ يمور

وأين نظرت نسيمٌ يرقّ وزهرٌ يروق ، وروضٌ نضير

---

(١) نسبة إلى محلة الفراديس ، وقد تخربت ؛ ويقع شمالى دمشق . نفس المصدر .

(٢) وهى أيضا النيرب ، وسط بساتين دمشق على نصف فرسخ منها . معجم البلدان : ٨:٣٥٥

(٣) وسط بساتين دمشق أيضا ، على نصف فرسخ من المدينة. نفس المصدر : ٨ : ٤٧ .

(٤) محلة وسويقة وأفران وحمام ، وهى من محاسن دمشق . انظر النجوم الزاهرة : ٦ : ١٧٩ : حاشية : ١ .

(٥) موضع فى متنزهات دمشق ينسب إلى رجل يعرف بشواش : معجم البلدان : ٦ :٣٠٤ـ٣٠٥.

(٦) من قرى غوطة دمشق : معجم البلدان : ٣ : ١٠٦ .

(٧) يذكر ياقوت أن صحته : بيت الآلهة ، من قرى الغوطة. نفس المصدر : ٢:٣٢٤ـ٣٢٥ .

(٨) من متنزهات الغوطة بدمشق : نفس المصدر : ٥ : ٨٢ .

إلام القساوة يا « قاسيون »[1] وبين السّنا يتجلّى « سَنير »[2]
ومُنْذُ ثوى نورُدين الإلـ ـه لم يبق للدّين والشّام نور
وللنّــاس بالملك النّاصر الصّـ (م) لاح صلاحٌ ونصرٌ وخير
هو الشمس ، أفلاكه فى البلاد ومطلعه سرجــه ، والسّرير
إذا ماسطا ، أو حبا ، واحتبى فما الليث ، من حاتمٌ ، ماثبير
بيوسف مصر وأيامه تقر العيون وتُشفى الصّدور
ملــكت فأسْجح ، فما للبلاد سواك مجيرٌ ومولًى نصير
وفى مِعْصم المُلك للعزّ منك سوارٌ ، ومنك على الدِّين سُور
لك الله فى كل ماتبتغيه بحقٍّ ظهيرٌ ، ونعم الظّهير
أمّا المفسدون بمصر عصوْك وهــذى ديارهم اليوم قور[3]
أما الأدعياء بها إذْ نشطت لإبعادهم زال منك الفتور
ويوم الفرنج إذا ما لقوك عبوُس برغمهم قمطرير
نهوضاً إلى القدُس يشفى الغليل بفتح الفتوح ، وماذا عسير
سَلِ الله تسهيل صعب الخطوب فهو على كل شئ قــدير
إليك هجرت ملوكِ الزمان فما لك ، والله ، فيهم نظير
وفجرك فيه القرا والقُرآن جميعاً ، وفجر الجميع الفجور
وأنت تريق دماء الفرنج وعندهم لا تراق الخمور

(١) الجبل المشرف على دمشق : نفس المصدر : ٧ : ١١-١٣ .
(٢) يعرفه ياقوت بأنه جبل بين حمص وبعلبك ، وعلى رأسه قلعة سنير . معجم البلدان : ٥ : ١٥٥ .
(٣) فى الأصل بالهامش : « حاشية المؤلف : قور يعنى آكام من الخراب » . وفى القاموس المحيط : القارة : الجبل الصغير المنقطع عن الجبال والجمع قور .

فصــــل

(١١٩٤) فى فتح بعلبك

قال العماد : ولمـا فرغ السلطان من حمص وحصنها سار إلى بعلبك ، فتسلمها فى رابع شهر رمضان .

قال ابن أبى طىّ : وكان بها خادم يقال له يمن ، فلما شاهد كثرة عساكر السّلطان اضطرب فى أمره وراسل مَنْ بحلب على جناح طائر ، فلم يرجع إليه منهم خبر ؛ فطلب الأمان ، وسلم بعلبك إلى السّلطان .

قال العماد : وهنأته بأبيات منها[1] :

بفُتوح عصرك يَفْخر الإســـلام ... وبنُور نصرك تُشرق الأيّام
وبفتح قلعــة بعلبـــك تهذّبت ... هـــذى الممالك واستقام الشّام[2]
وبكى الحَسُود دماً ، وثغر الثّغر ، من ... فرح بنصْرك للهـــدى ، بَسّام
فتح تَسنّى فى الصّيام ، كأننــا ، ... شـكرا لمـا منح الإله ، صيام
من ذا رأى[3] فى الصّوم عيد سعادة ... حلّت لنا والفطر فيـه حرام
أسْدى صلاح الدّين والدّنيــا يداً ... بنَوَالهـا سوقُ الرّجاء[4] تقـام
فتملّ فتْحك ، واقصد الفتح[5] الّذى ... بحصـوله لفُتوحك الإتمــام
دُمْ للعُلا حتّى يدوم نظامهـا ... واسلَمْ يعزَّ بنصرك الإسلام

قال : ولزمت خدمته أرحل برحيله وأنزل بنزوله . وكنت ليلةً عنـده وهو يذكر جماعة من شعراء الزّمان ، وعنـده ديوان الأمير مؤيد الدّولة أسامة بن مرشد بن سديد

---

(١) انظر أيضا : مفرج الكروب : ٢ : ٣٠ .
(٢) فى المفرج . واستقر الشام .
(٣) فى المفرج : يرى .
(٤) فى المفرج : الرخاء .
(٥) فى المفرج : القدس .

الملك على بن منقـذ ، وهو به مشغوف ، وخاطره على تأمله موقوف ، و إلى استحسانه مصروف . وقد استحسن قصيدة له طائيّة لو عاش الطائيّان لأقرّا بفضلها ، و إن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها . على أنّ الشّعراء المحدثين ما منهم إلّا من نظم على رويّها ووزنها ، واستمد خصب خاطره من مُزنها ، فمنهم المعرّى ، وابن أبى حصينـة [1] ، والأرّجانى [2] ، والصالح ابن رزّيك . وقد أوردت جميعها فى كتـاب الخريدة . ومطلع قصيدة المعرّى :

* لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا [3] *

فنظمت فى السّلطان ونحن على بعلبـك بتاريخ انسلاخ شعبان قصيدة طائيـة ، منها [4] :

عفا الله عنـكم ، مالـكم أيّها الرّهط ... قسطتم ، ومن قلب المحبّ لـكم قسط !
شرطتم لنا حفظ الوداد وخنتمُ ... حنانيكم ؛ ماهكذا الودّ والشرط !
جعلتم فؤاد المُسْتهام بـكم لـكم ... محطّا ، فمنه ثقـل همّكم حُطّوا
ملـكتم فأنـكرتم قديم مودّتى ... كأن لم يـكن فى البين معرفة قطّ
فدت مهجتى من لا يذمّ لمهجتى ... إذا حاكمته ، وهو فى الحـكم مشتطّ
(١٩٤ب) وما كنت أدرى قبل سطوة طرفه ... بأن ضعيفاً فاترا مثـــله يسطو
وأهيف للإشفـاق من ضعف خصره ... يحـلُّ نطاقا [5] للقـلوب به ربْط
يلازم قلبى فى الهوى القبض ، مثلمـا ... يلازم كفّ النّاصر الملك البسط
مليكٌ حوى الملك العقيم بضبطـه ... كريمٌ ، وما للمال فى يده ضبط
إذا لُثمت أيدى الملوك ، فعنده ... مدى الدّهر ، إجلالًا له ، تلثم البسط

(١) سالم بن مفرج من شعراء الدولة الأيوبية . انظر الخريدة : قسم شعراء مصر: ٢: ١٠٧ـ١٠٨.
(٢) القاضى ناصح الدين أحمد بن محمد بن الحسين، أبو بكر، القاضى الشاعر؛ عاش بين سنتى ٤٦٠ـ٥٤٤ انظر وفيات الأعيان ؛ وكذلك شذرات الذهب .
(٣) النطو : السكوت ؛ وأنطى : أعطى ؛ وتناطى : تسابق ، والـكلام تعاطاه وتجاذبه ، والمناطاة المنازعة والمطاولة . القاموس المحيط .
(٤) الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٢٥ ـ ٣١ . وهى طويلة .
(٥) فى الخريدة : محل نطاق .

عَنا لك طوعاً نيلُ مصر ، ودجلةُ الـــعِراق ، ودان العُرب، والعُجم ، والقبط
وللنيل شطٌّ ينتهى سَيْبه به وَنَيْلُك للرّاجين نيـلٌ ولا شطٌّ
عدوُّك مثـل الشّمع ، فى نار حقـده له عنـق إصلاح فاسده القطّ

وهى ثمانية وثمانون بيتا .

ولسعادةَ الأعمى [1] قصيدة طائيّة فى السّلطان سيأتى ذكرها .

قال العماد : ولمّا وصلتُ إلى السّلطان ، ورغبت منه فى الإحسان ، وجدته لأمرى مُغْفلا ، ولشُغلى مهملا ؛ ثم عرفت أنّ حسّادى قالوا له : متى أعدْتَ ديوان الـكتابة إلى العماد ، وهو لا شكّ بمحلّ الوثوق والاعتماد ، وهـذا منصب الأجلّ الفاضل ، وهو عنده فى أجل المنازل ، ربّما ضاق صدره ، وتشعّث سرّه . فلما عرفت هذا المعنى ، لجأت إلى الفضـل الفاضلىّ لأنه به يعنى ؛ فقـام بأمرى ، ونوّه بقـدرى ، وأراح سرّى ، وشدّ أزرى .

فصـــــل

فيما جرى للمَوَاصلة والحلبيّين مع السُّلطان فى هذه السّنة

قال ابن شدّاد [2] : ولما أحسّ سيف الدين صاحب الموصل بما جرى ، علم أن الرّجل قد استفحل أمره ، وعظم شأنه ، وعَلَت كلمته ، وخاف أنه إنْ غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرّ قدمه فى الملك وتعدّى الأمر إليه . فجهّز عسكرا وافراً وجيشاً عظيماً ، وقدّم عليهم أخاه عز الدين مسعوداً ، وساروا يريدون لقاء السلطان وضرب المصاف معه وردّه عن البلاد . فوصل إلى حلب والسلطان بحمص ، وانْضمّ إليه [3] من كان بجانب من العسكر

---

(١) سعادة بن عبد الله الأعمى من أهل حمص ، وكان يكتب على قصائده سعيد بن عبد الله . اتصل بصلاح الدين وسافر إليه فى مصر أول عهده بها . الخريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ٤٠٦ ــ ٤٣٢ .

(٢) فى النوادر السلطانية : ٣٩ــ٤٠ ؛ وهو اقتباس حرفى .

(٣) فى الأصل إليهم ؛ والمثبت هنا من ل ١٩٧ ب .

وخرجوا فى جمع عظيم . ولمّا عرف السّلطان بمسيرهم سار حتّى وافاهم بقرون حماة[1] ، وراسلهُم وراسلُوه ، واجتهد أنْ يُصالحهم فما صالحوه ، ورأوا أنّ المصاف ربما نالوا به الغرض الأكبر ، والمقصود الأوفر ، والقضاء يجرّ إلى أمورٍ وهم بها لا يشعرون . وقام المصاف بين العسكرين ، فقضى الله تعالى أن انكسرُوا بين يديه ، وأَسَر جماعة منهم ، ومنّ عليهم وأطلقهم ؛ وذلك عند قرون حماة فى تاسع عشر شهر رمضان .

ثمّ سار عقيب انـكسارهم ونزل على حلب ، وهى المدافعة الثّانية[2] وصالحوه على أنْ أخذ المعرّة ، وكفر طاب ، وبارين .

وقال العماد : لما تسلّم السلطان قلعة بعلبك عاد إلى حمص وقد وصل عز الدّين مسعود ، أخو صاحب الموصل ، إلى (١١٩٥) حلب نجدة . ولمّا عرفوا أنّ السلطان مشغول بالحصون جاءوا إلى حماة فحصروها وراسلوا فى الصلح ؛ فقدم السّلطان فى خِفّ من أصحابه ، وجاء كُمُشتكين وابن العجمى وغـيرهما ، وأجابهم السّلطـان إلى ماطلبوا ، وأن يردّ عليهم الحصون ، وأن يقنع بدمشق نائبا عن الملك الصّالح وله خاطباً ، وعلى الانتماء إليه مواظباً ، وأن يردّ كلّ ما أخذه من الخزانة ، وأن يسلك فيه سبيل الأمانة . فلمّا رأوْه مجيبا لـكلّ ما يُلتمس منـه وهو فى عسكر خفيف قالوا ما خبره صحيح ، فشرعوا فى الاشتطاط ، وطلبوا[3] الرّحبة وأعمالها ؛ فقال هى لابن عمى ناصر الدّين محمّد بن شيركوه ، وكيف أُلحق به فى رضاكم المـكروه . فنفَروا وجفلوا وأصبحوا على الرحيل إلى جانب العاصى[4] قريبا من شيْزر ، وجمعوا العسكر وأظهروا أنهم على المصاف وعزْم الانتصاف . فعبّر السّلطان إلى

---

(١) منطقة جبلية تشرف على مدينة حماة ، وهى مكونة من قلتين متقابلتين . انظر مادة حماة فى معجم البلدان : ٣ : ٣٣٥ ـ ٣٣٦ .

(٢) فى ل ١٩٧ ب : الدفعة الثانية ؛ وهى كذلك فى ق . وهذه هى المرة الثانية التى ينازل فيها حلب فى هذه السنة .

(٣) فى ل ١٩٨ أ : فطلبوا .

(٤) نهر يخرج من بحيرة قدس ويصب فى البحر المتوسط قرب أنطاكية ، ويسمى عندها الأرند . ويذكر ياقوت أنه قيل ان السبب فى تسميته العاصى أن أكثر الأنهار تتجه نحو الجنوب بينما يتجه العاصى نحو الشمال . معجم البلدان : ٦ : ٩٦ .

سفح قرون حماة خيامه ، وركز على مقابلتهم أعلامه ؛ ووصل العسكر المصرىّ فى عشرة من المقدّمين منهم فرخشاه ، وأخوه تقىّ الدّين . والتقوْا ، فهزمهم السّلطان ونزل فى منزلتهم .

قال العماد : وممّا نظمت فى هذه الوقعة فى مدح ناصر الدّين محمّد بن شيركوه قصيدة ، فقد كان له فيها عناء و بلاء حسن ، منها :

وَلَقَدْ أَلِفتُ نِفارَها وهَوَيْتُهَا ... إذ ليس يُنكَر للظّباء نفار
ياجارةً للقلب جائرة : دَعِي ... ظُلمى ، و إلاّ قلتُ : جار الجار
قلبى كطرفى مايفيق إفاقة ... سكران ، مادارت عليه عقار
صَبٌّ بصبٍّ الدمع ، محترق الحشا ... خطرت ببال بلائه[1] الأخطار
لم يخْش من خطر الهوى حتى حمى ... ذاك القوام شبيهه الخطّار
يذرى الدّموع كأنّهن عوارفٌ ... لِابْنِ الملك شيركوه غزار
من آل شادى الشائدين بنا العلا ... أركانُهنّ لهاذمٌ وشفار
حسنتْ بهم للدّولة الأيام والأ ... عمال ، والأحوال ، والآثار
قد حاز ملكَ الشام يوسفُ الّذى ... فى مصر تغبط عصره الأعصار
نصرَ الُهدى فتوطّد الإسلام فى ... أيامه ، وتضعضع الكفّار
لما لقيتَ جموعهم منظُومَةً ... صيّرت ذاك النظم وهو نثار
فى حالَتَىْ جُودٍ و بأسٍ لم يزل ... للتّبر والأعداء مِنْك تَبار
تَهَبُ الألوف ولا تَهاب ألوفهم ... هان العدوّ عليك « والإنْبار»[2]
لما جرى « العاصى» هنالك طائعا ... بدمائهم فخرت[3] به الأنهار

---

(١) فى ل ١٩٨ ا : بلابله ، وهو خطأ .

(٢) المقصود بهذا اللفظ الامبراطور .

(٣) فى ل ١٩٨ ا : فجرت .

وتحطمت عند « القرون »[1] قرونهم بل كُلّت الأنيـاب والأظفـار
عبروا « المعرة » مالكين معرّة والعـار يملك تـارة ويعـار
أوَ ماكفاهم يوم « حمص » وكفّهم فى « بعلبك » بمثلهـا الإنذار

قال : وهنأت الملك المظفّر تقىّ الدين عمر بن شا هنشاه بن أيوب بقصيدة ، منها[2] :

لا تُنفن من فَرَقِ الفراق الأدمعا فهى الشّهود على الغرام المدّعى
واستبقِ صبرك مااستطعت ، فإنه عون لقلبك إن هُما ثبتا معـا
(١٩٥ب) قلبٌ أصابته العيون ، ولم يزل من مسّها بالهاجسات مروّعا
مابالُه قد صدّ عند صدودهم عنّى ، ولمّا ودّعونى ودعا
ومن التحيّر[3] أننى أبصرته فى ظعْنهم ، وسألت عنه الأضلُعا[4]
أصبحت إذ شيّعتُهمْ لثلاثة صبرى ، وغمضى ، والفؤاد، مشيّعا

ومنها :

أوَما اتقيْتم حين رُعتُم سربه فيـه تقىّ الدين ، ذاك الأرْوعا
عمر بن شاهنشاه مَنْ هو عاصمٌ أركان ملك الشام حين تضعضعا
خضع العدوّ وذلّ بعد تعزز لكم ، وحق عدوكم أنْ يخضعا
منْ معشر غر يرَوْن جميع ما لم يبذلوه فى السَّماح مضيّعا
فى مصر واليمن اجتلينا منهم فى عصرنا تبعا ليوسف تُبّعـا
الحاويان بملك مصر ومكّة والشام واليمن الخطايا الأربعا
لما عصى الأعداء « بالعاصى » جرى بدمائهم طوعا سيولا دُفّعا

وقال ابن أبى طى : لمـا تسلّم السلطان بعلبك وأزاح عللها ، عاد إلى حمص ونزل بها ،

---

(١) المقصود بها قرون حماة وقد دارت عندها معركة ضد المواصلة كان النصر الحاسم فيها لصلاح الدين .
(٢) وردت هذه القصيدة أيضا فى مفرج الكروب : ٢ : ٣٣ .
(٣) فى مفرج الكروب . التحير .
(٤) فى المفرج . الأربعا .

فاتّصل به ورود عزّ الدين مسعود ، أخى سيف الدين صاحب الموصل ، نجــدةً للملك الصالح . وكان سبب وروده أن جماعة من أمراء حلب لـمــا كان السلطان نازلا على حلب أجمعوا آراءهم وكاتبوا سيف الدين وألزموه نجدة ابن عمه ، وأخْبَروه أنّ السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصدٌ إلاّ الموصل ؛ وأرسلوا بذلك أمين الدين هاشماً خطيب حلب ، وقطب الدين ينال بن حسان وغرس الدين قليج .

وكان سيف الدين منازلا لسنجار[1] وفيهــا أخوه عماد الدين بن زنــكى : وكان عمــاد الدين قد أظهر الانتماء إلى السلطان ، فأنجده السلطان بقطعة من جيشه فـكسرهم ، ونهبهم عماد الدين بهم و بعسكره .

فلما وصلت رسالة الحلبيين إلى سيف الدين صالح أخاه عماد الدين وحشد عسكره وأنفذ يجيبهم مع أخيــه عز الدين مسعود ، فورد حلب بعد رحيل السلطان عنها إلى بعلبك ؛ فاغتنم الحلبيون بُعد السلطان عنهم فاحتشدوا وخرجوا جميعاً حتى خيموا على حماة وأخذوا فى حصارها . واتصل بالسلطان ذلك فرحل من بعلبك إلى حمص ، و بلغ عز الدين فعاد عن حماة ونزل قريبا من جباب التركمان[2] إلى جهة العاصى إلى قريب من شيْزَر .

وأرسل النائب بحماة ، على بن أبى الفوارس ، يقول له إنما وصلت فى إصلاح الحــال ووضع أوزار القتال ؛ وسأله مكاتبة السلطان فيما يجمع الــكلمة ويلم شعب الفرقة . فـكتب ابن أبى الفوارس بذلك إلى السلطان وحَسَّن له الصُّلح ، وتلطّف فى ذلك غاية التلطّف .

وقدم أبو صالح بن العجمى وسعد الدين كمشتكين لطلب الصلح ، فأجابهما السلطان إلى ما أرادا[3] ، وتقرر الأمر على أنه يرد إليهم جميع الحصون والبلاد ، ويقنع بدمشق وحــدها ، ويكون نائبا للملك الصالح . فلما عاين سعد الدين إجابة السلطان إلى الصلح والنّزول عن جميع الحصون التى أخذها : حمص وحماة و بعلبك ، طمع فى جانب السلطان وتجاوز الحد فى (١٩٦ ا) الاقتراح ، وطلب الرحبــة وأعمالها . فقال : هى لابن عمى

(١) من بلاد الجزيرة فى لحف جبل عال قريبة من الموصل . معجم البلدان : ٥ : ١٤٤-١٤٦ .

(٢) مكان قريب من تل السلطان . انظر : Saladin, p.143 . وتل السلطان موضع بينه وبين حلب مرحلة واحدة وفيه منزل للقوافل يعرف بالفنيدق . معجم البلدان : ٢:٥٠٤ .

(٣) فى ل ١٩٨ ب : ما أرادوا .

ولا سبيل إلى أخذها . فقام سعد الدين من بين يديه نافرا ، وكان ذلك برأى أبى صالح ابن العجمى لأنه كان معه ، فاجتهد السلطان به أن يرجع فلم يفعل ، وخرج إلى عز الدين مسعود ، وكان بعدُ نازلا على حماة ، وحدثه مادار بينه و بين السلطان وهون عليه أبو صالح أمر السلطان وأخبره بقلّة من معه .

وكان السلطان لما كوتب فى أمر الصلح سار فى خِفّ من أصحابه ، فلما علموا بذلك طمعوا فى جانبه وعوّلوا على لقائه وانتهاز الفرصة فى أمره ؛ فكاتب باقى أصحابه واستمدّ لحربهم ، وسار إلى أن نزل على قرون حماة ، وأخذ فى مدافعة الأيّام حتى يقدم عليه باقى عسكره . وراسلهم فى التلطف للأحوال ، فلم ينجح فيهم حال . وكانوا فى كلّ يوم يعزمون على لقائه وقتاله ، فيبطل عزيمتهم براسلة يفتعلها ، تسويفا للأوقات وتقطيعا للزمان ، حتى يقدم عليه عسكره . وكانت هيبته قد ملأت صدور القوم ، ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفُرصة ونالوا منه الغرض .

قال : وفى يوم الأحد تاسع عشر رمضان التقوا ، ولم يكن بعد وَصل السلطانَ[(١)] من عسكره أحد ؛ فتجمع أصحاب السلطان كردوسا واحدا ،[(٢)] وأخذوا يحملون يمنة و يسرة و يدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر . وضرى عسكر حلب والعسكر الموصلىّ على أصحاب السلطان حين شاهدوا قلتهم واجتماعهم ، وكاد أصحاب السلطان يولون الإدبار ، فوصل تقى الدين عمر عند الحاجة إليه لتمام سعادة السلطان[(٣)] ، فإنه لو تأخّر ساعة انكسر عسكره ؛ فوصل تقىّ الدين فى عسكر مصر وجماعة من الأمراء وهم غير عالمين بأن الحرب قائمة[(٤)] . فلما رأوا النــاس فى الكرّ ، والضرب الهبر ، حملوا جميعا بعد أن افترقوا فى الميمنة والميسرة ، فصدموا عسكر الموصل صدمة ضعضعتهم .

---

(١) فى ل ١٩٩ : وصل للسلطان .

(٢) كردوس وكردوسة والجمع كراديس : الفرقة الحربية الراكبة ، والجماعة العظيمة من الخيل . انظر : Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٣) فى ل ١٩٩ ا : لتمام السعادة للسلطان .

(٤) فى ل ١٩٩ ، وكذلك فى ق : بالحرب وقيامها .

وكان السلطان فى هذه المدة قد كاتب جماعة من عسكرهم واستفسدهم إليه ، وحمل إليهم الأموال . وهذا هو الذى أبطأ بهم إلى أن وصلت عساكره ، وإلاّ لو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السلطان على الثبوت ساعة . فلما اشتد القتال لم ينصح الجماعة التى كاتبها السلطان بل كانوا مثبطين مخوّفين لمن قرُب منهم . ثم إنهم بعد ذلك انهزموا وتبعهم عسكر السلطان واستباحوا أموالهم وخيامهم ، وأمر السلطان أصحابه ألا يُوغلوا فى طلبهم ولا يقتلوا من رأوه منهزما ولا يذففوا [1] على جريح . ورحل حتى نزل فى منزلتهم .

ثم سار من وقته مجدًّا حتى نزل ببرج قرا حصار [2] ، ولم يزل هناك حتى عيّد عيد الفطر ، فجاءته رسل الملك الصالح يسألونه المهادنة وأن يقرّر [3] الملكُ الصالح على ما فى يده وما هو جارٍ تحت حكمه من الشام الأسفل إلى بلد حماة ، فلم يرض بذلك ، فجعلوا له مع حماة المعرة وكفر طاب ، فرضى بذلك وحلف على نسخة رأيتها (١٩٦ ب) وعليها خطّه .

قال : وكان فى جملة اليمين أنه متى قصد الملك الصالح عدوٌّ حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه ، وألاّ يغيّر الدّعاء له من جميع منابر البلاد التى تحت يد السلطان وولايته وولاية أصحابه ، وأن تكون السكة باسمه .

ولما حلف السلطان والملك الصالح وأمراؤه عاد السلطان قاصدا دمشق . فلما وصل إلى حماة وصلت إليه رسل الخليفة المستضىء ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السود ، وتوقيعٌ من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام .

وفى هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبى :

يأيها الملك العزيز فضله لقد غدوت بالعُـــلا مليا
كفى أمـــير المؤمنين شرفا أنك أصبحت له وليّا

(١) ذف على الجريح ذفا وذفافا وذففا : أجهز عليه، كذففه وذفذفه .
(٢) من نواحى شمال حلب : معجم البلدان : ٧ : ٤٠ .
(٣) فى ل ١٩٩ ا : وأن يقر .

طارحك الودّ على شحط النّوى ... فكنت ذاك الصّادق الوفيّا
أولاكَ من لباسه زخرفة ... لم يولهـا قبلك آدميّا
ناسبت الرّوض سناً وبهجة ... حتى حكته رونقاً وزيّاً [1]

قال : ورحل السلطان من حماة إلى بعرين ، وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزّعفرانى ، وكان خرج إلى السلطان لما وصل إلى الشام وتطارح عليه وخدمه ، وظنّ أنّ السلطان يقدمه على عساكره ، فلم يلتفت إليه ، فترك السلطان وعاد إلى حصن بعرين ، فأغضب السلطان ذلك وسار إليه وحاصره حتى تسلم [2] حصنه .

وقال العماد : نزل السلطان قرا حصار ، بنيّة الحصار ، فجاءت رسلهم بالانقياد ، وأجابوا إلى المراد ، وقالوا اقنعوا بما أخذتموه إلى حماة ، ولا تُشْمِتُوا بنا العداة . فاستزدناه عليهم كفر طاب والمعرّة ، واستوفينا عليهم الأيمان المستقرّة ؛ وسألهم فى المعتقلين ، إخوة مجد الدّين ، فأجابوا وأفرجوا عنهم ، وتمّ الصلح ، وعمّ النجح .

ورحلنا ظاهرين ظافرين ، ونزلنا حماة يوم الاثنين ثانى عشر شوال ، وبها وصلت إليه رسل الديوان العزيز بالتشريفات ، والتقليد بما أراد من الولايات ؛ وأفاضوا على السلطان وأقاربه الخلع ، وخص ناصر الدين محمد بن شيركوه بمزيد تفضيل على أقارب السلطان ، وكأنه رعاية لحق والده أسد الدين ، رحمه الله تعالى .

ثم تسلم السلطان حصن بعرين ، وكان بيد الأمير فخر الدين مسعود بن الزعفرانى ، وهو من أكابر أمراء نور الدين ، وذلك فى أواخر شوّال . وأقطع مدينة حماة لابن خاله وصهره الأمير شهاب الدين محمود ، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين .

قال العماد : وأذكر أنّا عبرنا نهر العاصى عائدين وقد انكشفت الشمس وادلهمّ النهار ، وغلب على القلوب الاستشعار ، وطاحت الأنوار ، وخفيت الرّسوم ، وظهرت النجوم ؛ وجئنا حمص ، ثم بعلبك ، ثم البقاع [3] ، ووصلنا دمشق فى ذى القعدة .

---

(١) فى ل ١٩٩ ب : وريا .
(٢) فى الأصل : تسلم ؛ والمثبت هنا من ل ١٩٩ ب .
(٣) أرض واسعة بين حمص وبعلبك ودمشق . معجم البلدان : ٢ : ٢٥٠ .

فصـــــل

قال العماد : قد سبق ذكر (١٩٧ ا) ماقرّره حُسّادى فى خاطر السلطان ، وقالوا : شُغله المكاتبة وهى منصب الأجل الفاضل ، وهو يستنيب فيه من رآه من الأفاضل ، وهذا تَصَرفُه بِوفدٍ جزيل ، ووجهٍ جميل . والسلطان مع شدّة رغبته متوقّف ، وإلى ظهور وجه النّجاح فى أمرى متشوّف .

وكنت قد أنست مدّة مقامى بالعسكر بذى المجد والفخر ، ومورد الكرم والمصدر ، الأمير نجم الدين بن مصال ؛ وهو ذو فضل وإفضال ، وقَبول وإقبال ، وله من السلطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال ؛ وقد مال إلى فضله ، ونباهته ونبله . وكان أبوه قد وزر للحافظ فى آخر عهده ، متفرّدا بسؤدده ومجده ؛ وكان من أهل السنة والجماعة ، والتّقى والورع والعفاف والطاعة ؛ وله يدٌ عند السلطان فى النُّوب التى قصدوا فيها مصر [1] ، وأجزل عنده الإحسان والبرّ ، لا سيما عند كونه بالإسكندرية محصورا ؛ وكان إحسانه مشكورا ، واعتناؤه لحفظه مشهورا . فلما ملك أحبّه ، واختار قربه ، فلزمت له التودد ، (وإليه التردد) [2] ، وجعلته الوسيط بينى وبين الأجلّ الفاضل ، واتخذته من الحجج والوسائل ، ووقفت خاطرى على تقاضيه نظما ونثرا ، ورسالة وشعرا . فمن ذلك ما كتبته إليه :

لعلّ نجم الدين ذا الفضل ... يُذكّر الفاضل فى شُغلى

إنّ أجلّ الناس قدراً فتًى ... بفضله يتْعب من أجلى

ومثلُه من يعتنى بالعلا ... ويستديم الحمد من مثلى

قال : وأول ما أهديته للفاضل مدحة حين لقيته بحمص فى شعبان منها :

عاينْت طود سكينة ، ورأيت شمْـ ... ـس فضيلة ، ووردت بحر فواضل

---

(١) وهى الحملات الثلاث التى قدم فيها صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه فى جيوش نور الدين فى سنوات : ٥٥٩، ٥٦٢، ٥٦٤ .

(٢) ساقطة من ل ٢٠٠ ا ، وكذلك من ق .

ورأيت سحبان البلاغة ساحبا ببيـــــانه ذيل الفخار لوائل

أبصرت قُسًّا فى الفصاحة معجزا فعرفت أنى فى فهاهة باقـــل

حِلفَ الحصافة ، والفصاحة، والسّما حة ، والحماسة ، والتّقى ، والنائل

بحرٌ من الفضل العزيز ، خِضَمّهُ طامى العُباب ، وماله من ساحل

وجميعُ مافى الأرض سبعة أبحر وبحوره تُنمى بعشر أنامل

فى كفّه قلمٌ يعجّـــل جريه ما كان من أجل ورزق آجل

يجرى وَلَاجرْىَ الحسام إذا جرى حدّاه ، بل جرْىَ القضاء النازل

نابت كتابته منـاب كتيبة كفلت بهزم كتائب وجحافل

فَعدُوّه فى عـــــدوه ، ووليّه فى عدله ؛ أكرِمْ بِعادٍ عادل

ريّان من ماء التّقى ، صادٍ إلى كسب المحامد ، وهى خير مناهل

ياواحد العصر الذى بزّ الورى فضلا بغـــير مشابه ومشاكل

مالى وجاه الجاهلين ، فأغْنِنى عنهم ، كفيتهم ، وَجُدْ بالجاه لى

أرجوك معْتنيا لدى السلطان بى كرماً ، فمثلُك يعْتنى بأماثلى

قرّر لى الشّغل المبجّل ، مُخْليا بالى من الهمّ المقيم الشاغـــــل

(١٩٧ ب) قال : فدخل الفاضل إلى السلطان وعرّفه أنه فىّ راغب ، وقال أنا لا يمكننى الملازمة الدائمة فى كل سفْرة ، وغداً يكاتبك ملوك الأعاجم ، ولا تستغنى فى الملك عن عقد الملطفات وحلّ التّراجم ؛ والعماد يفى بذلك ولك أختاره ، وقد عُرف فى الدولة النّورية مقداره : وأخذ لى خط السلطان بما قرره لى من شغلى وقد عرف أن الأجلّ الفاضل قد أجلّ فضلى .

قال : وخــدمت أمــير المؤمنين المستضىء بالله فى ذى القعــدة مع الرّســل بهذه القصيدة :

أصحّ عقود الغانيات مريضُها وأفتكُ ألحاظِ الحِسان غضيضها

ومِنْ عجبٍ صلّت لِقبلة بأسهم رءوس أعادٍ من ظُباهم محيضها

قال ابن أبى طىّ : وظهر فى مشغرا [1] ، قرية من قرى دمشق ، رجل ادّعى النّبوّة وكان من أهل المغرب ، وأظهر من التّخاييل والتمويهات ما فُتن به النـاس ، واتّبعه عالم عظيم من الفلّاحين وأهل السواد ، وعصى على أهل دمشق ، ثم هرب من مشغرا فى اللّيل وصار إلى بلد حلب ، وعاد إلى إفساد عقول الفلّاحين بما يريهم من الشعبذة والتخاييل ؛ وهوى امرأةً وعلّمها ذلك ، وادّعت أيضا النبوّة .

قال : وفيهـا توفى شهاب الدين إلياس الأرتقى صاحب البيرة [2] ، وأوصى إلى الملك الناصر [صلاح الدين] [3] بولده شهاب الدين محمد .

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين [وخمسمائة] :

قال العماد : والسلطان نازل بمرج الصفر من دمشق ، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة، فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم أموراً ، فالتزموها .

وكان الشام ذلك العام جدباً ، فأذِن السلطان للعساكر المصرية فى الرحيـل إلى بلادهم وإذا استغلّوها خرجوا إليـه ، وسار معهم القاضـل ، واعتمد على العماد فيما كان بصدده .

وواظب السلطان على الجلوس فى دار العـدل ، وعلى الصيـد ، ومـدحه العماد بقصيدة ، منها :

سواك لسهم العـلا لن يريشا   فنسأل [4] رب العـلا أن تعيشا
مِن الناس بالبرّ صِدْت الـكرام   وبالبأس فى البرِّ صدت الوحوشا
وكمْ سرت من مصر نحو العريش   فهدّمت للمشركين العُروشا

(1) وقد رسمها ياقوت : مشغرى ، قرية من دمشق من ناحية البقاع على سفح جبل لبنان . معجم البلدان : ٨ : ٦٤ .
(2) قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية . وهناك بيرة أخرى غيرها تقع بين القدس ونابلس . نفس المصدر : ٢ : ٣٣٠ .
(3) مابين الحاصرتين من ل ٢٠٠ ب .
(4) فى الأصل : ونسأل ؛ والمثبت هنا من ل ٢٠٠ ب .

سراياك تبعث قُدّامهـــا   من الرعب نحو الأعادى جيوشا
[ويوم حماة تركت العـــداة   كما طيّرت بالفلا الرّيحُ ريشا[1]]

قال : ومدحت ، مستهل ربيع الأوّل ، تقىّ الدّين بقصيدة موسومة ، وكان قد فوض إليه ولاية دمشق ، ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيهما ولم أُسبَق إليهما ، وهما :

يفيـــدُ العاقل اليقظ التّغابى   ليدرك فى الغنى حظّ الغبىّ
ولم تصب السّهام على اعتـدال   بها لولا اعوجاجٌ فى القسىّ
(١٩٨ ا) فقل للدهر يقصر عن عنادى   أما هو يتّقى بأس التّقىّ
حلفت بربّ مكّة والمصـــلّى   وثاوى تُرب طيبـــة والغرىّ
لَأَنتم يابنى أيوبَ خـــير الـ   ورى بعـــد الإمام المستضىّ

قال : وفى أول هـذه السنة وصل إلى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد موافقة قطب الدين قايماز[2] ، فأخذوا لأنفسهم بالالتجاء إلى السلطان والاحتراز .

وكان قايماز هـذا مُحـكّما فى الدولة الإماميـة من أول الأيام المستنجدية ، وقوى فى الأيام المستضيئيـة على وزير الخليفـة عضـد الدين بن رئيس الرؤساء ، وسامه أنواع البلاء ، وأخافه ، ورام إتلافه ، حتى استعاذ منـه برباط[3] صـدر الدين شيخ الشيوخ فسلم به .

ثم إنّ قايماز حالف الخليفة وشقّ العصا ، وعنّ له حصار الدّار ، فأمر الخليفة بالقبض عليه ، فلم ينج لمّـا أحيط بداره ، إلّا بفتح باب فى جداره . وانهزم فوصل إلى الحـلة[4] فى أوائل ذى القعدة سنة سبعين ، وهو فى موسم الحجّ ؛ فجمع رجاله وتوجّه إلى الموصل ، وخانه إخوانه،وخذله أصحابه ، فتوفّى فى بعض قرى الموصل ، وتفرق أصحابه فى البلاد ، فمنهم

---

(١) هذا البيت ساقط من الأصل ، وهو موجود فى ل ٢٠٠ ب ، وكذلك فى ق .
(٢) أى لاتفاقهم معه .
(٣) فى الأصل : رباط صدر الدين ...؛ والمثبت هنا من ل ٢٠١ ا .
(٤) معجم البلدان : ٣ : ٣٢٧-٣٢٨ .

من رجع إلى بغداد ، ومنهم من أتى إلى الشام؛ منهم حسام الدّين تميرك وعز الدّين أقبورى ابن ازغش ، وكان صهر السلطان قديما ، وعنده كريما ، فأقطعه فى الدّيار المصريّة ، وكتب فى حقّه إلى الدّيوان شفاعة فى تخليص ماله ، واستقامة حاله ؛ وكان ذا خزائن مملوّة ، وخيلٍ مسوّمة ؛ فلم يكن ذنبه عندهم فى متابعة قايماز مما يقبل الصّفح . وكان أقبورى زوج أخت السلطان ، والسلطان خال بنته ، وهى زوجة عز الدّين فرخشاه ابن أخى السلطان .

قلت : وفى بعض الكتب عن السلطان إلى وزير بغداد بالمثال الفاضلىّ : « ومانحسب أنّا مع الموالاة المشتهرة ، والنصرة المتناصرة المستظهرة ، والمساعى التى كانت لثارات هذه الدّولة بالغة ، ولأعدائهم دامغة ، ولمنازعيهم الأمر قاصمة ، ولمجاذبيهم الحقّ واقمة ، و بحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمة ، وكوننا ما أعنّا منها بنجدة من رجال ، ولا بمادة من مال ، ولا بإعانة بحال من الأحوال ــ يردّ سؤالنا من الدّولة ، أعلاها الله ، فى ذى قربى لا نستطيع دفعه ، ولا يقبل أسباب النفع إذا أردنا نفعه ، فالأخباز عندنا واسعة ، والأعواض لدينا غير متعذرة ، والولايات التى نفوضها إليه عن كفايته غير مستغنية ؛ ولكنّه ما باع بمكانه من الخدمة مكانا ، ولا آثر غير سلطانه سلطانا ؛ وله أعذار لا بأس أن نعيرهُ فيها لسانا و بيانا » .

ثم ذكرها ، ثم قال : (١٩٨ ب) « وهذا الأمير جزء منّا فكيف يُمدّ جزء منا عاصيا ، و بألسنتنا وسيوفنا يُدْعى الخلق إلى الطّاعة ، وكيف تخلو دار الخلافة من واحد من أهلنا ينوب عنا وعن بقية الجماعة . فنحن فى أنفسنا نشفع ، وعن جاهنا ندفع ، وفى مكاننا نسأل ، و بخطّنا الّذى لا نسمح به للإسلام نبخل . وأنت أيها الأمير السّائر ثالث رسول [سواك][1] ندب فى أمر هذا الأمير ، والله ولىّ التّدبير » .

وقال العماد فى الخريدة[2] : كنت جالسا بين يدى الملك النّاصر صلاح الدّين بدمشق فى دار العدل ، أنفّذُ ما يأمر به من الشّغل ، فحضر سعادة الأعمى من أهل حمص ، وكان مملوكا لبعض الدمشقيّين مولدا ، ويكتب على قصائده سعيد بن عبد الله ، فوقف ينشدهذه القصيدة فى عاشر شعبان سنة إحدى وسبعين[3] :

---

(١) مابين الحاصرتين من ل ٢٠١ أ .

(٢) خريدة القصر : قسم شعراء الشام : ١ : ٤٠٦ ؛ بتصرف .

(٣) الخريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ٤٠٦ ؛ وهى طويلة .

حيّتك أعطاف القدود ببانها لما انثنت تيهاً على كثبانهـــا

ثم ذكر القصيدة وغزلها فى وصف دمشق ، ثم قال[1] :

سلطانها الملك ابن أيّوب ، الّذى كفّاه لاتنكف[2] عن هطلانها
بمواهبٍ ، لوْ لمْ أكن نُوحاً لما نُجّيت يوم نداه من طوفانهـــا
سمحٌ يروح إلى النـدىّ براحة قد أعشب المعروف بين بنَانها
وفتّى ، إذا زخرت بحارُ نواله غرقت بحـار الأرض فى خلجانها
تلك السيوف المرهفات بكفـه أمضى على الأيام من حدثانهـا
ملك إذا جليت عرائس ملكه رصعت[3] فريد العدل فى تيجانها
فاسلم صلاح الدّين ، وابْقَ لدولة ذلّت لدولتها ملوك زمانها[4]
وانهض إلى فتح السّواحل نهضة قادت لك الأعداء بعـد حِرانها

وهى طويلة .

قال[5] : وقام اليوم الّذى يليه ، وقد جلس السّلطان للعدل ، فأنشده قصيدة ، منها :

هل بعد جِلّق إلا أن ترى حَلَبا وقد تحلّل منها مشـكل عقـد
وقد أتتك كما تختار طائعـــةً وقد عَنا لك منها الحصن والبـلد

قال : وكان سعادة سافر إلى مصر فى أول مملـكة الملك النّـاصر فمدحه بقصيـدة طائية[6] ، فأعطاه ألف دينار . فمنها يصف غارته على غزّة ، وعوده من ذلك الغزو بالعزّة :

فتًى مُذْغزا بالخيل والرّجل غزة نأى عن نواحيها الرّضا ودنا السخط
رماها بأسدٍ مالهن مَرابضٌ ولا أُجُمٌ إلّا الذى تُنْبت الخط

---

(١) نفس المصدر : ٤٠٨ــ٤١١ .
(٢) فى الخريدة : لاتنفك .
(٣) فى الأصل : وضعت ؛ والمثبت هنا من ل ، وهو يطابق ما جاء فى الخريدة .
(٤) ورد هذا البيت فى الخريدة بعد البيت التالى له هنا .
(٥) فى الخريدة : ٤١٢ . وقد ورد البيتان المقتبسان هنـا فى ص : ٤١٥ فى الخريدة ضمن القصيدة الطويلة التى تستغرق الصفحات : ٤١٢ ــ ٤١٦ .
(٦) وردت فى الخريدة فى الصفحات : ٤١٦ــ٤١٩ .

وعاث ضواحيها ضحى بكتائب   من الترك لانوبٌ[1] طغام ولا قبط

وله فى السلطان قصائد أخر . قال : وقام البهاء السنجارى وأنشد الملك النّاصر قصيدة فى دار العدل بدمشق سنة إحدى وسبعين فى شعبان ، منها :

ياظبية الهَرَمَيْن من مصرٍ ، على الرّ (م) بْع السّلام و إنْ تقوض أوْ عفا
أصْبُو إلى عصر تقادَم عهده   فأزيدُ مِنْ وَلَهٍ عليه تلهُّفا
(١١٩٩) أحبابَنا بالقصر ، لو قصّرتمُ   فى الهجر[2] ماشَمِت الحسُود[3] ولا اشْتفى

ومنها :

أشكو إلى الوادى ، فيحنُو بانُه   مِن رقّةِ الشكوى علىّ تعطفا
وجرى بى الأملُ الطّموح ، فأم بى   سلطانَ أرض الله طرًّا ، يُوسفا
النّاهب الأرواح فى طلب العلا   والواهب الآجال فى حسن الوفا

فصل

فيما تجدد للمواصِلة والحلبيّين

قد سبق ذكر الصلح الذى جرى بين السلطان والحلبيين . فلمّا سمع به المواصلة عتبوا عليهم ووبخوهم ، ونسبوهم إلى العجلة فى ذلك وسلوك غير طريق[4] الحزم ؛ فحملوهم على النقْض والنّكث ، وأنفذوا من أخذ عليهم المواثيق ، وتوجه ذلك الرسول منهم إلى دمشق ليأخذ للمواصلة من السّلطان عهده ، ويكشف أيضا ماعنده . فلما خلا به طالبه السّلطان بنسخة الرأى ، فغالط وأخرج من كمّه نسخة يمين الحلبيّين لهم ، وناولها إياه ، فتأمّلها وأخفى سرّه وما أبداه ، واطلع على ما اتفقوا عليه ، وردها إليه ، وقال : لعلّها قد

(١) فى الخريدة : لا روم .
(٢) فى ل: لو قصرتم الهجران .
(٣) فى الأصل : وردت كلمة « الحسود » فى البيت ، وفوقها بخط أصغر كلمة « العدو » : وفى ل وردت كلمة « العدو » فى الهامش .
(٤) فى الأصل : الطريق .

تبدلت ؛ فعرف الرّسول أنه قد غلط ، ولم يمكنه تلافى مافرط . وقال السلطـان كيف حلف الحلبيون للمواصلة ، ومن شرط أيمانهم ، أنهم لا يعتمدون أمراً إلاّ بمراجعتهم لنـا واستئذانهم . وعرف من ذلك اليوم أن العهد منقوض ، والوفاء مرفوض .

وشاع الخبر عن المواصِلة بالخروج فى الرّبيع ، فـكتب السلطان إلى أخيه العـادل ، وهو نائبه بمصر ، يُعلمه بذلك ، ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد للخروج فى شعبان .

قلت : وفى كتاب طويل فاضلى جليلٍ إلى بغداد عن السّلطان : « يطالع بأن الحلبيين والموصليّين لمـا وضعوا السلاح ، وخفضوا الجناح ، انتصرنا ، بعد أن كانت البلاد فى أيدينا ، على استخدام عسكر الحلبيين فى البيكارات[1] إلى الـكفر ، وعرضنا عليهم الأمانة فحملوها ، والأيمان فبذلوها ؛ وسار رسولنا وحلف صاحب الموصل بمحضر من فقهاء بلده ، وأمراء مشهده ، يميناً جعل الله فيها حكما ، وضيق فى نـكثها المجال على من كان حنيفا مسلما ، وعاد رسوله ليسمع منا اليمين ، فلما حضر وأحضر نسختها ، أومى بيده ليخرجها ، فأخرج نسخة يمين كانت بين الموصليّين والحلبيين مضمونها الاتفاق على حِزبنا ، والتداعى إلى حربنا ، والتساعدُ على إزالة خطبنا ، والاستنفار لِمن هو على بعدنا وقربنا ؛ وقد حلف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يمينا نقضت الأولى . فرددنا اليمين إلى يمين الرسول وقلنا هذه يمين عن الأيمان خارجة ، وأردت عمرا وأراد الله خارجة » .

« وانصرف الرّسول عن بابنا وقد نزّهنا الله أنْ يكون اسمُهُ معرّضا (١٩٩ب) للحنث العظيم ، والنّـكث الذّميم ، وعلمنا أنّ الناقد بصير ، والآخذ قدير . والمواقف الشّريفـة النبوية ، أعلاها الله ، مستخرجة الأوامر إلى الموصلىّ إمّا بكتاب مؤكّد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه ، وإمّا أن تـكون الفسحة واقعة لنا فى تضييق خناقه » .

ثم ذكر أمر الفرنج ، ثمّ قال : « والمملوك بين عدوّ إسلام يشاركونه فى هذا الاسم لفظا ، ولا ينوُون لما استحفظوا حفظا ، وعدوّ كفر فما يجاورهم إلّا بلادُه ، ولا يقـارعهم إلّا أجناده » .

---

(١) جمع البيكار ، وهى كلمة فارسية بمعنى الحرب . Dozy : Supp. Dict. ar. .

ثم طلب « خروج الأمر بخطاب جميع ملوك الأطراف أن يكونوا للمملوك على المشركين أعوانا ، وأن يمتثل أمر نبينا صلى الله عليه وسلم ، فى أن يكونوا بنيانا ، فيعضدوه إذا سعى ، ويلبوه إذا دعا ، ولا يقعدوا عن المعاضدة فى فتح البيت المقدس الذى طابت النفوس عن ثاره ، وطأطأت الرءوس تحت عاره ، وصارت القلوب صخرة لا ترق على صخرته ، والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رجس الشرك ومعرته . فإن قعدت بهم العزائم ، وأخذتهم فى الله لومة لائم ، فلا أقل من ألا يكونوا أعوانا عليه يلفتونه عن قصده ، حريصين على اتصال المكروه إليه ».

قال ابن شداد (١) : لما وقعت الوقعة الأولى مع الحلبيين والمواصلة ، كان سيف الدين ، صاحب الموصل ، على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين بقصد أخذها منه ودخوله فى طاعته ؛ وكان أخوه قد أظهر الانتماء إلى السلطان صلاح الدين واعتصم بذلك . واشتد سيف الدين فى حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى استهدم من سوره ثلم كثيرة ؛ وأشرف على الأخذ . فبلغه وقوع هذه الواقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد (٢) أمره ويقوى جأشه ، فراسله فى الصلح ، فصالحه .

ثم سار من وقته إلى نصيبين واهتم بجمع العساكر والإنفاق فيها ؛ وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة ، وخيم على جانب الفرات الشامى ، وراسل كمشتكين والملك الصالح حتى تستقر قاعدة يصل عليها [إليهم] (٣) . فوصل كمشتكين إليه وجرت مراجعات كثيرة عزم فيها على العود مرارا ، حتى استقر اجتماعه بالملك الصالح وسمحوا به ، وسار ووصل حلب وخرج الصالح إلى لقائه بنفسه ، فالتقاه قريب القلعة ، واعتنقه ، وضمه إليه وبكى ؛ ثم أمره بالعود إلى القلعة فعاد إليها ، وسار هو حتى نزل (٤) بعين المباركة وأقام بها مدة وعسكر حلب يخرج إلى خدمته فى كل يوم .

---

(١) فى النوادر السلطانية : ٤٠-٤١ ؛ وهو اقتباس حرفى بقليل من الحذف .
(٢) فى ل ٢٠٢ ب وكذلك فى ق : فيشد .
(٣) مابين الحاصرتين من ل ٢٠٢ ب .
(٤) فى ل ٢٠٢ ب ، وكذلك فى ق : حتى وصل .

وصعد القلعة جريدةً وأكل فيها خبزاً ونزل ، وسار راحلا إلى تلّ السّلطان (١) ومعه جمع كبير وأهل ديار بكر ، والسلطان رحمه الله تعالى قدْ أنْفذ فى طلب العساكر من مصر وهو يرقب وصولها ، وهؤلاء يتأخّرون فى أمورهم وتدابيرهم ، وهم لا يشعرون أنّ فى التأخير (٢٠٠ ا) تدميراً (٢) ، حتى وصل عسكر مصر ، فسار رحمه الله حتى أتى قرون حماة ، فبلغهم أنه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليزك (٣) ، ووجّهوا من كشف الأخبار ، فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان ، وتفرّق عسكره يسقى ، فلو أراد الله نُصْرتهم لقصدوه فى تلك الساعة ، لكنْ صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره ، واجتمعوا ، وتعبّوا تعبئة القتال .

وأصبح القوم على مصاف ، وذلك بكرة الخميس العاشر من شوّال ، فالتقى العسكران وتَصادما، وجرى قتال عظيم ، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين بن مظفر الدين، فإنه كان فى ميمنة سيف الدين . وحمل السلطان بنفسه ، فانكسر القوم ، وأسر منهم جمعاً عظيما من كبار الأمراء ، منهم [الأمير] (٤) فخر الدين عبد المسيح ، فمنّ عليهم وأطلقهم .

وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزانته ، وسار حتى عبر الفرات وعاد إلى بلاده . وأمسك هو رحمه الله عن تتبع العسكر ، ونزل فى بقيّة ذلك اليوم فى خيم القوم ، فإنهم كانوا قد أبقَوْا الثّقل على ما كان عليه ، والمطابخ قد عملت ، ففرّق الاصطبلات ، ووهب الخزائن ، وأعطى خيمة سيف الدين عزّ الدين فرّخشاه .

وقال العماد : رحلنا فى شهر رمضان من دمشق مستأنفين ، فعبّرنا العاصى لله طائعين ، وإلى المسارّ مسارعين ، فما عرّجنا على بلد ، ولا انتظرنا ماوراءنا من مدد ؛ ونزلنا القَسْولة (٥) وجُزْنا حماة ، وخيّمنا فى مرج بوقبيس . وجاء الخبر أنهم فى عشرين ألف

---

(١) على مرحلة من حلب فى طريق الخارج إلى دمشق : معجم البلدان : ٢ : ٤٠٥ .

(٢) فى ل ٢٠٢ ب ، وكذلك فى ق : أن التأخير تدميراً .

(٣) اليزك : طلائع الجيش ؛ وهى كلمة فارسية الأصل : Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٤) ما بين الحاصرتين من ل ٢٠٣ أ .

(٥) منزل للقوافل فيه خان على يوم من حمص ، بين حمص وتارا . معجم البلدان : ٦ : ٢٩٣ .

فارس سوى سوادهم، وما وراءهم من أمدادهم، وأنهم موعودون [1] من الفرنج بالنجدة، وأنهم يزيدون فى كل يوم قوة وشدة، وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ستة آلاف فارس [2]. فرتب السلطان عسكره، وقوى بقوة قلبه قلبه، وأمد الله بحزب ملائكته حزبه.

ولما وصل المواصلة إلى حلب، أطلقوا من كان فى الأسر من ملوك الفرنج، منهم أرناط إبرنس الكرك، وجوسلين خال الملك [3]، وقرروا معهم أن يدخلوا من مساعدتهم فى الدرك. فلما عيدنا وصل إلى السلطان الخبر بوصولهم إلى تل السلطان، فعبرنا العاصى عند شيزر، ورتبنا العسكر، وأعدنا الأثقال إلى حماة.

ثم وصف الوقعة إلى أن قال: وركب السلطان أكتافهم فشل ميثهم وآلافهم، حتى أخرجهم عن خيامهم، وأشرقهم بمائهم. ووكل بسرادق سيف الدين غازى ومضاربه ابن أخيه فرخشاه، وركض وراءه حتى علم أنه تعداه. ووقع فى الأسر جماعة من الأمراء المقدمين، ثم من عليهم بالخلع بعد أن نقلهم إلى حماة وأطلقهم. ثم نزل فى السرادق السيفى فتسلمه بخزائنه ومحاسنه، واصطبلاته ومطابخه، ورواسى عزه ورواسخه، فبسط فى جميع ذلك أيدى الجود، وفرقها (٢٠٠ ب) على الحضور والشهود، وأبقى منها نصيباً للرسل والوفود. ورأى فى بيت الشراب، بل فى السرادق الخاص، طيوراً من القمارى، والبلابل، والهزار، والببغاء، فى الأقفاص، فاستدعى أحد الندماء مظفر الأقرع فآنسه، وقال: خذ هذه الأقفاص، واطلب بها الخلاص، واذهب بها إلى سيف الدين فأوصلها إليه وسلم منا عليه، وقل له عد إلى اللعب بهذه الطيور، فهى سليمة لا توقعك فى مثل هذا المحذور.

---

(١) فى الأصل: موعدون؛ والمثبت هنا من ل ٢٠٣ ا.

(٢) فى ل ٢٠٣ ا، وكذلك فى ق: ألف فارس. وفى مفرج الكروب مثل ما جاء هنا. انظر مفرج الكروب: ٢: ٣٨.

(٣) صاحب الكرك وأنطاكية Rignald، وكان مجد الدين بن الداية قد اعتقله سنة ٥٥٥ (١١٦٠) بعد عودته من الهجوم على منطقة الرها. وجوسلين هو Joscelin III وكان صاحب حارم. انظر: The Crusaders in the East, p. 183.

قال : ولما كسر القوم ولّوا مُدبرين إلى حلب ، فلم يقفْ بعضهم على بعض ، وظنّوا أنّ العساكر وراءهم ركضا وراء ركض ؛ فتبعّجت خيولهم ، وتموّجت سيولهم ، وماصدّقوا كيف يصلون إلى حلب و يغلقون أبوابها ، ويسكنون اضطرابها . وأما سيف الدّين فإنه ركض فى يومه من تلّ السلطان إلى بزاعة [1] ، وجاوز فى سَوْقه الاستطاعة ، وفرق، وفارق الجماعة .

وفى كتاب ابن أبى طىّ أن ميسرة سيف الدين انكسرت ، فتحرّك إلى جانبها ليكون رِدْءا لها ومدداً ، فظن باقى العسكر أنه قد انهزم فانهزموا ، فحقّق ما كان وهما ، فسار على وجهه لا يلوى على شىء ؛ وتبعهم السلطان ، فهلك منهم جماعة قتْلاً وغرقا ، وأسر جماعة كبيرة من وجوههم وأمرائهم ؛ ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس ، وترْك التّعرّض لمن وُجد منهم بقتل أو نهب .

وفرّق ماوجد فى خزائن سيف الدين وسيّر جَوار يه وحظاياه إلى حلب ، وأرسل إليه بالأقفاص وقال له : عد إلى اللعب بهذه الطيور ، فإنّها ألذّ من مُقاساة الحرب . ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والعيدان والجنوك [2] والمغنين والمغنيات .

قال : واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنّية ، وأنّ السلطان أرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البليّة . وكان أنفذ الأمراء الّذين أسرهم إلى حماة ثم ردّهم، وخلعَ عليهم وأرسلهم إلى حلب .

وهنأ العماد السّلطان رحمه الله تعالى بقصيدة ، منها [3] :

فالحمـــد لله الذى إفضالُه ... حلْوُ الجنا ، عالى السّنا ، وضّاحه

عاد العـــدوّ بظلمة من ظلمه ... فى ليـل وَيْلٍ قـد خبا مصباحه

وجنى عليـــه جهله بوقوعه ... فى قبضة البازى فَهِيضَ جناحه .

---

(١) من أعمال حلب فى وادى بطنان ، بين منبج وحلب ، على مرحلة واحـدة من كل منهما . معجم البلدان : ٢ : ١٦٢ .

(٢) الجنوك من آلات الطرب ، ولاعبه : الجنكى ولاعباته الجنكيات . السلوك : ١ : ٢٧٥ : حاشية ٣ .

(٣) انظر الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ١٧ — ٢٢ ؛ وهى طويلة .

حمل السلاح إلى القتال، ومادرى ... أنّ الذى يجنى عليــه سلاحه
أضحى يريد مواصليـه صدوده ... وغـدًا يجيـــد رثاءه مدّاحُه
إن أفسد الدينَ الغلاةُ[1] بجنثهم ... فالنّاصر الملك الصلاح صلاحــه
قد كان عزمك للإله مصمّما ... فيهم ، فلاحَ ، كما رأيت ، فلاحه
وكأننى بالساحل الأقصى ، وقدْ ... ساحت بنَحْر دَمٍ[2] الفرنجة ساحه
فاعبُرْ إلى القوم الفرات، ليشربوا الأ ... مُوتَ الأُجاج، فقد طمى طفّاحه[3]
لتفك من أيديهمُ رهن الرُّها ... عجلاً ، ويدرك ليلَهـا إصباحــه
(١٢٠١ ا) وابغُوا لحرّان الخلاص ، فكم بها ... حرّان قلبٍ نحوكم ملتاحــه[4]
نجّوا البلاد من البلاء[5] بعدلكم ... فالظـلم بادٍ فى الجميع صُراحه[6]
واستفتحوا ما كان من مستغلق ... فيها[7] ، فربّـكمُ لـكمْ فتّاحه
أنتم رجال الدّهر ، بل فرسانه ... وَلذِى الحلوم الطائشات رِجاحه
فُتّاكه ، نُسّاكه ، ضُرّاره ... نُفّاعه ، مُنّاعـــه ، مُنّاحه
وأبو المظفـــر يوسف مِطْعامُه ... مِطْعانُه ، مِقْدامُه ، جَحْجاحه[8]
وإذا انتـــدى فى محفل فخِيُّه ... وإذا غـدا فى جحفـل فوّاحُه

قال : وكان لعزّ الدين فرخشاه فى هــذه الوقعة يد بيضاء ، وهو محبّ للفضل وأهله باعثٌ للخواطر على مدحه ببذله ؛ فنظمت فيه قصيدة ، منها :

نصرٌ أنار لملـكِكُمْ بُرْهانه ... وعلا لذلة شانئيـكم شانُه
ما أسعد الإسلام وهو مظفّر ... وأبو المظفّر يوسفٌ سلطانه
الملكُ مرفوعٌ لـكم مقداره ... والعدل موضوعٌ بكم ميزانه

---

(١) فى الخريدة : العصاة ؛ وفى مفرج الـكروب : ٢ : ٤١ : العداة .
(٢) فى الخريدة : ببحردم الفرنجة ، وكذلك فى مفرج الـكروب : ٢ : ٤١ .
(٣) فى مفرج الـكروب : ٢ : ٤٢ : طماحه .
(٤) لاحه العطش : غيره .
(٥) فى الأصل : من البلاد ، وهو خطأ ؛ والمثبت هنا من ل : ٤ . ١٢ .
(٦) الصراح : الخالص من كل شىء .
(٧) فى مفرج الـكروب : منها .
(٨) جحجاحه : سيده .

والدّهر لا يأتى بغير مرادكم — فهل القضاء لأجلكم جرَيانه
وكأنما لله فى أحـــكامه — فلكٌ على إيثاركم دَوَرَانه
فخراً بنى أيوب ، إن فخاركم — بذَّ الملوك السابقين رهانه
يكفى حسودكم اعتقالا همة — فـكأنما أشجانه أسجانه
الدّينُ،عزّ الدين ، عزّ بنصركم — والـكفر ذلّ بعونكم أعوانه
قد كان جيشكُمُ كبحرٍ زاخر — واللابِسُون جواشناً[1] حيتانه
فطمى لهلـكهم عليهم بحركم — بأساً وغرّق فلـكهم طوفانه
فضَل الملوك الأكرمين بفضله — فعلا زمانهم البهيج زمانه
فى فضله ، فى عدله ، فى حلمه — صدّيقـه ، فاروقه ، عثمانه
هو فى السماح ، وفى اللقاء ، عليّه — هو[2] فى العفاف وفى التقى سلمانه
من آل شادى الشائدين لمجده — يبنيه بيتـــاً عالياً بنيانه
بيتٌ من العلياء ، سامٍ ، سامقٌ — يبنى على كيوانهـا إيوانه
يا سالب التِّيجان من أربابها — ومن الثناء مصوغةٌ تيجانه
والحمـــد مالٌ أنتم بُذَّاله — والمـال حمدٌ أنتم خزانه

قال : ثم إن صاحب الموصل أسرع عودته ، وواصل لذّته ، والحلبيون أوثقوا الأسباب ، وغلقوا الأبواب ، وسُقِطَ فى أيديهمْ ، حين أفرطوا فى تعديهم ، وتهيئوا للحصار ، وخافوا من البوار ، وتبلدوا وتلددوا ، وتجادلوا ثم تجلدوا .

وقال ابن سعدان الحلبى من جملة قصيدة : يهنئُ بها السلطان بهذه الـكسرة[3] :

وما شك قوم حين قمت عليهم — غـداة التقى الجمان أنك غالب
ولو لم تقد تلك المقانب لاغتدى — لنفسك فى نفس العدو مقانب[4]

(١) جمع جوشن ، وهو الدرع .
(٢) فى ل ١٢٠٤ ا : وهو ؛ وهذا يؤدى إلى اختلال وزن البيت .
(٣) فى الأصل : بالـكسرة ؛ والمثبت هنا من ل ١٢٠٤ ا .
(٤) القناب من الخيل : ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، أو زهاء الثلثمائة ؛ وهذا هو المقصود فى الشطر الأول من البيت . والمقانب أيضاً : الذئاب الضارية ، وهى المقصودة فى نهاية البيت . انظر القاموس المحيط .

قال ابن أبي طي : وأما سيف الدين فإنه امتدت به الهزيمة [1] إلى بزاعا [2] ، فأقام بها حتى تلاحق به من سلم من أصحابه ، ثم خرج منها حتى قطع الفرات وصار إلى الموصل . وصار باقي عسكر حلب إلى حلب ، في سابع شوال ، في أقبح حال وأسوئه ، عراةً حفاةً فقراء ، يتلاوَمُون على نقض الأيمان والعهود .

(٢٠١ب) وخاف أهل حلب من قصْد السّلطان لهم ، فأخذوا في الاسْتعداد للحصار ؛ وجاء السّلطان وخيّم عليها أيّاما ، ثم قال : الرّأى أن نقْصد ما حَوْلها من الحصون والمعاقل والقلاع فنفتحها ، فإنّا إذا فعلنا ذلك ضعُفت حلب وهان أمرها . فصوّبوا رأيه ، فنزلوا على بزاعة ، فتسلّمها بالأمان، وولّاها عز الدّين خشترين الكردى .

فصل

في فتح جملة من البلاد حوالى حلب

قال العماد : ثم نزل السّلطان على حصن بُزاعة وتسلّمه في الثّاني والعشرين من شوّال ، ثم فتح منبج في التّاسع والعشرين منه ، وكان فيها الأمير قطب الدّين ينال بن حسّان ، [والسّلطان] [3] لا يناله به إحسان ، بل كان في جرّ عسكر الموْصل إليه أقوى سبب ، ولا يحاذقه ولا يحفظ معه شرط أدب ، ويواجهه بما يكره . فسلّم القلعة بما فيها ، وقُوّم ما كان سلّمه بثلاثمائة ألف دينار ، منها عين ونقود ، ومصوغ ، ومطبوع ، ومصنوع، ومنسوج ، وغلات ؛ وسامَهُ على أنْ يخدم ، فأبَى وأنف ، وكبرت نفسه ، فتعب سرُّه ، وذهب ما جمعه . ومضى إلى صاحب الموْصل فأقطعه الرّقة ، فبقي فيها إلى أن أخذها السّلطان منه مرة ثانية في سنة ثمان وسبعين .

وقال العماد :

(١) في الأصل : العزيمة ؛ والمثبت هنا من ل ٢٠٤ أ .
(٢) في ل ٢٠٤ أ : بزاعة ؛ وكل صحيح . انظر معجم البلدان : ٢ : ١٦٢ .
(٣) ما بين الحاصرتين من ل ٢٠٤ ب .

نزولك فى منبــــج | على الظفر المبهــــج
ونُجحك فى المرتجَى | وفتحـــــك للمرتَج
دليل على كلّ ما [1] | تحـــاول أو ترتجى
أمورك فــــيما ترو | مُ واضحة المنهج
وشانيك دامى الشئو | ن منك ،شقىّ ، شجى
ومن كان فى حصنــه | ومن قبــل لم يخرج
يقـــال له : ليس ذا | بعُشّك ، قم فادرُج
فرأيك يستنزل النُّـ | ـجُوم من الأبرُج
فعجِّل عبور الفرات | وَأسْرِ ، وَسِرْ، وادْلُج
وعُجْ نحو تلك البلاد | وعن غـيْرها عرّج
لحران ، والرّقّتا | ن تاليتَا منبــــج
وجَلِّ عن المسلمين | ن ليلهم المدّجى [2]

قال ابن أبى طىّ : لما ملك السّلطان منبج وتسلم الحصْن صعد إليه وجلس يستعرض أموال ابن حسّان وذخائره ؛ فـكان فى جملة أمواله ثلاثمائة ألف دينار ، ومن الفضّة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفى ألف دينار . فحَانَ من السّلطان التفاتة فرأى على الأكياس والآنية مكتوبا يوسف ، فسأل عن هذا الاسم ، فقيل له : ولدٌ يحبُّـه ويُؤثره اسمه يوسف كان يدّخر هــذه الأموال له . فقال السّلطــان : أنا يوسُف وقد أخذت ماخُبِئَ لى . فتعجّب النّاس من ذلك .

قال : ولمّا فرغ من منبج نزل على عزاز [3] ونصب عليها عدّة مجانيق، وجدّ فى القتال ، و بذل الأموال .

---

(١) فى مفرج الـكروب : ٢ : ٤٣ ؛ وكذلك فى نسخة ق من الروضتين : نجح ما .
(٢) فى مفرج الـكروب : ٢ : ٤٣ : المدلج .
(٣) ويقال لهـا أعزاز ؛ بليدة فيها قلعة ولهـا رستاق شمالى حلب ، بينهما مسيرة يوم . معجم البلدان : ٧ : ١٦٨ — ١٦٩ . والرستاق ، وجمعه رساتيق ، القرية ، أو محلة العسكر أو البلد التجارى، انظر السلوك : ١:١٠٣١ : حاشية:١ .

قال العماد : ثمّ نزل السّلطان على حصن عزاز وقطع بين الحلبيّين و بين الفرنج الجواز. وهو حصن منيع رفيع ، فحاصره ثمانية وثلاثين يوما . وكان السّلطان قد أشفق على هـذا الحصن من موافقة(١٢٠٢) الحلبيّين للفرنج ، فإنّ الغيظ حملهم على مهادنة الفرنج و إطلاق ملوكهم الّذين تعب نور الدّين رحمه الله تعالى فى أسْرهم ، فرأى السّلطان أن يحتاط على المعاقل ، و يصُونها صون المقـائل ؛ فتسلّمهـا حادى عشر ذى الحجـة بعد مدة حصارها المذكورة .

وقال العماد قصيدة ، منها :

أعطاه ربّ العـــالمين دولة … عزّتُهُ أهل الدّين فى إعزازها
حاز العُـــــلا ببأسه وجوده … وهو أحقّ الخلق باحْتيــازها
بجــدّه أفنى كنوزاً فَنِيَ الْـ … ملوك فى الجـدّ على اكتنازها
مهلك أهل الشِّرك طرّا : رُومِها … أرمنها إفرنجهــــا ، إنجازها
تفــاخر الإسلام من سلطانه … تفــاخُر الفرس بابرا وازها
تهَنَّ من فتـــح عزازٍ نصرة … أوقعت العـــداة فى اعْتزازها
واليوم ذلّت حلب ، فإنّهــــا … كانت تنال العزّ مِن عزازها
وحلب تنفى كشتــكينهــــا … كما انتفت بغـــداد من قيْماَزها
بَرَزْت فى نصر الهدى بحجّة … وضوحُ نهج الحقّ فى إبرازها
كم حاملٍ للرمح عاد مبـــديا … عجْزَ عجوز الحىّ عن عكّازها
ارفَعْ حظوظى من حضيض نقصها … وعدِّ عَنْ هُمّازِها لُمّازِها
والشّعر لا بدّ له من باعث … كحاجة الخيل إلى مهمازها

قال : وأغار عسكر حلب على عسكرنا فى مدّة مقامنـا على عزاز ، فأخذوا على غرّة وغفلة ما تعجّلوه ، وعادوا ؛ فركب أصحابنا فى طلبهم فمـا أدركوا إلّا فارساً واحدا ، فأمر السلطان بقطع يده بحكم حرده . فقلت للأمور ، وذلك بمستمع من السّلطان ، تمهّل ساعة لعلّه يقبل منّى شفاعة . ثمّ قلت: هذا لا يحلّ ، وقدرُك بلْ دينك عن هذا يجلّ . وما زلت

أكرّر عليه الحديث حتى تبسّم ، وعادت عاطفته ورحم ، وأمر بحبسه ، وسرّنى سلامة نفسه .

ودخل ناصر الدّين بن أسد الدّين ، وقال : ما هذا الفشل والونى [1] ، وإنْ سكتّم أنتم فما أسكت أنا . ودمدم وزمجر ، وغضب وزأر ، وقال : لِمَ لا يُقْتَلُ هذا الرّجل ولماذا اعتقل ! فوعظه السّلطان واستعطفه، وسكّن غيْظه [2] وتعطّفه ، وتلا عليه: « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » [3] . وأطلق سراحه ، وتمّ فى نجاته نجاحه .

فصـــل

فى وثوب الحشيشيّة عَلى السّلطان مرّة ثانية
على عزاز ، وكانت الأولى على حلب

قال العماد : وفى حادى عشر ذى القعدة قفز الحشيشية على السّلطان ليلة الأحد وهو نازل على عزاز . وكان للأمير جاولى الأسدى خيمة قريبة من المنجنيقات ، وكان السّلطان يحضر فيها كلّ يوم لمشاهدة الآلات وترتيب المهمّات ، وحض الرّجال ، والحثّ على القتال ؛ وهو بارٌّ ببث أياديه ، قارٌّ على الدّهر بكفّ عواديه ؛ والحشيشية فى زى الأجناد وقوف ، والرّجال عنده صفوف ، إذ قفز واحدٌ منهم فضرب رأسه بسكّينه ، فعاقَتْهُ (٢٠٢ ب) صفائح الحديد المدفونة فى لمّته عن تمكينه ، ولفحت المدية خدّه فخدشته . فقوّى السّلطان قلبه ، وحاش رأس الحشيشىّ إليه وجذبه ، ووقع عليه وركبه ، وأدركه سيف الدين يازكوج فأخذ حشاشة الحشيشىّ وبَضَعه ، وقطعه ؛ وجاء آخر ، فاعترضه الأمير داود بن منكلان فمنعه ، وجرحه الحشيشىّ فى جنبه ، فمات بعد أيّام ؛ وجاء آخر ، فعانقه الأمير على بن أبى الفوارس وضمّه من تحت إبطيه ، وبقيت يَدُ الحشيشىّ من ورائه لا يتمكن من الضرْب ، ولا يتأتى له كشف ماعراه من الكرب ؛ فنادى : [علىّ] [4]

(١) الونى : التعب ، وفعله ونى بفتح النون ينى ، القاموس المحيط .
(٢) فى ل ٢٠٠ ا : غيضه .
(٣) سورة فاطر : آية : ١٨ .
(٤) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح ، بالاستعانة بما جاء فى رواية ابن أبى طى . انظر ما يلى .

اقتلونى معه فقد قتلنى ، وأذهب قوّتى وأذهلنى ؛ فطعنه ناصر الدّين بن شيركوه بسيفه . وخرج آخر من الخيمة منهزما ، وعلى الفتك بمن يعارضه مُقْدِما ، فثار عليه أهل السوق فقطعوه .

وأمّا السلطان فإنه ركب وجاء إلى سرادقه وقد خرعه الحادث ، وفزعه الكارث ، وصوته جهورىّ ، وزئيره قسورىّ ، ودم خده سائل ، وعِطف روعه مائل ، وطوق كزاغنده[1] بتلك الضربة مفكوك ، ونهج سلامته مسلوك . وكان سلا سلامته وأقام القوم قيامته ، ومن بعد ذلك رعب[2] ورهب ، واحترز واحتجب ، وضرب حول سرادقه على مثال خشب الخركاة[3] تأزيرا ، ووقفه تحجيرا ؛ وجلس فى بيت الخشب ، وبرز للنّاس كالمحتجب ، وما صرف إلاّ من عرفه ، ومن لم يعرفه صرفه ، وإذا ركب وأبصر مَنْ لا يعرفه فى موكبه أبعده ثم سأل عنه ، فإن كان مُسْتَسْعفا أو مُستَسعدا أسعفه وأسعده .

ومن كتاب فاضلى إلى العادل[4] : « السلامة شاملة ، والرّاحة بحمد الله للجسم الشريف الناصرى حاصلة ، ولم ينله من الحشيشى الملعون إلّا خدشٌ قطرت منه قطرات دم خفيفة ، انقطعت لوقتها ، واندملت لساعتها ؛ والركوب على رسمه ، والحصار لأعزاز على حكمه ؛ وليس فى الأمر بحمد الله مايضيق صدرا ، ولا مايشغل سراً » .

وقال ابن أبى طىّ : لما فتح السلطان حصن بزاعة ومنبج أيقن مَنْ بحلب بخروج مافى أيديهم من المعاقل [والقلاع][5] ، فعادوا إلى عادتهم فى نصب الحبائل للسلطان . فكاتبوا سنانا صاحب الحشيشية مرة ثانية ، ورغبوه بالأموال والمواعيد ، وحملوه على إنفاذ من يفتك بالسلطان . فأرسل ، لعنه الله ، جماعة من أصحابه فجاءوا بزى الأجناد ،

---

(١) الكزاغند والقزاغند : المعطف القصير يلبس فوق الزردية ، ويصنع من القطن أو الحرير المبطن : انظر : Dozy : Supp. Dict. Ar.

(٢) فى الأصل : رغب ، وهو خطأ ، والمثبت هنا من ل ٢٠٥ ب .

(٣) الخركاه : خيمة خشب تعقد على شكل قبة . واللفظ فارسى الأصل .

(٤) كان العادل فى مصر ، منذ سنة ٥٧٠ ، نائباً عن صلاح الدين .

(٥) ما بين الحاصرتين من ل ٢٠٥ ب .

ودخلوا بين المقاتلة و باشروا الحرب وأبلوا فيها أحسن البلاء ، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلهم يجدون فرصة ينتهزونها . فبينما السلطان يوماً جالس فى خيمة جاولى ، والحرب قائمة والسلطان مشغول بالنظر إلى القتال ، إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه ، وكان رحمه الله محترزاً خائفا من الحشيشية ، (١٢٠٣) لا ينزع الزردية عن بدنه ولا صفائح الحديد عن رأسه ؛ فلم تصنع ضربة الحشيشى شيئا لمكان صفائح الحديد : وأحس الحشيشى بصفائح الحديد على رأس السلطان فسبح يده بالسكينة إلى خد السلطان فجرحه وجرى الدم على وجهه ؛ فتتعتع السلطان لذلك .

ولما رأى الحشيشى ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه ، ووضعه على الأرض وركبه لينحره ؛ وكان مَنْ حولَ السلطان قد أدركهم دهشة أخذت بعقولهم .

وحضر فى ذلك الوقت سيف الدين يازكوج ، وقيل إنه كان حاضرا ، فاخترط سيفه وضرب الحشيشى فقتله . وجاء آخر من الحشيشية أيضا يقصد السلطان ، فاعترضه الأمير [داود بن][1] منكلان الكردى وضربه بالسيف ، وسبق الحشيشى إلى [ابن][1] منكلان فجرحه فى جبهته ، وقتله [ابن][1] منكلان ، ومات [ابن][1] منكلان من ضربة الحشيشى بعد أيام . وجاء آخر من الباطنية فحصل فى سهم الأمير على بن أبى الفوارس فهجم على الباطنى ودخل الباطنى فيه ليضربه فأخذه على تحت إبطه ، و بقيت يد الباطنى من ورائه لا يتمكن من ضربه ، فصاح على : اقتلوه واقتلونى معه ، فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه، فطعن بطن الباطنى بسيفه ، وما زال يُخَضْخِضُهُ فيه حتى سقط ميتا ونجا ابن أبى الفوارس . وخرج آخر من الحشيشية منهزما ، فلقيه الأمير شهاب الدين محمود ، خال السلطان ، فتنكبَ الباطنى عن طريق شهاب الدين فقصدَه أصحابه وقطعوه بالسيوف .

وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل ، وأخذ من ذلك الوقت فى الاحتراس والاحتراز ، وضرب حول سرادقه (مثال الخركاه ، ونصب له فى وسط سرادقه[2]) برجا من الخشب كان يجلس فيه وينام ، ولا يدخل عليه إلا مَنْ يعرفه ، وبطلت الحرب فى ذلك اليوم ، وخاف الناس على السلطان .

(١) أضيف ما بين الحاصرتين للتصحيح بالاستعانة بما جاء فى كلام العماد فى أول هذا الفصل .
(٢) ما بين القوسين ساقط من ل ١٢٠٦ ، وكذلك من نسخة ق .

واضطرب العسكر وخاف النّاس بعضهم من بعض ، فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس ، فركب حتى سكن العسكر ، وعاد إلى خيمته . وأخذ فى قتال عزاز فقاتلها مدّة ثمانيـة وثلاثين يوماً حتى عجز من كان فيهـا وسألوا الأمان ، فتسلمها حادى عشر ذى الحجة ، وصعد إليها وأصلح ما تهدّم منها ، ثم أقطعها لابن أخيه تقىّ الدين عمر .

وكانت عزاز أولا للجفينة غلام نور الدين ، فلما ملك السلطان منبج أخذها منه الملك الصالح وقوّاها لعله يحفظها من الملك الناصر ، فلم يبلغ ذلك .

ولمـا فرغ السلطان من أمر عزاز حقد على مَنْ بحلب لمـا فعلوه من أمر الحشيشيّة ، فسار حتى نزل على حلب ، خامس عشر ذى الحجة (١) ، وضربت خيمته على رأس الياروقية (٢) فوق جبـل جوشن وجبى أموالها وأقطـع ضياعها ، وضيق على أهلهـا ، ولم يفسح لعسكره فى مقاتلتها ، بل كان يمنع أنْ (٢٠٣ ب) يدخـل إليها شيء أو يخرج منها أحد .

وكان سعد الدين كمشتكين فى حارم ، وكانت إقطاعه فى يد نوابه ، وكان انتزعها من يد أولاد الدّاية بعد أن عصى نائبها .

وكان سبب خروجه إليها أنّ السلطان لمـا نزل على عزاز خاف كمشتكين أن ينتقل منها إلى حارم ، فخرج إليها ، فلما نزل السلطان على حلب ندم كمشتكين على كونه خارجا فى حارم ، وخاف أن يجرى بين السلطان وبين الأمراء الحلبيين صلح فلا يكون له فيه

---

(١) فى الأصل : حادى عشر ذى الحجة . وهو خطأ ، والمثبت هنا من ل ٢٠٦ ب بعد مقارنته بما جاء فى مفرج الـكروب حيث يقول ابن واصل : ثم رحل السلطان من عزاز ونزل على حلب فى منتصف ذى الحجة، وبما جاء فى النوادر السلطانية من أنه نزل عليها فى سادس عشر ذى الحجة . ويؤيد هـذا أيضاً التـاريخ الذى يحدده S. Lane - Poole فقد ذكر أنه نزل على حلب فى الخامس والعشرين من يونية سـنة ١١٧٦ وبمقارنة التواريخ يتبين أن الخامس والعشرين من يونية يوافق الخامس عشر من ذى الحجة ذلك أن ذا الحجة بدأ يوم الجمعة حادى عشر يونية . انظر : مفرج الـكروب : ٢ : ٤٦ ؛ وكذلك : Saladin, p. 146 ، والتوفيقات الإلهامية ، والنوادر السلطانية : ٤٢ .

(٢) محلة كبيرة بظاهر حلب : تنسب إلى ياروق التركمانى ، أحد رجال نور الدين محمود ، وقد توفى سنة ٥٦٤ . معجم البلدان : ٨ : ٤٩٠ .

ذكر ولا اسم . فراسل السلطان يتلطف معه الحال ويقول : لو فسح لى فى الدّخول إلى حلب لسارعت فى الخدمة وأصلحت الأمر على ما يرومه السلطان . وراسل أيضا الملك الصالح والأمراء بحلب يقول لهم : قد حصلت خارجا وقد بلغتنى أمورٌ ولا بدّ من طلبى من الملك الناصر ليأذن لى فى الصيرورة إليكم ، فإن الذى قد حصل عندى لا يمكننى الكلام فيه . فراسل الملك الصالح السلطان فى الإذن له فى الدخول إلى حلب ، فأذن له ؛ وطلبوا الرهائن منه ، فأنفذ السلطان إليهم رهينة شمس الدين بن أبى المضاء الخطيب والعماد كاتب الإنشاء ، وأنفذوا من حلب [إلى السلطان [1]] رهينةً نصرة الدين ابن زنكى [2] .

وحكى العماد الكاتب قال : لما حصلنا داخل حلب أخذنا برأى العدل ابن العجمى وجعلنا فى بيت ومنع منا غلماننا ، ولم يُحضر لنا طعام ولا مصباح ، وبتنا فى أنكد عيش .

وفى تلك الليلة دخل كمشتكين إلى حلب ، فلما أصبحوا أحضرت أنا وابن أبى المضاء إلى الملك الصالح ، وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود وجماعة من أرباب الدولة ، وكان صاحب الكلام العدل ابن العجمى ، فأخذ يتحدث بلثغته ، ويترجم بلكنته ، ويضرب صفحا عنى ، ويوهم الجماعة أنى وأنى .

وما درى الغِمرُ بأنى امرؤ أميّز التبر من التـرب
قد عارك الأهوال حتى غدا بين الورى كالصارم العضب
قد راضه الدّهر ، فلَوْ أمّه بخطبه ما ريع للخَطْب

قال : وعرضت نسخة اليمين علينا ، وصرفنا ولم يُلتفت إلينا .

فلما صارا إلى السلطان وأخبراه بما جرى فى حقهما من الهوان ، علم أن ذلك كان حيلة عليه حتى دخل كمشتكين إلى حلب ، فأطلق نصرة الدين وقاتل أهل حلب .

(١) ما بين الحاصرتين من ل ٢٠٦ ب .
(٢) تقدم شىء من التعريف به ومن حوادثه فى المتن وفى التعليقات . انظر ما تقدم عنه فى هذا الكتاب فى حوادث سنة ٥٥١ ، ٥٥٤ ، وبخاصة ص : ٢٦٨ فى الحاشية : ٥ .

ولم يزل منازلا لحلب إلى انسلاخ سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ؛ ثم كان ما سيأتى ذكره .

فصل

فى بواقى حوادث هذه السنة ودخول قراقوش إلى المغرب

قال العماد : وفى سابع شوّال وصل أخو السلطان شمس الدولة من اليمن إلى دمشق .

وذكر ابن شدّاد أنه قدم فى ذى الحجّة (١) .

قلت : ولمّا سمع السلطان بقُدومه أرسل إليه بالمثال الفاضلىّ كتابا أوّله : « أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا » (٢) . وقال فى آخره : « ولقد أحسن عدنان المبشر إذْ طلع (١٢٠٤) علينا طلوع الفجر قبل شمسه ، وغرس فى القلوب مايسرّنا و يسرّه جنى غرسه » .

قال ابن أبى طىّ : كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد ، والشّوق إلى أخيه الملك الناصر ، وأن يرى ملوك الشّام وغيرها . وأمر للعساكر بما أنعم الله به عليه من النّعم والأموال .

قال : وحكى أنّه لما تحدّث النّاس بخروج شمس الدّولة من اليمن كان باليمن رجل

---

(١) عبارة ابن شداد (فى النوادر السلطانية : ٤٢) : « وفى بقية الشهر أيضاً وصل شمس الدولة أخوه من اليمن إلى دمشق » ، ويسبق هذه العبارة حديث اللقاء عند جباب التركمان « بكرة الخميس العاشر من شوال » ، ثم المسير إلى منبج « فى بقية الشهر المذكورة » ، ثم حصار عزاز وذلك « فى رابع ذى القعدة » واستيلاؤه عليها « فى رابع عشر ذى الحجة » ، ونزوله على حلب « فى سادس عشر منه » ؟ وبعد هذا كله ترد العبارة السابقة : « وفى بقية الشهر أيضاً وصل شمس الدولة أخوه من اليمن » . وقد يفهم من هذا الاستعمال « وفى بقية الشهر أيضاً ... » أن هذه العبارة متصلة بالعبارة التى تشبهها بشأن المسير إلى منبج « فى بقية الشهر المذكور » أى فى شوال وما جاء بين العبارتين استطراد من ابن شداد . فإن صح هذا الاحتمال فى الفهم لأسلوب ابن شداد ، وأنا أرجحه ، كان أبو شامة مخطئاً فى استنتاجه من حديث ابن شداد .

(٢) سورة يوسف : آية : ٩٠ .

يقال له عباس ، وكان صهر ياسر بن بلال الحبشى صاحب عدن [1] ، وكان بين عباس وياسر عداوة ، فافتعل عباس كتاباً على لسان ياسر وزوّر عليه علامته إلى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه : « إنّ شمس الدولة سائر إلى أخيه الملك الناصر إلى الشام ، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن ؛ فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الإتاوة والرشوة ويبقى [2] لكم » . واحتال حتّى وصل الكتاب إلى شمس الدولة ، وكان نازلا على حصن يعرف بالخضراء [3] يحاصره .

فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسراً وقال له : هذا خطك وعلامتك ؟ قال : كأنه هو . قال : فبأى شىء استحققت منك [هذا [4]] وقد قرّبت منزلتك ، وأبقيت عليك بلادك ، ورفعت بضبعك على أهل إقليمك . وأراه الكتاب . فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه ، ولا يعرفه ، ولا أملاه لأحد ، ولم يعلم خبره . فلم يصدقه شمس الدولة ، وأمر به فقتل صبراً بين يديه . فهاب شمس الدولة ملوكُ اليمن وحملوا إليه الأموال وحلفوا له على الطاعة .

ثم إن شمس الدولة خرج إلى تهامة وتوجه إلى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ [5] ؛ وعثمان بن على الزنجيلى على عدن ؛ وتوجه إلى حضر موت ففتحها ، واستناب عنه بها رجلا كرديا يسمى هارون ، وكان مقامه بشبام [6] واستمرّ الكردى بها مدة .

---

(١) كان ياسر بن بلال بن جرير الحبشى وزيراً للأخوين منصور وأبى سعود ولدى عمران المكرم من أسرة بنى زريع الاسماعيلية التى سيطرت على عدن منذ سنة ٤٧٦ حتى سقطت فى أيدى الأيوبيين . انظر معجم الأنساب : ١ : ١٨١ .

(٢) هكذا فى الأصل وفى ل ٢٠٧ ا .

(٣) حصن فى جبل وصاب من عمل زبيد ، معجم البلدان : ٣ : ٤٤٦ .

(٤) ما بين الحاصرتين من ل ٢٠٧ ا .

(٥) أبو الميمون سيف الدولة مجد الدين ، ولد سنة ٥٢٦ وتوفى سنة ٥٨٩ . حبسه صلاح الدين فى مصر سنة ٥٧٧ إثر وشاية ألقيت إليه . انظر الخريدة قسم شعراء الشام : ١ : ٢٢٣ .

(٦) جبل فيه عيون تشرب منها صنعاء ، به حصون هائلة وليس له إلا طريق واحد ؛ وتصب مياه الجبل إلى سد بينه وبين صنعاء ثمانية فراسخ . وشبام أيضاً اسم لعدة مواضع قريبة من صنعاء فى جنوبها الشرقى وجنوبها الغربى . والمقصود هنا شبام حضرموت وهى إحدى المدينتين الرئيسيتين بها ، أما الثانية فهى تريم ؛ والمسافة بينها وبين عدن عشرون مرحلة . انظر معجم البلدان : ٥ : ٣٢٦ ـ ٣٢٨ .

ثمّ إنّ صاحب حضرموت تحرّك وجمع ، فقتل ، وعاث هارون فى تلك البلادواستقام أمره . وولّى شمسُ الدّولة ثغر تعزّ مملوكه ياقوت وجعل إليه أمر الجند ، وولّى قلعة بعكر مملوكه قايماز .

قال : وكان وصول شمس الدّولة إلى السّلطان قبل وقعة المواصلة وكسرتهم ، وكان شمس الدّولة سبب الظّفر [1] ، وأعطاه السّلطان سرادق سيف الدّين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات ، وولّاه دمشق وأعمالها والشّام ، وأمره أن يكون فى وجه الفرنج لأن السّلطان خاف من الحلبيّين أن يكاتبوا الفرنج كعادتهم .

قال : وفيها قتل صدّيق بن جولة صاحب بُصرى [2] وصَرْخَد [3] ، قتَلَه ابنُ أخيه ، وملك بعده بُصْرى وصرخد شهورا ، فكاتبه شمس الدّولة أخو السّلطان وحلف له على ما يريده من إقطاع ؛ واقترح شمس الدّولة أن يكتب هو ما يريده ليحلف عليه ، فأنفذ من بُصْرى نسخة يمين كتبها قاضى بصرى ، وكان (٢٠٤ ب) قليل المعرفة بالفقه والتصرّف فى القول ، فلم يستقص فيها وجوه التّأويل . فلما استوثق بها من شمس الدّولة وخرج إليه تأوّل عليه شمس الدّولة فى اليمين وقبضه ، ثم أقطعه عشرين ضيعة ، ثم أخذها منه بعد أيام [4] .

قال : وفيها عصى الأمير غرس الدّين قليج بتلّ خالد [5] بسبب كلام جرى بينه و بين كمشتكين ، فأنهَدَ إليه من حلب عسكرا فحاصروه أياما ، وسلم الحصن ، وصلحت حاله .

قال ولما ملك شمس الدّولة اليمن سمتْ نفس ابن أخيه تقىّ الدّين إلى المُلك وجعل يرتاد مكانا يحتوى عليه ، فأُخبر أنّ قلعة از برى هى فم درب المغرب ، وكانت خرابا فأشير عليه بعمارتها ، وقيل له متى عمرت وسكنها أجنادٌ أقوياء شجعان مُلكت برقة ،

---

(١) فى ل ٢٠٧ ب . وكان شمس الدولة هو سبب الظفر .
(٢) معجم البلدان ٢ : ٢٠٨ - ٢٠٩ .
(٣) بلد ملاصق لأعمال حوران ، وولاية ، وبها قلعة حصينة : نفس المصدر : ٥ : ٣٤٩ - ٣٥٠ .
(٤) فى ل ٢٠٧ ب : بعد أن قتله .
(٥) قلعة من نواحى حلب : معجم البلدان : ٢ : ٤٠٥ .

و إذا مُلـكت بَرْقة مُلك ما وراءها . فأنفذ مملوكه بهاء الدّين قراقوش وقدّمه على جماعة من أجناده ومماليـكه ، فصاروا إلى القلعة المذكورة وشرعوا فى عمارتها .

واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدّثه عن بلاد الجريد وفزّان ، وذكر له كثرة خيرها ، وغزارة أموالها ، وضعف أهلها ، ورغّبه فى الدّخول إليها . فأخذ جماعة من أصحابه وسار فى حادى عشر المحرّم من هذه السّنة، فـكان يكمن النّهار ويسير الليل مدّة خمسة أيام ، وأشرف على مدينة أوجلة[1] فلقيه ملـكها[2] وأكرمه واحترمه ، وسأله المقام عنـده ليعتضد به ويزوّجه بنته ويحفظ البلاد من العرب ، وله ثلث ارتفاعها . ففعل قراقوش ذلك فحصل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينـار ، فأخذ عشرة آلاف لنفسه وفرّق على رجاله عشرين ألفا .

وكان إلى جانب أوجلة مدينة يقال لها الأرزاقية ، فبلغ أهلها صنيع قراقوش فى أوجلة وأنه حرس غلالهم ، فصاروا إليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيره وطيب هوائه ، ورغّبوه فى المصير إليهم على أنهم يملـكونه عليهم . فأجاب على ذلك ، واستخلف على أوجـلة رجلا من أصحابه يقال له صباح ومعه تسعة فوارس من أصحابه ، فحصل لقراقوش أموال كثيرة .

واتّفق أنّ صاحب أوجلة مات ، فقتل أهل أوجلة أصحاب قراقوش ، فجـاء قراقوش وحاصرها حتّى افتتحها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل ، وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة ، واستولى على البلد .

ثمّ إنّ أصحابه رغبوا فى الرّجوع إلى مصر وخشى قراقوش أن يقيم وحده فرجع معهم. فلمّا حصل بمصر طاب له المقام وثقل عليـه العوْد ، وزوّجه تقىّ الدّين بإحدى جواريه . وكان استناب بأوجلة وقال لأهلها أنا أمضى إلى مصر لتجديد رجال وأعود إليـكم .

قال ابن الأثير[3] : وفى ربيع الآخر سنـة إحدى وسبعين[4] استوزر سيف الدّين

---

(١) جنوبى برقة نحو الغرب منها ، وهذا اسم الناحية ، أما مدينتها فاسمها أرزاقية ، وستأتى فى المتن بعد أسطر انظر معجم البلدان : ١ : ٣٦٨ .

(٢) فى ل ٢٠٧ ب : صاحبها .

(٣) فى الأتابكة : ٣٢٢ ــ ٣٢٤ ؛ وهو اقتباس حرفى .

(٤) فى ل ٢٠٨ ا : وفيها فى ربيع الآخر .

(١٢٠٥ ا) صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن على بن جمال الدّين الوزير ، رحمهما الله تعالى ، ومكّنه فى ولايته ، فظهرت منه كفاية لم يظنّها النّاس ، وبدا منه معرفة بقواعد الدّول وأوضاع الدّواوين ، وتقرير الأمور والاطلاع على دقائق الحسبانات ، والعلم بصناعة الكتابة الحسابية والإنشاء حيّرت العقول ، ووضع فى كتابة الإنشاء وضعا لم يعرفوه .

وكان عمره حين ولى الوزارة خمسا وعشرين سنة ؛ ثمّ قبض عليه فى شعبان سنة ثلاث وسبعين وشفع فيه كمال الدّين بن ينسان (١) وزير صاحب آمد وكان قد زوجه بنته، فأطلق وسار إليه . وبقى بآمد يسيرا مريضا ، ثم فارقها ، وتُوفّى بدنَيْسر (٢) سنة أربع وسبعين ، وحُمل إلى الموصل فدفن بها ، ثمّ حُمل منها فى موسم الحجّ إلى المدينة ودفن عند والده . وكان من أحسن النّاس صورة ومعنًى ، رحمه الله تعالى .

قال : ثمّ إن سيف الدّين استناب دُزْدَاراً بقَلْعَة الموصل الأمير مجاهد الدّين قايماز فى ذى الحجة سنة إحدى وسبعين ، وردّ إليه أزمّة الأمور فى الحلّ والعقد ، والرفع والخفض. وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إربل وأعمالها ومعه فيها ولدٌ صغير لزين الدّين على ، لقبه أيضا زين الدّين ، فكان البلد لولد زين الدّين اسماً لا معنًى تحته ، وهو لمجاهد الدّين صورة ومعنًى .

قلت : وفيها فى حادى عشر رجب توفّى حافظ الشام أبو القاسم على بن الحسن بن عساكر صاحب التاريخ الدّمشقى رحمه الله تعالى ، وحضر السّلطان صلاح الدّين جنازته ودفن فى مقابر باب الصغير .

وفيها قدم [دمشق] (٣) أبو الفتوح عبد السّلام بن يوسف بن محمد بن مقلد الدّمشقى الأصل البغدادى المولد التنوخى الجماهرى الصّوفى ابن الصّوفى ؛ ذكره العماد فى الخريدة

---

(١) فى الأصل وفى ل ٢٠٨ ا : نسان دون إعجام ، وفى مفرج الكروب : ٢ : ٤٧ : بلسان مع تعليقة فى الهامش نصها : فى الأصل ينسان . والمثبت هنا من الأتابكة وهو يتفق مع نسخة الأصل فى مفرج الكروب .

(٢) من نواحى الجزيرة قرب ماردين وبينهما فرسخان ، وتسمى أيضاً قوج حصار : معجم البلدان : ٤ : ٩٤ .

(٣) ما بين الحاصرتين من ل ٢٠٨ ا .

وقال : كان صديقى ، وجلس للوعظ وحضر عنده صلاح الدّين وأحسن إليــه ، وعاد إلى بغداد .

وذكر العماد من أشعاره مقطّعات ، منها فى الحقائق ، وأنشدها فى مجلسه :

يامالـكاً مُهجتى ، يامُنتهى أمَلى ... يا حاضراً شاهداً فى القَلْب والفـكر
خلقْتنى من تراب أنت خالقــه ... حتى إذا صرتُ تمثالاً من الصُّور
أجريت فى قالَــبى رُوحاً منورة ... تمرُّ فيــه كَجَرْى المــاء فى الشجر
جمعت بين صَفَا رُوحٍ منوَّرة ... وهيكلٍ صُغْتَــه من معدنٍ كدِرِ
إنْ غِبتُ فيــك فيـافخرى ويـاشرفى ... وإنْ حضرتُ فيا سَمْعى ويابصرى
أو احتجبتُ فسرى منــك فى وَلَهٍ ... وإنْ خطرتُ فقَلبى منــك فى خطر
تبدو فتمحُو رسُومى ثم تثبتُهــــــــــا ... وإنْ تَغَيبت عنّى عشتُ بالأثر

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين [وخمسمائة] :

قال العماد : والسّلطان مقيم بظاهر حلب ، فعرف أهلُها أنّ العقُوبة أليمة ، والعاقبـة وخيمة . فدخلوا من باب التذلّل ، ولاذوا بالتوسّل وخاطبوا فى (٢٠٥ ب) التّفضّــل ، وطلبوا الصُّلح ؛ فأجابهم ، وعفا وعفّ ، وكَفَى وكفّ ؛ وأبقى للملك الصّالح حلب وأعمالها ، واستقرى كل عثرة لهم وأقالها ؛ وأراد له الإعزاز ، فرد عليه عزاز .

وقال ابن شدّاد [1] : أخرجوا إليــه ابنةً لنور الدين صغيرة سألت منــه عزاز فوهبها إيّاها .

قال ابن أبى طىّ . لما تمّ الصلح وانعقدت الأيمان ، عوّل الملك الصالح على مراسلة السّلطان وطلب عزاز منه ، فأشار الأمراء عليــه بإنفاذ أخته ، وكانت صغيرة ، فأخرجت إليه ؛ فأكرمها السلطان إكراماً عظيماً ، وقدّم لها أشياء كثيرة ، وأطلق لهـا قلعة عزاز وجميع مافيها من مال وسلاح وميرة وغير ذلك .

(١) فى النوادر السلطانية : ٤٢ .

وقال غيره : بعث الملك الصالح أخته الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين فى الليل فدخلت عليه ، فقام قائماً وقبّل الأرض وبكى عَلَى نور الدين ؛ فسألت أنْ يردّ عليهم أعزاز فقال سمعا وطاعة ، فأعطاها إيّاها وقدّم لها من الجواهر والتّحف والمال شيئا كثيرا . واتّفق مع الملك الصالح أنّ له من حماة [و] ما[1] فتحه إلى مصر ، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الداية .

قال العماد : وحلفوا له على كلّ ماشرطه ، واعتذروا عن كلّ ما أسخطه . وكان الصُّلح عامًّا لهم وللمُوَاصلة وأهل ديار بكر ؛ وكُتب فى نسخة اليمين أنه إذا غدر منهم واحدٌ وخالف، ولم يَفِ بما عليه حالف ، كان الباقون عليه يداً واحدة ، وعزيمةً متعاقدة ، حتّى يَفِيءَ إلى الوفاء والوفاق ، ويرجع إلى مرافقة الرّفاق .

فلما انتظم الصلح ذكر السلطان ثأره عند الاسماعيليّة وكيف قصدوه بتلك البليّة ؛ فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرّم ، فحصر حصنهم مصياث[2] ونصب عليه المجانيق الكبار ، وأوسَعَهم قتلاً وأسراً ، وساق أبقارهم ، وخرّب ديارهم ، وهدم أعمارهم ، وهتك أستارهم ، حتّى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة ، وكانوا قد راسلوه فى ذلك لأنهم جيرانه ، فرحل عنهم وقد انتقم منهم .

قال : وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع ، فخرج إليهم شمس الدّين [محمد][3] بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، وهو متولّى بعلبك ومقْطَع أعمالها ، ومدبّر أحوالها ، والمتحكّم فى أموالها ، فقتل منهم وأسر أكثر من مائتى أسير ، وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصياث ، فجدّد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث[4] .

قال ابن أبى طىّ : وهذا أكبر الدواعى فى مصالحة السلطان لسنان وخروجه من بلاد

---

(١) الواو من ل ٢٠٨ ب .

(٢) فى معجم البلدان : مصياب ومصياف . وهى فى الأصل غير معجمة ، وفى ل ٢٠٩ بالثاء المعجمة . وفى كلام مسجوع للعماد ، سيأتى بعد سطور ، ما يدل على أنها بالثاء المعجمة إذ قال : « ... وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصياث ، فجدد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث » : ومصياث أو مصياف أو مصياب حصن الاسماعيلية ، الحشيشية ، بالشام قرب طرابلس . معجم البلدان : ٨ : ٧٩ .

(٣) ما بين الحاصرتين من ل ٢٠٩ ا .

(٤) فى ل ٢٠٩ ا : والانبعاث .

الاسماعيليّة ، لأنّ السلطان خاف أن تهيج الفرنج فى الشام الأعلى وهو بعيد عنه ، فرُبّما ظفروا من البلاد بطائل ؛ فصالح سنانًا وعاد إلى دمشق .

قال العماد : وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الفرنج على الخروج ، وباسطهم عنـد عين الجر (١) فى تلك المروج ؛ ووقع من أصحابه عدّة فى الأسار ، منهم سيف الدين (٢٠٦ ا) أبو بكر بن السلار .

ووصل السلطان إلى حماة وقد استـكمل الظَّفَر ، واجتمع فيهـا بأخيه شمس الدولة ثانى صفر ، وهو أوّل لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر ؛ وتعانق الأخوان فى المخيّم بالميدان ، وتحدّثا فى الحدثان ، وروعات الفراق ، ولوعات الأشواق .

وكان قد وصل إلى السّلطان من أخيه هذا عند مفارقته بلاد اليمن كتاب ضمّنه أبياتا أظنها من شعر ابن المنجم المصرى (٢) ، أوّلها :

الشوق أولع بالقلوب وأوجع ... فعَلَامَ أدفع منـــه مالا يُدفع

منها :

وحملتُ منْ وَجـد الأحبّة مفرداً ... ماليس تحمِلُه الأحبّـــة أجمع
لا يَستقرّ بىَ النّوى فى موضع ... إلا تقاضانى الترحّــلَ موضع
فإلى صلاح الدين أشكو أننى ... مِن بُعـده مُضْنَى الجوانح موجع
جزعا لبعد الدارمنه (٣) ، ولم أكن ... لولا هواه ، لِبُعـد دارٍ أجزع
فلأركبنّ إليـه متن عزائمى ... ويخُبّ بى ركبُ الغرامِ ويوضع
حتّى أشاهد منـه أسعد طلعة ... من أفْقِها صبح السعادة يطلع

قال العماد : فسألنى السلطان أن أكتب له فى جوابها على رَوِيّها ووزنهـا ، فقلت . فذكر قصيدة ، منها :

مولاى شمس الدولة الملك الذى ... شمس السيادة من سناه تطلع

(١) بين بعلبك ودمشق فى إقليم البقاع . معجم البلدان : ٦ : ٢٥٤ .
(٢) نشو الدولة على بن مفرج المنجم ، ولد سنة ٥٤٩ وتوفى سنة ٦٣٠ . انظر : الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ١٦٨ — ١٦٩ .
(٣) فى مفرج الكروب : ٢ : ٤٩ : عنه .

مالى سِواكَ من الحوادث ملجأٌ   مالى سواكَ من النّوائب مفزَع

وَلَأَنت فخر الدين فخرى فى العلا   وملاذُ آمالى ، ورُكنى الأمْنَع (١)

إلّا بخِـدمَتك الجـلة موقعى   والله ما للملك عنـدى موقع

وبغَير قُربك كلُّ ما أرجوه من   درك المُنى متعـــذّر متمنّع

لَلنَّصرُ (٢) إن أقبلت نحوى مُقْبِل   واليمنُ إنْ أسرعت نحوى مسرع

قال : ثمّ سرنا إلى دمشق ووصلنا إليهـا سابع عشر صفر ، وفوّض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة ، وعزم إلى مصر السّفر .

فصـــل

فى ذكر جماعة من الأعيان

تجدّد لهم ما اقتضى ذكرهُ فى هذه السنة

قال العماد : فى السادس من المحرّم توفّى بدمشق القاضى كمال الدين بن الشّهْرَزُوْرى، وعمره ثمانون سنة ، لأنّ مولده فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة (٣) . وكان فى الأيّام النُّورية بدمشق هو الحاكم المتحكم ، وصلاح الدين إذ ذاك يتولى الشّحنـكية بدمشق ، وكمال الدين يعكس مقاصده بتوخّيه الأحكام الشرعيّة ، وربما كسر أغراضه ، وأبْدى عن قبوله إعراضه ، ويقصد فى كلّ ما يعرض له اعتراضه ، وكم صبر على جماحه بحلمه وراضه ، إلى أنْ نقله الله سبحانه من نيابة الشّحنـكية إلى المُلْك ، وصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة فى السلك ، وكان فى قلبه منـه مافيه ، وما فرط منه فات وقت تلافيه . فلما ملك دمشق أجْرَاه على حكمه ، ولمْ يؤاخِذه بجُرمه ، واحترم نوّابه ، وأكرم أصحابه ، وفتح

---

(١) فى ل ٩ ٢٠٩ ا : الأرفع .   (٢) فى مفرج الكروب : ٢ : ٤٩ النصر .

(٣) تقدم شىء من التعريف به ص : ١٥ : حاشية : ٦ من هذا الكتاب . انظر عنه أيضاً طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ، ووفيات الأعيان ، ومرآة الزمان ، وشذرات الذهب ، وكذلك . عن بعض أعلام أسرته .

للشّرع بابه ، وخاطبه واستحسن جوابه ، ولم يزل يستفتيه (٢٠٦ ب) و يستهديه، و يعرض على رأيه مايعيده و يبديه [١] .

وكان ابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزورى قد هاجر إلى صلاح الدين بمصر فى ريعان ملكه ، وأذّنت هجرته فى درك إرادته بإدارة فلكه ، وأنعم عليه هناك بجزيرة الذهب ، ومن دار الملك بمصر بدار الذهب ، ووفّر حظه من الذهب ، وملّكه داراً بالقاهرة نفيسةً جميلة ، جليّةً جليلة ، ورتّب له وظائف ، وخصّه بلطائف ؛ ووصل مع صلاح الدين إلى الشّام ، وأمره جارٍ على النّظام .

ولما اشتد بكمال الدين المرض ، وكاد يفارق جوهره العرض ، أراد أنْ يبقى القَضاء فى ذويه ، فوصّى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين ابن أخيه ، علماً منه بأن السلطان يُمضى حُكمه لأجل سوالفه ، و يجعلُه عنده من عوائد عوارفه . ومات ولم يخلف مثله ، ومن شاهده شاهد العقل والفضل كلّه ، بارًّا بالأبرار ، مختاراً لِلأخيار ، مكرما للكرام ، ماضيا فى الأحكام . وقد قوّاه نور الدين رحمه الله وولده فى أيامه ، وسدد مرامى مرامه .

وهو الذى سن دار العدل [٢] لتنفذ أحكامه بحضرة السلطان ، فلا يبقى عليه مغمز ولا ملمز لذوى الشنآن . وهو الذى تولى له بناء أسوار دمشق ، ومدارسها ، والبيمارستان . فاستمرّت عادته واستقرّت قاعدته فى دولة السلطان . وتوفى ونحن بحلب محاصرون .

وذكر العماد فى الخريدة لابنه محيى الدّين قصيدة فى مرثيته منها :

ألِمُّوا بِسَفْحَيْ قاسيون فسلموا ... على جدثٍ بادى السنا ، وترحموا
وبالرغم منى أن أناجيه بالمنى ... وأسأل مع بعد المدى من يُسلم
لقد عدمت منك البرية والداً ... أحنّ من الأم الرءوف وأرحم

---

(١) فى مفرج الكروب نص أورده الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال فى التعليق ، ونقله عن مرآة الزمان ، لسبط ابن الجوزى ، جاء فيه : « ومشى (أى صلاح الدين، إلى دار كمال الدين ، فانزعج وخرج إلى لقائه ، ودخل صلاح الدين فجلس وباسطه ، وقال : ياكمال الدين ، لما كنت فى الشحنكية قد كانت بيننا هنات ومشاحنات ــ وكان كمال الدين يكرهه ، فكان كل واحد منهما ينقض على الآخر أحكامه ــ فقال له صلاح الدين : ما مشيت إلا لأزيل مافى خاطرك من الوهم ، وأعرفك أن ما فى قلبى لك نكرة ؛ فطب نفساً ، وقرّ عيناً ، فالأمر أمرك والبلد بلدك » . انظر مفرج الكروب : ٢ : ٢٠ حاشية : ٧ .

(٢) وتسمى أيضاً دار الكشف ؛ انظر ما تقدم فى هذا الكتاب : ١٧ ــ ١٨ .

ولا سيما إخوان صدق بجلّق هم في سماء المجد والجود أنجم
نشرت لواء العدل فوق رءوسهم فما كان فيهم من يضام و يظلم
لقيت من الرّحمن عفوا ورحمة كما كنت تعفو، ما حَيِيتَ، وترحم

قال العماد : وجلس ابن أخيه ضياء الدين مكانه ، وأحسن إحسانه ، وأبقى نُوّاب عمه ، وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه .

وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبى عصرون [(١)] قد هاجر من حلب إلى السلطان ، وقد أنزله عنده بدمشق فى ظل الإحسان ، وهو شيخ مذهب الشافعى رضى الله عنه ، والأقوم بالفتيا ، وأعرفهم بما تقضتيه الشريعة من أمر الدين والدُّنيا ، والسلطان يؤثر أن يفوّض إليه منصب القضاء ، ولا يرى عزل الضياء ؛ فأفضى بسرّ مراده إلى الأجل الفاضل ، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى [الهكارى [(٢)]] يتعصب لشيخه ، فاستشعر الضياء من العزل ، وأشير عليه بالاستعفاء ، ففعل ، فأعفى وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه فى بيع الأملاك .

قال العماد : وأول ما اشتريت (١٢٠٧) منه بوكالة السلطان الأرض التى ببستان بقر الوحش التى بنيت فيها المواضع من الحمام والدور والاصطبل والخان ، وكنت قد احتكرتها فى الأيام النورية فملكتها فى الأيام الصلاحية .

---

(١) تنقل بين بغداد والموصل وسنجار وواسط وحلب وغيرها طالباً للعلم ومدرساً ، ودخل دمشق سنة ٥٤٩ مع نور الدين محمود وتولى قضاءها بعد أن تنقل فى عدة مناصب . عاش بين سنتى ٤٩٢-٥٨٥ . طبقات الشافعية الكبرى ؛ الوافى بالوفيات ؛ شذرات الذهب .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين للتوضيح . وهو الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد بن عيسى الهكارى ، قدم مع أسد الدين شيركوه إلى مصر ، وبقى بها نصيحاً لصلاح الدين عندما تولى الوزارة الفاطمية ، وقد ردّ عنه أذى الاضطراب الذى حدث فى صفوف الجيش غضباً لاختيار صلاح الدين ، دون غيره من القادة ، لمنصب الوزارة . وتوفى الهكارى سنة ٥٨٥ بعد حياة حافلة بالجهاد فى ميدانى العلم والحرب . انظر : وفيات الأعيان : ١ ؛ وانظر كذلك ما تقدم فى هذا الكتاب ، فى حوادث سنة ٥٦٤ ، عن وزارة صلاح الدين وظروفها .

قلت : قد خربت هذه الأماكن فى سنة ثلاث وأربعين وستمائة بسبب الحصار [1] ، واستمر خرابها ، وعفت آثارها ، وصارت طريقاً على حافة بردى وأنت خارج من جسر الصفى خارج باب الفرنج ماراً إلى ناحية الميدان .

قال : فلما استعفى ضياء الدين بن الشهرزورى من القضاء لم يبق فى منصب القضاء إلا فقيه يعرف بالأوحد داود بن إبراهيم بن عمر بن بلال الشافعى وكان ينوب عن كمال الدين ، فأمره السلطان أن يجرى على رسمه ، ويتصرف فى حكمه .

وكان السلطان لإحياء القضاء فى البيت الزكوى [2] مؤثرا ، ولذكر مناقبه مكثرا ، وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبى عصرون وهو راج ، وبطلب نجاز عدته مناج ، ففوض إليه القضاء والحكم والإنفاذ والإمضاء ، على أن يتولى محيي الدين أبو المعالى محمد بن زكى الدين ، والأوحد ، قاضيين فى دمشق ، يحكمان ، وهما عن نيابته يوردان ويصدران ؛ وتوليتهما بتوقيع من السلطان . ولم يزل الشيخ شرف الدين ابن أبى عصرون متولياً للقضاء ، منفرداً بالحكم والإمضاء ، سنة اثنتين وثلاث وسبعين فى ولاية أخى السلطان الملك المعظم فخر الدين .

فلما عدنا إلى الشام تكلم الناس فى ذهاب نور بصره ، وأنه لا يقوم فى القضاء بورده وصدره ، ففوض السلطان القضاء بالإشارة الفاضلية إلى ابنه محيي الدين أبى حامد محمد ، كأنه نائب أبيه ، ولا يظهر للناس صرفه عما هو متوليه . واستمر القضاء له إلى انقضاء أشهر من سنة سبع وثمانين ، ثم صُرف واستقل به ابن زكى الدين ، فأقام فى مدة ولايته للشرع القواعد والقوانين ، وفوض ديوان الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد

---

(١) أى حصار دمشق التى هددها الخوارزمية عندئذ ومعهم حلفاؤهم أصحاب مصر بقيادة ركن الدين بيبرس الصالحى . وكان الذى يدافع عن دمشق المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه الصغير ، وحفيد شيركوه الكبير ، وهو صاحب حمص عندئذ . وقد بدأ هذا الحصار سنة ٦٤٢ وانتهى سنة ٦٤٤ بهزيمة المهاجمين وأعوانهم وقتل رجالهم وسبى نسائهم . انظر الذيل على الروضتين ففيه تفصيل الأماكن التى أخربت أو أحرقت قبيل الحصار وفى أثنائه .

(٢) أى بيت القاضى زكى الدين محمد بن على بن محمد القرشى ، قاضى دمشق . انظر : طبقات الشافعية الكبرى ؛ وفيات الأعيان .

إلى أخيه مجد الدين بن الزكى ، فتولاه إلى أن انتقل من أعمال الوقوف إلى موقف اعتبار الأعمال ، وتولاها بعده أخوه محيي الدّين على الاستقلال ، إلى آخر عهد السلطان وبعده .

قلت : وفيها فى صفر وقف السلطان قرية حزم باللوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه ، أو [من[1]] يحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزاهد نصر المقدسى رحمه الله تعالى ، وعلى من هو مدرّسهم بهذا الموضع من أصحاب الإمام الشافعى رضى الله عنه ؛ وجعل النظر لقطب الدين النيسابورى رحمه الله .

ورأيت كتاب الوقف بذلك على هذه الصورة ، وعليه علامة السلطان رحمه الله : « الحمد لله ، وبه توفيقى » .

قال العماد : و[فيها[2]] فى ليلة الجمعة الثانى عشر من صفر ، ونحن فى طريق الوصول إلى دمشق ، توفى (٢٠٧ ب) شمس الدين ابن الوزير أبى المضاء بدمشق ، وهو أول خطيب بالديار المصرية للدولة العباسية . وكان يتولى الرسالة إلى الديوان العزيز ، ويقصده الشعراء ويحضره الكرماء ، فيكثر خلعهم وجوائزهم ، ويبعث على مدحه غرائزهم . فحمل السلطان همه وقرّب ولده ، وجبر بتَرْبيته يُتْمه .

ثم تعين ضياء الدين بن الشهرزورى بعده للرسالة إلى الديوان ، وصارت منصبا له ينافس عليه ، واستتبت له هذه السفارة إلى آخر العهد السلطانى ، وذلك بعد المضى إلى مصر والعود إلى الشام ، فإنه بعد ذلك خاطب فى هذا المرام ؛ فأمّا فى هذه السنة فإنه كان فى مسيرنا إلى مصر فى الصحبة ، وهو متردد[3] إلىّ بصفاء المحبة .

و[فيها[4]] فى آخر صفر تزوج السلطان بالخاتون المنعوته عصمة الدين بنت الأمير

---

(١) ما بين الحاصرتين تكملة لازمة . وفى ل ٢١٠ ب : الحضر .
(٢) ما بين الحاصرتين من ل ٢١٠ ب .
(٣) فى ل ٢١٠ ب : وهو متودد.... الخ .
(٤) ما بين الحاصرتين من ل ٢١٠ ب .

معين الدين أنر ، وكانت فى عصمة نور الدين رحمه الله تعالى ، فلما توفى أقامت فى منزلها بقلعة دمشق ، رفيعة القدر ، مستقلة بأمرها ، كثيرة الصدقات ، والأعمال الصالحات. فأراد السلطان حفظ حرمتها ، وصيانتها وعصمتها ، فأحضر شرف الدين بن أبى عصرون وعُدُوله ، وزوجه إياها بحضرتهم أخوها لأبيها الأمير سعد الدّين مسعود بن أنَر بإذنها ، ودخل بها وبات عندها ، وقرن بسعده سعدها ؛ وخرج بعد يومين إلى مصر.

وذكر العماد بعد وفاة ابن الشهْرَزُورى وابن أبى المضاء الأمير مؤيد الدولة أبا الحارث أسامة بن مرشد بن سديد الملك أبى الحسن علىّ بن منقذ ، وعوده إلى الشام عند علمه بوصول السلطان ، فقال : هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء ، والكرماء الكبراء ، والسادة القادة العظماء ، وقد متعه الله بالعمر وطول البقاء ؛ وهو من المعدودين من شجعان الشام ، وفرسان الإسلام.

ولم تزل بنو منقذ ملّاك شيزر ، وقد جمعوا السيّادة والمفخر ، ولما تفرّد بالمعقل منهم من تولاه ، لم يرد أن يكون معه فيه سواه ، فخرجوا منه فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وسكنوا دمشق وغيرها من البلاد ، وكلهم من الأجواد الأمجاد ، وما فيهم إلا ذو فضل وبذْل ، وإحسان وعدل ، وما مِنْهم إلا منْ له نظمٌ مطبوع ، وشعر مصنوع ، ومن له قصيدة وله مقطوع.

وهذا مؤيد الدّولة أعرقهم فى الحسب ، وأعرفهم بالأدب ؛ وكانت جرتْ له نبوة فى أيام الدمشقيّين ، وسافر إلى مصر وأقام هناك سنين ، فى أيام المصريين ، فتمت نوبة قتل المنْعوت بالظافر [1] ، وقتل عباس [2] وزيرهم إخوته ، وإقامة المنعوت بالفائز [3] ، وما صادف [4]

---

(١) وهو الخليفة الفاطمى أبو المنصور اسماعيل ؛ امتدت خلافته بين سنتى ٥٤٤-٥٤٩.

(٢) عباس بن يحيى الصنهاجى ، وكان وزيراً للظافر ، فدبر مؤامرة له وقتله فاستغاث الفاطميون بالصالح طلائع بن رزيك الذى جاء من الصعيد ففر عباس إلى الشام وقتله الفرنج فى الطريق. انظر الفاطميون فى مصر ؛ النجوم الزاهرة ؛ الاعتبار لأسامة بن منقذ. وانظر ما تقدم فى هذا الكتاب : ٢٤٢-٢٤٨.

(٣) وهو أبو القاسم عيسى خليفة مصر الفاطمية بين سنتى ٥٤٩-٥٥٥.

(٤) فى ل ٢١١ أ : وما ردف.

ذلك من الهزاهز . فعاد مؤيد الدّولة إلى الشام ، وسار إلى حصن كيفا وتوطن بها . ولما سمع بالملك الصلاَحى جاء إلى دمشق ، وذلك فى سنة سبعين ، وقال :

حمدت على طول عمرى المشيبا ... وإنْ كنت أكثرتُ فيه الذنوبا

لأنى حَييتُ إلى أن لقيـ ... ـتُ بعد العدو صديقاً حبيبا

(٢٠٨ ا) قال : وكنت أسمع بفضله وأنا بأصبهان فى أيام الشّبيبة . وأنشدنى له مجد العرب العامرى بأصفهان فى سنة خمس وأربعين هذين البيتين ، وهما من مبتكرات معانيه ، فى سنٍّ قلعها[1] :

وصاحب لم أملّ [2] الدّهر صحبته ... يشقى لِنَفعى ويسْعى سَعْىَ مجتهد

لم ألْقَه مُذْ تصاحبْنا ، فحين بدَا ... لِناظرَىَّ افترقنا فُرقة الأبد

قال : فلما لقيته بدمشق فى سنة سبعين أنشدنيهما لنفسه ؛ مع كثير من شعره المبتكر من جنسه .

قلت : ومن عجيب ما اتفق أنى وجدت هذين البَيْتَين مع بيتين آخرين ، والمجموع أربعة أبيات ، فى ديوان أبى الحسين أحمد بن منير الأطرابلسى ؛ ومات ابن منير سنة ثمان وأربعين وخمسمائة[3] . قرأت فى ديوانه : وقال فى الضرس[4] :

---

(١) خريدة القصر : قسم شعراء الشام : ١ : ٤٩٩ — ٥٠٠ .

(٢) فى ل ٢١١ ا : لا أملّ .

(٣) انظر صفحة ٤٤ حاشية : ٤ ، وكذلك صفحة ٢٢٧ .

(٤) المثبت هنا بعد هذا مطابق لما جاء فى ل ٢١١ ا — ٢١١ ب . وقد وردَ فى نسخة الأصل كما يلى :

« وقال فى الضرس :

وصاحب لا أملّ الدهر . . . البيت . . . ثم قال :

أدنى إلى القلب من سمعى ومن بصرى ... ومن تلادى ومن مالى ومن ولدى

أخلو بيدّى من خال بوجنته ... مداده زائد التقصير المدد

لم أره مذ تصاحبنا . . . البيت . . . » .

وصـــاحب لا أمل الدهر صحبته يشقى لنفعى وأجنى ضرّه بيـــدى
أدنى إلى القلب من سمعى ومن بصرى ومن تلادى ، ومن مالى ، ومن ولدى

ثم قال :

أخلو بِبَتّى من خالٍ بوجنتـــه مـداده زايد التقصير للمـــدد
لم ألقه[1] مذ تصاحبنا ... البيت .

فالأشبه أنّ ابن منير أخذهما وزاد عليهما ، ولهذا غيّر فيهما كلمات . و [وقد] [2] وجدت هذا البيت الأوّل على صورة أخرى حسنة :

* وصاحب ناصح لى فى معاملتى *

ويجوز أن يكون أسامة أنشدها متمثلا فنسبا إليه لما كان مظنة ذلك . ويجوز أنْ يكون اتفاقا ، والله أعلم .

قال العماد : وشاهدت ولده عضد الدّين أبا الفوارس مرهفا وهو جليس صلاح الدّين وأنيسه وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدّين ، وهو لشغفـــه به يفضّله على جميع الدّواوين . ولم يزل هذا الأمير العضد مرهف مصاحباً له بمصر والشام ، وإلى آخر عصره ، وتوطن بمصر ؛ فلما جاء مؤيد الدّولة أبوه ، أنزله أرحب منزل ، وأورده أعذب منهل ، وملّكه من أعمال المعرّة ضيعة زعم أنها كانت قديما[3] تجرى فى أملاكه ، وأعطاه بدمشق داراً وإدراراً . وإذا كان بدمشق جالسهُ وآنسه ، وذاكره فى الأدب ودارسه .

وكان ذا رأى وتجربة ، وحنكة مهذبة ، فهو يستشيره فى نوائبه ، ويستنير برأيه فى غياهبه ؛ وإذا غاب عنه فى غزواته ، كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته ، واستخرج رأيه فى كشف مهمّاته ، وحلّ مشكلاته . وبلغ عمره ستّا وتسعين سنة ، فإنّ مولده سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وتوفى سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

---

(١) وردت فى الأصل : لم أره ، والمثبت هنا هو الصحيح .
(٢) ما بين الحاصرتين من ل ٢١١ ب .
(٣) فى الأصل : قديمة .

وقد تقدم من أخباره فى قتل الأسد فى شبيبته أيام كونه بشيزر[1] ، وذكرت له أيضا ترجمة حسنة فى تاريخ دمشق .

فصل

فى رجوع السلطان إلى مصر

وخرج من دمشق يومَ الجمعة ، رابع شهر ربيع الأول .

قال العماد : ولما استتمت للسلطان (٢٠٨ ب) بالشام أمورُ ممالكه ، وأمن على مناهج أمْره ومسالكه ، أزمع إلى مصر الإياب ، وقد أمحلَت [مِنْ][2] بعده من جُود جَوْد السحاب ، وتقدمه الأمراء والملوك . وخرج [بكرة][2] الجمعة ونزل بمرج الصُّفَّر ، ثم رحل عنه قبْل العصْر إلى قريب الصنمتين[3] ، وخرجتُ معه وقلبى مروع إلى أهلى ، فما نزلتِ منزلاً إلا نظمْت أبياتاً . فقلت يوم المسير وقد عبرت بالخيارة[4] :

أقول لِرَكْبٍ بالخيارة نُزَّل ... أثيروا ؛ فما لى فى المقام خيار
همُ رحلُوا عنك الغداةَ ومادَرَوْا ... بأنهمُ قد خلفوك وساروا
حليف اشتياق لاترى من تحبّه[5] ... وفى القلب مِنْ نار الغرام أوار
أجيروا من البلْوى فؤادى فعندكم ... ذمام له ياسادتى وجوار

وقلت وقد نزلنا بالفقيع[6] :

رأيتنى بالفقيع منفرداً أضْ ... يَع من فقع قاعها الضائع
بعت بمصر دمشق عن غَرر ... منّى ، فياغبن صفقة البائع

(١) انظر ص : ٢٨١-٢٨٢ من هذا الكتاب ، فى أثناء الفصل الخاص بحصن شيزر وولاية بنى منقذ.
(٢) ما بين الحاصرتين من ل ٢١١ ب .
(٣) فى ل ٢١١ ب : الصنمين .
(٤) قرية قرب طبرية من جهة عكا قرب حطين . معجم البلدان : ٣ : ٤٩٥ .
(٥) فى ل ٢١١ : لا يرى من يحبه .
(٦) فى ل ٢١٢ أ : بالبقيع .

صبْرِىَ والقلبُ عاصيان، وما غير همومى وأدْمعى طائعى

وقلت بالفوّار :

تحدّرَ بالفوّار دمْعى على الفَوْر فقلتُ لجيرانى أجيرُوا من الجور

وأصعبُ مالاقيتُ أنى قانع من الطيف مذ بنْتم بزور من الزور

وقلت بالزرقاء :

وَلَمْ أنسَ بالزرقاء يوم وداعنا أنامل تدْمى حيْرةً للتّندم

أعدتُك يازرقاء حمراء ، إننى بكيتُكِ حتى شيب ماؤكِ بالدم

تأخر قلبى عندهمْ مُتخلفـا وخالفْتُهم فى عَزْمتى والتقـدّم

فياليت شعرى هل أعود إليهمُ وهل « ليْت شعرى » نافعٌ المتيم

قال : وقلت وقد عبرنا على مسالك قريبة من قلعة الشوبك ، وفيها تخطف[1] الإفرنجُ القاصدين إلى مصر :

طريق مصر ضيّق المسْلك سالكه لا شك فى مهلك

وحب مصر صار جبًا لمن أوقعه فى شبك « الشوبك »

لكنما مِنْ دُونها كعبة محجُوجة مبرُورة المنسك

بهاصلاح الدين يُشكى الذى إليه من أيامه يشتكى

قال : ونظمت فى طريق مصر قصيدة مشتمله على ذكر المنازل بالترتيب ، وإيراد البعيد منها والقريب . واتفق أن السلطان سير إلى مصْر الملك المظفر تقى الدين ، وكان لا يستدْعى من شاديه ، إلا إنشادها فى ناديه ، ويطرب لسماعها ، ويعجب بإبداعها ، وكان قد فارق أهله بدمشق كما فارقت بها أهلى ، وجمع الله بهم بعد ذلك شملى . وهى هذه[2] :

هجرتكمُ لاعَنْ ملالٍ ولا غَدْرٍ ولكن لمقْدُور أُتيح منَ الأمر

(١) فى ل ٢١٢ ا تختطف ، وهما بمعنى واحد .

(٢) الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٦ ــ ٩ .

وأعـــلمُ أنى مخطئٌ فى فِراقكم ... وعُذْرىَ فى ذنْبى ، وذنْبىَ فى عُذرى
أرى نُوَباً للدّهر تُحْصى ولا أرى ... أشد من الهجران فى نُوب الدهر
بعينى إلى لُقْيـــــا سواكم غشاوةٌ ... وسمعىَ عَنْ نجْوى سواكم [1] لَذُو وَقْر
وقلبى وصـبْرى [2] فارقانى لِبُعـدكم ... فلا صَبْر فى قلبى ، ولا قَلْب فى صدْرى
(١٢٠٩ ا) وإنى على العهد الذى تَعهدُونه ... وسرّى لكُمْ سرّى، وجَهْرى لكم جَهْرى
تجرّعت صرْف الهمّ من كأس شوقكم ... وها أنا فى صحْوى تريف من السّكر
وإنّ زماناً ليس يعمُر موْطنى ... بسُكناكمُ فيـــه فليْس منَ العمر
وأقسم لو لم يَقسم البيْنُ بيْننـــا [3] ... جوى الهمّ ما أمسيت مقتسم الفكر [4]
أســـير إلى مصْر وقلْبى أسيرُكم ... ومِنْ عجبٍ أسْرِى وقلبىَ فى أسْر
أخِلّاىَ قـد شطّ المزار ، فأرسلوا الْ ... خيال وزُورُوا فى الكرى وارْبحُوا أجْرى
تذكّرت أحبابى بجلّق بعـــدما ... ترحّلت ، والمشتاق يأنسُ بالذكر
وناديت صبْرى مستغيثاً فـلم يجب ... فأسبلْت دمْعى لِلْبكاء عَلَى صَبْرى
ولمّا قصـدْنا من دمشق غباغبا [5] ... وبِتْنا من الشوق المُمِضّ على الجمر
نزلنا برأس الماء عنـد وداعنا ... موارد منْ ماء الدّموع التى تجرى
نزلنـا بصحْراء الفقيع وغُودرَت ... فواقعُ من فيْض المدامع فى الغدر
ونهنهت بالفوّار فيض مدامعى ... ففاضت وباحت بالمكتّم من سرّى
سرينا إلى الزّرقاء منها ، ومن يُصب ... أواماً يَسِرْ حتى يرى الوِرد أو يسرى
تذكرت حمّام القُصَير [6] وأهله ... وقـد جزت بالحمام فى البلد القفر

---

(١) فى الخريدة : إلى نجوى سواكم .
(٢) فى الخريدة : وصدرى .
(٣) فى ل ٢١٢ ا : * وأقسم لو يقسم البين بيننا * وهو مختل الوزن .
(٤) فى الخريدة : منقسم الفكر .
(٥) قرية فى أول عمل حوران من ناحية دمشق ، وبينهما ستة فراسخ . معجم البلدان : ٦ : ٢٤٦ .
(٦) بالغور من أعمال الأردن . نفس المصدر : ٧ : ١١٥ .

و بالقريتَيْن القرَيْتين ، وأين من ... مغاني الغواني منزل الأدم والعفر
ورَدْنا من الزيتون حسمى [1] وأيلة ... ولم نسترح حتى صدرْنا إلى صَــدْر
غشينا الغواشي [2] وهي يابسة الثّرى ... بعيدة عهد القطر بالعَهــد والقطر
وضنّ علينا بالنّــدى ثمد الحصا [3] ... ومن يرتجى ريًّا من الثّمد النّزْر
فقلت اشرحي بالخمس صــدراً مطيّتي ... بصـــدْر وإلّا جادك النّيـل للعشر
رأينا بهـــا عيْن المواساة ، إنّنا ... إلى عين موسى [4] نبذُل الزّاد للسّفر
وما حسرت عيْني على فيْض عبرةٍ ... أكفكفُها حتى عبرْنا على الجسْر [5]
ومِلْنا [6] إلى أرْض السّدير وجنّةٍ ... هنالك من طلحٍ نضيدٍ ومن سدر
وجُبنا الفـلا حتى أصبْنا [7] مباركا ... على بركة الجبّ [8] المبشّر بالقصر
ولمّا بدا الفسطاط بشرت رفقتي [9] ... بمن يتلقّى الوفــد بالوفر والبشر
بكت أمّ عمرو مِنْ وشيكِ ترحُّلي ... فياخجلتي منْ أمّ عمْرٍو وَمِنْ عمرو
تقول إلى مصْر تصير [10] ! تعجُّبا ... وماذا الذي تبغي،ومَنْ لك في مصر ؟!
فقلت : ملاذي ، النّاصر ، الملك الذي ... حصلت بجَدْواه على الملك والنّصر
فقالت : أقم لا تعْدَم الخير عنــدنا ... فقلت : وهل تغني السّواقي عن البحر

---

(١) جبل الزيتون جنوبي فلسطين ؛ وحسمى في البادية بين أيلة وجانب تيه بني إسرائيل وأرض بني عذرة . معجم البلدان : ٣:٢٧٦-٢٧٧ .
(٢) بعض منازل بني عذرة جنوبي فلسطين . الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ٧ . وهي المرجع في التعريف ببعض الأماكن الواردة في هذه القصيدة .
(٣) أرض قريبة من مدائن صالح .
(٤) بالقرب من البتراء بواد كثير الزيتون .
(٥) مدينة القلزم .
(٦) في الخريدة : وملت .
(٧) في الخريدة : أتينا .
(٨) في القليوبية ، قرية شرقي المرج .
(٩) في الخريدة : ناقتي .
(١٠) في الخريدة : تسير ؛ وهي كذلك في ل ٢١٢ ب .

ثِقى برجُوعٍ يضْمن الله نُجْحَـــه ... ولا تَقتضى[1] أنْ يُبْدلَ العُسر باليُسر
عطيَّته قـــد ضاعفت مُنَّةَ الرّجا ... ونعمته[2] قـد أضعفت مُنَّةَ الشكر

قال : وكان الدّخول إلى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الأوّل بالزى الأجمل والعزّ الأكمل .

وتلقىّ السّلطانَ أخوهُ ونائبه الملك العادل سيف الدّين إلى صدرٍ ، وعبر إلينا عند بحر القلزم الجسْر ، وتلقّانا خير مصر ووصلت إلينا ثمراتها ، وجليت علينا زهراتهـا ، فظهر بنـا نشاطها ، وزاد اغتباطهـا ، ودخل السّلطان داره ، ووفّق الله فى جميع الأمور إيرادَهُ و إصْداره .

وكانت قد صعُبت علىّ (٢٠٩ ب) مفارقة دمشق وأهلها ، لقلّة الوثوق بأنّى أحصُل بمثلها ؛ فنظمت يوْم خرُوجى منْها أبياتا إلى ناصر الدّين محمد بن شيركوه ، منها :

بمُهجتى خنِثُ العِطْ ... ف مستلذّ الدّلال
يقول لى بانكسارٍ ... ورقّـــةٍ واعْتلال
معاتبًا بحــديثٍ ... أصفى من السّلسال
ما مصرُ مثل دمشقٍ ... بعتَ الهدى بالضّلال
فقلت عنّت أمورٌ ... عجيبة الأشـــكال
أسيرُ فى طلب العزّ (م) مثل سيْرِ الهلال
لم يبلغ البدرُ لولا الْ ... مَسيرُ أوجَ الـكمال
وكيف أترك شغلى ... وإنه رأسُ مالى
صلاح حالى صلاح الدّ (م) ين الغزير النّوال
مالى أفارق مَلْكاً ... ملّـــكته آمالى
ياناصر الدّين : قلبى ... عليـه فى بلبـال

(١) فى الخريدة : ولا تقنطى ؛ والمثبت هنا أولى .
(٢) فى الخريدة : ومنته .

ثم ذكر العماد المحسنين إليه بالقاهرة ، وسيّدهم المولى الأجل الفاضل ؛ وقد مدحه بقصيدة منها :

كيف لا يفتدى لىَ الدّهر عبدا وأنا عبـدُ عبْدِ عَبْدِ الرّحيم
بدوام الأجلّ سيّــــدنا الفا ضل يادولة الأفاضِل دُومى
إذْ أراه ينوب عنى لدى المْ لك مناب الأرواح عنْد الُجسُوم
مالك الحلّ فى الممالك والعقْ د وحكم التّحليل والتحريم
مُعْمِلٌ للّنفـاذ فى كلّ قطر قلمـــاً حاكماً على إقليم
يتلقّى الملوكُ فى كل أرض كتْبهَ القادمات بالتّعظيم
ناحل الجسم ، ذو خطاب به يصْ غُر للدّهر كلُّ خطب جسيم

ثم ذكر الأخوين تقى الدين عمر وعزّ الدين فرخشاه ، وهما ابنا أخى السلطان ، وهو شاهنشاه بن أيوب ، وهمام الدين بزغش الشنباشى والى القاهرة . ومدح فرخشاه بقصيدة حسنة ، منها :

شادنٌ كالقضيب لدْن المهزّه سلبت مقلتاه قلبى بغمزه
كلّما رُمْت وصله رام هجرى وإذا زدتُ ذلّة زاد عزّه
للصبّا من عِـذاره نسج حُسْن رقمَ المِسْك فى الشقـائق طرزه
وعزيزٌ علىّ أنّ اصْطبـــارى فيه قد عزه الغرام وبزه
مارأى مارأيتُ مجنونُ ليلى فى هواه ، ولا كثيّر عَزّه
ماذكرْنا الفسطاط إلاّ نسينـا مارأينا بالنّيْربين وَالَارْزه
فمهـا الجيزة الجوازى لهـا الميـ زةُ حُسْناً على ظباء المِزه
ونصيرى عليه نائل عز الد (م) ين ذى الفضل ، خلّد الله عزه
فرّغ الـكنْزَ من ذخائر مالٍ مالئاً من نفائس الحمد كنْزه
همةٌ مستهامة بالمعــــالى لِلدّنايا أبيّـــــةٌ مشمئزه

قال العماد : وتوفرنا على الاجتماع فى المغانى لاستماع الأغانى ، والتنزّه فى الجزيرة والجيزة ، والأماكن العزيزة ، ومنازل العزّ والروضة ، ودار الملك والنّيل والمقياس ، ومراسى السّفن ، ومجارى الفلك والقصور بالقرافة ، وربوع الضيافة ، ورواية الأحاديث النبوية ، والمباحثة فى المسائل الفقهية ، والمعانى الأدبية .

قال : واقترحنا على القاضى ضياء الدين بن الشهرزورى أن يفرجنا فى الأهرام ، فقد كنا شُغفنا (١٢١٠) بأخبارها فى الشام ؛ فخرج بنا إليها ، ودُرْنا تلك البرابى والبرارى ، والرمال والصحارى ، وأحمدنا المقارّ والمقارى ؛ وهالَنا أبُو الهول ، وضاق فى وصفه مجال القول؛ ورأينا العجائب ، وروَينا الغرائب، واستصْغرْنا فى جنْب الهرمَيْن كلّ ما استعظمناه، وتداولْنا الحديثَ فى الهرم ِ ومَنْ بناه ، فكلٌّ يأتى فى وصفهما بما نقله ، لا بما عقله ، واجْتهدوا فى الصعود إليه فلم يُوجد من توقَّله[1] ، وحارت العُقول فى عقوده ، وطارت الأفكار عن توهُّم حدوده ؛ فياله مِنْ مولودٍ للدهر قبل الطوفان ، انقرَضت القرون الخالية على آبائه وجدوده ، وسمّار الأخبار [يسمرون][2] بذكر حديث أحداث عَادِه وثمُودِه ، ويدُلّ إحكامُه وعلوّه على همة بانيه فى بأسه وجوده . وإنّ فى الأرض الهرمين كما أنّ فى السماء الفرقدين ، وهما كالطّودَيْن الراسخَيْن ، وكالجبلين الشامخين ؛ قد فنيت الدُّهور وهما باقيان ، وتقاصَرت القصُور وهما راقيان ، وكأنّهما لِأُمّ الأرض ثديان ، وعلى ترائب التراب نهدان ، ولسُلطان العالَم علَمان ، وإلى مراقى الأملاك سُلّمان ، وهُما لليل والنهار رقيبان ، ولرضوى[3] ولشمام[4] نسيبان ، ومن زُحل والمريخ قريبان ، ولِعوَادى الخطوب خطيبان ، ولثور الفلك روقان ، ولشخص الكرة الترابية ساقان .

قلت : ثم ذكر العماد جماعةً ممن كان يقيم الضيافة له ولمثله من الفضلاء والأعيان ؛ فذكر منهم الناصح مؤدب أولاد السلطان ، وله دارٌ مشرفة على النيل ، وذكر منهم

---

(١) أى من تسلقه ليصل إلى قمته .
(٢) أضيف مابين الحاصرتين اجتهادا لتكملة مايبدو فى العبارة من نقص .
(٣) جبل المدينة : معجم البلدان : ٤ : ٢٦٠ .
(٤) جبل بباهلة باليمن. نفس المصدر : ٥:٢٩٢ .

اللّسان الصوفى البلخى ، وكان له صحبة قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان ، وله دارٌ أيضا على شاطئ النيل برسم ضيافةِ من نزل به .

قال : ثم وقف السلطان داره على الصّوفية من بعده ، وانتقل بعد سنين إلى النّعيم وخُلده .

فصـــــل

فى بيع الكتب وعمارة القلعة والمدرسة والبيمارستان

قال العماد : وكان لبيع الكتب فى القَصر كلّ أسبوع يومان ، وهى تباع بأرخص الأثمان وخزائنها(1) فى القصر مرتَّبة البيُوت ، مقسمة الرّفوف ، مفهرسة بالمعروف . فقيل للأمير بهاء الدين قراقوش ، متولّى القصر ، والحالّ والعاقد للأمر : هذه الكتب قد عاث فيها العثّ ، وتساوى سمينها والغثّ ؛ ولا غنى عن تهويتها ونفضها ، من بُيوت الخزانة إلى أرضها ؛ وهو تركىّ لا خِبرة له بالكتب ، ولا دُرْبة له بأسفار الأدب . وكان مقصود دلاّلى الكتب أن يُوكسوها ، ويخرموها ويعكسوها . فأخرجت ، وهى أكثر من مائة ألف ، من أماكنها ، وغُربت من مساكنها ، وخرّبت أوكارُها ، وأذْهبت أنوارُها وشُتّت شملها ، وبُتّ حبلها ، واختلط أدبيُّها بنجُوميّها ، وشرعيُّها بمنطقيِّها ، وطبيُّها بهندسيِّها ، وتواريخها بتفاسيرها ، ومجاهيلُها بمشاهيرها .

وكان فيها من الكتُب الكبار ، وتواريخ الأمْصار ، ومصنّفات الأخبار ، ما يشتمل كلّ كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلدا ، إذا فقدمنها جزء لايخلف أبدا . (٢١٠ب) فاختلطت واختبطَتْ ، فكان الدّلال يخرج عشرة عشرة من كلّ فنّ كتباً مبترة ، فتُسام بالدّون ، وتُباع بالهُوَن ؛ والدلّال يعرف كلّ شدة ، وما فيها من عدّة ، ويعلم أنّ عندَه من أجناسها وأنواعها ، وقد شارك غيره فى ابتياعها ، حتّى إذا لفّق كتاباً قد تقوّم عليه بعشرة ، باعه بعد ذلك لنفسه بمائة .

---

(1) فى الأصل : وخزائنها .

قال : فلمّا رأيت الأمر حضرْت القصر ، واشتريْت كما اشتروا ، ومريْت الأطباء[1] كما مرَوْا ، واستكثرت من المتاع المبتاع ، وحويت نفائس الأنواع . ولما عرف السّلطان ما ابتَعْتُه ، وكان بثمن ، أنعم عليّ بها ، وأبرأ ذمّتى من ذهبها ؛ ثم وهب لى أيضا من خزانة القصر ما عيّنتُ عينَه من كتبها .

ودخلت عليه يومًا و بين يديه مجلّدات كثيرة انتُقِيَت له من القصر ، وهو ينظر فى بعضها ، و يبسط يدى لقبضها ، وقال[2] : كنتَ طلبت كتُبًا عيَّنتها ، فهل فى هذه منها شيْء[3] ؟ فقلت : كلّها ، وما أستغنى عنها ، فأخرجتها من عنده بحمّال ، وكان هذا منه بالإضافة إلى سماحِهِ أقلّ نوال .

قال : وكان السّلطان لما تملّك مصر رأى أنّ مصر والقاهرة لكلّ واحدة منهما سور لا يمنعها ، فقال : إن أفردت كلّ واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها ، وإنى أرى أنْ أدير عليهما سوراً واحداً من الشّاطئ إلى الشّاطئ[4] .

وأمر ببناء قلعةٍ فى الوسط عند مسجد سعد الدّولة على جبل المقطّم ، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج فى المقسم ، وانتهى به إلى أعلى مِصْر ببروج وصلها بالبرج الأعظم . ووجدت فى عهد السّلطان بيتًا رفعه النّوّاب ، وأكمل[5] فيه الحساب ، ومبلغه ، وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل ، تسعة وعشرون ألفا وثلاثمائة [ذراع][6] وذراعان ؛ من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر[7] بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع ، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنان وتسعون ذراعا ، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع ،

(١) الطِّبى ، بضم الطاء وكسرها : حلمات الضرع ؛ ومرى الناقة : مسح ضرعها ، فأمرت أى أدرت اللبن . القاموس المحيط .

(٢) ، (٣) ورد مابين هذين الرقين فى ل ٢١٤ ا هكذا : قال : وكنت طلبت كتبا عينتها ، فقال : فهل فى هذه شيء منها .

(٤) انظر المواعظ والاعتبار : ٢ : ٢٠٤-٢٠٩ بشأن سور القاهرة .

(٥) فى ل ٢١٤ ا : وتكمل .

(٦) الإضافة من مفرج الكروب : ٢ : ٥٢ .

(٧) عند فم الخليج قريبا من نهاية شارع قصر العينى حاليا ، أى قريبا من مجارى العيون .

ودائر القلعة بجبل مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتـان وعشرة أذرع . وذلك طول قوسه فى أبدانه وأبراجه من النّيل إلى النّيـل ، على التّحقيق والتعديل ، وذلك بالذّراع الهاشمىّ[1] بتولى الأمير بهاء الدّين[2] قراقوش الأسدى .

و بنى القلعة على الجبل ، وأعطاها حقّها من إحكام العمل ، وقَطع الخندق وتعميقه وحفروا دِيه وتضييق طريقه . وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدّولة ، فاشتملت القلعة عليها ودخلت فى الجملة . وحفر فى رأس الجبـل بئراً ينزل فيهـا بالدّرج (٢١١ ا) المنحُوتة من الجبل إلى الماء المعين ، ولمْ يتأتّ له هذا كله فى سنين متقـاربة لوْلا أعانه ربُّه المُعين .

وتُوفّى السّلطـان وقد بقى من السّور مواضع وَالْعمارة فيـه مستمرّة ، ووظائفُ نفقاتها مستدرّة .

قال : وأمر ببناء المدرسة بالتّربة المقدسة الشافعيّة[3] ورتب قواعدها بفرط الألمعيّة ، وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدّين الخبُوشانى[4] ، وهو الشّيخُ الصّالح الفقيهُ الوَرِع[5] ، التّقىّ النّقىّ .

قال : وأمر باتّخاذ دارٍ فى القصر بيمارستاناً للمرضى ، واستغفرَ الله تعـالى بذلك واسْترضى ؛ ووقف على البيمارِسْتان والمدْرسة وقوفاً ، وقد أبطـل منـكراً وأشاع معروفاً ؛ وأضرب عن ضرائب فمحـاها ، وهبّ إلى مواهب فأسْداها ، واهـتمّ بفرائضَ ونوافل فأدّاها .

(١) فى الأصل ، وكذلك فى ل : القاسمى . والتصحيح من مفرج الكروب : ٢ : ٥٢ . وعن تحديد نسبة الذراع الهاشمى ، وغيره من الأنواع الأخرى ، إلى المتر انظر كتاب الخراج للدكتور ضياء الدين الريس : ٢٧٤-٢٧٧ ؛ ومنه يظهر أن الذراع الهاشمى = ٦١ر٦ سنتيمترا .

(٢) فى الأصل ، وكذلك فى ل ٢١٤ ب : شهاب الدين ، والتصحيح من مفرج الكروب : ٢ : ٥٣ .

(٣) بجوار قبر الشافعى بالقرافة ، بدأ صلاح الدين بناءها سنة ٥٦٦ بعد أن تولى الوزارة للفاطميين . وعرفت باسم المدرسة الشريفية نسبة إلى الشريف القاضى شمس الدين الأرموى قاضى العسكر الذى تولى التدريس بها ؛ وباسم مدرسة زين التجار أول أساتذتها . انظر السلوك : ١ : ٦٣؛٢٦١ : حاشية: ١؛ نقلا عن المواعظ والاعتبار للمقريزى .

(٤) أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد ، من خبوشان من بلاد نيسابور ؛ قدم مصر للمرة الأولى سنة ٥٦٥ : طبقات الشافعية : ٤ : ١٩٠ .

(٥) فى الأصل الفقيه الزاهد ؛ والمثبت هنا من ل ٢١٤ ب .

فصـــــل

فى خروج السُّلطان إلى الإسْـكندريّة
وغير ذلك من بواقى حوادث هــــذه السّنة

قال العماد : ثمّ خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثّانى والعشرين من شعبان ، واستصحب ولديه الأفْضَـل عليًّا والعزيز عثمان ، وجعل طريقَـهُ على دمياط ، ورأى فى الحضور بالثّغر المذكور ومشاهدتِه الاحتياط ، وكانَ له بها سَبْىٌ كثير جلبـه الأسطول ، فامتدّ [مقامه] (١) بظاهر البلدِ يومين، ووهب لى منه جارية .

ثمّ وصلنا إلى ثغر الإسْـكندريّة وتردّدنا مع السُّلطان إلى الشّيخ الحـافظ أبى طاهر أحْمد بْن محمّد السِّلَفى (٢)، وداومنا الحضور عنْده ، واجتلَيْنا مِنْ وجهـه نُورَ الإيمـان وسَعْده ؛ وسمعنا عليـه ثلاثة أيّام ، الخميس والجمعـة ، والسبت ، رابع شهر رمضان (٣) ، واغتنمنا الزّمان ، فتلْك الأيّام الثّلاثة هى الّتى حسبْناها من العُمر ، فهى آخر ماجتمعْنا به فى ذلك الثّغر .

وشاهدنا ما استجدّه السُّلطان من السُّور الدائر ، وما أبقاه منْ حسن الآثار والمآثر ؛ وما انصرف حتّى أمر بإتمام الثّغور وتعمير الأسطول .

قال ابن أبى طىّ : ولمـا نوى السُّلطان المقام بالإسْـكندرية ليصوم فيهـا رأى أنّه لا يُخْلى نفسه من ثوابٍ يقوم له مقام القَصْد إلى بلاد الـكفّار والجهاد فى المشركين ، فرأى الأسطول وقد أخْلقت سُفُنه وتغيّرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول وجَمع له من الأخشاب

---

(١) أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

(٢) عماد الدين ؛ والسلفى نسبة إلى سلفة ، وهو لفظ أعجمى معناه ثلاث شفاه، لأن إحدى شفتيه كانت مشقوقة . واستقر السلفى فى الأسكندرية سنة ٥١١ بعد طواف طويل ، وتوفى سنة ٥٧٦ . انظر وفيات الأعيان ، وطبقات الشافعية ، وتذكرة الحفاظ .

(٣) أيها رابع شهر رمضان ؟ يرشد محمد مختار باشا فى التوفيقات الإلهامية إلى أن أول رمضان فى هذه السنة ، حسابا ، كان يوم الخميس . فلعل أوله رؤية كان يوم الأربعاء ، وعندئذ يـكون السبت هو رابع شهر رمضان . وفى مفرج الـكروب : ٢ : ٥٦ ، أن السلطان ومن معه كانوا يترددون على مجلس السلفى ثلاث مرات كل أسبوع ، فى أيام الخميس والجمعة والسبت .

والصُّنّاع أشياءَ كثيرة . ولمّا تمّ عملُ المراكب أمر بحمل الآلات ، فنقل من السِّلاح والعُدد ما يحتاج الأسطول إليه ، وشحنه بالرِّجال ، وولّى فيه أحد أصحابه ، وأفرد له إقطاعا مخصوصا وديوانا مُفْردا ، وكتب إلى سائر البلاد يقول ، القولُ قولُ صاحب الأسطول ، وأن لا يُمنع مِنْ أخذ رجاله وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الأسطول أن لا يبارح البحر ، ويغزى إلى جزائر البحر .

قال العماد : وقُلت فى معنى تنقّلى فى البلاد :

(٢١١ب) يومًا بمِصْرَ ، ويومًا فى دمشق، وبالْـ ... فُسطاط يوماً ، ويومًا بالعـراقين
كأنّ جسمى وقلبى الصّبّ ما خُلقـا ... إلّا ليُقتَسَما بالشـــوق والبَيْن

وقلت يوم الخروج من القاهرة :

يا باخِلًا عنْد الوَداع بوقفـةٍ ... لَوْ سامنى رُوحى بها لم أبْخـل
ما كان ضرّكَ لوْ وقفت لِسائلٍ ... تركَ الفؤادَ بِدائِه فى المــنزل
هلّا وقفتَ لقلبِ مَنْ أحرقته ... مقدارَ إطفـاء الحريق المُشْعَل
إنْ أسْرِ مُرْتحلًا ففى أسْرِ الهوى ... قلبى لديك ، مقيّدًا لم يرحل
عَذُب العذابُ لدى فؤاد المبتلَى ... إذْ كنتَ أنت معذِّبى والمبتلِى

وقلت وقد نزلنا بين منية غمر ومنية سمنّود :

نزلت بأرض المُنيتَين ومنْيتى ... لقاؤكمُ الشّافى ووصلكم المجدى
سأبْلَى ولا تَبْلى سريرةُ ودّكم ... وتؤنسنى إنْ متّ فى وحشة اللّحد

قال : وعدنا من الإسكندرية فى شهر رمضان ، فصمنا بقية الشهر بالقاهرة ، والسلطان متوفّر فى ليله ونهاره ، على نشر العدل وإنشاره ، وإفاضة الجُود وإغزاره ، وسماع أحاديث الرسول صلّى الله عليه وسلم وأخباره ، وإشاعة العلم والإعلان بأسراره ، وإبداء شعار الشرع وإظهاره ، وإبقاء المعروف على قراره ، وإعدام أعلام الباطل وإنكاره[1] .

---

(١) فى ل ٢١٥ ا : وإعلام الباطل وإنكاره .

وقال : ومِنْ مدائحى فى السلطان ما أنشدته إياه سادس شوال [1] :

فدَيتُك من ظــالم منصف ... وناهيك من باخِلٍ مسرف [2]
أيبلغُ دهرىَ قصـــدى وقد ... قصدْتُ بمصــر ذُرا يوسف
ويوسف مصر بغــير التقى ... وبذل الصّنائـــع [3] لم يوصف
فَسِرْ وافتح القدس واسفكْ به ... دماءً متى تجْرِهـــا ينظف
وأهْـــدِ إلى الأسبتارِ البتا ... ر وهُدّ السقوف على الأسقف
وخلّص من الـكفر تلك البلادَ ... يخلّصك الله [4] فى الموقف

قال :

وفيها وصل رُسُل الْمَوَاصِـلة وصاحبِ الحصْن [5] وما رِدِين إلى دمشق فاستوثقوا بتحليف أخى السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، ثم قصدوا مصر ، ووقـع رسول صاحب حصن كيفا فى الأسر.

قال ابن أبى طىّ : وصل رسول الموصل [6] القاضى عمـاد الدين بن كمال الدين بن الشّهْرَزَورى بهدية وقود ، فخرج الموكب إلى لقائه ، وأكرمه السلطان واحترمه ؛ وقدم بعده رسول نور الدين قرا أرسلان [7] ورسول صاحب ماردين [8] ، بهدَايا ، واجتمعوا فى دمشق ، وخرجوا إلى السلطان بمصـر ، فاعترضهم الفرنج ، فأسر رسول صاحب الحصن ،

---

(١) ورد من هـذه الأبيات فى الخريدة البيتان الأولان فقط ضمن القصيدة وهى طويلة ؛ وقد وردت هـذه الأبيات الستة نفسها فى مفرج الـكروب . انظر الخريدة : قسم شعراء مصر : ١ : ١٥ـ١٧ ؛ وكذلك مفرج الـكروب : ٢ : ٥٦ـ٥٧ .

(٢) فى الخريدة : مسعف .

(٣) فى الأصل : ووصف الصنائع ؛ والمثبت هنا من ل ٢١٥ ا .

(٤) فى مفرج الـكروب : يخلصك ربك .

(٥) المقصود : حصن كيفا . وهو بلدة وقلعة عظيمة تشرف على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر ، من ديار بكر . معجم البلدان : ٣ : ٢٨٦ .

(٦) وأميرها عندئذ سيف الدين غازى الثـانى الذى حـكم بين سنتى ٥٦٥ ـ ٥٦٧ . انظر : Muhammadan Dynasties

(٧) محمد بن قرا أرسلان ، حكم بين سنتى ٥٧٠ـ٥٨١ . نفس المصدر .

(٨) قطب الدين إيلغازى الذى حكم بين سنتى ٥٤٧ـ٥٧٢ . نفس المصدر .

ولم يزل فى الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان[1] فأطلقه وأحسن إليه .

قال : وفيها رجع قراقوش إلى (٢١٢ ا ـ ل ٢١٥[2]ب) أوجلة وتلك البلاد ، فجمع أموالاً ورجع إلى مصر ، ثم أراد الرّجوع فمنعه العادل ، ثم خلصه فرخشاه فرجع وفتح بلاد فزّان بأسرها .

قال العماد : ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس ، مِنْ أعمال مصر الشّرقية ، لإرهاب العدوّ وهو يركب للصيد والقنص ، والتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص . واقترح علىّ أن أمدح عز الدين فرخشاه بقصيدة موسُومة ، ألزم فيها الشين قبل الهاء ؛ فعملت ذلك فى أواخر ذى الحجة ، فقلت :

مولاى عزّ الدين فرّخشه ... الدهر مَنْ يَرْجُك لا يخشه

تلقاه سَمْح الكفّ ، دفاقَها ... طلق المحيَّا كرماً ، بَشّه

إنْ شئتَ فوتاً بالرّدى فالْقه ... أو شئتَ فوزاً بالعلا فاغشه

يـديم بالأيدى وبالأيد فى ... خزْى لهاه والعدا بطشه

كم ملكٍ عاداكم لم يَبِتْ ... إلا جعلتم عرشــه نعشه

خوّفتمُ الشرك،فلا «قمصه» ... أمّنتم يوما ولا « فُنْشَه »

أورثَك السؤدد يا ابن العُلا ... والدُك السيــد شاهنشه

وقال فى الخريدة[3] . كنّا مخيمين بمرج فاقوس مصمّمين على الغزاة إلى غزّة ، وقد وصلت أساطيل ثغرَى دمياط والإسكندرية بسبى الكُفّار ، وقد أوْفت على ألف رأس

---

(١) يقع بين دمشق والساحل . يقول ياقوت إنه سمى بذلك لأنهم زعموا أنه كان مسكن يعقوب أيام فراقه يوسف عليهما السلام . وحصن الفرنج هـذا الحصن تحصينا قويا سنة ٥٧٤ ، وسقط فى أيدى صلاح الدين ورجاله سنة ٥٧٥ ، كما سيأتى . انظر معجم البلدان : ٢ : ٣١٩ـ٣٢٠ .

(٢) يبدأ هنـا خرم فى نسخة الأصل يستغرق ورقتين ولذلك لجأنا إلى نسخة ليدن (ل) واعتمدناها لتكون الأصل حتى ينتهى هـذا الخرم فنعود إلى نسخة الأصل مرة أخرى . وسيبدأ الاعتماد هنـا على الورقة ٢١٥ ب من نسخة ل ابتداء من السطر السادس منها ، وسنظل نشير إلى بداية الصفحات الأربع من نسخة الأصل فى مواقعها كذلك .

(٣) قسم شعراء الشام : ١ : ٤٩١ .

عدّة من وصل فى قيد الأسار ؛ فحضر ابن رواحة[1] منشداً مهنئا بعيد النّحْر ، سنة اثنتين وسبعين ، ومعرّضا بما وهبه الملك الناصر من الإماء والعبيد ، قصيدة ، منها[2] :

لقد خبر التجاربَ منهُ حزم وقلّب دهره ظهراً لبطن
فساق إلى الفرنج الخيل برّا وأدركهم على بحر بسفن
وقد جلب الجوارى بالجوارى[3] يَمِدْن بكل قدٍّ مرْجَحِنّ
يزيدهم اجتماع الشمل بؤساً فمرنان تنوح على مُرِنّ
زهت إسكندريةُ يوم سِيقُوا ودمياطٌ ، فما منياً بغبن
يرون خياله كالطيف يسرى فلو هجعوا أتاهمْ بعد وهْن
أبادهمُ تخوّفه ، فأمسى مناهُم لو يبيّتهم بأمن
تملك حولهم شرقا وغربا فصارُوا لاقتناصٍ تحت رهن
أقام بآل أيوّبٍ رباطا رأت منه الفرنجة ضِيق سجن[4]
(ل ١٢١٦)[5] رجا أقصى الملوك السلم منهم ولم يَرَ جهده فى البأس يغنى

(ك ٢١٢ ب) وفيها أبطل السلطان المكس الذى كان بمكة على الحاج ، وسيأتى ذكره فى أخبار سنة أربع وسبعين .

قال ابن الأثير[6] : وفى سنة اثنتين وسبعين شرع مجاهد الدّين ، يعنى قايماز دُزْدَار

---

(١) الفقيه أبو على الحسين بن عبد الله الحموى الشافعى ؛ عاش بين سنتى ٥١٥ـ٥٨٥ هـ . انظر الخريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ٤٨١ـ٤٩٦ .

(٢) الخريدة : قسم شعراء الشام : ١ : ٤٩١ـ٤٩٦ ، وهى قصيدة طويلة ، والأبيات المقتبسة هنا لا ترد فى الخريدة بنفس الترتيب .

(٣) الجوارى الأولى : السبايا ، والثانية : السفن .

(٤) فى الخريدة : * رأت منه الفرنج مضيق سجن *

(٥) فى المخطوطة التى اعتبرناها أصلا للنشر خرم يستغرق ورقتين ، والاعتماد هنا على نسخة ليدن ، كما أشرنا فى الصفحة السابقة ، لأن اللوحتين ٢١٣ ، ٢١٤ فى الأصل مكتوبتان بخط حديث . وقد أشير فى المتن إلى لوحات ليدن مسبوقة بحرف ل ، وأثبت بدء لوحات الأصل كذلك مسبوقة بحرف ك . وسيستأنف الاعتماد على نسخة الأصل ابتداء من اللوحة ٢١٤ أ .

(٦) فى الأتابكة : ٢٢٤ ؛ والاقتباس حرفى .

قلعة الموصل ، فى عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر ، وهو من أحسن الجوامع . ثم بنى بعد ذلك الرّباط ، والمدرسة والبيمارستان ، وكلّها متجاورات [1] .

قال [2] : وتوفى فى شهر ربيع الأول من سنة خمس وتسعين بقلعة الموصل ، وهو متوليها ، والحاكم فى الدولة الأتابكية النورية . وكان ابتداء ولايته القلعة فى ذى الحجة ، سنة إحدى وسبعين ، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين ، وأعيد إلى ولايتها بعد الإفراج عنه ، وبقى إلى الآن . وكان أصله من أعمال شبختان وأخذ منها وهو طفل . وكان عاقلا خيّرا ، ديّناً فاضلاً ، تعلم الفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، وكان يحفظ من الأشعار والحكايات والنوادر والتواريخ شيئاً كثيرا ، إلى غير ذلك من المعارف الحسنة . وكان يكثر الصوم ، وله وِرْدٌ يصليه كل ليلة ويكثر الصدقة . وبنى عدّة جوامع منها الذى بظاهر الموصل ، وبنى عدة خانقاهات منها التى بالموصل ، ومدارس وقناطر على الأنهار ، إلى غير ذلك من المصالح ؛ ومناقبه كثيرة .

قال العماد فى الخريدة [3] : نزلنا ببركة الجبّ لقصد فرض الجهاد ، وعرض الأجناد ؛ فكتب الأسعد بن مماتى [4] إلىّ قصيدة فى الملك الناصر ، ويعرض بالشطرنج فإنه كان يشتغل به ، وذلك فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين :

يا كريم الخيم فى الخيم أهيفٌ كالريم ذو شمم
مجبى للشمس إذ طلعت منه فى داج من الظلم
كيف لا تصمى لواحظُه ورُماة الطرف فى العجم

(١) فى الأتابكة : وكلها متجاورة .

(٢) فى الأتابكة : ٣٥٤ .

(٣) قسم شعراء مصر : ١ : ١٠٦ .

(٤) أبو المكارم أسعد بن الخطير بن مهذب بن زكريا بن مماتى . كان ناظرا لبعض الدواوين المصرية أيام صلاح الدين وابنه العزيز عثمان ، وأسرته مسيحية الأصل من مدينة أسيوط تولت نظر الدواوين للفاطميين ثم لشيركوه ، ثم لصلاح الدين ثم لولده العزيز ؛ ودخلوا فى الإسلام أيام شيركوه . وقد هرب الأسعد إلى الشام أيام العادل ونزل على الظاهر بن صلاح الدين ، صاحب حلب ، وخدمه . وتوفى ابن مماتى سنة ٦٠٦ انظر كتاب « قوانين الدواوين » لابن مماتى ، بتحقيق الأستاذ عزيز سوريال عطية .

لا تصدْ قلبَ المحبّ لـكم	لا يحـــل الصيد فى الحرم

يا صلاح الدين يا ملـكا	قد براه الله للأمم

أضحت الـكفار فى نقم	وغـــــدا الإسلام فى نِعَم

إنْ يَكُ الشطرنج مشغلة	لعلىّ القـــدر والهمم

فهى فى ناديك تذكـرة	لأمور الحرب والـكرم

فلـكم ضاعفت عدّتها	بالعطاء الجمّ لا القـلم

(ك ٢١٣ أ) ونصبت الحرب نصبتها	فانثنت كفّاك بالقمم

فابْقَ للأقدار [1] ترفعها	وأمر الأقدار كالخـــدم

وفيها توفى بالإسكندرية القاضى الشريف أبو محمد عبد الله العثمانى الديباجى من ولد الديباج محمـد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله عنهم ، ويعرف بابن أبى إلياس ، من بيت القضاء والعلم . وكان واسع الباع فى علم الأحاديث ، كثير الرواية ، قيما بالأدب ، متصرفا فى النظم والنـثر ، إلا أنه مقلّ من النظم ، أوحـد عصره فى علم الشّروط ، وقوله المقبول على كلّ العدول . (ل ٢١٦ ب) ذكـر ذلك العماد رحمه الله فى الخريدة .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين [وخمسمائة] [2] :

والسّلطان [3] مخيم ببرج فاقوس ، فنظم العماد فى الأجلّ الفاضل قصيـــدة ميميّة فى منتصف المحرّم ، وخدمه بها هناك فى المخيّم [4] أوّلها :

---

(١) فى الخريدة : للاسلام .

(٢) استطيع من هنا متابعة اقتباسات أبى شامة من البرق الشامى ، ج ٣ ؛ والمعروف أن كتاب البرق الشامى يبدأ بحوادث سنة ٥٦٢ ، وهى السنة التى قدم فيها العماد إلى الشام ، وينتهى بوفاة صلاح الدين فى سنة ٥٨٩ . والمعروف كذلك أن الباقى من هذا الـكتاب جزءاه الثالث والخامس فقط ويبدأ الثالث بحوادث سنة ٥٧٣ ، التى تبدأ هنا ، وينتهى عنـد استعراض بعض الأشعار التى قيلت فى تهنئة السلطان بفتح حصن بيت الأحزان ، وذلك فى أثناء حوادث سنة ٥٧٥ . أما الخامس فيبدأ بعزم السلطان على السير إلى حلب وذلك فى أثناء سنة ٥٧٨ ، وينتهى بنهاية حوادث سنة ٥٧٩ ؛ والجزءان مخطوطان فى أكسفورد بمكتبة بودليان . وهناك بضعة أوراق أخرى من كتاب البرق الشامى فى مكتبة ليننجراد لا اعلم عنهـا شيئا حتى الآن .

(٣ ، ٤) مابين هذين الرقمين هو كل مااقتبسه أبوشامة من صفحتين كاملتين من البرق وذلك لأن العماد =

ريم هَضِيم يروم هضمى ... مِنْ سقم عيْنيْه عين سقمى
إنْ رُمت ياعاذلى صلاحِى ... فَخلّنى وَالْهَوى وزعْمى
لومُك يُذكى الغَرام قل لى ... أنت نصيحى أم أنت خصمى!
أيا زمانى الغشوم أقصر ... إنّك لا تستطيع غشمى[1]
عبْد الرّحيم الرّحيمُ أضحى ... عونى على خطبِك الملمّ
الفاضل، الأفضل، الأجلّ ... المُفْضل، الأشرف، الأشمّ
غيث غياثٍ، وجود جود ... وبحر علم، وطود حلم
يراعه فى اليمين منه ... تستخرجُ الدُّرّ من خضمّ

قال: [2] وكان عندنا بالمخيّم بالعباسة، فى المحرّم، علم الدّين الشّاتانى، وهو من أدباء الموصل وشعرائها، وفصحائها وظرفائها، وفد سنة اثنتين وسبعين إلى مصر، وأهدى النّظم والنثر، واصطنعه عزّ الدّين فرّخشاه، وأنزله فى جواره، وجمع له من رفده ومن الأمراء ألف دينار، فمدح السّلطان بالمخيّم بكلمة، مطلعها:

غدا النّصرُ معقُوداً برايتك الصّفرا ... فَسِرْ، وافتح الدّنيا، فأنت بها أحرى[3]

قلت: لم يذكر العماد من هذه القصيدة غير هذا البيت، وإنه لقائم مقام قصائد كثيرة.

والشاتانى هو أبو على الحسن بن سعيد له ترجمة فى تاريخ دمشق. وذكره العماد فى الخريدة، وذكر فيها من هذه القصيدة:

يمنيك فيها اليُمن واليُسر فى اليُسرى ... فبُشرى لمن يرجو النّدى منهما بُشرى

=دأب على التزويق والمبالغة فى استعمال المحسنات البديعية فى كتابه، وكذلك فى الفتح القدسى، ولكن هذا لا ينقص مطلقا من قيمة كتابته التاريخية، فهى نتيجة مشاهدة مباشرة أو سماع موثوق به، مدعمة بالوثائق الحكومية، بالغة الدقة، تبرهن مقارنتها بالمصادر الأخرى المعاصرة على دقتها وصدقها.

(١) الغشم: الظلم؛ والغشوم: الظالم. القاموس المحيط.

(٢) يسبق هذا الحديث فى البرق، فى الورقة السادسة، عنوان: «ذكر علم الدين الشاتانى».

(٣) فى البرق: فأنت به أحرى.

قال العماد : وكانت الأعلام السلطانية صُفراً ، لا يفارق نشرها نصراً .

قلت : وفيها يقول بعض الفضلاء :

إذا اسودّ[1] خطب دونَه الموت أحمر   أتَتْ بالأيادى [البيض][2] أعلامُه الصّفر

وقد ظهرت[3] منصوبةً جزمت بهـا   ظهور العدا من رفعها الخفض والجرّ[4]

وأضحت تجُوز[5] الأرض شرقاً ومغرباً   ولله فى إعـــلاء رتْبته سِرّ

وقال العماد[6] : عاد السلطان إلى القاهرة وأقام بها ، ثم اهتمت بالغزاة همّته إلى غزة وعسقلان ، فخرج يوم الجمعة ثالث جمادى الأولى بعد الصلاة ، وخيم بظاهر بابيس فى خامسه ، بخميسه . ثم تقدمنـا منه إلى السّدير ، وخيمنا بالمبرز ، ثم نُودى : خـذُوا زَادَ عشرة (ك ٢١٣ ب) أيام أخرى زيادة للاستظهار ، ولإعواز ذلك عند توسط ديار الـكفّار .

قال : (ل ٢١٧ ا) العماد : فركبت إلى سوق العسكر للابتياع ، وقد أخـذ السّعر فى الارتفاع ، فقلت لغُلامى : قد بَدا لى ، وقد خطر الرّجوع من الخطر ببالى ، فاعْرِض للبيع أَحمالى وأثقالى ، وانتهزْ فرصة هذا السّعر الغالى ، وأنا صاحب قلم لا صاحب عَلَم ، وقد استشعرت نفسى فى هـذه الغزوة من عاقبة ندم ؛ والمدى بعيد ، والخطب شـديد ؛ وهذه نوبة السّيوف لا نوبة الأقلام ، وفى سلامتنا سلامة الإسلام ؛ والواجب على كل منا أن يلزم شُغله ، ولا يتعدّى حـدّه ، ولا يتجاوز محلّه ، لا سيّما ونواب الدّيوان قد استأذنوا فى العودة ، وأظهروا قلّة العِدّة . وأظهرت سرّى للمولى الأجلّ الفاضل ، فسرّه ذلك ، إشفاقاً علىّ ، وإحسانا إلىّ . وكان السّلطان أيضـا يؤثر إيثارى ، ويختـار اختيارى ؛ فقال لى : أنت معنا أو عزمت أن تدعنا ولا تتبعنا ؟ فقلت : الأمر للموْلى ، وما يختاره لى فهو أوْلى ، فقـال : تَعود وتدعوَ لنا ، وتسأل الله أنْ يبلّغنا من النّصر سؤلنا .

(١) فى البرق الشامى : وأسود .

(٢) ساقطة من ل ؛ وماهنا من البرق .

(٣) فى ل : فقد ظهرت .

(٤) فى ل : الخفض الـكفر .

(٥) فى ل : ولم لا تجوز .

(٦) يسبق هذا فى البرق عنوان : « ذكر بروز السلطان بقصد الغزاة إلى غزة وعسقلان » .

وكنت قد كتبت أبياتا إلى المخدوم الفاضل ونحن بالمبرز فى العشرين من الشهر[1]:

قيل: فى مصر نائلٌ عدد الرمْـ لِ ، ووفْر كنيلهـا الموفور
فاغتررْنا بها وسرْنا إليْهـا ووقعنـا ، كما ترى ، فى الغرور
وحظينا بالرّمل والسّير فيه ومنعنـا من نيلهـا الميْسور
وبرزنا إلى المبرز نشكو سدرا من نزولنا بالسدير
قيل لى : سِرْ إلى الجهاد . وماذا بالغٌ فى الجهاد جهدُ مسيرى ؟
ليس يقوى فى الجيش جأشى، ولا قو سى يرى موتورا إلى موتور
أنا للكُتْب لا الكتائب إقدا مى ، وللصُّحْف لا الصفاح حضورى
كاد فضْلى يضيع لولا اهتمامُ الْـ فاضل الفائض الندى بأمورى
فأنا منـــه فى ملابس جاهٍ رافلًا منه فى حبير حُبور
فهو رقّى من الحضيض حظوظى وسما بى إلى سرير السُّرور

وقال[2] : وما انقطعت عن السلطان فى غزواته إلا فى هذه الغزوة ، وقد عظَّم الله فيها من النبوة ؛ وكانت غزوات السلطان بعدها مؤيدة ، والسعادات فيها مجددة[3] .

وكنت لما فارقت القاهرة استوحشت ، وتشوقت إلى أصدقائى وتشوشت ، وكتبت من المخيم ببلبيس إلى القاضى شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفرّاش ، وقد أقام بالقاهرة ، وكان صاحباً لى من الأيام النورية ، واستشرته فى التأخر عن السلطان . فكتب فى الجواب : رافقْه ولا تفارقْه ، فكرهت رأيه ، فكتبت إليه :

إذا رضيتمُ بمكْرُوهى فذاك رضًا لا أبتغى غير ما تبغُون لى غرضا
وإن رأيتم شفاء القلب فى مرضى فإننى مُسْتطيبٌ ذلك المرضا
أنتم أشرتم بتعْـذيبى ، فصرت له مُسْتعْذبًا ، أستلِذُّ الهمّ والمضضا
(ل٢١٧ب) أصبحت ممتعظا بى فى محبتكم فحاشَ لله أنْ أبْغى بكم عوضا
لله عيشٌ تقضّى عندكم ومضى وكان مثل سحابٍ برْقُه ومَضا

(١) يذكر العماد فى البرق أنه ذكر هذه الأبيات على سبيل المداعبة .
(٢،٣) مابين هذين الرقمين خلاصة صفحتين كاملتين من البرق .

العيش دانٍ جناه الغضّ عندكم والقلبُ محـــترقٌ منّى بجمر غضا
ما كنتُ أعْهَد منكمْ ذا الجفاء ولا حسبت أنّ ودادى عنـدكم رُفضا
قد أظلم الأفق فى عينى لغيبتكم فإنْ أذنْت لشخصى فى الحضور أضا
ولست أول صبّ مِنْ أحِبَّتِــه لمّـا جفوا ما قَضى أوطاره ، وقضى
مُروا بما شئتُمُ من محنـة وأذًى فقد رأيت امْتثال الأمر مُعْتَرِضا
طوبى لـكم مصرُ ، والدّارالتى قضيت فيها المـآرب ، والعيشُ الذى خُفِضا
بعيشـكم إن خـلوتم بانبساطـكم تذكّروا ضجِراً بالعيش منقبضـا
رضيتمُ سفرى عنـكم ؛ وأعهـدُكم بسَفرتى عنـكم لا تُظهرون رضا
(ك٢١٤ ا)[1] هلا تـكلّفتم قولًا أُسَرُّ به هيهات جوهركم قد عاد لى عرضا
تفضّـلوا واشرحوا صدرى بقربـكم أو فاشرحُوا لِىَ ذا المعنى الّذى غمضا

فـكتب إلىّ فى جوابها أبياتاً ، منها :

لا تنسبُونى إلى إيثار بُعْدِكمُ فلَسْتُ أرضى إذا فارقتـكم عوضا
ولى وِدادٌ تولّى الصّدق عقدته فما تراه على الأيّام منتقضا
يلقاكَ قلبى على سبل العتاب له بصحّةٍ ليس يخشى بعْدها مرضا
وصرت كالدّهر يجنى أهله أسفاً ويلْتقى من عتاب المذنب المضضا[2]

قال : ثمّ ودّعت وعُدْت ، ونهضوا وقعَدْت .

فصــــل[3]

فى نوبة كسْرة الرّمـــلة[4]

وكانت على المسلمين بالجلة ، وذلك يوم الجمعة غرّة جمادى الآخرة أو ثانيه .

ورحل السلطان بعساكره فنزل على عسقلان يوم الأربعـاء التّاسع والعشرين من

(١) تبدأ هنا اللوحة ٢١٤ ا التى نستأنف عندها الاعتماد على الأصل .
(٢) وردت هـذه الأبيات مكتوبة فى قة ك ٢١٤ ا بنفس الخط الذى كتبت به الورقتان السابقتان من نسخة الأصل فى مكان الخرم ، ولذلك اعتمدنا فى هذه الأبيات أيضا على نسخة ل .
(٣) هنا تبدأ فعلا الورقة ٢١٤ ا من الأصل وبهذا نعود إليها ، وتعود نسخة ل إلى وظيفتها المساعدة.
(٤) العنوان فى البرق . « ذكر نوبة الرملة ونبوة الحملة » .

جمادى الأولى ، فسبى وسلب ، وغنم وغلب ، وأسر وقسر ، وكسب وكسر ، وجمع هناك مَنْ كان معه من الأسْرى [1] فضرب أعناقهم ، وتفرّق عسكره فى الأعمـال مغيرين ومبيدين ، فلمّا رأوْا أن الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا .

وتوسّط السّلطان البلاد ، واستقْبل يوم الجمعة ، مستهلّ جمادى الآخرة ، بالرّملة ،راحلًا لِقصد بعض المعاقل ، فاعترضه نهرٌ عليه تلّ الصافية [2] فازدحمت على العُبور أثقال العساكر [3] المتوافية ، فمـا شعروا إلّا بالفرنج طالبـةً بأطلابها ، حازبةً بأحْزابها ، ذابّةً بذئابها ، عاويةً بكلابها ، وقد نفر نفيرُهم ، وزفر زفـيرهم ؛ وسرايا المسلمين فى الضّياع مغيرة ، ولِرَحا الحرب عليهم فى دورهم مديرة . فوقف [4] الملك المظفّر تقىّ الدّين وتلقّاهم وباشرهم بِبِيضِه وسُمْره ، فاستُشهد من أصحابه عدّة من الـكرام ، انتقـلُوا إلى نعيم دار المقام ؛ وهلك من الفرنج أضعافها .

وكان لتقىّ الدين ولدٌ يقال له أحمـد ، أول ما طرّ شاربه ، فاستشهد بعـد أن أردى فارسا .

قال : وكان لتقى الدين أيضا ولد آخر ، اسمه شاهنشاه ، وقع فى أسر الفرنج . وذلك أن بعض الفرنج بدمشق خدعه وقال له : تجىءُ إلى الملك وهو يعطيك الملك؛ وزوّر كتابا فسكن إلى صدقه وخرج معه ، فلما تفرد به شدّ وثاقه ، وغلّه وقيّده ، وحمله إلى الداوية ، وأخذ به مالاً ، وجدد عندهم له حالا وجمالا ؛ وبقى فى الأسر أكثر من سبع سنين حتى فكّه السّلطان بمال كثير ، وأطلق للدّاوية كلّ مَنْ كان لهم عنده من أسير؛ فغلظ القلب التقوىّ على ذلك الولد جرّ هلاك أخيه [5] ، ولمّا عاد من الغزوة زرناه للتعزية فيه .

قال : ولو أن لتقىّ الدين ردءاً لأردى القوم ، لـكن النّاس تفرقوا وراء أثقالهم ، ثم نجْوا

---

(١) فى ل ٢١٧ ب : الأسارى .

(٢) قرب بيت جبرين من نواحى الرملة بفلسطين . انظر : معجم البلدان : ٢ : ٤٠٥ .

(٣) فى الأصل : أثقال العباد ؛ والمثبت هنا من ل ٢١٧ ب ، وهو أولى .

(٤) يسبق هذه العبارة فى البرق عنوان : « ذكر الحملة التقوية واستشهاد ولده » .

(٥) فى مفرج الـكروب : ٢ : ٦٠ : « فغلظ القلب التقوى على ذلك الولد خبر هلاك أخيـه فى ذلك اليوم » .

برحالهم ، وصوّب العدوّ بجملتهم حملتهم إلى[1] السلطان ، فثبت ووقف على تقدمه من تخلّف . وسمعته يوماً يصف تلك النوبة ، ويشكر من جماعته الصحبة ، ويقول : رأيت فارساً يحثّ نحوى حصانه ، وقد صوّب إلى نحرْى سنانه ، فكاد يُبْلغنى طعانَه ، ومعه آخران قد جعلا شأنهما شانه . فرأيت ثلاثة من أصحابى خرج كلّ واحد إلى واحدٍ منهم فبادروه وطعنوه ، وقد تمكن من قربى فما مكّنوه ؛ وهم إبراهيم بن قنابر ، وفضل الفيضى ، وسويد بن غشم المصرى ، وكانوا فرسان العسكر وشجعان المعشر . واتّفق لسعادة السّلطان أنّ هؤلاء الثّلاثة رافقوه وما فارقوه ، وقارعوا العدوّ دونه وضايقوه ؛ فما زال السّلطان يسير ويقف ، حتى لمْ يبق (٢١٤ ب) مَنْ ظنّ أنه يتخلف .

ودخل اللّيل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل ، ولا كثير من الزّاد والعلف ولا قليل ، وتعسّفوا السّلوك فى تلك الرّمال والأوعاث والأوْعار ، وبقُوا أيّاماً وليالىَ بغير ماء ولا زادٍ حتى وصلوا إلى الدّيار . وأذن ذلك بتلف الدّواب وترجّل الركاب ولُغوب الأصحاب ، وفَقْد كثير ممن لمْ يعرف له خبر ، ولم يظهر له أثر . وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى [الهكارى][2] وأخوه الظّهير ، ومن كان فى صُحبتهم ، فضلّ الطريق عنهم ، وكانوا سائرين إلى وراء ، فأصبحوا بقُرب الأعداء ، فأكمنوا فى مغارة ، وانتظروا مَنْ يدلُّهم مِنْ بلد الإسلام على عمارة . فدلّ عليهم الفرنج من زعم أنه يدل بهم ، وسعى فى أسْرهم وعطبهم ، فأسروا ، وما خلص الفقيه عيسى وأخوه إلّا بعد سنين ؛ بستين أو سبعين ألف دينار ، وفكاك جماعة من الكفّار .

قال : وما اشتدت هذه النّوبة بكسرة ، ولا عدم نُصرة ، فإن النّكاية فى العدوّ وبلاده بلغت منتهاها ، وأدركت كلُّ نفْسٍ مؤمنة مُشتهاها . لكن الخروج من تلك البلاد شتت الشّمل ، وأوعر السّهل ، وسُلك مع عدم الماء والدليل والرمل .

ومما قدره الله تعالى من أسباب السّلامة ، والهداية إلى الاسْتقامة ، أن الأجلّ الفاضل استظهر فى دخول بلاد الأعداء باستصحاب الكنانيّة والأدّلاء ، وأنهم ما كانوا يفارقونه

(١) فى ل ٢١٨ ا : على .
(٢) أضيف مابين الحاصرتين للتوضيح .

فى الغداء والعشاء ؛ فلما وقعت الواقعة خرج بدوابه ، وَغلمانه وأصْحابه ، وأدلّائه وأثقاله ، و بث أصْحابه فى تلك الرّمال ، والوهاد والتّلال ، حتى أخذ خبر السّلطان وقصده ، وأوضح بأدلّائه جَدَدَه ، وفرّق ما كان معه من الأزْواد على المُنْقَطعين ، وجمعهم فى خدْمة السّلطان أجمعين ؛ فَسَهُل ذلك الوَعْر ، وأُنِس بَعْد الوحشة القفْر ، وجُبر الكسر .

وكان الناس فى مبدأ توجُّه السّلطان إلى الجهاد ، ودخول الأجلّ الفاضل معه إلى البلاد ، ربّما تحدثوا وقالوا لو قعد وتخلف كان أولى به ، فإن الحرب ليست من دأبه . ثمّ عُرف أنّ السّلامة والبركة والنجاة كانت فى استصْحابه .

وجاء الخبر إلى القاهرة مع نجّابين فخلع عليهم وأركبوا ، وأشيع بأن السّلطان نصره الله ، وأنّ الفرنج كسروا وغلبوا . فركبت لأسمع حديث النجّابين وكيْف نصر الله المسلمين ، وإذا [هُم][1] يقولون : أبْشروا فإن السلطان وأهله سالمون ، وإنّهم واصلون غانمون . فقُلت لرفيقى ما نُبْشر بسلامة السّلطان إلّا وقد تمّت كسرة ، وما ثمّ سوى سلامته نُصرة .

ولما قرب خرجنا لتلقّيه ، وشكرنا الله على مايسره من ترقيه وتوقّيه . ودخل القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر ، ونابت سلامتُه مناب الدّهر ، وسيرْنا بها البشائر ، وأنهضنا ببطاقاتها الطائر ، لإخراس ألسنة الأراجيف ، وإبدال التأمين من التخويف ، فقد كانت نوَبَتُها هائلة ، ووقعتها غائلة .

وقال القاضى ابن شدّاد[2] : خرج السلطان يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرّملة ، وذلك (٢١٥ ا) فى أوائل جمادى الأولى ، وكان[3] مقدم الفرنج البرنس أرناط ، وكان قد بيع بحلب فإنه كان أسيراً بها من زمَن نور الدين رحمه الله تعالى ؛ وجرى خللٌ فى ذلك اليوم على المسلمين . ولقد حكى السلطان ، قدّس الله روحه ، صورة الكسرة فى ذلك اليوم ، وذلك أنّ المسْلمين كانوا قد تَعَبّوْا تعبئة الحرب ، فلما قارَب العدوّ رأى بعض

---

(١) مابين الحاصرتين من ل ٢١٨ ب .
(٢) فى النوادر السلطانية : ٤٢-٤٣ . وهو اقتباس حرفى .
(٣) يسبق هذه الفقرة فى النوادر عنوان : « ذكر كسرة الرملة » .

الجماعة أن تغير الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهة القلب[1] ، ليكونَ حالَ اللقاء وراء ظهرهم تلٌّ معروف بأرض الرّملة[2] . فبينما اشتغلوا بهذه التعبئة هجم الفرنج ، وقدّر الله كسرهم ، فانكسرُوا كسرةً عظيمة ؛ ولمْ يكن لهم حصن قريب يأوُون إليه ، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا فى الطريق وتبددُوا ، وأُسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى . وكان وَهَناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة ؛ ولله الحمد .

قلت : وذلك بعد عشر سنين ؛ فكسرة الرّملة هذه كانت فى سنة ثلاث وسبعين ، وكسرة حطين كانت فى سنة ثلاث وثمانين .

قال العماد الكاتب : وحيث كانت للملك المظفر تقى الدين فى هذه الغزوة اليد البيضاء ، أنشدته قصيدة ، منها[3] :

سقى الله العراق وساكنيه ... وحيّاه حياً الغيث الهتُون
وجيراناً أمِنْت الجور منهم ... وما فيهم سوَى وافٍ أمين
صفَوْا والدّهر ذو كدَرٍ ، وقِدْماً ... وفَوْا بالعهد فى الزمن الخئون
بنو أيوّب زانوا الملك منهم ... بحليةِ سؤددٍ وتُقًى ودين
ملوكٌ أصبحوا خيرَ البرايا ... لخيرْ رعيّةٍ فى خير دين
أسانيد السيادة عن علاهم ... مُعَنْعَنَةٌ مصححةُ المتون
بنو أيوّب مثلُ قريش مجداً ... وأنت لها كأنزعها البطين[4]
أخفت الشرك حتى الذّعر منهم ... يُرى قبل الولادة فى الجنين
ويومَ الرّملة المرهوبَ بأساً ... تركت الشّرك منزعج القطين
وكنتَ لعسكر الإسلام كهفاً ... أوى منه إلى حصن حصين

(١) فى النوادر : أن تغير الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهة الميمنة .

(٢) هوتل الصافية الذى تقدم ذكره فى ص : ٧٠٠ .

(٣) وردت هذه الأبيات أيضا فى مفرج الكروب : ٢ : ٦٢-٦٣ .

(٤) النزع : انحسار الشعر من جانبي الجبهة ، ويقال للرجل أنزع وللمرأة زعراء ، ولا يقال نزعاء . القاموس المحيط . وأنزع قريش : على بن أبى طالب .

وقد عرف الفرنج سطاك لما رأوا آثارها عين اليقـــين
وأنت ثبتّ دون الدّين تحمى حمـــاه أوان ولى كلّ دين

قال : واهتمّ السلطان بعد ذلك بإفاضة الجود ، وتفريق[1] الموجود ، وافتقاد الناس بالنقود ، والسنايا الصادقة الوعود ، وجبر الكسير ، وفك الأسير ، وتوفير العدد ، وتكثير المدد ، وتعويض ما نفق[2] من الدواب ؛ فسلَوا ما نابهم ، ولم يأسوا على ما أصابهم .

قال ابن أبى طىّ : وقال[3] ابن سعدان الحلبىّ يمدح السلطان ، ويذكر ما فعله على عسقلان ، ويهوّن عليه أمر هذه الكسرة ، من قصيدة :

قرّبْت من عسقلانٍ كلّ نائبة باتت تقل بوكاف من الأسل
فاض النجيع عليها وهى مُمْحِلة فأصبحت مرتعا للخيل والإبل
(٢١٥ ب) قل للفرنجيّة الجذلى : رُويدَكم بالثأر أو تخرج الشعرى من الحمل
ترقبوها من الفوار طالعةً خوارق الأرض تمحو رونق الأصل
كأننى بنو اصيهنّ يقدمها كاس من الجود عريان من النجل
حَسْب العدا ياصلاح الدين حسبهم أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسانَ النّحل ملتمسٌ مرّت على أصبعيه لذّة العسل

فصـــل

فى وفاة كمشتكين

وخروج السلطان من مصر بسبب حركة الفرنج

قال العماد[4] : وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبرى الملك الصالح ، واستولى على أمره

(١) فى ل ٢١٩ ا : تفرق .
(٢) فى الأصل ، وكذلك فى ل ٢١٩ ا : وقف .
(٣) فى الأصل : وكان ؛ والمثبت هنا من ل ٢١٩ ا .
(٤) عنوان هذا الفصل فى البرق : « ذكر حادثة العدل ابن العجمى وكمشتكين » .

العـدل ابن العجمى (أبو صالح[1]) . وكان سعد الدّين كمشتكين الخادم مقدم العسكر ، وأمير المعشر ، وهو صاحب حصن حارم ، وقد حسده أمثاله من الأمراء والخدام ، فسلموا لابن العجمى الاستبداد بتدبير الدولة ، فقفز عليـه الاسماعيلية يوم الجمعة بعد الصلاة فى جامع حلب فقتلوه .

واستقلّ كمشتكين بالأمر ، فتـكلم فيه حسّادُه وقالوا للملك الصالح : ما قتل وزيرَك ومُشيرَك ابن العجمى إلاّ كمشتكين فهو الذى حسن ذلك للاسماعيليّـة . وقالوا له : أنت السلطان وكيف يـكون لغيرك حُـكمٌ أو أمر ! فما زالوا به حتى قبض عليه وطالبوه بتسليم قلعة حارم ، وأوقعوا بها لأجله العظائم . فـكتب إلى نوابه بها فنبَوْا وأبَوْا[2] ، فحملوه ووقفوا به تحت القلعة ، وخوّفوه بالصرعة ، فلما طال أمره ، قصر عمره ، واستبدّ الصغار بعده بالأمور الـكبار ، وامتنعت عليه قلعة حارم ، وجرد إليها العزائم . ونزل عليه الفرنج ثم رحلوا بقطيعةٍ بذلها لهم الملك الصالح واستنزل عنها أصحاب كمشتكين وولّى بها مملوكاً لأبيه يقال له سرخك .

وقال ابن الأثير[3] : سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كمشتكين ، فعاقبه ليأمرَ مَنْ بهـا بالتسليم ، فلم يجب إلى ما طلب منه ، فعُلق منـكوساً ودُخن تحت أنفـه فمـات ؛ وعاد الملك الصالح عن حـارم ولم يملـكها . ثم إنه أخـذها بعـد ذلك .

قال ابن شدّاد[4] : أما الملك الصالح فإنه تخبط أمرُه ، وقبض كمشتكين صاحب دولته ، وطلب منه تسليم حارم إليه ، فلم يفعل ، فقتله . ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم ، طمعاً فيها ، وذلك فى جمادى الآخرة ، وقاتل عسكر الملك الصالح العساكر الفرنجية . ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الفرنج [سلموها[5]] إلى الملك الصالح

---

(١) ساقطة من ل ٢١٩ ا .
(٢) فى الأصل : ونبوا فأبوا ؛ والمثبت هنا من ل ٢١٩ ب .
(٣) فى الأتابكة : ٣٢٤–٣٢٥ ؛ بضغط شديد ، ولزوم لحرفية الباقى .
(٤) فى النوادر : ٤٣ ؛ وهو اقتباس حرفى .
(٥) مابين الحاصرتين من ل ٢١٩ ب .

فى العشر الأواخر من شهر رمضان . ولما عرف الفرنج بذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ، ثمّ عاد الصالح إلى حلبَ ، ولم يزلْ أصحابه على اختلاف يميل بعضهم إلى جانب السلطان قدّس الله روحه .

قال العماد[1] : ووصل فى هـذه السنة إلى الساحل من البحر كند كبير يقال له اقلندس[2] ، أ كبر طواغيت الـكفر ، (٢١٦ ا) واعتقد خلو الشام من ناصرى الإسلام . ومن جملة شروط هدنة الفرنج أنهم إذا وصل لهم ملك أو كبير ، مالهم فى دَفعه تدبير ، أنهم يعاونونه ولا يباينونه ، ويحالفونه ولا يخالفونه ، فإذا عادَ عادت الهدنة كما كانت ، وهانت الشدة ولانت . وبحـكم هذا الشرط حشدوا الحشود ، وجنودوا الجنود ، ونزلوا على حماة ، فى العشرين من جمادى الأولى ، وصاحبها ، شهاب الدّين محمود الحارمى ، مريض ، ونائب السلطان بدمشق يومئـذ أخوه الأ كبر تورانشاه ، وهو والأمراء مشغولون بذاتهم . وكان سيف الدين علىّ بن أحمد بن المشطوب بالقرْب ، فدخلها وخرج للحرب ، واجتمع إليها رجال الطعن والضرب ، وجرت ضروبٌ من الحروب ، وكاد الفرنج تهجم البلد فأخرجوهم من الدروب . ونصر الله أهل الإسلام، بعد حصارهم لهم أربعة أيام ، فانهزم الملاعين ونزلوا على حصن حارم ، كما تقدم ذكره ، فرحلهم عنـه الملك الصالح بعد حصاره أربعة أشهر .

ومن كتاب فاضلىّ إلى بغداد : « خرج الـكفّار إلى البلاد الشّاميّة فاسخين لِعَقْـد كان مُحْـكمًا ، غادرين غدْرا صريحًا ، مقدّرين أنْ يُجهزوا على الشّام لما كان بالجـدب جريحا . ونزلُوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادى والعشْرين من جُمادى الأولى ،وزحفوا إليها فى ثانيه فخرج إليهم أصحابنـا . وتضمّن كتاب سيف الدّين ـ يعنى المشطوب ـ أنّ

---

(١) فى البرق يسبق هذا الحديث عنوان : ذكر نزول الفرنج على حماة .

(٢) هو : Philip of Flanders ؛ وكان قد قدمَ للتعاون مع Manuel Comnenus امبراطور بيزنطة ، وأصحاب الإمارات اللاتينية ، فى مهاجمة مصر . وفشل هـذا الهجوم كفكرة بسبب النزاع حول الوصاية على ملك القدس الطفل Baldwin V ، فتحولت الحملة بعـد انصراف البيزنطيين عنها إلى هجوم على حماة ، ثم على حارم . انظر : The Crusaders in the East, pp. 214—216 .

القتلى من الفرنج تزيد على ألف رجل ما بين فارس وراجل ، شفى الله منهم الصُّدور ورزق عليهم النصر والظهور . ثم انصرفوا مجموعا لهم بين تنكيس الصُّلُب وتحطيم الأصلاب ، مفرّقة أحزابهم عن المدينة المحروسة كما افترقت عن المدينة الشّريفة النّبويّة الأحزاب » .

قال العماد: وتسامعَ الحلبيُّون بيوْم رحيلنا مِنْ مصْر لقصْد الشّام، لنُصْرة الإسلام[1]، وقالوا: أوّلُ ما يصل صلاح الدّين نسلم حارم . فراسلُوا الفرنج وقاربوهم ، وأرغبوهم وأرهبُوهم ، وقالُوا لهم صلاح الدّين وَاصِل ، ومالكُم بعد حصوله عندكم حاصل . فرحل الفرنج بقَطيعة من المال أخذوها ، وعدّة من الأسارى خلّصوها .

ثم[2] تُوفّى خال السُّلطان شهاب الدّين محمود بن تكش الحارمى ، فى جمادى الآخرة[3] ، وتوفى ولده تكش ، ابن خال السُّلطان ، قَبله بثلاثة أيّام وذلك أوان وقعة الرّملة .

ولمّا سمع السُّلطان بنزُول الفرنج على حارم رحل من البِرْكة[4] يوم عيد الفطر بعساكره ، ووصل أيلة فى عاشر الشّهر ، واستناب بمصر أخاه العادل ؛ وأقام بها أيضا القاضى الفاضل بنيّة الحج فى السنة القابلة . ووصل السُّلطان إلى دمشق فى الرابع والعشرين من شوّال . ومما نظمه العماد فى التّشْويق إلى مصر قوله :

ساكنى مصرَ ، هناكُمْ طيبُها ... إنّ عيْشى بَعدكمْ لَمْ يطب
(٢١٦ب) لا عدمْتُم راحةً من قُربها ... فأنا من بُعدها فى تَعب
بَعُدَ العَهْد بأخباركم ... فابْعثوا أخبارَكمْ فى الكتب
ليْت مصراً عرفَت أنّى وإنْ ... غبْتُ عنها فالْهَوى لم يغب

---

(١) فى الأصل : ونصرة الإسلام .

(٢) يسبق هذا فى البرق عنوان طويل نصه : « ذكر وفاة شهاب الدين محمود بن تكش خال السلطان وصهره ، وولده تكش ، ابن خال السلطان » .

(٣) فى الحادى عشر منه ، كما جاء فى البرق .

(٤) المقصود بها بركة الجب ، وهى المكان الذى كانت تتجمع فيه الجنود المصرية قبيل خروجها إلى الشام .

ومن ذلك (قوله)[1] :

تذكرت في جاَّقٍ دارَكم بمصر ، ويا بُعْد ما بيننا
وما أتمنّى سوى قُربكم وذلك والله كلُّ المــنى
لكم بالجنان وطيب المقام وحسن النّعيم بمصر الهنا

ومن ذلك (أيضا)[1] :

ياساكني مصر ، قد فقتم بفضلكم ذوى الفضائل مِنْ سكّان أمصــار
لله درّكمُ من عُصْبــة كرُمت ودرُّ مصرِكُمُ الغنّاء مِنْ دار

ومن ذلك (أيضا)[1] :

يا حبّــذا مصرٌ وبِرْ كتُهــا وصدْرٌ والعَريش
فهنــاك أملاكى الّذيـ نَ سَمَتْ بعــزّهمُ العُروش

قال : ووصل كتاب من الفاضل يذكر فيه أنّ العدوّ ، خذله الله تعالى نهض [ووصل][2] إلى صدر ، وقاتَل القلعة ولم يتمّ له أمر ، فصرف الله شره وكفى أمره .

ووصل من الفرنج مستأمن وذكر أنّهم يريدُون الغارة على فاقوس ، فاستقلّوا أنفسهم وعرّجوا ، وذكر أنّهم مضَوْا بنية تجديد الحشد ، ومعاودة القصد .

قال : وأمّا نوبة العدوّ في الرّملة فقد كانت عثرةً ، علينا ظاهرُها ، وعلى الكفّار باطنها ، ولزِمَنا ما نُسى[3] من اسمها ، ولزمهم ما بقى من عزمها ؛ ولا دليل أدلّ على القوّة من المسير بعْد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشّام ، نخوضُ بلاد الفرنج بالقوافل الثّقيلة ، والحشود الكبيرة ، والحريم المسْتور ، والمال العظيم الموفور .

قال العماد : ولمّا دخَلْنا دمشْق وجَدْنا رُسُل دار الخلافة ، قد وصلوا بأسباب العاطفة والرأفة ؛ وكان حينئذ صاحبَ المخزن ظهير الدّين أبو بكر منصور بن نصْر العطّار ، وهو من ذوى الأخطار ، وله التحكم في الإيراد والإصدار ، وقد توفّر على محبّة السّلطان وتربية رجائه ، وتلْبية دعائه . ووصل كتابهُ ورسوله بكلّ ما سَرّ السّرائر ، ونوّر البصائر .

(١) مابين القوسين ساقط من نسخة ل .
(٢) مابين الحاصرتين من ل ٢٢٠ ب .
(٣) في الأصل : مالزم . والمثبت هنا من ل ٢٢٠ ب .

فصل

فى ذكر أولاد السلطان

قال العماد : وفى هذه السنة وُلد بمصر للسلطان ابنهُ أبو سليمان داود(١) .

وكتب الفاضل إلى السلطان يهنئه به ويقول : « إنه وُلد لِسَبْعٍ بقينَ من ذى القعدة . وهذا الولدُ المُبارك هو المُوفِى لاثنى عشر ولداً ، بل لاثنىْ عشَرَ نجمًا متوقدا، فقدْ زاد الله فى أنجمه على أنجم يوسف عليه السلام نجمًا ، ورآهم المولى يقظة ورأى تلك الأنجم حلما ، ورآهم ساجدين له ، ورأينا الخلق له سجوداً (٢) ، وهو قادرٌ سبحانه أن يزيد جُدُود المولى إلى أن يراهم أباءً وجدوداً » .

قال العماد : وكنت فى بعض الليالى عند السلطان فى آخر عهْده (٣) ، وجرى ذكر أوْلاده ، واعْتِضادِه بهم واعتداده ؛ فقلت له : لوْ عرفتُ أيّام مواليدهم فى أعوامها لأنشأتُ رسالةً على نظامها . فذكر لى ما أثبته على ترتيب أسنانهم [وماصورتُه](٤) :

« الملك الأفضل نور الدّين أبو الحسن علىّ ؛ وُلد بمصر (١٢١٧) ليلة عيد الفطر (٥) عند العصْر سنة خمس وستّين وخمسمائة .

العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدّين ؛ وُلد بمصر ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين .

---

(١) فى الساعة الرابعة ليلة الأحد الثالث والعشرين من ذى القعدة ، كما جاء فى البرق ، وكتاب القاضى الفاضل بعد هذا يؤكد التاريخ المذكور .

(٢) إشارة إلى قصة رؤيا يوسف عليه السلام وقد سجلها القرآن الكريم فى قوله تعالى : « إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ » .

(٣) وذلك سنة ٥٨٨ عند القدس ، كما جاء فى البرق الشامى .

(٤) مابين الحاصرتين من ل ٢٢٠ ب . وقد ورد هذا الإحصاء أيضا فى مفرج الكروب ٢ : ٤٢٣–٤٢٦ ، بترتيب يختلف عن هذا الترتيب .

(٥) فى مفرج الكروب : ٢ : ٤٢٣ : يوم عيد الفطر .

الظّافر أبو العبّاس خضر مظفّر الدِّين ؛ ولد بمصْر فى خامس شعبان سنة ثمان وستّين، [وهو أخو الأفضل لأبويه][1] .

الظّاهر أبو منصور غازى غياث الدِّين ؛ ولد بمصر منتصف رمضان سنة ثمان وستّين.

المعزّ أبو يعقُوب إسْحاق فتح الدِّين ؛ وُلد بمصر فى ربيع الأوّل سنة سبعين .

المؤيّد أبو الفتح مسعود نجم الدِّين ؛ وُلد بدمشْق فى ربيع الأوّل سنة إحدى وسبعين ، وهو أخو العزيز لأبويه :

الأعزّ أبو يوسف يعقوب شرف الدِّين؛ وُلد بمصر فى ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين، لأم العزيز [2] .

الزّاهر أبو سلَيْمان داود مجير الدِّين ؛ ولد بمصر فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين ، لأم الظّاهر [3] .

المفضّل أبو موسى قطب الدِّين ، ثم نعت بالمظفّر ؛ ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين . وهو أخو الأفضل لأمّه [4] .

الأشرف أبو عبد الله محمّد عزيز الدِّين [5] ؛ وُلد بالشّام سنة خمس وسبعين وخمسمائة

المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدِّين[6] ؛ وُلد بمصر فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين ، وهو لأم الأشرف .

المعظّم أبو منصور تورانشاه فخر الدِّين ؛ ولد بمصر فى ربيع الأوّل سنة سبع وسبعين أيضا . قلت : ومات سنة ثمان وخمسين وهى السّنة الّتى أخرب العدوّ من التتار ، خذلهم الله تعالى ، فيها مدينة حلب وغيرها ، والله أعلم .

---

(١) ما بين الحاصرتين من ل ٢٢١ ا . وفى هامش الأصل مقابل هذا عبارة نصها : وقيل أبو الفتح وأبو المظفر .

(٢) فى ل ٢٢١ ا : وهو أخو العزيز لأمه .

(٣) فى ل ٢٢١ ا : وهو أخو الظاهر لأمه .

(٤) فى الأصل : لأم الفضل ؛ والمثبت هنا من ل ٢٢١ ا ، وهو الأصح إذ ليس بين هؤلاء الإخوة من لقبه الفضل : قارن مفرج الكروب ، وكذلك البرق .

(٥) فى مفرج الكروب : ٢ : ٤٢٥ : نصير الدين .

(٦) فى مفرج الكروب : يمين الدين .

الجواد أبو سعيد أيّوب ركن الدّين ؛ ولد فى ربيع الأوّل سنة ثمان وسبعين ، وهو لأم المعزّ .

الغالب أبو الفتح ملكشاه نصر الدّين ؛ مولده بالشّام فى رجب سنة ثمان وسبعين ، وهو لأم المعظم .

المنصور أبو بكر ، وهو أيضا أخو المعظّم لأبويه ، ولد بحرّان بعد وفاة السُّلطان .

قلت : فهذه خمسة عشر ولداً ذكرهم العماد فى هذا الموضع .

وقال فى آخر كتاب الفتح القُدسى [1] ، على ما سنذكره فى آخر هذا الكتاب : لما توفّى خلّف سبعةَ عشَر ولداً وابنةً صغيرة . فقد فاته هنا ذكر اثنين ، وهما عماد الدّين شاذى ، لأم ولد ، ونُصرة الدين مروان ، لأم ولد . وأمّا البنت فهى مؤنسة خاتون ، تزوّجها الملك الكامل محمّد ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى [2] ، وهو ابن عمّها الملك العادل أبى بكر بن أيوب .

وللسّلطان غير هؤلاء الأولاد ممن درج فى حياته ، كالملك المنصور حسن ، وسيأتى ذكر وفاته ؛ والأمير أحمد وهو الذى رثاه العرقلة بقوله :

أىّ هــلال كُسفا   وأىّ غصنٍ قصفـا
كان سراجاً قد طفـا   على الورى ، ثمّ انطفا
لم يركب الخيل ، ولم   يقلدوه مرهفـاً
(٢١٧ب) قل للنحاة : ويحكم   أحمدُ كم قـدْ صُرفا
صبراً صلاح الدين يا   ربَّ السماحِ والوَفـا

قال العماد : وورد من الفاضل كتاب تاريخه منتصف ذى الحجة سنة ثلاث وسبعين ذكر فيه فصولا متعددة . منها : « للمولى أولادٌ وقد صاروا رجالًا ، ويجب أن تستجدّ

(١) ص : ٤٥٦ .
(٢) أمام هذا فى هامش الأصل وردت العبارة الآتية : حاشية : فى سنة ست وتسعين وخمسمائة عندما ملكه أبوه مصر بعد قطع خطبة المنصور بن العزيز بن صلاح الدين .

للقلاع رجالا ، كما فعل السابقون أعماراً وأعمالا ، وقيل : القلاع أنوفٌ من حلّها شمخ بها . * ما فى الرّجال على النساء أمين * » .

ومنها أبيات فى ذكر السلام :

مملوك مولانا ، ومملوكُ ابنه | وأخيه ، وابن أخيه ، والجيران[1]
طىّ الكتاب إليه منه[2] إجابة | لسلام مولانا ابنه عثمان
والله قد ذكر السلام وأنه | يجزى بأحسن منه فى القرآن
وغريبة قد جئتُ فيها أوّلا | ومن اقتفاها كان بعدى الثانى
فرسولىَ السلطان فى إرسالها | والناس رسلهم إلى السّلطان

قلت ووصف الفاضل الملك المؤيد فى كتاب آخر فقال : « وقد تمطّت به السنّ وامتدّت ، وتأهّبت السّعادة لخطبته واعتدّت ، ولاحظته العيون بالوقار وطرفت دون جلالته وارتدت » .

وفى بعض كتب الفاضل عن السلطان إلى ولده الأفضل : إعزازه لأهل الفضل دليلٌ على فضله ، وأنّ الأولى أن تكون كتب الأدب عند أهله . وما أبهجنا إذْ جال فى فضاء الفضائل ، وخطب من أبكار المعانى كرائم العقائل ، وآخى بين السيف والقلم ، وصار فى موكبه العِلْمُ والعَلَم » .

ومن كتاب آخر فى المعنى : « فلقد زادت هذه المنقَبة فى مناقبه ، ونظمت عقود سؤدد فى ترائبه .

فما ترجم الإنسان عن سرّ فضله | بأفضل من تقريبه لأولى الفضل

قال العماد : وخرج السلطان للصيد فى ذى الحجة نحو قارا ، فشكوت ضرسى ،

---

(١) ابنه العزيز عثمان ، وأخوه العادل سيف الدين أبو بكر ، وابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه ؛ وكلّ ناب عن صلاح الدين فى مصر فى مناسبات مختلفة ، وكان القاضى الفاضل معهم جميعا أزمان نيابتهم يدبر أمور مصر بحكمة ودهاء ، بتأييد من صلاح الدين .

(٢) فى الأصل : منه إليه ، وبه يختل وزن البيت .

وعـدمت أنسى ، فرجمت مع عزّ الدين فرخشاه لحمّى عرته ، فشكا منها ، ألّا تزور إلاّ نهاراً جهاراً ، ولا تفارق بعرق ، بالضد من الحمّى التى وصفها أبو الطيب المتنبى[1] . فنظمت فيه كلمة طويلة أوّلها :

يمينك دأبهـا بذلُ اليَسار وكفّك صوبهـا بدَر النّطار[2]
وإنك من ملوك الأرض طُرّا بمنزلة اليمين مِنَ اليسار
وأنت البحر فى بث العطايا وأنت الطود فى بادى الوقار

ومنها فى وصف الحمى :

وزائرة وليس بهـا حيـاء فليْسَ تزور إلّا فى النهار
(١٢١٨) ولو رهبت لدى الإقـدام جورى لمـا رغبت جهاراً فى جوارى
أتت والقلب فى وهج اشتياق ليظهر ماأُوَارِى من أُوَارى
ولو عرفت لظى سطواتِ عزمى لكانت من سُطَاى على حذار
تقيمُ ، لحين تُبصر مِن أناتى ثبات الطود تُسرع فى الفرار
تفارقنى على غير اغتسـال فلم أحلُل لزَورتهـا إزارى
أيا شمس الملوك ، بقيت شمساً تنير على الممالك والدّيار
أحمّاك[3] استعارت لفح نار لعزمك لم تزل ذات استعـار

---

(١) فى قصيدته التى أولها :

ملومكما يجلُّ عن الملام ووقع فعاله فوق الكلام

وفيها عن الحمى وموعد زيارتها ، وهو ماأشار إليه العماد هنا :

وزائرتى كأن بها حياء فليس تزور إلّا فى الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا فعافتها ، وباتت فى عظامى

(٢) هكذا فى الأصل وكذلك فى ل . ولعلها : النضار .
(٣) فى الأصل : أخلاى ؟ والمثبت هنا من ل ٢٢٢ أ .

فصـــــل

قال العماد : وفى العشر الأوّل من ذى القعدة قتل عضد الدّين بن رئيس الرّؤساء [1] ، وزير الخليفة ببغداد ، على أيدى الملاحدة . وكان قد توجه إلى الحج ، فوقف له فى مضيق قطفتا [2] ، غربىّ دجلة ، كهلٌ فى يده قصّة يزعم أنه يريد رفعها إلى الوزير من يده إلى يده ؛ فأومأ ليوصل قصته، فانتهز فيه فرصته ، فقتله ؛ وبَدَر كمال الدين أبو الفضل بن الوزير فقتل قاتل أبيه بسيفه . وكان مع ذلك الجاهل الملحد رفيقان له ، فجرح أحـدهما صاحب الباب ابن المعوج فمات ، وجرح آخر ولد قاضى القضاة ، وقُطع الملاحدة وأحرقوا . واستقلّ ظهير الدين أبو بكر [منصور] [3] بن نصر المعروف بابن العطّار صاحب المخزن بالدولة ، وكان للسلطان خدنا مصافيا .

قلت . وابن العطّار هذا هو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد ، كما سيأتى ذكره فى آخر حوادث سنة خمس وسبعين .

قال ابن الأثير [4] : وكنت حينئذ ببغداد عازما على الحجّ ، فعـبر عضد الدّين دجلة فى شبارة ، فلما ركب دابته والناس معه ما بين راكب وراجل ، تقدم إليه بعض العامة ليدعو له ، فمنعه أصحابه ، فزجرهم وأمرهم ألا يمنعوا أحداً عنه ؛ فتقدم إليه الباطنيّة فقتلوه بالجانب الغربىّ وقُتـل الباطنية وأحرقوا ، وحُمل من موضعه إلى دار له بقطفتا فى الجانب الغربى فتوفى بها .

قال العماد : ووردت مطالعة الفاضل إلى السلطان تتضمن التوجع لقتــل الوزير

(١) عضد الدين ، أو عضد الدولة ، أبو الفرج محمد بن أبى الفتوح عبد الله بن رئيس الرؤساء ، وكان قبل ذلك فى خدمة الخليفة المستنجد شاغلا منصب أستاذ الدار . انظر النجوم الزاهرة : ٦ : ٨١ ؛ وكذلك الفخرى لابن الطقطقى ، وغيرهما .

(٢) محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربى من بغداد مشرفة على نهر عيسى ، بينها وبين دجلة أقل من ميل : معجم البلدان : ٧ : ١٢٥ .

(٣) مابين الحاصرتين من ل ٢٢٢ ا . وهو منصور بن نصر بن الحسين ظهير الدين صاحب المخزن ونائب الوزارة . قبض عليه الخليفة الناصر وصادره وصادر أصحابه وكتابه وأجزى عليه العقوبة حتى مات. انظر النجوم الزاهرة : ٦ : ٨١-٨٦ ؛ وكذلك الفخرى لابن الطقطقى ، وغيرهما .

(٤) فى الأتابكة : ٣٢٧ ؛ وهو اقتباس حرفى .

عضد الدين ، وفيها : « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١) » ، فقد كان عفا الله عنه قتل ولَدَىْ الوزير ابن هبيرة وأزهق أنفسهما وجماعة لا تحصى :

مَنْ يَرَ يوماً يُرَ بِهْ(٢) والدهر لا يغــترّ بِهْ

وهذا البيت بيت ابن المسلمة عريق فى القتل، وجدّه هو المقتول بيد اليساسيرى فى وقت إخراج الخليفة القائم فى أيام الملقب بالمستنصر بمصر(٣) ، فهو من ذرّية لم تزل قاتلة مقتولة ، وما زالت السيوف عليها ومنها مسلولة ؛ فهم فى هذه (٢١٨ ب) الحادثة المسمعة المصِمّة كما قال دريد :

* أبى الموت إلا آل صمه *

والأبيات المولى يحفظها ، وهى فى الحماسة ، وقد ختمت له السعادة بما ختمت به له الشّهادة ، لا سيما وهو خارج من بيته إلى بيت الله . قال الله سبحانه : « وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ (٤) » .

إنّ المساءة قد تسرّ وربمـا كان السرور بما كرهت جديرا
إنّ الوزير وزير آل محمـد أوْدَى فمن يشناك كان وزيرا

وهذان البيتان قيلا فى أبى سلمة الخلال أول وزير لبنى العبّاس . .

قلت : وبلغنى أنّ الفاضل كان ينشد :

وأحسنُ من نيـل الوزارة للفتى حيــــاة تريه مصرع الوزراء

قال العماد : وكان ضياء الدين بن الشَّهْرَزَوْرِى قد سار فى الرّسالة إلى بغداد وتوقّف

---

(١) سورة فصلت : آية : ٤٦ .

(٢) فى ل ٢٢٢ ب : من يسر يربه .

(٣) فى مقابل هذا فى الأصل تعليقة نصها : « حاشية : قال المؤلف : ذكر أبو الفضل محمد بن عبدالملك الهمدانى فى تاريخه المذيل أن البساسيرى حبس رئيس الرؤساء ، وزير الخليفة ، ثم أخرجه وعليه جبة صوف وطرطور من لبد أحمر وفى رقبته مخنقة جلود وهو يقرأ : قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ . . الآية ، ويرددها . وطيف به على جمل فى هذه الحال، ثم نصب له خشبة بباب خراسان ، ثم حط عن الجمل وخيط عليه جلد ثور سلخ فى الحال وعلق فى فكيه كلابان من حديد ، واستبقى فى الخشبة حيا ، ولبث إلى آخر النهار يضطرب ثم مات . والله أعلم » .

(١) سورة النساء : آية : ١٠٠ .

فى الموصل لحادثة الوزير ؛ ووافق وصوله إلى الموصل وفاة ابن عمه القاضى عماد الدين أحمد ابن القاضى كمال الدين بن الشهرزورى ، وكان شابًّا . وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك وفيه :

« يُدلّى ابن عشرين فى لحده وتسعون صاحبها راتع

اغتَبط الولد مع نضارة الشباب المقتبل ، وعُمّر الوالد مع ذبول المشيب المشتمل .

ليُعْلم أن الشّيب ليس بمُسلم وأن الشباب الغضّ ليس بمانع

وليكون العبد حذِراً من بغتات الآجال ، فى كلّ الأحوال . والله يطيل للمولى العمر ، كما أطال له فى القدر ، [ونسمع منه ولا نسمع فيه ، ويبقيه سنداً اللدّين الحنيفىّ فإن بقاءه يكفيه[1] » .]



كمل طبع الجزء الأول من كتاب الروضتين ، ويتبعه ، إن شاء الله ، الجزء الثانى ، وأوله : « ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة » :

(١) ما بين الحاصرتين من ل ٢٢٢ ب وهو ساقط من الأصل .

ورد فى نهاية نسخة الأصل ، وهى نسخة مكتبة كوپنهاجن ، العبارة الآتية :

« آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه ، الذى هو بخط المؤلف رحمه الله تعالى ؛ يتلوه إن شاء الله تعالى فى الجزء الثانى :

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة : قال العماد : وكان شمس الدين بن المقدم من أكابر الأمراء . . . » .

ثم وردت العبارة التالية :

« ووافق الفراغ منه فى سابع شهر ذى الحجة من سنة ست وسبعين وستمائة ؛ غفر الله تعالى لمؤلفه ، وكاتبه، وصاحبه ، والمنتفع به ، والمطلع عليه ، وجميع المسلمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم » .

* * *

وورد فى نهاية نسخة القاهرة ، وهى النسخة المساعدة الرئيسية ، عبارات متتابعة نصوصها :

١ — « وهذا آخر الجزء الأول من كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، يتلوه إن شاء الله تعالى فى الجزء الثانى :

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة : قال العماد : وكان شمس الدين بن المقدم من أكابر الأمراء . . . » .

٢ — « ووافق الفراغ من نسخه يوم الأربعاء ثالث عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، على يد أضعف الخلق وأحوجهم إلى عفو الله ، أحمد بن العلم

ابن عبد الله ، غفر الله له ، ولوالديه ، ولسائر المسلمين . والحمد لله رب العالمين ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه الطيبين الطاهرين وسلم تسليما » .

٣ — « شاهدت على نسخة الأصل المنقول منها هـذه النسخة ، وهى جميعها بخط قاضى القضاة نجم الدين المصرى الشافعى ، رحمه الله ، ماصورته ، يقول : شاهدت على آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه هـذه النسخة ، بخط المؤلف ، فى آخر المجلدة الأولى من كتاب الروضتين : فرغ منها مصنفها نسخا فى حادى عشر شهر رمضان المبارك ، سنة إحدى وخمسين وستّمائة ، واشتملت هـذه النسخة المبيضة على زيادات كثيرة فاتت النسخ المتقدمة على هذا التاريخ المنقولة من المسودة . وكل ما ينقل من هذه النسخة هو الأصل الذى يعتمد عليه ويركن إليـه . كتبه عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعى ، مصنفه ، عفا الله عنه » .

٤ — « وشاهدت عليه ماصورته مختصرا : سمع جميع هـذا المجلد على مؤلفه ، الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعى ، ولده محيى الدين أبو الهدى أحمد، وشهاب الدين أبو العباس أحمد بن فرح الإشبيلى ، وزين الدين على بن أحمد بن يوسف القُرطبى ، وشمس الدين اسماعيل بن أحمد بن ابراهيم المالكى، وابنه محمد، وعفيف الدين محمد بن أبى بكر بن ابراهيم المؤذن الشاغورى، ومحمد بن عبدالرحمن بن عبد الله الكنجى. وسمع آخرون بفوات عينوا فى الأصل، وصح ذلك بقراءة يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعى ، فى مجالس آخرها ثامن محرم سنة أربع وستين وستمائة بدار الحديث الأشرفية. كتبه قارئه يوسف بن محمد، حامداً الله مصليا على نبيه ومسلما . نقل ذلك كله مختصرا أحمد بن صصرى التغلبى الشافعى ، غفر الله له » .

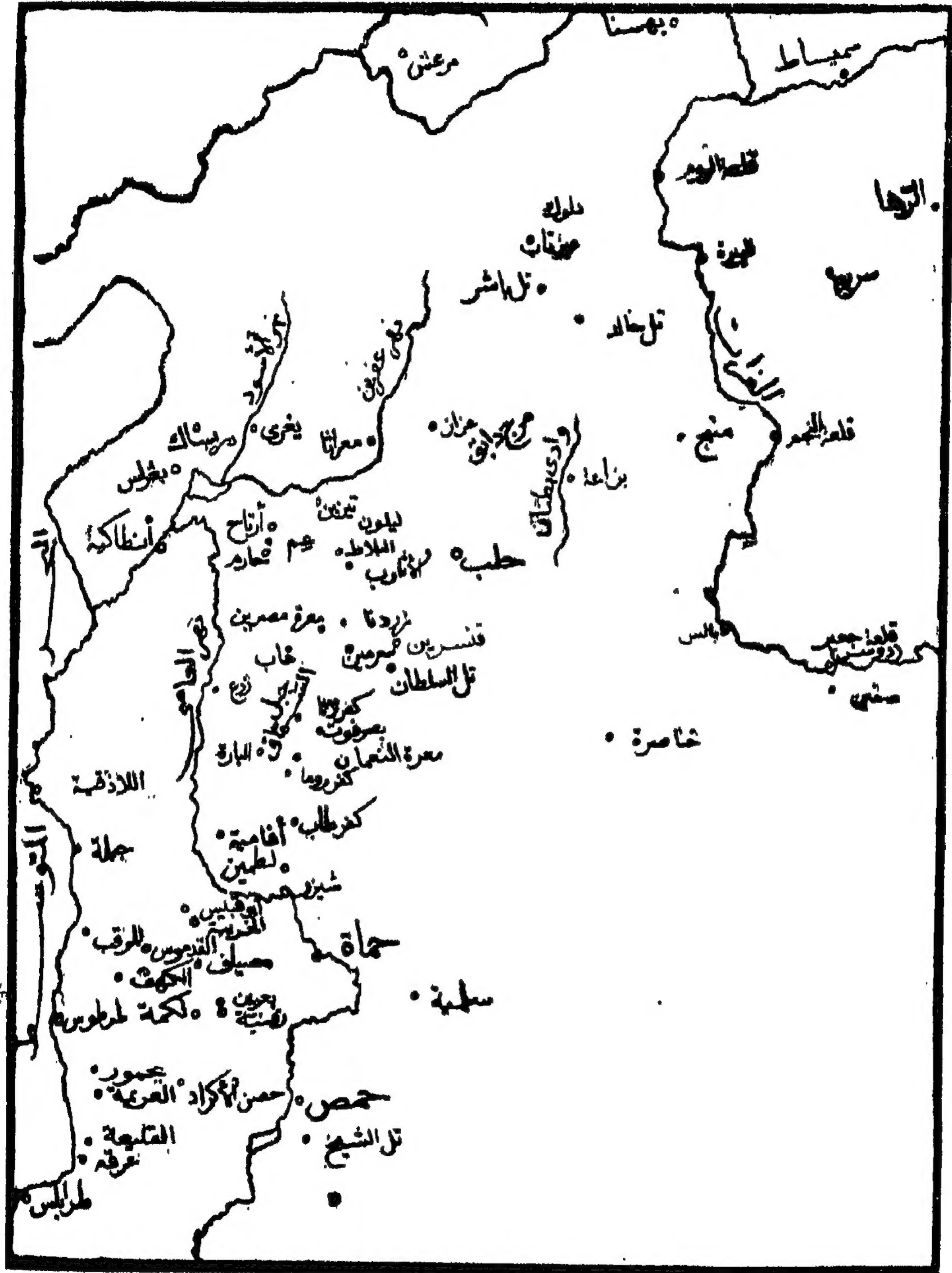
٥ — « وشاهدت عليـه أيضا بخطه ماصورته مختصرا : قرأ علىّ هـذه المجلدة جميعها الإمام الفاضل مجد الدين محمد بن أحمد بن عمر الإربلى ، فسمعه بقراءته شهاب

الدين أحمد بن الإمام زين الدين أبى زكريا يحيى الحضرمى ، وآخرون بفوات ذكروا فى الأصل . وفرغ من ذلك كله يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة فى أربعة عشر مجلسا . كتبه مصنفه عبد الرحمن بن اسماعيل ابن ابراهيم الشافعى عفا الله عنه » .

***

وهذه العبارات الخمس وردت بنصها فى نسخة مكتبة ليدن التى تتفق مع نسخة القاهرة فى جميع تفصيلاتها ، إذ أنّ ناسخهما واحد ، ولا خلاف بينهما إلّا فى العبارة الثانية الخاصة بتاريخ النسخ ، إذ ورد فى مخطوطة ليدن :

« . . . ضحى نهار الجمعة السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم ، سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة . . . » .



القسم الشمالى من بلاد الشام

القسم الجنوبي من بلاد الشام

KITĀB
AL-RAWDATAYN FI AḪBĀR
AL-DAWLATAYN
AL-NŪRIYYA WAL-ṢALĀHIYYA